عزيز نيسين



الطريق الوحيد

ترجمة: عبد القادر عبد اللي

الطريق الوحيد

عزيز نيســين

الطريق الوحيد

ترجمة: عبد القادر عبد اللي

الـروايـة

المدى

منشورات

٣٩	المدى	الرواية

اسم المؤلف :عزيز نيسين
عنوان الكتاب :الطريق الوحيد
المترجم :عبد القادر عبداللي
الناشر :دار المدى للثقافة والنشر
الطبعة الأولى :١٩٩٧

Author : Aziz Nessin
Title : The Single Way

Al Mada : Publishing Company
First Published in 1997

دار المدى للثقافة والنشر

سوريا - دمشق صندوق بريد : ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦
تلفون : ٧٧٧٢٠١٩ - ٧٧٧٦٨٦٤ - فاكس : ٧٧٧٣٩٩٢
بيروت - لبنان صندوق بريد : ٣١٨١ - ١١ فاكس : ٤٢٦٢٥٢ - ٩٦١١

Al Mada : Publishing Company F.K.A.
Nicosia - Cyprus , P.O.Box . : 7025
Damascus - Syria , P.O.Box . : 8272 or 7366 . Tel: 7776864 , Fax: 7773992
P.O. Box : 11 - 3181 , Beirut - Lebanon, Fax : 9611- 426252

مدخل

تعرفت ببطل هذه الرواية عام ١٩٥١ في سجن (باشا قبصي) . كان محتالاً ذا سوابق : عمره ينوف على خمسين سنة . لن أقول إنني حكيت عن هذا الرجل بالضبط . حتى إن الرجل الذي حكيت عنه هو ليس ذاك أبداً . ولكن باشازادة المحتال صاحب السوابق الذي تعرفت إليه في السجن شكّل لي المصدر الحي لاستلهام شخصية باشازادة الذي أحكي عنه في الرواية .

وكأكثر المحتالين كان باشازادة حكاء ماهراً . وكأكثر المحتالين أيضاً يحكي وقائع ملفقة كأنها وقعت له في الحقيقة . وما يلقى الإعجاب الشديد مما يحكيه ، يعمل عليه بالتكرار والتفنن بالروي ، وبالإضافة والتغيير كما يعمل الكاتب على مسودة عمله ليخرج في النهاية بعد عمل طويل بشكله النهائي . ولكثرة مايكرر أكثر حكاياته تأثيراً ، يُصدِّق ما لفقه هو من كذب . ولأنه يصدق هو أولاً ما يحكيه من تلفيقات كاذبة فتصبح هذه الحكايات مقنعة ومؤثرة ، ويجعل السامع أيضاً مصدقاً لها . كما يعتبر الشرط الأساسي للكاتب الجيد أن يقنع القارئ بأن ما رواه حقيقة...

بعد زمن طويل على تعارفنا ، قال لي إنه لم يعد يميّز بين ما وقع له فعلاً ، وما لفقه . أي أنه ضاع بين كذبه ، واستهلك نفسه . بالنسبة للبعض ، فإن شخصيته الانسانية ، وأبويه وطفولته وذكرياته كلها تلفيق ، ولكنه قال لي إن سيرة حياته الذاتية التي لفقها أصبحت كأنها حقيقة حتى بالنسبة له .

ولكن الصحيح أيضاً أن الإنسان مهما لفّق من كذب ، فلا بد أنه مضطر لنقل أحلامه ، وتصوراته ، وتوقه ، وآماله ، أي ينقل نفسه . لا يستطيع الإنسان تلفيق أكاذيب مجردة عنه تماماً . لهذا السبب فإن كل كذبة تحمل جانباً من حقيقة الكاذب . وباشازادة أيضاً يحكي عن نفسه فيما يلفقه من كذب على أنه جرى له .

لاينكر باشازادة أية عملية احتيال أو سرقة قام بها .لأنه على مدى كل هذه السنين دخل سجوناً وخرج من أخرى ، حتى وصل إلى وضع لا يستطيع فيه إنكار ذنوبه . دع إنكارها جانباً . بل عندما يحكي عنها يزيد ، ويميد ، ويبالغ ويخترع ذنوباً . أنا أرى أنه لهذا السبب صار فناناً في الإحتيال .

إنه يختلف بالمبالغة واختراع الذنوب عن أصحاب السوابق المشاهير مثل صياد النساء المعروف خالد الأيوبي الذي يعجب بذنوبه ويعتز بها ، كما يختلف عن الصحفي المزور محمود صايم ، او توفيق المصلقجو . لم يكن باشازادة عندما يحكي عما وقع له من بلاوي مثل الآخرين يبرر لنفسه قائلاً : «ما الذي يطلع بيدي... المكتوب على الجبين لازم تراه العين . . » . إنه ابتدع مبرراً أنجح من أجل إسكات ضميره عند ارتكابه ذنباً ما :

- بقي طريق واحد : الاحتيال .
- لم يبق لدي أمل . كنت مضطراً للاحتيال . .
- كانت كافة الطرق مغلقة في وجهي ، بقي أمامي طريق واحد .

لهذا السبب سميت هذه الرواية «الطريق الوحيد» ، وأردت كتابة رواية «الذين لا حيلة لهم» أو «من يظنون أن لا حيلة لهم» .

لي صديق صحفي سابق فتح مطعماً على شاطئ البحر في (بندك) . في عام ١٩٦٧ على ما أذكر ، ذهبت بصحبة بعض الأصدقاء الى ذاك المطعم في ليلة من الليالي ، فوجدت باشازادة يعمل هنا رئيس خدم . وكان ببزته السوداء ، وقميصه الأبيض المنشّى ، وربطة عنقه ذات شكل الفراشة ، يشبه دبلوماسياً قضى عمره في موقع متقدم في وزارة الخارجية ، أكثر مما يشبه

رئيس خدم . عندما رآني دب فيه الذعر ، وتوسل إلي لكي لا أخبر صاحب المطعم عن هويته الحقيقية . كان يُطرد من كل عمل يبدأ فيه بعد أن يتعرف صاحب العمل على هويته الحقيقية ، أو تتعرف عليه الشرطة . وقال إنه ملَّ المرمطة ، ولم يعد يريد الدخول إلى السجن بعد كل هذا العمر . قال :

ـ كما ترون ، أنا أعمل على ألا أترك كافة الطرق تغلق في وجهي . لا أريد الذهاب من ذلك الطريق الوحيد الذي بقي مفتوحاً .

هل كان عليَ أن أفضح هوية باشازادة الحقيقية لصاحب المطعم ، أم لا ؟ لوفضحتها ، من المؤكد أنه سينحرف إلى ما أسماه «الطريق الوحيد» ، وسيُقبض عليه مرة أخرى ، ويدخل السجن . وأذا لم أفضحها ، فسيُلقي حجة : «بقي أمامي طريق واحد للخلاص» ، ومن ثم يقوم باحتيال ما ، ويوقع الضرر بصاحب المطعم . كان عليّ أن أوازن بين الخيارين .

أريد إبراز حقيقة أن أصحاب السوابق المليئة حياتهم بالذنوب يشبهون بجانب من جوانبهم الفنانين ، وعلى الأخص الكتاب . ولأنهم دائماً يحكون عن أنفسهم ، وكأنهم آخرون يحكون عن آخرين كأنهم يعملون على إثبات ذاتهم لمحيطهم وعصرهم ، ودنياهم . من خلال كافة الأبطال الذين يخترعونهم ، يريدون قول :

ـ أنا أيضاً موجود! هييـ...ـه ياناس ، وأنا أيضاً أعيش في هذا العالم!

في تلك الليلة حكى لي في المطعم عن نجاحاته الكبيرة في ميدان الطبخ لكي يثبت لي أنه طَبّاخ غير عادي . الحادثة التي شرحها كانت مقرفة جداً .

الحادثة التي حكاها بالأسماء والأمكنة والتواريخ هي : أثناء عمله في أحد مطاعم الفنادق الممتازة ، ذكر اسمه ، طلبت زبونة غنية أجنبية طعاماً نسيتُ اسمه الفرنسي . وفي ساعة متأخرة من الليل كان من غير الممكن تأمين لوازم هذه الأكلة . قال باشازادة إنه يستطيع عمل هذه الأكلة . ثم فرم جواربه السوداء القديمة بسكين المطبخ الى قطع ناعمة ، وأضاف إليها بعض الإضافات الضرورية ، ثم قلاها بالزيت . حكى عن كل التفاصيل بعناية

مدهشة . وقال إنه حضّر الطعام المطلوب ، ووضع بجانبه خضراً رائعة للزينة .

بعد أن أكلت المرأة الأجنبية ذاك الطعام الفرنسي الاسم ، قالت :

ـ أريد رؤية الطباخ لكي أهنئه . لم آكل هذه الأكلة بهذه الجودة قبل هذه المرة...

إنني أعرف بالتأكيد أن هذه الحادثة المقرفة ، والتي تقلب المعدة قد لفقها هناك فوراً . ولكن المهم أنه غاص إلى أدق التفاصيل الضرورية ، والسليمة ، في تلفيقته هذه ، فجعلها أكثر إقناعاً من بعض الحقائق التي تحدث في الحقيقة الحياتية ، مثل كاتب حريف .

بينما كنت أفكر بفضح أو عدم فضح هوية رئيس الخدم ، سألني صاحب المطعم :

ـ أتعرف رئيس الخدم ؟

لم أكن أستطيع قول : «لا أعرفه» لأنه رأى باشازادة يحكي لي أشياء ما بشكل مطوّل .

فسألته أنا :

ـ وأنت هل تعرفه ؟

قال :

ـ بالتأكيد . إنه صاحب سوابق شهير .

ـ ممن عرفت هذا ؟

ـ جاء رجال الشرطة الى هنا وحكوا لي عنه . ولكنه لا يعرف أنني أعرفه .

ـ هل ستطرده من عمله ؟

ـ كيف أطرده ، منذ سنوات لم أجد مثله واحداً فهمان في كل شيء . يعمل طباخاً عندما يتطلب الأمر ، ومديراً أحياناً ، ورئيسَ خدم أيضاً ، وبالشكل الأمثل . . فوق هذا فهو صاحب خبرة حياتية . . وفي الحقيقة إنه يعمل بأجر زهيد .

إن الذي ألهمني هذه الرواية ، وشكّل لي مصدراً لها هو باشازادة هذا نفسه . أن الذي أحكي عنه في هذه الرواية ، أو على الأصح ، إن الذي يحكي عن نفسه هو باشازادة من جهة ، وليس هو من جهة أخرى . حتى إنني أستطيع القول إنني لم استطع أن أحكي عنه أبداً ، ولكن لن استطيع كتابة هذه الرواية لولا معرفتي به .

الحياة المنحرفة بسبب حلوى المعلل

ستدهشون كثيراً . في بعض الأحيان ، أغلط بشخصيتي الحقيقية واسمي الحقيقي . كل هذه السنوات وأنا أعيش بشخصيات مختلفة ، والآن لا أستطيع إيجاد نفسي . أين نفسي الحقيقية ؟ لقد بقيت هويتي الحقيقية في الماضي البعيد ، في الماضي الذي لايمكن لي تذكره... لو ناداني أحدهم من الخلف : « أحمد » ، « أحمد » ، أو « علي » ، أو « ولي » ، أو بأي اسم آخر ، سأظن أنه يناديني وألتفت إليه . لأنني حملت كل هذه الأسماء . هل أنا صفوت بيك رئيس محكمة بداية الجزاء ؟ هل أنا المفتش رضا بيك ؟ هل أنا المتعهد وهبي بيك ؟ هل أنا مفتش الشرطة إبراهيم فدان ؟ هل أنا الدكتور رشاد طانيار ؟ أم أنني المهندس رفعت قوجا إلي ؟ انني الآن لا أستطيع تعداد الشخصيات المزورة التي تقمصتها .

أنا أؤمن بأن كثيراً من الأشخاص لا يعيشون حياتهم . كثير من الناس يتشاكون قائلين : « أريد أن أعيش حياتي » . مع أنه مهما كان المعاش ، أعجب فيه العائش أم لم يعجب ، فذاك المعاش هو حياة العائش . ولكنني لست هكذا . أنا لم أعش ذاتي منذ سنوات طويلة . عشت دائماً بشخصيات الآخرين . ذاتي ، ذاتي الحقيقية غير موجودة . صرت لا استطيع إيجاد نفسي . لعل هويتي الحقيقية هي : إنسان لم يستطع تشكيل نفسه ، ويعيش بنفوس اخرى غير موجودة .

إن أتفه الأشياء ، وأقل الأحداث أهمية يمكن أن تغير حياة إنسان بشكل غير متوقع . إن حياتنا التي تغيّر اتجاهها فجأة ، تحرفنا عن طريقنا أيضاً . لنفرض أننا تعثّرنا بحجر ، أو سقطنا في رومة ماء أثناء سيرنا في الطريق . تمر علينا دقيقة أو دقيقتان بدءاً من سقوطنا حتى نهوضنا وتدليكنا لمكان الألم . ثم نسير بهدوء . نلتقي أحد معارفنا . يصطحبنا إلى مكان ما . نتعرف على فتاة هناك . نتعلق بها . نتزوجها . ماذا تقولون في هذا الأمر ؟ لو لم نتعثر بالحجر ، أو نسقط في حومة الماء . لولم نلته هناك بضع دقائق ، سيكون ذلك الشخص المعرفة قد مر من هناك ، ولم نَلْقَهُ ، ولم نحب تلك الفتاة التي عَرَّفَنا بها ، ولم نتزوج منها . وبدءاً من لحظة تعثرنا بالحجر حتى موعد زواجنا من تلك الفتاة ، معرضة هذه الفترة لكثير من الاحتمالات ، ويصل عددها إلى ما لانهاية . إذا كانت خمس دقائق من حياتنا تتسع لملايين الاحتمالات ، فهذا يبين مقدار تفاهة وخواء جهدنا الذي نبذله على مدى حياتنا في سبيل تجديد مستقبل معين لنا .

بدلاً من سقوطي أثناء مسيري في الطريق ، فمن الممكن لذاك الصديق أن يسقط ، وألا نلتقي . أو ممكن أن نلتقي ويصطحبني إلى مكان آخر ، فلا أتعرف على تلك الفتاة . هل فكرتم كيف يمكن لمسير حياتكم أن يتغير نتيجة لسع نحلة لكم ؟ إن حياتنا تعتمد على مصادفات تافهة مثل هذه . لا ، لا . . لا ألفق شيئاً ، أو أبحث عن مبرر لكوني محتالاً صاحبَ سوابق . ولا أؤمن بالقدرية لأنه ثمة احتمالات لا حدود لها في خمس دقائق من حياتنا . هل تقولون إنه القدر ؟ نعم . . إن أمثالي المنهارين المنحوسين ، والساقطين في السجن وغير الواجدين طريقَ خلاصٍ ، يؤمنون بالقدر ، وبالمكتوب على الجبين ، وبالتسليم . إن الاحتمالات التي من الممكن أن تقع للإنسان ، ليست تلك التي أُحصيها ، بل هي عدد لا متناه .

من غير الممكن تصديق هذا ، ولكن قصة حلوى المعلل هذه حقيقة . ووجهتْ مسارَ حياتي الى الطرف المعاكس .

كنت طالباً في الثانوية العسكرية . لم أكن طالباً مجتهداً كثيراً . ولكنني كنت أنجح في صفي كل سنة . وصلت إلى السنة الأخيرة . كان قد بقي شهر ونصف لانتقالنا الى الكلية الحربية . كنت شاباً مؤذياً ، ومشاكساً ، ولكن أساتذتي وضباطي يحبونني . كنت رياضياً ألعب المصارعة والكرة . وفوق هذا كنت أعتبر من الطلاب المجتهدين في مادة الرياضيات .

وبسبب تأخر أبي في تسجيلي ، فكنت أبدو في الهوية الشخصية أصغر من عمري الحقيقي بأربع سنوات . لهذا السبب كنت أكبر وأضخم طلاب الصف . بينما كانوا في الثامنة عشرة ، أو التاسعة عشرة من أعمارهم ، كان عمري الحقيقي ثلاثة وعشرين عاماً . فوق هذا كنت أبدو أكبر من عمري الحقيقي بسبب ضخامة جسمي حتى أنه كان يدرسنا معلم يبدو أصغر مني .

كنا في تلك الأيام نتبادل المناوبة في المطبخ . كل يوم يصبح أحدنا بالدور « المناوب » ، وينشغل بأعمال المطبخ .

في الأيام التي يكون فيها الطعام جيداً ، كنا نحن الطلابَ المشاغبين نبحث عن أساليب أخذ المناوبة في المطبخ لذلك اليوم . كان الطلاب المجتهدون لايرغبون بالمناوبة في المطبخ ، لأنها تعيق اجتهادهم لدروسهم . كنا نتقاسم نحن بعض الأصدقاء مناوباتهم . وإذا لم يصرْ هذا ، نأخذ منهم المناوبة بالمساومة . كان ممكن شراءَ مناوبة المطبخ بصحن من الكليات المشوية ، أو الحلوى .

كان مناوب المطبخ لايدخل إلى دروسه ، لأنه من المفترض أن يقوم بأعمال المطبخ ، وتوزيع الطعام . أي أن مناوبة المطبخ هي أفضل الطرق من أجل تقطيع الوقت . كان مناوب المطبخ يفصل كليات الخراف وقلوبها ، وموزات اللحم لنفسه وأصدقائه كان يجلب صحناً كبيراً من الكليات المشوية ، وكل إن استطعت الأكل . . وأذا كان في قائمة طعام ذلك اليوم حلويات ، فيجلب صحناً من الحلويات . . ولأن هذا العمل ينفذ بسرعة تامة كانت تجلب صحون أفضل الطعام ، والحلويات وجرار ماء العنب المعقود النحاسية بعد أن

ينسحب الجميع إلى مهاجعهم للنوم ، ونشارك الأصدقاء الأكل .

كان الطلاب ينفذون مناوبات المطبخ التي وضعت أساساً لتعويدهم على النظام في العمل والطعام منذ تلك السن ، ينفذونها ، بتناسب أكبر مع ما يجري في الحياة الواقعية من أكل حقوق الآخرين .

(هنا أشعر بضرورة التبيين . لم يستخدم باشازادة أثناء حكايته لقصة حياته عبارة : « مايجري في الحياة الواقعية من أكل حقوق الآخرين » كما كتبت أنا . بل لفظ عبارته على النحو التالي : « كنا نتعلم السفالة ، واللاشرف كما هي في الحياة الحقيقية منذ ذاك العمر ») .

لم أكن في مناوبات المطبخ غير عادل إلى هذا الحد كالآخرين . كان أكثرنا لا عدلاً هو صديقنا رجائي المتذبذب . عندما يناوب هذا الصديق في المطبخ ، كان يأتينا في منتصف الليل ضارباً ، ورافساً وشاتماً ، ويضع أمامنا الصحون المليئة بأفضل أنواع اللحوم ، ويقول لنا :

ـ كلو ولاه ، كلو!

لا يجوز ألا نأكل . يجب أكل كل ما في الصحون . كنا نجلس متربعين على الأرض بين سريرين ونغوص بأكل اللحوم والحلويات بين نائمين وصاحين . كانت هذه الولائم بالتبادل . إذا عمل صديق ما لنا وليمة كهذه فلا بد من تقديم مثيل لها عندما نناوب نحن .

في إحدى المرات قفزت من سريري في أحلى لحظات نومي شاعراً بعراك قوي وصوت كلوا . سقى الله تلك الأيام ، ياالأيام جنوننا! عندما أقول عراك ، لا تظنوا أنه شيء بسيط . إن ضرب العصا لا يعد شيئاً بجانبه . فوق هذا ، إذا بدأوا بالرفس وصفع الكفوف بين الجد والمزاح فلا تستطيعون الرد عليهم . إن مزاح صاحبنا الدُّبِّي ليس مزاحاً ، بل هو دَبِّية حقيقية...

كنت قد تدربت في ذلك اليوم على الجري فتعبت كثيراً ، وليس من السهل عليَ الاستيقاظ بسهولة . كان رجائي المتذبذب من طرف ، وبدري الجربوع من طرف يرفسانني ويلكمانني . والتف حولي مثل جوقة خطافي

الأرواح كل من رجائي المتذبذب ، وبدري الجربوع ، وكمال الجرس ، ورجب القنديل وبرهان البوق . ولشدة تعبي لم أستطع بأي شكل أن أفتح عيني وأصحو ، وإذا كنت قد صحت :

ـ اغربوا عن وجهي ، لا أريد أكلاً ولا غيره!

فلا يوجد بين محاصري من يفهم الكلام . أحدهم شد الغطاء من فوقي ، والثاني عمل على تسحيل سروالي الداخلي . ورجب القنديل يبخني بالماء بعد أن يملأ فمه من الصنبور . وهل يبقى نوم بعد كل هذا ؟ نهضت من السرير وأنا اشتم وألعن . جلسنا القرفصاء حول صحن كبير متلل باللحم المقلي بين السريرين وبدأنا الأكل بأيدينا . وشربنا ثلاث جرار نحاسية من ماء العنب المعقود .

ولأن بدري كان في الدروس الأخيرة يصغي دائماً إلى بوق الطعام فأطلقنا عليه لقب البوق . قال لي بدري :

ـ في قائمة طعام الغد حلوى المعلل ، خذ أنت مناوبة المطبخ غداً .

ـ إذا كان الضابط المناوب حقي المهدّة فلن أمسك نوبة المطبخ!

كان النقيب حقي المهدّة ضابط صفنا . وهو رجل سليم مثل الحديد . ولأن قبضته كانت تهوي مثل المهدة ، أطلقنا عليه اسم حقي المهدة . يمسك بالبارودة من رأس سبطانتها ، عند مكان الشعيرة ، ويرفعها دون أن يثني كوعه ، ثم ينزلها الى الأرض . حاول أحد طلاب الصف الذي سبقنا الهرب من بين أصابع النافذة الحديدية فعصي هناك ، لم يعد يستطيع الخروج ، ولا العودة . بدأ الصراخ من الألم . لم يستطع أصدقاؤه الذين لحقوه بأي شكل فتح أصابع النافذة الحديدية . وبينما كانوا يحاولون فتحها هناك تناهت إلى آذانهم أصوات : «جاء حقي المهدة . . جاء حقي المهدة . .» . عندئذ هرب الجميع إلا الصبي بقي معلقاً بين قضبان الحديد في النافذة ، ورافساً برجليه . جاء حقي المهدة إلى جانبه ، ومسك أحد القضيبين بيد ، والآخر بيد ، وخلّص الصبي من بينهما كأنه يخلص عظمة من فروج مشوي جداً . المهم بعد هذا...

تكوّم الصبيان الهاربون لدى سماع مجيء حقي المهدة عند زاوية الممر ، وبدأوا يتهامسون حول ماسيجري . عندما سقط على الأرض الصبي الذي كان محصوراً بين قضيبي الحديد لم يصرخ به ، ولم يسأله عن شيء ، ولم يضربه . استدار وذهب وكأن شيئاً لم يحدث . ولكن هل يستطيع ذلك الولد أن يهرب من المدرسة بعد هذا ؟! . . إن حقي المهدة رجل هكذا . لم أخف ، أو استح من أحد في العالم كما أخاف واستحي منه . لست أنا فقط ، بل كافة طلاب المدرسة يخافون منه . كان نقيباً وسيماً ، ومثل الأسد . نخاف منه ، ولكننا نحبه ونحترمه كثيراً . كنا نعرف أنه يحبنا كثيراً ، ولكن لا يُظهر لنا ، ولا يدعنا نعلم بهذا . كان يخرج الى فرقة المراسم من يرسب من صفه . وكنا نعرف كم يبذل حقي المهدة من جهد ، وكم يعمل من أجل عدم إخراج الراسبين منا إلى فرقة المراسم . وإذا لم يتخلص أحدنا من الخروج إلى فرقة المراسم كان يحزن كثيرا .

عندما اندلعت الحرب العالمية الأولى كان يدرس حقي المهدة في الصف الأول من ثانويتنا . ولأنه قُتِلَ الكثير من الضباط في تلك الحرب ، فقد قلَّ عددهم . حتى إنهم اختاروا أصحاب البنية الضخمة من طلاب الصف الأخير ، وأخضعوهم للتدريب في معسكر لمدة قصيرة ، وأرسلوهم إلى الحرب . وعندما مات هؤلاء أيضاً ، تولدت حاجة لضباط جدد ، عندئذ أتى الدور على من هم في الصفوف الأدنى . ولأن حقي المهدة هذا كان شاباً ضخم البنية ، فدخل المعسكر وأرسل الى الحرب قبل أن ينهي الثانوية . تدرب في المعسكر ، وتقلب وسط خط نار الحرب ، ونضج قبل أن ينهي الثانوية ، وهو مازال في سن يمكن أن يسمى فيه طفلاً . انتهت الحرب العالمية الأولى إثرها هرع إلى حرب الاستقلال . ولكن بعد حرب الاستقلال تعلم بعض الأشياء في دورة تدريبية خاصة بالضباط الذين لم يتخرجوا من الكلية الحربية . ماذا يمكن أن يكون قد تعلم في تلك الدورة ؟ مهما تعلم ، مهما تعلم فقد قرأ نظرياً ما كان قد طبقه في الحربين اللتين خاضهما ، ولشعوره بالألم نتيجة عدم خضوعه

لتعليم جيد كان يريدنا أن ننشأ نشأة جيدة وندرس فلا مزاح عنده في هذا الموضوع .

كان قاسياً جداً . لايوجد في وجهه ولاخط منحن . لم يحدث أن رأيناه ليس ضاحكاً . بل حتى مبتسماً قليلاً . كان يغضب إذا رأى ضاحكاً أو مبتسماً . طالما كان يكرر علينا : «يكون الضحك على وجه الجندي ظلالاً» . وحسب تعبيره : «لايليق بالجندي الضحك مثل امرأة» . الرجل لا يضحك ، وخاصة الجندي الذي يقول إنه يمتهن الرجولة فلا يضحك أبداً . الوجه المتلامع البراق لا يناسب الجندي . يقال إن الخط العميق في خده الأيسر هو أثر شظية . ويقال : في جسمه ثمانية جروح . إذا ضرب أحدهم ، ينسى أن الله خلقه ، كان يلقي أرضاً دون حراك من يلكمه . ولكنه نادراً ما كان يضرب ، مرة أو مرتين في السنة... مع أنه في تلك الأيام كان ضرب الطلاب أداة تعليمية طبيعية . كان قليل جداً من لا يأكل علقة أو اثنتين في الأسبوع .

كان حقي المهدة نادراً ما يضرب ، ولكن علقته تدور على الألسن مدة أشهر مثل الحدث التاريخي . خاصة كمال الجرس ، عندما أكل لكمته صار مثل كرة مطاطية يصطدم بجدار الممر هذا ، ثم بالمقابل ، وبعد عدة صدمات ، وقع دون حراك . ثم إن هناك جانباً جيداً لحقي المهدة وهو أنه يجعل الطالب الذي يأكل علقته يدرس بالقوة ، أو يتوسط لدى اساتذته ، ويجد طريقة ينجّحُ فيها الطالب . عندما فتح عينيه كمال الجرس بعد أن أغمي عليه إثر علقة حقي المهدة ، ابتسم لمن حوله ، وقال :

ـ أوووف ، حسنٌ ، نجحت في صفي...

وجد رجب القنديل أنه سيرسب بسبب مادة الجبر في الامتحانات الانتقالية للصف العاشر . ماذا سيفعل غير البحث عن طريقة لأكل علقة من حقي المهدة . ولكن كل مافعله رجب القنديل كان يتجاهله حقي المهدة ، ولايضربه . بينما كنا نحن ندرس بكل طاقاتنا ، كان رجب القنديل قد أهمل دراسته ، ويرسم مخططات أكل علقة من حقي المهدة . كان رجب القنديل

يقوم بحركة مدهشة ، ينفخ خده الأيمن ويسند إحدى يديه على فمه ويخرج أصوات «بارررررت ، بارررررت...» مثل أصوات الترومبت تماماً . إذا رسب رجب القنديل في ذلك العام سيذهب إلى فرقة المراسم . لذلك فقد أخذ بعين الاعتبار كل شيء من أجل أكل علقة ، ولهذا فقد اندسَّ خلف حقي المهدة بهدوء ، وأخرج أصواتَ «بارررررت ، بارررررت» . عندما سمع حقي المهدة هذه الأصوات ـ لا أدري إن كان بسبب الرعب أو الغضب ـ فجأة قفز قفزتين إلى الخلف ، وإذا برجب القنديل يقف متكوراً لاوياً رقبته أمامه . ولكي يسهل على حقي المهدة ضربه مدّ له رأسه . التقطه حقي المهدة من أذنه ، وجره إلى غرفته . عندما علمنا نحن بالخبر ، تركنا صفوفنا ، وتجمعنا في الممر ، وبدأنا نراقب باب غرفة حقي المهدة . لنرى إذا كان رجب القنديل سيخرج سليماً من غرفة حقي المهدة ، أم أنهم سيخرجونه جثة هامدة . . انتظرنا فترة . لم يصدر صوت من غرفته . لا صوت بكاء رجب القنديل ، ولا صراخ حقي المهدة . . إثر هذا قال كمال الجرس :

ـ تماما . . من المؤكد أنه خنق الولد ، فلم يصدر عنه نبسة .

بعد هذا خرج رجب القنديل ، وعيناه تدمعان كنبعين . ولأن كمال الجرس يعرف علقة حقي المهدة ، عندما رأى رجب القنديل يبكي ، قال :

ـ ما أكل علقة . لو ضربه حقي المهدة لسقط مغمياً عليه ، وما وجد فرصة للبكاء .

سألنا رجب القنديل عن سبب بكائه ، فقال : إن حقي المهدة لم يضربه ، وسيرسب في صفه ، وبالتالي سيخرجونه إلى فرقة المراسم ، لهذا فهو يبكي . وعندما جرّه حقي المهدة من أذنه ، وأدخله الغرفة قال له :

ـ ولا كلب . . مهما أكلت من خراء فلن أضربك .

توسل إليه رجب القنديل قائلا :

ـ دخيلك ياسيادة النقيب . أرجوكم اضربوني . اضربوني حتى يزرق جلدي ، اصنعوا مني رجلاً...

لكن حقي المهدة طرده قائلاً :

ـ لا تتوسل مثل الحريم ، اغرب عن وجهي .

وعندما استكلب رجب القنديل قائلا :

ـ أبوس رجلك . اعمل حسنة واصفعني كفاً على الأقل .

غضب حقي المهدة كثيراً من هذه التوسلات . كان سيفقعه بصفعة نتيجة غضبه لكنه عندئذ يجب أن ينجحه في صفه . شد عضلات وجهه مثل القرفان ، وسأله قائلا :

ـ وسختم العسكرية . احكِ مثل الرجال . في أي درس انت ضعيف ؟

ضرب رجب القنديل كعبي بوطه بعضهما ببعض فرحاً ، وعاد إلى وضعية الاستعداد ، وبدأ بالعد كأنه يقدم الصف بسرعة الآلة :

ـ جبر ، هندسة ، مثلثات ، كيمياء ، فيزياء ، فلك ، جيولوجيا ، تاريخ ، جغرافيا ، أدب ، ديانة...

نظر حقي المهدة فوجد أن رجب لن ينتهي من عد دروسه الضعيفة ، فقال :

ـ ولاه ، ليبعث لك الله البلاوي . كفى . مابقي دروس .

انشطّ تماماً رجب القنديل الذي أخذ بعين الاعتبار كل الوقاحة ، وقال :

ـ وضعي بالجمباز جيد ياحضرة النقيب . سأنجح بإذن الله بالجمباز دون مساعدتكم .

ـ لاتبذل جهدك على الفاضي يابني ، لن أضربك .

عندما سأله القنديل بوقاحة :

ـ لماذا ياحضرة النقيب ؟

قال :

ـ لن اضربك يابني .

ـ ولكن سأرسب في صفي ، وأُخرج إلى فرقة المراسم ياسيدي النقيب .

صرخ حقي المهدة في وجهه :

ـ اغلق الباب من الخارج!

كان حقي المهدة يستخدم عبارة : «اغلق الباب من الخارج» بمعنى «انقلع ، اغرب عن وجهي» ، ولكن الأولى ألطف .

خرج رجب القنديل إلى الخارج . وهذا هو سبب بكائه . انتهت الامتحانات . أكمل رجب القنديل في الفيزياء والجبر . في العطلة يذهب الطلاب عادة الى بيوتهم ، وزيارة عائلاتهم . كان رجب القنديل من (أودَمش) . لم يسمح حقي المهدة لرجب القنديل بالذهاب إلى عائلته ، واحتجزه في المدرسة ، ووضع بجانبه طالبين مجتهدين لم يذهبا لزيارة الأقرباء لأنه ليس لهما من يزورانه . كان كل يوم يغلق عليهم باب إحدى الغرف ، ويجعلهما يدرّسانه . وإذا حاول رجب التهرب وعدم الدراسة ، كان يكيله حقي المهدة بعصا . غير هذا ترجّى الأساتذة فأعطوا رجب عدة دروس .

عندما عدنا من العطلة ، قال رجب :

ـ يا شباب ، تورم جسمي لكثرة الضرب ، ولكن فيما بعد تقرن جلدي وما عدت أحسست . ولكني نجحت في الصف .

سألناه كيف ما مات من الضرب . فقال إن حقي المهدة ماضربه بيده ، فلكي لا يتألم كثيراً ضربه بالعصا .

قال رجب القنديل :

ـ بعد ثلاثة أيام من الضرب تفتح ذهني ، وتفتح... ففهمت الجبر والفيزياء بسرعة البرق .

عندما كنا نسأل رجب القنديل كيف أنه أخرج صوتَ بوق خلف حقي المهدة دون خوف ، كان يقول :

ـ ماذا أفعل يا شباب . لم يكن أمامي سوى الخروج الى فرقة المراسم . قلت إن القضية قضية حياة أو موت ، فأخذت بعين الاعتبار كل شيء .

إن حقي المهدة رجل هكذا... ولأنني أرتجف فرقاً منه فلا أريد أن أكون مناوب مطبخ عندما يكون هو الضابط المناوب . سيحرق نفسي إذا علم أنني

أخذت نوبة طالب آخر لكي أهرب من دروسي... لم آكل علقة من حقي المهدة أبداً .

ولأن أصدقائي يعرفون أنني آخذ الكمية الأكبر من الحلويات فيريدونني أن آخذ مناوبة المطبخ يوم حلويات المعلل .

قلت لرجائي المتذبذب الأكثر ظلماً في مناوبات المطبخ أن يأخذها . لكن لأنه كان في اليوم السابق مناوباً ، فلا يستطيع المناوبة في اليوم التالي .

قال بدري الجربوع :

ـ الضابط المناوب غداً هو بشير الغوغوم ، وليس حقي المهدة .

كان يُدعى بشير الغوغوم ضابط حقيبة . وهذا الاسم كان يطلق على الضباط الذين ما حصلوا على شهادات . كان برتبة مساعد . نصب كميناً في الحرب ، وقدم خدمات كبيرة فجعلوه برتبة مساعد أول . فيما بعد صار ملازماً ، وتدرج حتى وصل الى رتبة نقيب . صار رفاق دورته جنرالات ، وبقي هو عند رتبة النقيب . مسنٌ ، رقيقٌ جداً ، واسع القلب . كان شامياً . وبعد كل هذه السنوات لم يستطع تصحيح لغته . فكان يتكلم التركية حسب اللفظ العربي . كان لا يستطيع لفظ كلمة « ترامبت » ، فيقول « ترامفت » ، كان لا يستطيع قول : « باش جاووش » فيقول : « بيش شاويش » . لا ندري لماذا كان يسمى كافة مواعين الطعام « غوغوم »* وحتى إنه لايستطيع لفظ كلمة « غوغوم » ، فكان يقول : « غورغوم » . لهذا السبب لقبناه بشير الغوغوم .

أيام مناوبته ، يخطف الطلاب عدة أطباق من المربى أمام عينيه أثناء توزيع الإفطار . كان بشير الغوغوم يعد الأطباق بالواحد . بفرض أنه يوجد أربعون طبق مربى ، إذا التفت لفتة واحدة ينزل عدد الأطباق إلى خمسة وثلاثين . عندئذ كان يصرخ بشير الغوغوم ، ويصرخ على النحو التالي :

ـ الآن كان يوجد أربعون (غورغوم) مربى ياهوه... الآن ياهوه... من

---

* وعاء يشبه الجرة يصنع غالباً من النحاس يستخدم لوضع الماء أو المأكولات السائلة... م

سرقها ياهو ؟... خمس غورغومات مربى ياهوه... أي مشاغب أخذها ياهوه ؟...

وبينما كان يقول هذا ، كان يفقد ثلاثة أطباق اخرى . كان بشير الغوغوم يصرخ :

ـ ثلاث غورغومات مربى اخرى غير موجودة ياهوه... من أخذها ياهوه... أي مشاغب أخذها ياهوه . .

كان لبشير الغوغوم قاموس خاص به . كان لا يقول كهرباء . يستخدم بدل كلمة كهرباء ، سراج . حتى إن كلمة سراج يلفظها ممطوطة . لم تكن الكهرباء موجودة في ثكنات الجيش أيام شبابه . كانوا يشعلون السراجات في الخيام . لهذا السبب . وكنوع من الاعتياد مازال بشير الغوغوم يقول عن الكهرباء سراج . كذلك كانت تستخدم آلة الترامبت بدلاً من البوق في أيامه ، لذلك فهو يسأل : « هل ضرب الترافيتاا ؟ » بدلاً من قول : « هل ضرب البوق ؟ »

نحن كنا قد تعلمنا قاموسه الخاص ، لكن الآخرين ليس سهلاً عليهم فهم ما يقول .

كان التفقد مساء يوم مناوبته يمضي بمرح شديد . بضرب بوق التفقد . يصطف التلاميذ في الساحة الداخلية ، ويخاطب صف الضابط المناوب على النحو التالي :

ـ بيش شاويييـ . . . ـش!

يأتي صف الضابط المناوب راكضاً . ويضرب كعبي بوطه بعضهما ببعض أمام بشير الغوغوم ويقف باستعداد .

ـ أمرك سيادة النقيب .

ـ ضُرِبَ الترامفيتاااا ؟

ـ ضرب يا سيدي .

ـ هل أُشعلت السراجاات ؟

ـ أُشعلت يا سيدي النقيب .

ـ التفقد جاهز ؟
ـ جاهز يا سيدي النقيب .
ـ هيا ، ياالله .

عندما عرفت أن بشير الغوغوم هو الضابط المناوب في اليوم التالي ، رضيت أن أكون مناوب المطبخ . اشتريت مناوبة المطبخ من طالب مجتهد بست قطع معلل .

جهزت أثناء النهار كل شيء . خبأت في أمكنة سرية من المطبخ وعاء كليات وقلوب وكبد مقلية ، ووعائين مليئين بالمعلل .

كان قد أتى إلى مدرستنا قبل يوم (باشا)* مفتش المدارس العسكرية . دخل الباشا إلى صفنا مفتشاً في درس الكيمياء . كان خلفه مديرنا وضباط آخرون .

عندما دخل الباشا صرخ استاذ الكيمياء كما هي العادة :

ـ انتبه!

وقفنا باستعداد

دهشنا عندما رأينا الباشا . أنا كنت الأكثر دهشة . لأنني كنت أرى نفسي أمامي . وقد كنت قلت من قبل أنني أبدو أكبر من سني . وكان الباشا مثلي ممتلئاً مورد الوجنتين ، ويبدو أصغر من سنه . كان بالنسبة إليَ أخاً يكبرني بعشر سنوات .

سأل الباشا أستاذ الكيمياء :

ـ ماذا تشرحون لهم ؟

لا أنسى تعبير أستاذنا في ذلك الوقت :

ـ كنت أشرح لهم استخراج حمض الكبريت يا سيادة الباشا .

ولكن اسمعوا ماجرى . مدَ الباشا أصبعه نحوي . ثم سألني :

---

* رتبة لضابط أعلى من عقيد . لم أترجمها لضرورة السياق ، ولاستعمالها الواسع في العربية . .م .

ـ قف! اشرح لنا كيف يستخرج حمض الكبريت :

كنت لا اعرف جواب السؤال . ولكنني بدأت بشرح موضوع آخر أعرفه جيداً . وعندما سكت ، سألني الباشا :

ـ بعد هذا ؟

ـ انتهى يا سيدي .

ـ عفاك ، ولكن اجتهد أكثر . لم تحفظ دروسك جيداً . كنت تتأنى أثناء الشرح . احفظ درسك جيداً .

قلت :

ـأمرك يا سيدي .

عندما توجه الباشا نحو الباب صرخ أستاذ الكيمياء مرة أخرى : «انتبه» ، وبعد أن ذهب الباشا سألني أستاذ الكيمياء :

ـ هل الباشا قريبك ؟

قلت

ـ لا يا سيدي .

دهش كثيراً للتشابه بيننا ، وقال :

ـ ليس عبثاً قول يُخلق من الشبه أربعون .

صار المساء . ضُرب بوق التفقد . اصطففنا في الساحة الوسطى . ولأنني المناوب جمعت ورقات التفقد من الصفوف ، وقال بشير الغوغوم كما في كل مناوباته :

ـ بيش شاوييـ . . . . ـش

ـ أمرك يا سيدي النقيب .

ـ ضرب الترامفيتاااا ؟

ـ ضرب يا سيدي .

ـ هل أُشعلت السراجااات ؟

ـ أُشعلت يا سيدي .

ـ هيا ، ياالله!

بعد التفقد دخلنا مصفوفين إلى قاعة الطعام . أكل الطلاب . وبعد مدة قصيرة ذهب الجميع إلى صفوفهم . بعد مدة أخرى ضرب بوق النوم . ذهب أصدقائي إلى المهاجع . أنا كنت اسمياً أراقب أعمال التنظيف والجلي في المطبخ . كنت أستطيع أخذ صحون اللحم والحلوى إلى المهاجع في منتصف الليل . لأنه لا تنقطع الحركة حتى تلك الساعة ، ويذهب الضابط المناوب إلى النوم . ولكن لأن دور الحمام لمهجعنا في اليوم التالي ، وسأستيقظ باكراً فكرت بنقل الصحون قبل منتصف الليل .

بعد أن دخل التلاميذ الى مهاجعهم بساعة ، أو بساعتين ، مسكت وعاء الحلوى المليء من أذنيه ، وبدأت المسير ، وأنا أتلفت لكي لايراني أحد . كنت سآخذ الحلوى الى المهاجع ، ثم أعود لآخذ اللحم .

كنت أختبىء تحت الأدراج ، وفي الزوايا ، وأتلفت إلى جانبي ، وخلفي ، وإذا لم أجد أحداً ، ولم أسمع نبساً ، أو نفساً ، سرت على رؤوس أصابعي . وإذا رأيتُ زوالاً من بعيد ، فلا أتحرك حتى يزول .

عندما أردت الصعود من ممر الطابق الثاني إلى الدرج ، رأيت النور ينبعث من أحد الأبواب المواربة . كان هذا الباب يبقى بشكل دائم مغلقاً . إذا أتى مفتش ، أو أحد الكبار كضيف على مدرستنا فتفتح هذه الغرفة . ونحن الطلاب لا نمر من الممر الذي ينفتح عليه هذا الباب . كان ذلك المكان محظوراً على الطلاب . ولكنني جئت إلى هناك في تلك الليلة حاملاً وعاء الحلوى لكي لايراني أحد . مررت من هناك لأنه نادراً ما يمر شخص من هناك .

نعم ، لو أنني في تلك الليلة قد مررت من الممرات التي أمر منها كل يوم ، وصعدت الأدراج التي أصعد منها كل يوم ، لو أنني لم أنحرف إلى ذلك الممر لكي لا يراني أحد إذ يندر أن يمرَّ شخص من هناك ، لما كنت هنا الآن سجيناً ، صاحب سوابق . ممكن أن أكون الآن جنرالاً ، أو ضابطاً متقاعداً مثل

زملائي... من أين لي معرفة أن انحرافي عن الدرج الذي أصعد منه كل يوم ، سيحرف مجرى حياتي .

بينما كنت عابراً أمام الغرفة الموارب بابها ، والمنبعث منها الضوء ، سمعت وقع أقدام متجهاً نحوي . ولأن الطلاب قد ذهبوا إلى أسرّتهم من زمان ، فلابد أن صوت هذا القادم ضابط ، ثم إن صوت الوقع يرافقه أزأزة لحذاء . شيء لايمكن توقعه ، نحن جميعاً نعرف الحذاء من صوت الأزأزة هذه . هذه الأزأزة ، أزأزة جزمة حقي المهدة اللماعة ذات الفراء . نحن نسمع أزأزة جزمة حقي المهدة اللماعة من آخر الممر ، فنتفرق مثل فراخ الحجل كل منا في جهة ، وندخل إلى الصفوف من خوفنا . أظن أن حقي المهدة كان يلبس هذه الجزمة ذات الأزأزة المسموعة بشكل خاص ليؤثر علينا ، وهو مازال بعيداً عنا . واذا كان الضابط المناوب هذه الليلة هو بشير الغوغوم ، فماذا تعني أزأزة الحذاء في هذه الساعة من الليل ؟

ماقولكم في أن بشير الغوغوم صار عنده شغلة مهمة جداً فأعطى مناوبته لحقّي المهدة ، وذهب ؟ نعم من الممكن . ألا يصير عند بشير الغوغوم عمل في تلك الليلة . كان من الممكن أن يقبض علي بشير الغوغوم حاملاً وعاء الحلوى ، عندئذ لن يقودني طريق حياتي الى السجون .

عندما سمعت أزأزة جزمة حقي المهدة اللماعة ذات الفراء تقترب مني احترت فيما أفعله . وقع الأقدام يقترب بالتدريج ، والأزأزة تتضخم... وأنا في الدهشة هذه التي خلقها الخوف دخلت باب تلك الغرفة الموارب المنبعث منها الضوء . وإذ بالمكان صالة كبيرة ، عُلِّقت ثريا ضخمة وسط سقفها . وغُطِّيت أرضها بالسجاد ، وفيها مقاعد مذهبة . ما أزال أسمع الأزأزة ، وكانت تقترب بالتدريج . وبهدوء أغلقت الباب . وتباطأ الوقع أمام الباب وتوقف . هذا يعني أن حقي المهدة توقف عند الباب .

يُعبر من الصالة التي أنا فيها إلى غرفة . كان باب تلك الغرفة أيضاً مفتوحاً . كان ينبعث من هناك صوت شخير قوي . كان الشخير قوياً إلى حد

شوش الصوت الذي أسمعه وراء الباب . أسندت أذني على الباب برهة ، واستمعت إلى مايجري خلفه . ابتعد وقع الأقدام . لم تعد تسمع الأزأزة . يجب أن يكون حقي المهدة قد صعد الدرج إلى المهاجع العلوية . في هذه الحالة لا أستطيع الخروج . كان يجب انتظار حقي المهدة إلى ما بعد تجوله على المهاجع ، وذهابه إلى غرفته ، ونومه .

بينما كنت انتظر في الصالة استعرضت ما فيها . توجد طاولة محفورة من الخشب . ثمة جاكيت باشا معلقة على مسند الكرسي الذي بجانبها . إنها جاكيت الباشا المفتش الذي دخل قبل يوم إلى صفنا وحضر درس الكيمياء . هذا يعني أن النائم في الداخل ، والذي يشخر هو الباشا المفتش . لسبب ما ترك باب الصالة موارباً ، أو نسيه .

وضعت وعاء المعلل على الطاولة بهدوأ . ألقيت نظرة على الغرفة التي ينبعث منها صوت الشخير . كان الباشا نائماً في سريره . يبدو من شخيره أنه لن يصحو . اقتربت من المقعد المعلق عليه جاكيت الباشا ، فسحرتني أزرارها الصفراء اللماعة ، والنجوم على كتافيتيها ، والخيوط المذهبة ، والشريط الأحمر على البنطال . لم أستطع الالتفات عنها ، وعن ألوانها . بدأت أجس بأصابعي كتافيتي الباشا ، وأداعب الأزرار الصفراء اللماعة ، وألمس النجوم . بعد كل هذه السنوات لا أدري لماذا عملتُ هذا . كنت أريد أن أصبح باشا . كان كل أملي أن أصير باشا . لعل هذه الإرادة المفرطة في داخلي لكي أكون باشا دفعتني إلى المرور بيدي على نجوم الباشا ، ولمسي كتافيتيه ، وأزراره .

لا أدري كيف فكرت بلبس الجاكيت . لبستها أولاً . نظرت إلى المرآة المعلقة على الجدار . في الحقيقة أنا أشبه الباشا كثيراً . خلعت بنطالي ، ولبست بنطال الباشا ، بما أنني أشبه الباشا ، فبارتداء ألبسته أدخل إلى المهاجع ، وأخوّف أصدقائي ، ثم فيما بعد أسخر منهم . لم يخطر ببالي ولو للحظة أثناء ارتداء بزته ، أن يخرج من غرفة النوم ، وما سيحل بي عندئذ . لأنه إذا سمعنا شخيره نقول إنه لو انطلق مدفع بجانب رأسه لما صحا . بعد أن

أسخر من أصدقائي قليلاً كنت سأعود ، وأضع الألبسة مكانها . كنت اتوق لمعرفة إذا كان أصدقائي سيميزونني من الباشا أم لا . ولكي لايعرفوني أنزلت واقية القبعة جيداً إلى الأسفل لتغطي وجهي .

تركت الوعاء على الطاولة . ووضعت ألبستي التي خلعتها على الأرض تحت الطاولة . أكذب لو قلت إنني ماخفت . ولكن ذلك الخوف بعث فيّ الإثارة أكثر ، وشجعني على هذا العمل بشكل أكبر . فتحت الباب بهدوء وخرجت إلى الممر . لم يُسمع نبسة . صعدت الدرج . عندما عرجت إلى ممر المهاجع بدأت أسمع ضجيج الطلاب . هذا يعني مازال ثمة صاحون .

كان الباشاوات في تلك الفترة يحملون عكاكيز . لوبقي الضابط ضابطاً على مدى أربعين عاماً ، ولو كان برتبة عقيد فلا يستعمل العكاز . ولكن في اليوم الذي يصبح فيه باشا يحمل العكاز مع حمله الرتبة الجديدة . ولكي يحس الطلاب الذين في المهاجع بمجيء الباشا ، ولكي أرى ماسيفعلونه بدأت المسير وأنا أضرب رأس العكاز على الأرض بقوة . كان الطلاب الذين يرونني قادماً من بعيد يتهامسون ويتصايحون :

ـ الباشا قادم ، الباشا قادم!

ثم يهربون إلى مهاجعهم . لفّتْ أصوات : «الباشا قادم» كافة الممرات . كنت أطقطق بالعكاز وأسير ببطء تاركاً زماناً للأولاد لكي يهربوا . وبما أنني باشا عليّ أن أسعل ، ولكن ليس من السهل تقليد سعال الباشا . لم أسعل خشية تعرف أصدقائي عليّ من صوتي . هرب من هرب إلى داخل المهاجع . . وقفت عند باب المهاجع ونظرت إلى الداخل . لا نبسة ولا تكة .

لو قلت لهم في الصباح إنني فتشت المهاجع بألبسة الباشا لما صدقني أحد منهم . لذلك عليَّ أن أفعل شيئاً إذا حكيت عنه في الصباح يصدقون أنني تجولت على المهاجع بلباس الباشا مفتشاً .

عندما لم ينتبه أحد من الأولاد إلى اللعبة صدقت جيداً أنني أشبه الباشا . دخلت من باب مهجعنا . كان الجميع في أسرتهم تحت بطانياتهم . كنت أرى

عيونهم تبرق تحت شراشف الأسرة . ولأنني أنزلت واقية القبعة إلى عند أنفي ، فليس بالإمكان معرفة أصدقائي لي . جئت إلى جانب سرير رجائي المتذبذب . كان في السرير العلوي رجائي ، وفي السفلي بدري الجربوع . وسوس لي الشيطان فقلت لنفسي : «هذه الفرصة لا تسنح مرة أخرى . طالما أن عكاز الباشا بيدك فانزل به على رأس رجائي المتذبذب ، وبرهان البوق ، وكمال الجرس ، ورجب القنديل... وليتقلبوا تحت الأغطية مثل (أم علي الدعبلي) . اضربهم بالعكاز ليأكلوا علقة باشوية لعلهم يعقلون . عندما سيأكلون العصا ، سيدهشون بما هم فيه . ولن يستطيعوا أن ينبسوا . ماذا يستطيعون أن يقولوا للباشا ؟ العصا التي يأكلونها مكسب لهم» .

هكذا يوسوس الشيطان ياه ، لأنهم كيفما كان بعد قليل سيعرفون لعبتي . ولأنني إذا لم أعرِّفهم بهذا فلا طعم لما أعمله . لا أستطيع صبراً . سأحكي . ولكن لحظتئذ سأحترق . لأنهم إذا عرفوا أنني أنا الذي ألعب عليهم لعبة الباشا ، سيمزقونني بينهم . في اللحظة التي قلت فيها لنفسي : «لاتسمع من الشيطان!» ، وأردت أن أمشي ، سمعت بدري الجربوع يهمس لرجب القنديل من ورائي :

ـ يبدو أن النقيب لا يعرف بجولة الباشا على المهاجع . لوعرف لجاء من خلفه ، لنذهب ونخبره .

الآن حكّهم جلدهم للعكاز! اسمع هؤلاء ، سيذهبون في هذه الساعة من الليل إلى الضابط المناوب ويقولون له : «يا سيدي ، الباشا يتجول على المهاجع» لكي يملؤوا عين حقي المهدة .

عندما سمعت همسهم حثثت الخطو . كنت سأسرع أكثر ، وأهرب من هناك ولكن باشا خرج ليتجول على المهاجع لا يستطيع الذهاب بسرعة كبيرة ، أو الركض ، وكأن احدهم يلحقه . أولا إن المشي بسرعة يؤثر على الباشاوية ، وثانياً يمكن للطلاب أن يشكّوا أيضا . لهذا السبب خرجت بخطوات باشوية ، وسرت في الممر ببطء .

كنت أفكر أنهم ريثما يذهبون إلى الضابط المناوب ويخبرونه ، أكون ومنذ زمن طويل قد ذهبت ووضعت ألبسة الباشا مكانها ، ولبست ألبستي ، وعدت إلى مهجعي . لم أكن أسير في الممر ببطء شديد ، ولا بسرعة . عبرت الممر الخلفي . نزلت الدرج ، وعند منعطف آخر درجة ، ألا ألتقي وجهاً لوجه مع حقي المهدة . عندما ذهب الطلاب ، وأخبروا حقي المهدة بأن الباشا يتجول على المهاجع ، فانطلق بسرعة إلى حد أنه عندما وجدني أمامه لم يستطع كبح سرعته ، ولكي لايصطدم بي ، انزلق من جانبي ، وقفز ثلاث درجات معاً . لولا أنه تصرف بدقة كبيرة ،... مابقي الا قيد شعرة لكي نتصادم ، ونتدحرج على الدرج متبادلين الموقعين ، أحدنا في الأعلى والثاني في الأسفل . عندئذ لن يقتلني حقي المهدة فجأة . كان سيمزقني إرباً ، إرباً .

عندما قفز حقي المهدة ثلاث درجات دفعة واحدة . كانت نيتي أن أعوج عند زاوية الممر بخطوات باشوية ، بعد هذا ، أزيّت قدمي ، وأغوص في أحد الصفوف ، وأختبئ تحت أحد المقاعد . عندئذ أين سيجدني حقي المهدة ؟ إذا لم يكن لديه عمل فليبحث عن الباشا في صفوف المدرسة حتى الصباح . . ولكن الرجل سريع ، وقبل أن يدع فرصة لي للالتفاف صار بجانبي . عندئذ ، أنا الذي التفت إلى الخلف ، وبدأت صعود الدرج . إذا صعدت الدرج مثنى وثلاث ، فسيكشفني حقي المهدة أنني لست باشا ، لأنه ليس ثمة باشا يعمل خفة كهذه . لهذا السبب صعدت الدرج درجة درجة . وحقي المهدة خلفي على الجهة اليسرى ، أحس به خلف رقبتي .

وقعتُ في بلية وكأنه لا مخرج منها . متى قفز هؤلاء الطلاب من فرشهم ، ولبسوا ، وركضوا إلى النقيب وأخبروه . وهل كان النقيب جاهزاً بانتظارهم ؟ أم ماذا ؟

صعدت الدرج وسرت في الممر ، كنت أنظر بطرف عيني إلى الخلف دون أن ألفت الانتباه . كان النقيب حقي المهدة يتبعني باحترام على مبعدة خطوتين خلفي من الطرف الأيسر مأزئزاً بجزمته اللماعة ذات الفراء . لابد أنه

ظنني باشا لكي يسير خلفي بهذا الاحترام . ما الذي علي أن أفعله لكي أتخلص من بين مخالب حقي المهدة ؟ كنت أسير ببطء وأرسم بيني وبين نفسي مخططات . . لو عملت كذا... ولكي لا يشك بباشويتي كنت أطقطق أحياناً بالعكاز الذي بيدي على الأرض المفروشة بالخشب . لم يكن يوجد في ذلك الممر الطويل سوانا . أنا أعرف أن أصدقائي لم يناموا بعد ، ولخوفهم من حقي المهدة يتظاهرون بالنوم ، بعضهم يدفن نفسه تحت البطانية ، والبعض الأخر يراقبنا من باب المهجع .

عبرنا الممر الطويل . عوجنا عند الزاوية ، اتجهنا نحو الممر الآخر... لا نستطيع التجول في الممرات حتى الصباح ياه... ثم إذا تجولت ، فماذا سيحدث ؟ ليس لهذا نهاية .

خطر ببالي أن أنكب على قدمي حقي المهدة . ولكن لا أستطيع عمل هذا . عندما وصلنا إلى باب مهجعنا قلت لنفسي لأدخل فجأة من الباب . ريثما ينتبه النقيب ويستجمع نفسه أكون دخلت السرير بلباس الباشا ، وغطيت نفسي بالبطانية . ولكن عندئذ سيدهش الطلاب . عندما يدخل باشا قد الدنيا راكضاً ، ويختبئ تحت البطانية ، فمن المؤكد أن الطلاب سيدهشون . وسيضج المهجع ، ويدخل النقيب ، ويمسكني من أذني ويسحبني من تحت البطانية .

بينما كنا نجوب في الممرات خطر ببالي عملية أدهى . أدخل إلى الصالة التي أخذت منها ثياب الباشا وأغلق الباب من الداخل . بعد هذا سيذهب النقيب لأن الباشا سينام . وبعد انتظار بعض الوقت هناك ، أترك ألبسة الباشا ، وألبس ثيابي وأذهب إلى المهجع . من أجل تطبيق هذا المخطط نزلت الدرج إلى الطابق السفلي . أتيت إلى باب الجناح الذي ينام فيه الباشا . في اللحظة التي أردت فيها الدخول ماذا رأيت ؟ أما نهض الباشا ، وبدأ يأكل المعلل الذي تركته على الطاولة! باشا كبير يلبس البيجاما غاص في وعاء المعلل . . لو لم أره من فتحة الباب الموارب ، ودخلت عليه هكذا ، فماذا

سيحدث ؟ ماذا كان سيفعل باشا البيجاما عندما يجد أمامه باشا آخر يشبهه بألبسة الباشوية ؟

عندما رأيت من فتحة الباب الموارب في ظلمة الليل ، الباشا يحارب في وعاء المعلل ، استدرت إلى الخلف وعدت . حسنٌ أن حقي المهدة لم ير باشا البيجاما وهو خلفي . اقترب مني وسألني :

ـ هل تأمرون بشيء يا سيادة الباشا ؟

يكاد الليل أن ينتصف . وطالما أنني في هذه الساعة أتجول في الممرات ، فمن المؤكد أنني أريد شيئاً ما ، وسألني حقي المهدة عن هذا بلهجة مناسبة .

إذا أخرجت صوتي سيفهم أنني لست الباشا . لهذا السبب رفعت رأسي إلى الأعلى معطياً إشارة بمعنى «لا ، ليس لدي أية أوامر» . إيه تلقى الإشارة آه لو ذهب . . لا إنه خلفي حتى الآن . . صعدنا مرة أخرى الأدراج المؤدية الى المهاجع . لابد أن حقي المهدة قد شعر بشيء ما من جولة الممرات هذه ، فكلما وصلنا أمام أحد الأبواب كان يشرح لي :

ـ سيدي الباشا ، هنا المهجع الأول للصف العاشر...

عند باب مهجع آخر :

ـ سيدي الباشا ، هنا مهجع الصف الأخير .

أثناء كلامه كان يقترب من أذني لكي أسمع جيداً . كنت أهز رأسي بمعنى نعم ، وأمشي . أسرعت ، وأنا لا أعرف ماذا سأفعل . أنا عندما أسرعت ، أسرع حقي المهدة . أنا أسرعت أكثر . من أجل أن يلحق بي حقي المهدة ، فتح خطواته جيداً .

كان يركض خلفي وكأنه يقول :

ـ ماذا جرى يا سيدي الباشا ؟

صار الأمر كأن الباشا يهرب ، والنقيب يلحقه وبدأنا نتجول في الممرات . ظن حقي المهدة أن ركضي المفاجئ هذا لسبب آخر ، بينما كنا

نمر من أمام باب المراحيض ، وبقوله :

ـ المراحيض هنا يا سيدي الباشا!

لحظتئذ يبدو أنه قد أدرك أنني لست باشا ، فصرخ فجأة :

ـ ولاه .

وضع يده على كتفي . فهمت أنه لم يعرفني . لأنه حاول أن ينحني لرؤية وجهي من تحت الواقية ، ثم حاول رفع القبعة لرؤية وجهي . عندما فهمت أنه لم يعرفني زبقت من تحت يده ، وفررررر . . هرعت راكضاً . ولكن أيمكن الهرب من حقي المهدة ؟ أنا أركض وهو يلحقني . وبما أنه لم يعرفني فلو تخلصت من ألبسة الباشا التي عليّ ، كنت سأختبئ في مكان ما . ولكن كيف سأخلع ألبسة الباشا وأنا أركض ؟ عندما عوجت عند الزاوية رميت عكاز الباشا الذي كان بيدي أول الأمر . ولكن لدهشتي بدلاً من رمي العكاز إلى الأمام ، رميته إلى الخلف نحو حقي المهدة . عندما سمعت شتائم حقي المهدة وصوت سقوطه على الأرض الذي يشبه الرعد العكاز عرقل رجليه . وأنا أهرب من جهة ، وأخلع ثيابي من جهة أخرى . خلعت قبعة الباشا من على رأسي ورميتها . أهرب وأفك أزرار جاكيت الباشا . لم أفكر قبل هذا أن جاكيت الباشا فيها كل هذا العدد من الأزرار . مع أنني عندما لبستها وزررت أزرارها لم يكن فيها كل هذا العدد من الأزرار . أفك ، وأفك ولاتنتهي الأزرار . هل هي أربعون زراً ، أم أربعون ألف زر ، لا أعرف...

خرج الطلاب أمام أبواب مهاجعهم لمعرفة ما الذي يحدث . لماذا حقي المهدة يلحق الباشا ؟ إنهم ينظرون إلينا . فيما بعد ، قال لي أصدقائي أنهم ظنوني باشا فعلا أتى للتفتيش . غضب حقي المهدة كثيراً . كانوا يتفرجون علينا بفضول . يتوقون لمعرفة ما سيفعله حقي المهدة لو قبض على الباشا .

لم أفهم سبباً لعدم استطاعتي خلع الجاكيت على الرغم من فكي كل أزرارها . فكنت أبحث عن أزرار أخرى . مع أنني لدهشتي نسيت فك الحزام ورميه ، لذلك فلم أستطع خلع الجاكيت . ففككت النطاق ورميته ، وخلعت

الجاكيت ورميتها . ولأنه كان يجمع ما أخلعه وأرميه ، فلم يستطع الامساك بي . مستحيل ألا يحمل القبعة والنطاق ، والعكاز والجاكيت من الأرض ، لأن هذا استهتار وعدم احترام .

كنا ندور في الممرات . ومن خوفي تلخبطت تماماً فلم أفكر أنني لن أستطع خلع البنطال دون خلع البوط . عندما فككت أزرار بنطال الباشا ذا الخط الأحمر الجانبي ، سلَتَ ، ولكن لكبر البوط ، ولأنه بوطي ، لم أستطع بأي شكل خلع البنطال . بينما كنت أقول لنفسي سأخلع البنطال علق بين رجلي وأعاقني ، وجعلني أنكفئ على الأرض . عندما انبطحت لم يكبح سرعته حقي المهدة الذي كان خلفي فعبر إلى أمامي . ومع نهوضي استدرت إلى الخلف وهربت . كسبت بعض الزمن ، ثم أنني تمكنت من خلع البنطال ورميه .

لا أعرف كم مرة جبنا الممرات في تلك الليلة . وبعد أن درنا نصف دورة وأنا بقميصي وسروالي الداخليين ، والبوط غصت في مهجعنا ، ودخلت سريري ، وسحبت البطانية فوقي . كان صدري يخفق كالمنفاخ . كنت أراقب الباب من تحت البطانية . وبعد قليل فتح حقي المهدة الباب ، وهو يشهق . كانت يداه وذراعاه ممتلئة بألبسة وعكاز وقبعة الباشا . وصرخ قائلاً :

ـ من هو ؟

ما نبس أحد . وكأن شيئاً لم يقع . كان جميع الطلاب ينامون ملء أجفانهم . كنت أعرف أنه مهما صار فلا أحد من الطلاب يشي بي . إنه حقي المهدة ، نرتعد خوفاً منه ، وعلى الرغم من هذا ، لوصف كل من في المهجع وضربهم بالدور فلن يبلغ عني أحد من الطلاب . لن يظهر بيننا مخبر كهذا ، وإذا ظهر فهو الذي سيُغضب حقي المهدة أكثر . نعم ، كان نقيباً شهماً من هذا النوع . نحن كنا رفاق سلاح ، سنذهب لو اضطر الأمر إلى الموت ، فكيف سيبلغ بعضنا عن بعض . إن تصرفات كهذه تسمى خيانة . وحقي المهدة لا يعفو أبداً عن الخيانات .

والان جاء دور الحديث عن هذا الأمر . هل تعرفون لماذا على الرغم من

محاولات رجب القنديل العديدة لأكل علقة من حقي المهدة لينجح في صفه ، فلم يضربه ، ومن ثم ساعده على النجاح ؟ لأشرح لكم هذا . في ذلك الوقت لم تكن العطلة الأسبوعية يوم الأحد ، بل كانت يوم الجمعة . كان الطلاب الذين نطلق عليهم اسم طلاب المبيت ، وهم الذين لهم بيوت في اسطنبول يؤذن لهم بالخروج يوم الخميس بعد الظهر ، ويعودون مساء الجمعة . أما نحن الذين ليس لدينا بيوت في اسطنبول ، ويطلق علينا أسم : (الوحيدين) كنا نبقى في المدرسة . في أحد أيام الجُمع كان حقي المهدة مناوباً... ذهب ثلاثة أشخاص إلى المهجع لأنه لايوجد أحد هناك ، وبدأوا برمي النرد ولعب القمار . كان رجب القنديل يجلس على سريره ، ويخيط أزرار سترته . عندما سمعوا أزأزة جزمة حقي المهدة ، هرب رماة النرد . لكن حقي المهدة شك بأنهم كانوا يلعبون القمار . عندما دخل إلى المهجع ورأى رجب القنديل يخيط أزراره سأله :

ـ من الذين كانوا يلعبون القمار ؟

قال رجب

ـ ما كان أحد يلعب القمار

صرخ حقي المهدة :

ـ ماذا كانوا يعملون إذاً ؟ هل كانوا يشربون الحشيش ؟

ـ لا يا سيدي . ما كان أحد يشرب الحشيش .

سأله مرة أخرى قائلاً :

ـ رأيتهم من شباك المهجع . لملموا النقود من الأرض وهربوا . من هم ؟

قال رجب القنديل :

ـ لا أعرفهم .

ـ ولاه كلب ، كيف لاتعرف رفاقك في المهجع ، ثم إنهم كانوا هنا يلعبون القمار .

ـ لا أعرفهم يا سيدي .

قال حقي المهدة :

ـ تعال إلى هنا .

وأخذ رجب القنديل إلى غرفته . وقال له :

ـ قل لي من هم ، وإلا سأنهيك .

مانبس رجب .

ـ احك يا بني .

ـ لا أعرفهم يا سيدي .

ـ من هم ؟

ـ ما رأيتهم يا سيدي .

ـ كيف ما رأيتهم ؟ كانوا بجانبك . .

ضرب حقي المهدة رجب القنديل حتى تعب يومها . ثم كان يجلس مقابله ، ويشرب سيجارة وفنجان قهوة ويرتاح ، ويعود لضربه . ضربه ثلاث دفعات . على الرغم من كل هذا الضرب الذي أكله رجب القنديل ، ولكنه ماقال : نعم ، الهاربون هم فلان وفلان... وكانوا يلعبون القمار ويرمون النرد...

بعد هذا ، قال حقي المهدة :

ـ يا بني اسمع . إذا رسبت هذا العام في صفك ، ستخرج الى فرقة المراسم . قل لي من هم اولئك الذين كانوا يلعبون النرد ، وأنا أخلصك من الخروج إلى فرقة المراسم .

أتعرف كم هو مخيف لنا في ذلك العمر الخروج إلى فرقة المراسم ؟ إنه أسوأ من الموت . حتى إنه ثمة من انتحر لأنه كان سيخرج إلى فرقة المراسم .

عندما قال حقي المهدة هذا ، ألقى رجب القنديل نظرة لا مبالاة إلى النقيب ، وكان قد التاث أنفه وفمه بالدم دون أن تذرف له دمعة . إثر هذا قال حقي المهدة :

ـ حسنٌ ولاه ، لاتخبرني بأسمائهم ، ولكنك تعرفهم ، أليس كذلك ؟ قل

إنك تعرفهم وكفى...

قال رجب القنديل :

ـ أعرفهم ولكن لن أخبرك بأسمائهم .

قال حقي المهدة :

ـ عفاك ولاه . خفت أن تخبرني بأسماء اصدقائك . . عفاك . .

كان حقي المهدة يضرب رجب القنديل ، ويخشى أن يخبره بأسمائهم . وهكذا إثر هذه القضية ، عمل حقي المهدة ما بوسعه لإنجاح رجب القنديل .

وقف حقي المهدة وسط المهجع وسأل مرة أخرى :

ـ من هو ؟

كنا نعرف جيداً أنه يسأل هكذا ، ولكنه لايريد أحداً أن يخبره بشيء . إنه عندما يقول : « من هو » يريد أن يقف المذنب من نفسه ويقول : « أنا يا سيدي » .

حاولت عدة مرات . أردت الخروج من تحت البطانية لكنني لم أستطع . لأنني لم أتخيل بأي شكل ضخامة ذنبي ، فما خرجت وقلت : « أنا ياسيدي النقيب » . ماذا يعني لبس ألبسة باشا كبير ، والتجول على المهاجع ، غصت أكثر تحت البطانية .

صرت أرتجف عندما اقتربت مني أزأزة جزمته . قال لبصري المتمدد في السرير الذي بجانبي :

ـ أرأيته أنت ؟

بما أنه سأله ، فلا بد أن رأس بصري كان ظاهراً من تحت البطانية . عندما قال بصري أكثرنا تزلفاً :

ـ ما رأيته يا سيدي!

صرت كأنني آمنت بزوال التهلكة عندئذ وإذ أفاجأ بأحدهم يشد قدمي . كنت قد غطست في فراشي دون أن أجد الوقت الكافي لخلع بسطاري . ولم

أشعر بأن إحدى قدمي ظاهرة من تحت الغطاء لأنها داخل البوط .

كان الذي يشد قدمي ذات البوط هو حقي المهدة .

ـ قم يا رَذْل ، قم!

نهضت بقميصي وسروالي الداخليين .

ـ اِلبسْ بسرعة!

ماذا سألبس ؟ ألبستي في غرفة الباشا . وقفت دون حراك ، ونظري موجه الى الأرض .

ـ البس!

تمتمت قائلاً :

ـ ماعندي ألبسة . .

ـ أين ألبستك ؟

ـ بقيت في... شيء... في غرفة الباشا .

ـ اتبعني .

كان حقي المهدة يمشي منتصباً مثل العمود حاملاً ألبسة وقبعة الباشا وعكازه ، وأنا من خلفه . قال :

ـ ادخل .

دخلت إلى غرفته وأنا بحالة يرثى لها .

هل أتوسل إليه ؟ ولكنني أعرف أنه يغضب أكثر عندما أتوسل إليه .

كان يقف على مبعدة ثلاث أو أربع خطوات ، وأشعر بانسحاقي تحت ثقل نظراته الموجهة إلي . في هذه الأثناء طرق بابه . ودون أن يلتفت قال :

ـ ادخل .

دخل أحد المستخدمين معلقاً في رقبته ساعة المناوبة في حزام . . وتمتم بعدة كلمات لا يفهم منها شيء . مثل :

ـ الباشا . . سيادة الباشا . . ياسيدي النقيب... سيادة الباشا . . حالته سيئة جدا...

قفز حقي المهدة خارجاً . وابتعد صوت أزأزة جزمته على الدرج .

صار خارج الغرفة رواح ومجيء سريع .

فُتح الباب . جلب المستخدم الذي دخل قبل قليل ثيابي . لبست بسرعة . كنت لا أعرف فيما إذا كان يجب عليّ أن انتظر أم لا . أثناء خروجي من الباب سألت المستخدم :

ـ ماذا حدث ؟

ـ تأزمت حالة سيادة الباشا ، وجاء الأطباء...

خرجت من الغرفة بهدوء . ثمة ضابط أو ضابطان يصعدان الدرج . وأنا صعدت إلى الطابق العلوي . اندسست في الصالون الذي يتواجد فيه الباشا . كان المكان هناك مزدحماً . والباشا متمدد على الأرض . كان الطبيب قد سحَّل بنطال بيجاما الباشا ، ويعمل له إبرة . رآني حقي المهدة ، فاقترب مني وقال :

ـ مازلت هنا ؟ اغرب! سأحكي معك صباحاً...

بسبب مرض الباشا مرقتُ من ضرب حقي المهدة ، حتى الصباح على الأقل . ولكنني في تلك اللحظة لم أكن أعرف أن الأزمة التي وقع فيها الباشا بسببي ، لأنني تركت وعاء الحلوى على الطاولة وأكل منه .

عندما دخلت إلى المهجع كان جميع الطلاب واقفين بعضهم يضحك ، وبعضهم يسأل بفضول :

ـ ماذا جرى ، ماذا جرى ؟

ـ أين المعلل ؟

قلت :

ـ ياشباب ، مرض الباشا فمرقتُ من أكل العلقة حتى الصباح .

قال رجب القنديل ، أكثر من أكل علقة حقي المهدة بيننا :

ـ ما كان سيضربك . أنا أعرف عندما يريد ضرب أحد لايكون هكذا .

ـ ماذا كان سيفعل ؟

ـ كان سيأخذك حقي المهدة الى التجريد .

كان يسمى سجن الثانوية : التجريد . لابد أن هذا الأسم يوضع من أجل تخفيف وقع الكلمة :

سأل برهان البوق .

ـ ما سبب مرض الباشا ؟

قلت :

ـ لا أعرف .

حكيت للطلاب مبهِّراً كيف لبست ألبسة الباشا ، وكيف التقيت بحقي المهدة ، وكيف تجولت وإياه في الممرات ، وعن تلك المطاردة المخيفة .

في الصباح كنت قد تخلصت من تأثير ما جرى في الليلة الماضية . في ساعة مراجعة الدروس كان أكثر الطلاب يتمازحون ، ويعلِّق بعضهم على بعض ، وثمة واحد أو اثنان يراجعان دروسهما . وكأنهم هم أيضاً نسوا حادثة الليلة الماضية . كنت أكتب رسالة لوالدي . كان والدي كاتباً عسكرياً في ديوان شعبة تجنيد مدينة كتاهية . كان على ساعده نجمتان بيضاوان . كان مسناً . وفي ذلك العام سيخرج إلى التقاعد . وكنا نحن سبعة أخوة . وأنا أكبرهم . كان والدي يُعيش أهل البيت بألف صعوبة وصعوبة ، هذا إذا سميناها معيشة . . كان والدي المسكين في كل رسالة يكتب لي : «سأرسل لك يا بني ليرتين ونصف في أول الشهر القادم» ولكن الليرتين والنصف لا تصلان في السنة إلا مرة أو مرتين . كانت والدتي قد وهبت حياتها كلها لأولادها . وهي امرأة مريضة ، وضعيفة . وكان سينقص الراتب عندما سيحال والدي على التقاعد ، وستكبر إلى حدها الأقصى صعوبات الحياة . كانوا قد علّقوا آمالهم علي إلى جانب راتب والدي التقاعدي من أجل معيشتهم . لأنني الولد الأكبر عندهم ، كنت المنقذ المنتظر . وأنا كنت أعرف مسؤوليتي . في رسالتي التي كتبتها في ذلك الصباح اخبرته أنني بعد شهر ونصف سأنتقل إلى الكلية الحربية وأنني درست دروسي جيداً . وبعد سنتي الكلية الحربية سأصبح ضابطاً . وفور

كتابة عنوان أبي على الظرف ، دخل عريف الصف وصاح :

ـ هيا ، من كتب رسالة يسلمني إياها!

كانت تُجمع الرسائل . ثمة يومان في الأسبوع لإرسال الرسائل . كنا في ذلك اليوم نسلمهم رسائلنا والمدرسة ترسلها .

شعرت براحة إثر كتابتي لوالدي هذه الرسالة المسلية ، والباعثة على الأمل . وأحسست بالانشراح حينما أعطيت الرسالة للعريف . أحسست بشيء يخزني في رقبتي من الخلف . فهمت أنها طائرة ورقية مدببة الرأس . وقبل أن أجد فرصة للالتفات ، رموني بشيء آخر على رأسي . التفتُ إلى تلك الجهة . فجأة انهالت من كافة زوايا الصف على رأسي الكرات والطائرات الورقية . ومن لم يجد فرصة لعمل طائرة ورقية يكور الورقة في يده بقوة ويقذفها صوب رأسي . وهذه لعبة نلعبها عندما نريد إخراج أحد زملائنا عن طوره ـ أي إغضابه ـ يومها أراد زملائي أن يخرجوني عن طوري . بعض الزملاء يغضبون للسخرية منهم ، وكلما ازدادت السخرية يغضبون أكثر ، ويصبحون مضحكين أكثر . أنا في هذا الوضع أظهرت الغضب ، ورددت على السخرية بالسخرية . وفي نهاية هذا الأمر لابد من عراك مع أحد الزملاء ، يتدحرج فيه المتعاركان ، أحدهم من فوق والثاني من تحت . نظرت وإذ بكمال الجرس ، ورجب القنديل يجلسان متجاورين على مقعد ويدرسان على الرغم من كل هذا الضجيج . تصنعت الغضب الشديد ، وتوجهت نحو رجب المنكب على كتابه وصرخت :

ـ لماذا ترميني بالورق ؟

ومع صراخي ارتميت عليه . وهكذا أكون وجهت هدف السخرية نحو جهة أخرى . وتعاركنا رجب وأنا دون أن يدري ما الذي جرى له . وتقلبنا متدحرجين بين المقاعد حتى وصلنا إلى باب الصف . والأصدقاء يصرخون بإيقاع واحد :

ـ اضرب ، اضرب ، اضرب!

عندما لفَ رجب القنديل ذراعيه الطويلتين حول رقبتي ، وضغط بهما ،

من عزة الروح ، دفعته وأسندته إلى الباب . لحظتئذ ، كان أحدهم يحاول فتح الباب من الخارج ، ولأن رجب مسنود إلى الباب ، فلم يُفتح بأي شكل . ورجب القنديل لا علم له بأن الباب يُدفع من الخارج . فهو من أجل حماية نفسه يدفع الباب بكل قوته . وبعرقلة عملها رجب سقطت على الأرض وتكور فوقي ، وفُتح الباب . نظرنا وإذ بحقي المهدة داخل .

انقطع الصوت في الصف . أردت النهوض ، لأن حقي المهدة خلف رجب القنديل فلم يره . لفَّني من خصري ، وما تركني أنهض على قدمي . رفسه حقي المهدة رفسة قوية برأس جزمته ، رماه على بعد ثلاث خطوات . كنا نحن الاثنين نحاول استجماع نفسينا عندما مسك حقي المهدة رجب القنديل من أذنه ، مع أنه لا ذنب له ، أنا الذي اغضبته ، وبسرعة قفزت أمامه ، وقلت :

ـ لاذنب لرجب أفندي يا سيدي النقيب . أنا الذي تعديت عليه وهو يدرس .

قال حقي المهدة :

ـ الحقني .

دخلنا إلى غرفته . ولأنني استحققت العلقة ، كنت أنتظر ، باذلاً جهداً من أجل تحمل العلقة التي سآكلها . ضغط النقيب حقي بقبضتيه ، وصك أسنانه ، وقال بصوت ناعم مرتجف :

ـ لماذا عملتها يابني ، لماذا عملتها ؟

اندهشت وقلت :

ـ عفوكم ، لن أعملها مرة أخرى . أعدكم .

ـ ماذا يعني لن أعملها مرة أخرى ؟ . . لاا ، وهل كنت ستعملها مرة أخرى ؟

ـ رموني بالكرات الورقية من خلفي ، وأنا ظننت أن رجب أفندي هو الذي رماني...

قال النقيب حقي :ـ الله يجازيك ، وهل أسألك أنا عن هذا ؟ . . لماذا

عملت هذا ؟آآآ لماذا ؟
أنا كررت مرة أخرى :
ـ لن أعيدها يا سيدي .
ـ وهل كنت ستلبس ألبسة الباشا مرة أخرى ، فتقول الآن إنك لن تلبسها مرة أخرى ؟
أنا كنت قد نسيت تلك القضية ، وما ظننت أنني سأدفع حساب ذلك الذنب . وكانت شهورٌ طويلة مرت منذ الليلة الماضية . وكأن تلك الحادثة بقيت في الماضي السحيق .
كرر حقي المهدة بصوت حزين جداً :
ـ آه يابني . كيف عملت هذا ، كيف ؟
كنت ساكتاً وأنا مطرق برأسي .
ـ هيا ، لنقل إنك قمت بعمل طفولي ، ولعب الشيطان بعقلك ، وعملت عملاً جنونياً . ولسبب ما لبست ثياب الباشا ، حسن ، لماذا تركت وعاء الحلوى هناك ؟ وهل هذا ممكن ؟ لم يبق إلا قيد شعرة ليموت الباشا... مرق الرجل من الموت بأعجوبة .
وبعد سكوته مدة قصيرة ، بدأ كلامه بـ « يا صغيري » . لأول مرة كنت أسمع منه كلمة « يا صغيري » .
ـ يا صغيري ، حاولت كثيراً ، لكن ماصار... مع الأسف إنك فصلت من المدرسة... وسترسل إلى فرقة المراسم .
اسودّ كل شيء أمام عيني ، ودار رأسي . اختلط علي السقف مع الجدران والأرض . صار أمامي عشرات من حقي المهدة ، بدأت تدور حولي . وفجأة حكى العشرة ، أو العشرون ، أو الثلاثون ، أو الأربعون حقي المهدة ، تحركت شفاههم جميعاً :
ـ اجلس هنا يا بني .
مسكني حقي المهدة من يدي ، وأقعدني على الكرسي الذي بجانب

الطاولة . لم أستطع مسك نفسي أزاء الخبر الذي فاجأني به حقي المهدة ، فبدأت بالبكاء .

ـ حاولت كثيراً من أجلك ، ولكن ما نجحت . أنا كنت أحبك كثيراً ، ولكنك لا تعرف . كان من الممكن أن تكون ضابطا جيداً . الباشا مريض بالسكر ، لهذا السبب فهو مهووس بمعدته... عندما نهض ليلاً ووجد وعاء الحلوى . . ظن أنها جُلبت خصيصاً من أجله . لم يصمد . أكل ، وأكل... ما نام أحد منا حتى الصباح . لم يصحُ الباشا حتى الصباح . سأل عما جرى ، وعلم بالحقيقة ، وتابع أمرك بنفسه ، وفي النهاية طلب فصلك . . لم أستطع الحيلولة دون هذا القرار . . ما طلع بيدي شيء يا بني .

نظرت وإذا عيناه مغرورقتان . مع أنني كنت أظن أن عينيه لا تفيدان إلا في الرؤية ، وأنهما لا تعرفان البكاء .

كان حقي المهدة الضابط المسؤول عن صفنا مدة ثلاث سنوات . ولكن في تلك اللحظة كان أمامي حقي المهدة آخر لا أعرفه . حاول تسليتي . قال لي إنني مازلت طفلاً ، وإنه ثمة فرص أكبر ستصادفني .

صحيح ، في الحقيقة برزت أمامي فرص كبيرة في الحياة . ولكن كل ما ظننته فرصة ، أدت بي في النهاية إلى السجن .

أغلق عليَ المكان الذي يُسمى تجريد . أي المكان الذي يُعدُ سجن المدرسة . وفكوا كتافيتي سترتي . ومنذ ذلك اليوم لم أر أكثر أصدقائي . في الصباح التالي فُتح باب التجريد كان القادم هو النقيب بشير الغوغوم ، قال :

ـ عمرك صغير ، غير مناسب . لهذا السبب ستذهب الآن إلى بيتك ، وفي العام القادم ستذهب إلى فرقة المراسم . .

كنت أكبر سناً من زملائي ، ولأنني سُجلتُ صغيراً ، ولأنهم لا يرسلون الأولاد إلى فرقة المراسم ، فكانوا سيرسلونني بعد سنة برتبة رقيب . وهكذا سأدفع الدين الذي صُرف علي ، والطعام والشراب المقدم لي في فترة الثانوية العسكرية .

طُردت من المدرسة في اليوم الذي كتبت فيه لوالدي : « بعد شهر ونصف سأنتقل إلى الكلية الحربية » .

نحن بني الإنسان لعبٌ في يد مصادفات لا تخطر ببال . وبسبب حلوى المعلل انحرفت حياتي ، وتغيرت وجهتي . ولكن هل هو ذنبي أن أكل الباشا كلَّ هذه الكمية من المعلل ؟

كما تعرفون قدّم مكتشف لعبة الشطرنج اكتشافه إلى من كان على رأس دولته . أُعجب رأس الدولة بالمكتشف ، الى حد أنه قال لمكتشفه :

ـ اطلب وتمنى!

قال مكتشف الشطرنج :

لا أريد شيئاً كثيراً . ابدأوا بوضع حبتي قمح في المربع الأول من رقعة الشطرنج ، ومقابل كل مربع ، ربعوا الرقم واعطوني مجموعها .

قال رأس الدولة :

ـ ممكن .

وضعوا في المربع الأول حبتي قمح ، وفي الثاني أربع ، وفي الثالث ست عشرة وفي الرابع مائتين وستاً وخمسين حبة قمح... وهكذا . . نظروا فوجدوا أنهم لو فرغوا كافة عنابر القمح الموجودة في الدولة لن يؤمّنوا مقدار القمح اللازم لكافة مربعات الرقعة .

إن عدد الاحتمالات الموجودة في فترة زمانية قصيرة من حياة الإنسان هي أكثر من عدد حبات القمح التي ستوضع كمربع لعدد الحبات التي وضعت في المربع السابق من رقعة الشطرنج . لأن رقعة الشطرنج ذات بعدين ، واحتمالاتها هي مربع العدد السابق للمربع السابق . ولكن لأن حياة الإنسان ذات ثلاثة أبعاد فالاحتمالات تزيد الى مكعب الرقم . لنفكر باحتمالات خمس دقائق من حياتنا فإلى أي عدد مخيف ، ولا نهائي ستزداد .

أنا في هذا العمر ، لماذا في السجن ؟ لماذا أنا محتال ذو سوابق ، ولست جنرالاً ، أو سياسياً ، أو تاجراً ، أو عقيداً متقاعداً مثل زملائي . كان

ممكن لي في يوم نحس ألا أشتري مناوبة المطبخ من أحد اصدقائي . كان من الممكن ألا يوزع في ذلك اليوم المعلل . وكان من الممكن ألا ينشغل الضابط المناوب لذاك اليوم بشير الغوغوم ، ويسند المناوبة إلى حقي المهدة . على الأقل كان من الممكن ألا يلبس حقي المهدة حذاءه المأزئز ، وأنا عندئذ لن أخاف ، ولن أدخل إلى الجناح الذي ينام فيه الباشا . وممكن ألا أصعد حاملاً وعاء المعلل الدرج الممنوع على الطلاب . أي احتمالات كثيرة جداً...

لا ، لا ، أظن أنني لم أروِ جيداً . لا تظنوا أن باشازادة المحتال صاحب السوابق هو قَدَريّ... السجن ينقضي بقص القصص ، والاستماع إليها . . ثمة الكثير من الوقت لدينا لكي نحكي ، ونتبادل سماع كل منا الآخر يا سيدي . .

مجيء باشازادة

كنت كأي محكوم في السجن حتى وصول برقيات : «الحمد لله على سلامتك ، فك الله أسرك» في الأسبوع الذي دخلت فيه السجن بدأت أتلقى برقيات من نواب ، واشخاص محترمين ومشاهير . إثر وصول هذه البرقيات لم أعد كأي محكوم في السجن ، أصبحت شخصاً متميزاً بين المحكومين .

استدعاني مدير السجن . لم يكن أحد الحراس ناقل الدعوة ، بل هو رئيس الحرس شخصياً . منذ تلك اللحظة عرفت أن ثمة تغييراً سيطرأ على وضعي .

دخلت غرفة المدير . كان هناك مدعي عام التنفيذ . كنت أراه لأول مرة . قابلني الاثنان كصديق جاء لزيارتهما ، وليس كمحكوم . أشار المدير الى مكان لكي أجلس . وسألني عما أشرب . رجوتهم الشاي ، فطلبا من الحارس إحضار الشاي .

تحدثنا عن الأدب ، مع أن المكان هناك غير ملائم للحديث عن الأدب . كل شخص يستطيع التحدث عن الأدب حتى ولو كان مديرَ السجن... سألني مدير السجن عما إذا كان لي مطلب خاص . لم يكن لدي أي مطلب . وسألني المدعي العام للتنفيذ عما إذا كانت لدي شكاية حول المهجع الذي أسكن فيه .

كنت في مهجع الحجر الصحي . هذا المهجع عبارة عن مجموعة غرف تنفتح أبوابها على ممر طويل . يسمي المحكومون هذه الغرف أجنحة . في

كل جناح من هذه الأجنحة أربعة أسرة ذات طابقين . وهكذا يوجد في كل منها ثمانية محكومين . يدخل المحكومون الجدد إلى مهجع الحجر الصحي مدة خمسة عشر يوماً ، وإذا كانوا يحملون مرضاً سارياً فيظهر خلال هذه الفترة . ومهما يكن ، فلأن هذا المكان هو المكان الأول الذي يُسلب فيه المحكومون عند أول مجيئهم وجيوبهم مليئة ، فالحجر الصحي هو المكان الذي يؤخذ فيه قدر أكبر من الأتاوة .

أشعرتُ مدعي عام التنفيذ برغبتي بالبقاء في مهجع الحجر الصحي بشكل دائم ، وقضاء مدة عقوبتي فيه دون الانتقال إلى المهاجع الأخرى .

عاد الحديث مرة أخرى إلى الأدب ، وكانا هما المتحدثين ، وأنا المستمع . كانا يريدان إدهاشي بمعلوماتهما الأدبية . بينما كان مدعي التنفيذ العام يحكي ، ضغط المدير على الجرس . وهمس للحارس الذي ناداه مالايريدني أن أسمعه .

كنت أستطيع عندما أتضايق من المهجع في أي وقت ـ من المؤكد في النهار ـ أن أغادر مهجعي وأذهب إلى قسم الإدارة ، أو المهاجع الأخرى إن أردت ، لقضاء وقتي . بهذا الإذن كان يعمل المدعي العام على عدم إشعاري أنني في السجن .

عندما عدت إلى مهجع الحجر الصحي رأيت تغييرات في جناحي أدهشتني . أُخرج المحكومون السبعة الآخرون من الجناح الذي كنت فيه . ومسحت الأحجار التي بلِّطت الأرض بها بالمساحة . لم تجف رطوبة الأرض بعد . كنت سأبقى في الجناح وحدي . مع أنه كانت أجنحة الحجر الصحي الأخرى مزدحمة إلى حد أنه : في بعض الأحيان عندما يأتي قادمون جدد فجأة ، يضطرون ، لعدم وجود أمكنة إلى مد الفرش في الممر . في الحقيقة لم أزعل من هذا الظلم الذي ارتكب لصالحي .

كنت في الجناح وحدي أستطيع القراءة والكتابة في راحة تامة . عندما أتعب أو أتضايق أطلب من الحارس أن يفتح باب المهجع ، وأعبر إلى قسم

الإدارة ، أو أجلس في صالون الحلاقة وأضيّع الزمن . خاصة عند المساء في الوقت الذي يُجلب فيه المحكومون ، أو الموقوفون الجدد في سيارات السجن الحمراء ، يكون ما أراه هناك في مدخل السجن غريباً جداً .

كانت تقرأ جرائد المساء التي تنشر أخبار الأحداث الأمنية ، والسرقات ، والتهريب والجرائم أكثر من الجرائد الأخرى في السجن . أكثر السجناء على الأغلب يعرفون أبطال هذه الأحداث لهذا السبب كانت هذه الجرائد بمثابة النشرة الخاصة بهم . منذ دخولي إلى السجن أصبحت أقرأ جرائد المساء هذه التي كنت فيما مضى لا أشعر بوجودها . لأن هذه الجرائد بشكل عام لاتقدم الأحداث الأمنية كخبر صحفي ، بل كقصة مبهرة في صحيفة منوعات .

في يوم من الأيام ورد عنوان لخبر منشور على أربعة أعمدة في الصفحة الأولى في واحدة من هذه الجرائد ، على النحو التالي :

« ألقي القبض على المحتال الشهير باشازادة متلبساً بينما كان يريد مساعدة الشرطة كمفتش فخري » .

نشرت الصحيفة الخبر على النحو التالي :

« نشرة الشرطة هي التقرير الذي يتضمن الأحداث الأمنية في مدينة ما على مدى أربع وعشرين ساعة . إن كافة الأعمال والأحداث الأمنية تنشر في هذه النشرة التي تسمى حسب تعبير الشرطة (الوقوعات اليومية) . إن نشرات الشرطة هذه تستضيف بشكل عام أسماء اللصوص ، والقتلة ، والمجرمين ، والسكارى ، ومسببي أحداث المرور ، والحشاشين ، والهيروئيين ، والعاهرات ، وتجار النساء ، والمنحرفين ، والمهابيل ، وأحياناً يصادف بشكل غير متوقع أسماء المشاهير ، ولكن الذي يشد الانتباه بين كل هؤلاء أصحاب السوابق المعروفون . وقد ورد في نشرة الشرطة البارحة اسم المحتال الشهير باشازادة المعروف من خلال ما كتب عنه في كافة جرائد تركيا بمغامراته التي لا تصدق . وقد التقينا بفريد باشازادة في مديرية

الأمن ، وحسب قوله ؛ إنه عندما لم يستطع تحقيق حلم طفولته بأن يكون شرطياً ، فما استطاع بأي شكل إخماد نار إرادته هذه . في النهاية حصل على هوية شرطي بشكل ما ، وأعلن نفسه مفتشاً ، ونفّذ مهمته الجديدة بنجاح يغيظ رجال الشرطة الحقيقيين . وجاء في هوية الشرطي التي حصل عليها اسم إبراهيم فدان الملفق ، وخلال فترة قصيرة كَسِبَ المفتش المزور فريد باشازادة إعجاب الناس الذين هرع لمساعدتهم ، ولاحق المحتالين والمزورين . وهذا ماكان سبب إلقاء القبض عليه مؤخراً . سقوط قناع المفتش المزور الذي نجح بحلّ كافة القضايا التي وضع يده عليها بالطرق السلمية دون توصيلها إلى العدلية والمخفر ، كان بسبب بحثه عن العاهرات اللواتي يسلبن الرجال الذين ينمن معهم . وآخر مهمة تبناها هي إلقاء القبض على العاهرة التي أفرغت جيوب دبلوماسي ألماني بعد أن نامت معه . واسترد منها النقود ، وجلبها إلى الفندق الذي يقيم فيه الدبلوماسي الألماني لتعتذر منه ، وتعيد له نقوده ، وهكذا كسب اعجابه . ولكن من أجل أن يعبّر الدبلوماسي الألماني عن إعجابه بالمفتش وأدائه وحبه الوظيفي ، ذهب إلى مديرية الأمن ، وقابل المدير ، وامتدح أمامه المفتش إبراهيم فدان وأعرب عن شكره له . إثر ذهاب الدبلوماسي الألماني طلب مدير الأمن البحث عن المفتش المحب لوظيفته لأنه فكر بمنحه مكافأة وإجازة . وإثر توق مدير الأمن لمعرفة المفتش الذي بيّض وجه مديرية الأمن ، تم القبض على المفتش المزور . ولكن وُجِدَ أن باشازادة لم يضر بأحد ، وما عمل شيئاً سوى خدمة الشرطة بهوية مزورة ، لذلك أرسل إلى الإدعاء العام بتهمة تقمص شخصية شرطي » .

والجريدة التي نشرت الحادثة كقصة ، وليس كخبر ، نشرت أيضاً صورة باشازادة ، والهوية المزورة . وجاء في الهوية المزورة المنشورة في الجريدة :

« الجمهورية التركية ـ وزارة الداخلية »

« المديرية العامة للأمن »

« محافظة : اسطنبول »

« الأسم والكنية : إبراهيم فدان »
« رقم السجل : ١٦٠٠/ ٤٤١ »
« تاريخ الولادة : ١٩٠٧ »
« مهمته : مفتش »
« يمنع حمل هذه الهوية على غير صاحبها . ويعاقب من يحملها »
« المديرية العامة للأمن »
ويبدو في الأسفل الخاتم والتوقيع .

لفتت انتباهي صورة باشازادة المنشورة في الجريدة . يبدو وجهه غير محبب ، ولكنه كان غريباً بالنسبة إلي . كان يبدو في الصورة رأس صاحب السوابق حتى رقبته . يجب أن تكون هذه الصورة مأخوذة من ملف سوابقه . رأس ضخم ، وذقن عريضة جداً . تكاد أن تكون بعرض الوجه . تركت عندي هذه الذقن العريضة انطباعاً بأن صاحبها قوي ، فلو قضم الحديد ، سيمضغه مثل الكاتو . .ضخامة الرأس والوجه ليست من ضخامة العظام أو السمنة . حتى إن عظمتي الخد بارزتان ، بسبب غور الحنكين إلى الداخل . لا يعد جبينه ضيقاً جداً . وشعره لا يناسب عمره ، فهو غزير مثل فرشاة . . ولكن في الصورة لا يبدو إن كان الشعر أبيض ، أم خطّه الشيب . أكثر مناطق وجهه شداً للانتباه ، عيناه اللتان تتوسطان دائرتين مظللتين ، في منتصف وجهه الضخم ذي الذقن العريضة . ليست حفرتا عينيه عميقتين ، ولكن في محيطهما لون غامق كذاك الذي تندهن فيه النساء . عيناه تنظران من العمق بسبب اللون الداكن الذي يحيط بهما . وعلى الرغم من وساعة الحلقة الغامقة التي تحيط بالعين ، فعيناه صغيرتان... صغيرتان ولكن لهما نظرة ثاقبة . يبدو هذا حتى في الصورة . وكأن بؤبؤ عينه مثل رأس الإبرة .

بينما كنت أنظر مطولاً إلى صورة باشازادة المنشورة في الجريدة ، كان يقترب صوت همهمة (فكرت الملخبط) من آخر الممر . فكرت الملخبط من الشخصيات الغريبة جداً في السجن . لكثرة استعماله الهيروييين تكور وجف ،

وصغر . وبروز حدبته يجعلني أشعر أنه وُلِد حاملاً مرض الزهري بشكل إرثي . يبيع أغراض المحكومين المفلسين المستعملة والقديمة . يوجد أحياناً بين هذه الأغراض بعض الأشياء الثمينة ، من أجل شراء الهيرويين . ونداء فكرت الملخبط على الزبائن بصوته المخنوق غريب جداً . فهو ينادي دائماً على النحو التالي :

ـ أخوتي الحرامية المنحوسين! أصدقائي النشالين! رفاقي المحتالين! أعواني قطاع الطرق ، ومزوري العملة ، وحملة المنشتر ، ولعيبة الثلاث ورقات الرصيفيين . جاء فكرت الملخبط يا أعزائي... يا أعزائي الليليين! يا صبياني المتكبرين . . يا معزلي المراحيض ، وبائعي الأبيض . . بشكير كهذا ، بضاعة بورصية لا يخلطها خالط . . من يريد ؟ لدينا نظارة شمسية كهذه صناعة أوربية ، وهي مهربة . . يا مصابي الروماتيزم ، لدينا سروال داخلي طويل من الصوف الصافي... جاء فكرت الملخبط يا أخوتي . . ليسمع الجميع . . هل من طالب لشحاطة كهذه من الجلد اللماع . . من لا يشتريها إما أن يكون ليس لديه مال ، أو ليس لديه عقلٌ... أرخص البضائع عند فكرت الملخبط . هذه البضائع أرخص من المجان . أين انتم يا صبياني المتكبرين . ويالصوصا ، ونشالين ، ومحتالين ؟ جاء فكرت الملخبط وهو ذاهب... انظروا ولاتشتروا . . النظر بدون نقود يا إخوتي...

كانت همهمته وصوته المخنوق كأنهما يأتيان من قعر جبّ ، وكأن الممر يردد أصداءه .

عندما وصل فكرت الملخبط عند باب الجناح الذي اقيم فيه ، خرجت أنا أيضاً . أعطيته سيجارة ، وأريته الصورة المنشورة في الجريدة ، وسألته عما إذا كان يعرفه . رفع فكرت الملخبط رأسه بصعوبة ، ولعل هذه الصعوبة بسبب الحدبة ، أو بسبب تكلس عظام رقبته ، ونظر إلي :

ـ أممكن ألا أعرفه... وهل يوجد من لايعرفه ؟ ماذا فعل من جديد ؟ لابد أنه جعل نفسه قاضياً . أو طبيباً ، أو محافظاً . أم أنه لبس ثياب ضابط ؟

أعطيته الجريدة . نظر إلى صورة باشازادة .

ـ الآن تهدلت أذناه جيداً . . لم تبق رياح باشازادة كما كانت قديماً . . أين باشازادة ذاك القديم . . عندما كان يسقط في السجن كان مثل المليونيرية المهربين العائدين من زيارة أوربا ، كان يأتي بسبع أو ثماني حقائب... وحقائب مليئة على الآخر . كان يُبيِّعني كل ما في الحقائب ، وفي النهاية ، إذا بيّعني الحقائب الفارغة ينتهي حكمه ويخرج . عندما كان يدخل باشازادة السجن قديماً ، كان أغوات السجن يعيّدون أسبوعاً . . كان كريماً جداً . . ولكنه في الأيام الأخيرة ما عاد كما كان . . لم يعد نافعاً في شيء . .

خرجت من المهجع إلى قسم الإدارة . سألت الحارس عما إذا كان سيأتي باشازادة في دفعة هذا المساء . قال حارس الباب ، إنهم سيجوّلونه على كافة المخافر ، ويواجهونه بالمدّعين ، لذلك لايمكن أن يأتي قبل يومين أو ثلاثة .

ما حُكي عن باشازادة في السجن ، أحداث مدهشة إلى حد أن هذا الرجل بدأ يشد انتباهي بقوة أكبر . أردت معرفته عن قرب أكثر فأكثر . قلت لمدير السجن إن بقائي وحدي في الجناح سيلفت الانتباه ، لأن المهجع مزدحم جداً . ثم سألته عما إذا كان سيوضع باشازادة عندما يأتي ، معي أم لا . قيل لي إنه من المؤكد يمكن وضعه عندي إذا كنتُ أرغب ، ولا أتضايق . فشكرت المدير .

في اليوم التالي لنشر خبر القبض على باشازادة متلبساً ، في الجرائد ، لم يأت . فهمت من أحاديث المحكومين أن باشازادة ليس واحداً من المحبوبين في أوساط أصحاب السوابق . أحد الذين يعرفون أن باشازادة قد ألقي القبض عليه فيما مضى بتهمة انتحال شخصية ضابط حكى عن باشازادة أنه بينما كان يمرّ من جسر (الغلاطا) بلباس ملازم ، فحيا رائداً قادماً من الجهة المقابلة بيده اليسرى ، فشك الرائد بأمره ، وسأله عن هويته ، واستنتج أنه ضابط مزور ، قال محكوم عجوز :

ـ هذا الأمر لم يجر كما حكيت .

قال الذي حكى القصة :

ـ كيف لم تجر القصة هكذا ياهوه . . حتى الجرائد يومها كتبت عن هذا .

أجابه المحكوم العجوز :

ـ ولاه أهبل . . لاتصدق كلام الجرائد حتى لو قالت إن الله واحد .

سأله أحدهم :

ـ كيف صارت القصة ؟ احك لنا أنت لنسمع .

ـ قُبِضَ عليه بسبب التحية ، ولكن ليس لأدائه التحية بيده اليسرى .

أيمكن أن يكون باشا زاده كل هذه السنوات ولايعرف بأية يد سيحيي! هذا الباشازادة الثور مهووس كثيراً باللباس لأنه محتال . فهو مضطر أن يلبس جيداً لكي يحتال على الآخرين . صحيح ؟ لهذا كان يلبس القبعة والحذاء من أغلى الأنواع . لأن أكثر ما يلفت الانتباه مما يلبسه الإنسان القبعة والحذاء . كان في تلك الأثناء يعمل في أنقرة مديراً أو رئيساً لدائرة حكومية ، أي مدير خلّبي ، ولأنه مدير فكان خصره ، ويده دائمي الحركة مثل خصر ويد كركوز ، فكانت يده دائماً على قبعته . . عندما يرى أحد الكبار يقول : « آه يا سيدي ، أمد الله بعمركم » ويخلع قبعته ويحني ظهره ، حتى يكاد أن يلامس الأرض . كان يريد أن يبدو لطيفاً أمام الجميع لكونه مديراً مزوراً . يقول لكل من يراه : آه يا سيدي ، أمد الله بعمركم . . ويرفع قبعته وينحني . تعود جيداً على هذه الحركة . فُهم هناك أنه مدير مزور ، فقرر الهرب . . تصرف بفطنة ، فقبل أن يُلقى القبض عليه هرب إلى اسطنبول . ولكي لايُعرف لبس ألبسة ضابط . إيه ، إنه لن يقعد دون عمل ياه . بدأ بتطبيق فتاة مدعياً أنه سيتزوجها . وجماعة النساء عندنا ، عندما تقول لهن ضابط ينتهي الأمر... طبّق فتاة غنية جداً . ثم ألا يواجه عقيداً في السفينة! بالطبع سيحييه . أما اعتاد على قول : آه يا سيدي ، والمداهنة من أيام الإدارة . . لم تبق شخصية إلا تقمصها الرجل...... القاضي المزور... الطبيب المزور... المحافظ المزور ؟ هو نفسه يلخبط فيها . عندما رأى العقيد كان يعرف أنه يجب أن يحييه ، ولكن

نسي أنه يلبس ثياب ملازم . . خلع القبعة مثل المدنيين ، وقال :
ـ آه يا سيدي ، أمد الله بعمركم . .
ثم انحنى حتى كاد أن يلامس الأرض . كاد أن يموت من الضحك كل من في السفينة ، فقال له العقيد :
ـ ولاه ، كيف أنت ملازم ؟
وسأله عن هويته . عندئذ قُبض على باشازادة .
تدخل في الحديث محكوم آخر .
ـ ما حكيتماه كلاكما صحيح . إلقاء القبض على باشازادة لانتحاله شخصية ضابط ليس مرة واحدة ، ولا خمس مرات ، ولا عشر مرات . . ما أعرفه أنا أيضاً يختلف عن هذا . هذا الأهبل كان أيام شبابه دائماً يلبس لباس الملازم ، يبدو أنه اعتاد على لبس ألبسة الملازم ، فلم يلبس لباساً برتبة أعلى . ولكن عمر الرجل بعمر باشا . وحتى أن الباشاوات ممن في عمره خرجوا إلى التقاعد . ولاه ، رفّع نفسك . على الأقل صر نقيباً يا كلب ابن الكلب . . كيفما كان فترفيعك لا يأتي من الأركان العامة . . خذ نجمتين وضعهما على كتفك وينتهي كل شيء . ما الفرق بين ملازم مزوّر ونقيب مزوّر . إنهم لا يخففون العقوبة لصغر الرتبة . . إن الذين يرون رجلاً بعمر باشا يلبس ألبسة ملازم يدهشون . فلهذا السبب ألقي القبض عليه .
كان مساء شباطياً هبط مبكراً مع قليل من الضباب الرطوبة... كان باشازادة مع المعتقلين النازلين من سيارة السجن الحمراء . دخل المعتقلون مقيدي الأيدي ، ومصفوفين من الباب الخارجي ، ثم من الباب الحديدي الثاني إلى مكان التجمع . وفك الدرك قيود المساجين وعدّوهم واحداً واحداً ، وسلموهم إلى رئيس الحرس . بينما كان الحارس المناوب ، وحارس الباب يفتشونهم ويبحثون في جيوبهم بأيد معتادة على هذا العمل ، كان رئيس الحرس يتبادل الحديث معهم . ولأن أكثر القادمين في ذلك المساء ممن دخل السجن قبل هذه المرة ، فكان رئيس الحرس يعرفهم . عندما وصل الدور عند

باشازادة ، لكز الحارس المناوب العجوز بمرفقه بطن المحتال الشهير الفارغة ، وقال :

ـ ولاه حمار . . جئت من جديد ، ولاه كافر!

قال رئيس الحرس :

ـ مهما دار الثعلب العجوز ، وتجول ، فنهايته بالتأكيد عند بائع الفراء .

أجابه باشازادة بنعومة غير متوقعة من مظهره الجدي جداً :

ـ لم أحتمل الفراق يا أبي . . لهذا أخذت التذكرة ذهاباً إياباً .

وفور قوله هذا ، تجمدت تعابير النعومة ، وشبه الابتسامة على وجهه فجأة ، وعاد إلى الجدية . يوجد ألعاب ذات وجوه قبيحة جداً ياه ، مصنوعة من الخزف ، أصبح وجه باشازادة مثلها .

فتش حارس الباب حقيبة باشازادة الجلدية . ثم عدّ النقود الموجودة في محفظته : خمسمائة ليرة ، وبعض القطع الصغيرة .

سأله حارس الباب :

ـ أما معك نقود مخبأة غير هذه ؟

وبتصرف لا يليق بمظهر ، وأبهة باشازادة ، وبلهجة سجناء المهجع الكبير ، قال :

ـ لا ، بشرفي . هذه هي كلها .

ـ ولاه ، انت لاتأتي الى السجن بنقود قليلة إلى هذا الحد . احك الحقيقة!

ـ وقعت هذه المرة نظيفاً .

لم يضعها الحارس الذي وجد النقود قليلة في الأمانات ، وأعادها له .

بينما كانت تكتب أسماء القادمين الجدد على الدفتر ، كنت أدقق في باشازادة . عندما كان يقول إنه ليس معه نقود غير هذه كان خجلاً كأنه قد فضح أحد عيوبه . إما أنه خجل لأن نقوده قليلة ، أو أنني أحسست به هكذا بسبب سماعي عنه كل ما سمعته . كان مظهره مظهر رجل دولة كريم . لو رآه من لايعرفه ، سيظن أنه مدع عام جاء يفتش على السجن . قبعته السوداء

الأسطوانية ، وشيب أكثر من نصف شعر صدغه يزيد من جديته . كان يلبس معطفاً بلون الجمل ذا وبر ناعم . ويبدو من جيب معطفه طرف قفاز جلدي بني اللون . أما بنطاله الغامق فمكوي ، وحذاؤه متلامع .

كان المساجين الجدد يُرسلون بعد تفتيشهم ، دائماً إلى صالون الحلاقة . ثمة خمسة حلاقين هناك يقصون شعر من يأتي أمامهم من منبته ، دون أي اهتمام . وقام باشازادة بحركة يظهر نفسه أنه لا يُري ما يفعله لمن حوله ، ودس خمسين ليرة في جيب قميص الحلاق الأبيض . خمسون ليرة ، بقشيشاً كبيراً لم يره الحلاق أبداً . قص الحلاق شعر باشازادة بعناية ، فلم يقصه من منبته ، بل قصره قليلاً بالمقص . وأثناء خروجه من الصالون أعطى باشازادة لصبي الحلاق نقوداً .

كان الذين حلقوا شعورهم من منبتها ، يخرجون من صالون الحلاقة ، ويذهبون إلى مدخل حمام السجن ، ويخلعون ثيابهم ، ثم يدخل المساجين الذين صاروا عراة كما ولدتهم أمهاتهم إلى الحمام . وتدفع ألبستهم الداخلية والخارجية المكوّمة على الأرض بشكل عشوائي إلى التعقيم البخاري . ولأن باشازادة بلمح البصر دس بيد المعقم نقوداً ، فلم يدفع ثيابه إلى التعقيم . وأعطى بقشيشاً سخيّاً للمساجين الذين يعملون في الحمام .

اغتسل المساجين في الحمام اسمياً ، أما في الحقيقة فقد تلينت اوساخهم بتأثير الماء الساخن ، وانتشرت في كل مكان من جسمهم . وبينما كانوا يرتدون ثيابهم التي ينبعث منها بخار التعقيم ذي رائحة الحريق ، والمجعلكة جداً ، كان باشازادة يجلس في مدخل الحمام يحتسي قهوته . والحمامي كان يصرخ بالذين ظنوا أنفسهم أنهم قادمون للاغتسال بجد ، ويخرجهم بالقوة من الحمام . كانت تنبعث من باب الحمام رائحة وسخ لزج خانقة . وتزيد الإضاءة غير الكافية من قرف المشهد .

كنت اتابع باشا زادة منذ دخوله قسم ما بعد الباب الثاني ، دون أن أشعره بذلك .

بينما كان الحارس المناوب يرسل المحكومين القادمين في ذلك المساء إلى المهاجع ، أشار لباشازادة نحوي ، وقال له إنه سيقيم في جناحي .

دخلنا الى مهجع الحجر الصحي سوية . دخلنا إلى المكان الصغير المواجه للباب حيث موقد الشاي . هذا ما يعمل دائماً . يُقدم كأس من الشاي للقادمين الجدد . ويؤخذ منهم نقود «الدخلة» . بينما كانت تُشرب الشاي هناك ، كنت أدقق أيضاً في باشازادة . كان أكثر نفوراً من صورته المطبوعة في الجريدة ، ولكنه صاحب مظهر أكثر جدية . نعم كانت ذقنه كما هي عليه في الصورة ، أشبه بذقن التمساح... يستطيع قضم كل شيء . كان بياض شعره أكثر من سواده ، واللون الغامق الذي يحيط بعينيه غير معروف ، ولكن من المؤكد أنه ليس دهوناً ، أو ظلاً . كأن الجلد حول عينيه قد خرب ، وازرق ، ولكن كانت طبيعة الجلد هكذا . إنه رجل مشعر ، والحلقتان اللتان تحيطان بعينيه مشعرتان أيضاً . عيناه اللتان على طرفي أنفه الذي يشبه منقار الغراب صغيرتان بقدر رأس مسمار ، ولكنهما تقدحان شرراً ، وتبدوان وسط هاتين الحلقتين أصغر مما هما عليه ، وأكثر تأثيراً ، وأكثر سواداً . كانت عيناه لا تثبتان على شيء ، تدوران دون توقف . وبحثه بعينيه دون أن يلتفت بشكل دائم يزيد من عدم إلفة وجهه . وصمته مقابل الحركة الدائمة لعينيه المسماريتي البؤبؤ تثير عدم الثقة به ، واستماعه باحترام للمتكلم ، وإعطاؤه للأحرف حقها في اللفظ والمخارج أثناء كلامه القليل ، وتصرفاته الموزونة ، تفرض احترام الآخرين .

بعد أن شرب الشاي ، وضع قطعة من أم المئة ليرة في الصينية الممتدة أمامه ، وقال :

ـ سلمت يداك يا سبعي . الشاي عندك جيد جداً . مخمر جيداً . اشتقت لشاي السجن... خمّر لنا شاياً آخر لنشرب مع الأصدقاء...

كان قد قال لرئيس الحرس إنه لا يحمل سوى هذه الخمسمائة ليرة . ولكن منذ دخوله من الباب حتى هنا كان أكثر الدافعين للحلاق ، والحمامي

وصبيانهم ، وبائع الشاي . إذا كان في الحقيقة لا يحمل سوى الخمسمائة ليرة ، فإما أن تكون انتهت ، أو بقي منها القليل .

أخذت باشازادة إلى جناحي . كان يتكلم معي باحترام يجعلني اضطر للكلام معه باحترام . أراد أن ينام على السرير السفلي المقابل لسريري ، وقال إنه بسبب الكبر في السن صار من الصعب عليه أن يصعد الى السرير العلوي . لم يكن لديه فراش . ولكن بعد قليل جلب له فكرت الملخبط فراشاً ولحافاً ومخدة .

كان يتكلم مع فكرت الملخبط همساً . عندما فهمت أنهما لايريدان أن أسمع كلامهما خرجت إلى الممر . بعد قليل خرج باشازادة من الجناح . نادى أحد الشباب المساجين الذين يتدافعون في الممر ، وأعطاه نقوداً ، وقال له بصوت خفيض لكي لايُسمع أن يشتري أربع علب سجائر ريف ، وعلبة سركلدوريان . قال له هذا بصوت خفيض لكنني سمعت . كانت السركلدوريان في ذلك الزمان من أغلى أنواع السجائر .

أنا كنت أروح وأجيء في الممر ، وهو واقف عند باب الجناح ينتظر الشاب . جلب الشاب السجائر . أخذها منه ، وكأنه يأخذ شيئاً سرياً دون أن يريه لأحد .

كنت أتهيأ لتناول طعامي بعد التفقد . دعوته إلى الطعام ، قال :

ـ أنا عملت هذه الشغلة قبل قليل ياسيدي .

مع أنني لم أره قد تناول طعاماً .

بعد أن تناولت طعامي ، قال :

ـ تفضل ، تعال لنشرب الشاي .

نزلت من على السرير ، وذهبت إلى سريره السفلي . أشار إلى مكان لأجلس عليه فوق السرير . أخرج علبة السركلدوريان التي اشتراها قبل قليل . حل بأظفر أصبعه الشهادة ورقة الربط ، ثم فتح العلبة ، ومدها نحوي .

ـ تفضل يا سيدي .

أخذت سيجارة من العلبة . أشعل قداحته ومن ثم سيجارتي . كانت قداحة صفراء ، مطلية بالذهب على الأغلب . بينما كان يشعل سيجارتي بقداحته ، أخرج بيده الأخرى سيجارة من جيبه ، ثم أشعل السيجارة التي أخرجها من جيبه دون أن يريني إياها . فهمت أنه ضيفني سيجارة سركلدوريان ، وشرب هو سيجارة ريف ، وهذه من أرخص أنواع السجائر . مع أنه حاول أن يخفي عني هذا . انفعلت كثيراً لهذه الحادثة الصغيرة . هذه الحادثة ترينا أن صاحب السوابق العجوز هذا الذي قضى معظم سنوات عمره في السجن ، ومن النوع الذي يقولون قلعت أسناني وأضراسي في هذا المكان هو صاحب شخصية أصيلة . شعرت بقرب حميمي بعد هذه الحادثة الصغيرة مع باشازادة صاحب النظرة غير المحببة ، والمظهر المتوازن . وفيما بعد فهمت أن ما فعله هذا ليس من نوع إبداء المظاهر . كان يُقَدِّم لكل من يأتي إلى سريره ضيفاً سيجارة سركلدوريان ويشرب هو (اليبرق) أو (الريف) من أرخص أنواع السجائر ، وكأنه يشرب من السجائر نفسها .

لم أرد أن يفهم من أول أحاديثنا أنني أتوق لمعرفة حياته وماضيه . ولكي يفتح الحديث قلت إنه تأخر أربعة أيام عن تاريخ نشر خبره في الجريدة . حكى :

ـ تعرفون الصيادين . إنهم مهووسون بالمظاهر . فهم يحبون نفخ حقيبة الصيد ، وإظهار أرجل وآذان الأرانب ، أو أجنحة الطيور من أطراف الحقيبة أكثر مما يحبون الصيد . ويحبون التفاخر بما يحملون . أكثر هؤلاء لايخرجون الى الصيد من أجل أكل لحم الصيد ، بل من أجل المظاهر . ومثلما الصيد بالنسبة للصيادين ، نحن أصحاب السوابق بالنسبة للشرطة . نوضع موضع حيوان الصيد في يد الشرطة . يعرضوننا على الصحفيين ، ويجعلوننا نتصور بكثرة . مايريدونه ليس عرضنا على الصحفيين فقط ، بل يريدون أن يرانا الجميع من خلال صورنا في الصحف... تماماً مثل استعراض الصيادين . . أرأيتم بعض تلك الصور التي يتصورها صيادو الفيلة ، والأسود ، والنمور إلى

جانب الحيوانات التي اصطادوها ؟ من المؤكد أنكم رأيتموها . ترون جثة الأسد أو النمر أو الفيل الذي اصطادوه ملقية على الأرض . والصياد يمسك بيده البندقية ، ويدوس بإحدى قدميه على جثة النمر أو الأسد أو الفيل الملقية على الأرض ، ويضحك للعدسة ، فاتحاً فمه إلى شحمتي أذنيه . وثيقة ماذا تمثل هذه الصور ؟ هل هي صور نصر ، أم استعراض لعدم الرحمة ؟ وكما شرحت ، نحن أصحاب السوابق بالنسبة الى الشرطة حيوانات صيد كتلك... خاصة إذا لم يكن لهذا سابقة ، مسكين ارتكب أول ذنب له... يعملون على إخفاء وجوههم عن عدسات المصورين الصحافيين ، وأضواء الفلاشات المتلامعة . . لابد أنكم رأيتم كثيراً من صور هؤلاء في الجرائد . ويد الشرطي كأنها مخلب حيوان بري ، تدير الوجه الذي يحاول إخفاء نفسه عن عدسة الصحفيين ماسكة إياه من ذقنه ورأسه . . والشرطي يريد أن يقول : « أنا مسكت هذا الصيد ، أنا قبضت عليه » . وتضغط الشرطة على المرأة أو الفتاة أو الشاب المسكين الذي ارتكب أول ذنب له ليقف في الموقف الذي يريدونه أمام آلة التصوير ، وكأنهم يقولون : « لير الجميع نجاحي » . وإذا كانت قضية لصوصية يضعون الأغراض التي سرقها بجانبه ، ويُمَسّكونه بعضها بيده ، ويعلقون بعضها الآخر على رقبته ، وعلى زناره ويصورونه .

أرجوكم أن تقولوا لي ؛ هل ذنب الشرطة في عملهم هذا أقل من ذنب أولئك الذين ارتكبوا لصوصيتهم الأولى ، أو قاموا باحتيالهم الأول ؟ بالنسبة إلي ذنبهم أكبر بكثير . لأنه لا أحد ، خاصة في عمله الأول ، يريد أن يرتكب ذنباً بإرادته . من يريد أن يكون لصاً أو نشالاً أو محتالاً ؟ لايرتكب الإنسان ذنباً إلا في حالة ضيق ، أو حالة صعبة ، أو عندما لايبقى عنده حل آخر . ولكن ليس ثمة مايجبر الشرطي على برم وجه إنسان خجول نحو العدسة لعرضه على كافة الناس . إذا كانت السرقة ذنباً ، أليس إزالة الشعور بالخجل عند الإنسان ذنباً ؟

كان من الواضح أن باشازادة يريد أن يحكي ويفرغ ما في داخله . جلب

أحد الشبان الشاي التي طلبها باشازادة . مرة أخرى مدَّ إلي علبة السركلدوريان . وهو أيضاً شرب سيجارة الريف التي أخرجها من جيبه .

ـ لنقل إنهم قبضوا على أحدهم ، وقيدوه . . ولكن بينما يأخذونه إلى المدعي العام ، أو السجن أو المخفر ، فإنهم يمسكونه من ذراعه ، ويلكزونه من ظهره وكأنهم يريدون أن يقولوا : «انظروا ، أنا الذي مسكت هذا الصيد » ، حتى لو كانوا ليسوا هم الذين قبضوا عليه . نعم ياه ، ليس صياد الأسد وحده الذي يريد أن يتصور وهو يدوس بقدمه على جثة الأسد ، بل كل من يتواجد هناك يريد أن يتصور أيضاً .

سألته عما إذا كان هذا هو سبب جلبه الى السجن بعد أربعة أيام من إلقاء القبض عليه .

ـ بالطبع ليس هذا فقط هو السبب . يوجد بلاء اسمه المواجهة . عندما يقبضون على صاحب سوابق قديم مثلي ، يريدون تحمليه كافة قضايا الاحتيال ، ثم يعرضونه على الصحفيين . لهذا السبب تجولوا بي على كافة مخافر اسطنبول . التجول أربعة أيام على المخافر من أجل المواجهة ، أسوأ من سجن أربع سنوات . يتجولون بنا على المخافر ليعرضونا على من اكتووا بنار المزورين أو المحتالين . ينظر المُحتال عليهم إلى وجهي ، ويقولون إن الذي احتال عليهم ليس أنا . أما الشرطي الذي يتجول بي على المخافر يقول : «انظروا جيداً ، لابد أنه هو . . انظروا جيداً إنه هو! » عاملاً على اتهامي . في النهاية عندما أَلَحَّ على امرأة بضرورة قولها إنني أنا الذي احتلت عليها ، صَرَخَتْ : «هل انتم الذين احتيل عليكم ، أم أنا ؟ ألا أعرف من الذي احتال علي ؟ » . وزعل مفتش الشرطة في المخفر من كلام المرأة ، فقال : «لم نعد نستطيع جعل المواطن ينتقي المذنبين ياهو . . » .

قال لي معاون مفتش في مديرية الأمن يريد أن يحملني قضية احتيال أو قضيتين مجهولتي الفاعل : «إذا تحملتها فما الذي سيحدث لك ؟... ماذا سينقص منك ، أو ماذا سيزيد ولاه... » . صحيح إذا أضيف إلى كل هذه

السوابق واحدةٌ ، أو اثنتان فماذا سيحدث ؟... على الأقل ، سيُطوى ملفا احتيال مجهولا الفاعل ويُسجل للشرطي نجاحٌ .

أظن أنه في ذلك التاريخ لم تكن المسجلة موجودة ، أو هي موجودة ولكن لم نرها نحن بعد . حتى لو كان يوجد مسجلات عندئذ فلن يسمح بإدخال الأشرطة إلى السجن . كنت أريد تسجيل ماحكاه لي باشازادة بالشكل الذي حكاه تماماً . ولكن هذا غير ممكن . لو كُتب ما حكاه كما خرج من لسانه هل سيكون أفضل ؟ لا أظن . ولكن على الأقل كنت أريد في بعض الأحيان نقل حديث باشازادة كما هو تماماً .

كان باشازادة يحكي طوال اليوم . وفي الليل أكتب ما حكاه . ولأنني كنت أكتب مابقي في ذاكرتي ، فلم أستطع كتابة تلك التفاصيل الجميلة ، مع الأسف .

رجوته أن يحكي لي قصة حياته من البداية حتى الآن . فرح لاقتراحي هذا كثيراً . وما أفرحني أيضاً تفكيره بأن معرفة قصة حياته ستكون مفيدة للآخرين . أي كان يريد أن تعرف قصة حياته لتكون مفيدة للآخرين .

بدأ يحكي عن حياته بالحادثة التي يبين لي فيها كيف انحرفت وجهة حياته بسبب حلوى المعلل . لم أكن أعرف ما يحكيه إن كان حقيقة أم تلفيقاً ، وفيما إذا كان فيه حقيقة فما هي نسبتها ؟ المهم مما حكاه هو خلق شعور لدي بأن مايحكيه حقيقة .

من الذي يخسر

سلموني لشعبة التجنيد . وكانت شعبة التجنيد سترفقني بجنديين وترسلني إلى حيث أبي ، ليسلموني له .

بينما كان والدي ينتظر دخول ابنه الكلية الحربية ، إذا رآه مرفقاً ، وعلم أنه طُرِد من المدرسة ـ سينفطر قلب الرجل . .

قال رئيس شعبة التجنيد الحنون :

ـ وهل تهدَمت الدنيا ، ووقعت تحت أنقاضها يا بني ؟ ماذا حدث إذا كنت لم تنه الثانوية ؟ فماذا تخسر في عدم إنهائها... على الأقل وصلت إلى الصف الأخير...

حكى لي عن ابنه . قال إن لديه ولداً كسولاً . ومن أجل أن يدرس صرف عليه نقوداً بالحفنات ، وكسر على ظهره من العصي أحمال شاحنات . توسل إليه ونصحه ، ولكنه لم ينه الإعدادية بأي شكل . لكن الولد الآن يكسب أكثر من والده .

قال العقيد رئيس شعبة التجنيد :

ـ درسنا فما الذي صار...

ثم حكى لي حكايات عن أصدقائه الذين لم يدرسوا ، وطُرِدوا من المدرسة .

في النهاية قال :

ـ مدرسة الحياة ، مدرسة الحياة... مدرسة الحياة أهم من كل المدارس!

ولأنه ليس لي مخرج آخر ، فلم يبق أمامي إلا أن أكون مقبضاً لبلطة قبل أن أُطرد من مدرسة الحياة أيضاً .

كنت أنتظر تخصيص ميزانية من شعبة التجنيد لكي أؤخذ إلى حيث أبي . كان يقال أن الميزانية ستصدر خلال يومين أو ثلاثة . كنت آكل من طعام الجنود في الشعبة .

أليس هناك مدرسة حياة ؟ قررت أن أتخرج من مدرسة الحياة هذه . قررت ألا أعود إلى أسرتي دون أن أتخرج من مدرسة الحياة ، وأحقق نجاحاً مهما كانت الظروف . خرجت من شعبة التجنيد بهذا القرار على ألا أعود .

كان يوماً نيسانياً لطيفاً . تفتقت رؤوس أغصان الأشجار بالربيع . كان في داخلي هوس امتلاك المدينة التي أتجول فيها . كنت لا أنوي شراء بيوت ودكاكين وعمارات المدينة فقط ، بل سأشتري حتى شوارعها وساحاتها . وتجولت في الأزقة هائماً على وجهي بسرعة التدفق التي ولدها الفشل .

كنت سأعمل . كنت على استعداد لأعمل في أي مجال . كانت تنبعث مجدداً في عقلي قصص اولئك الذين صاروا مليونيرات وقد بدؤوا من الصفر ، الذين قرأت عنهم في الصحف . كنت أفكر بأمريكا وأغنياء أمريكا . بالنسبة إلي ، ممكن أن يصبح الانسان مليونيراً انطلاقاً من كونه زبالاً . كنت مؤمناً بأنني في يوم من الأيام ، ولن يكون هذا اليوم بعيداً ، سأصبح مليونيراً . حل أمل أن أصير مليونيراً محل أمل أن أصير باشا . كنت سأنقذ عائلتي من الفقر عندما أصبح غنياً .

كنت أنظر إلى كافة الأبنية التي مررت من أمامها ، وكأنها ملكي الخاص . كيفما كان فإنها ستصير لي بعد مدة . تجولت في الأزقة واضعاً يدي في جيبي سارحاً في خيالات حلوة .

جعت . كنت أفكر في أنه يجب تحمل مرارة الفقر من أجل تحقيق النجاحات الكبيرة . إذا بدأت أشتغل فسأكون بعد مدة شريكاً في هذه

الأمكنة ، وبعد مدة أخرى مالكها . وتحت تأثير الانسحاق الذي ولّده عندي الطرد من المدرسة . بدأت أؤمن بدهائي وموهبتي .

كنت سأدخل أحد المطاعم الكبيرة ، أو أحد أمكنة بيع المهلبية ، وأقول للمعلم : «أنا أعمل أي شيء . أكنس الأرض . ولا أريد نقوداً . أعمل بأكلي ونومي فقط . .» .

من المؤكد أن الرجل لن يرفض اقتراحاً كهذا . من المؤكد أن الرجل بعد أن يرى نشاطي ، وموهبتي لن يتركني أفلت من يده ، وفي يوم ما سيعطيني نقوداً ، وبعد هذا ستتجمع النقود .

عندما قررت تنفيذ ما أفكر فيه شعرت بشيء يوقفني . انتظرت دقائق طويلة أمام واجهات المطاعم . لم أجد الشجاعة وبأي شكل ، لأدخل وأقول ما فكرت فيه لصاحب المطعم .

ذهبت الى مطاعم الدرجة الثانية مفكراً في أنني سأجد هنا الجرأة اللازمة لقول هذا للمعلم . مرة أخرى لم أستطع الدخول . وقفت أمام المطاعم الصغيرة . . ذهبت إلى بائعي المشاوي .

في اللحظة التي أريد أن أدخل فيها تتحطم جرأتي ، فأعود . غصت في أحد دكاكين المشاوي قائلاً لنفسي ليكن مايكون . ودهشت عندما فاجأني النادل قبل أن أفتح فمي ، قائلاً :

ـ تفضل ، تفضل! . .

مشى النادل أمامي مشيراً إلى إحدى الطاولات الفارغة . وسحب الكرسي لكي أجلس . ماذا كنت أستطيع أن أقول في هذا الوضع! . . ماكنت أستطيع أن أقول للنادل الذي ظنني زبوناً ، وأشار إلي بالجلوس في أحد الأمكنة باحترام : «أنا أجلو ، وأعمل أي عمل ، وانقي الرز ، وأقشر البصل . . شغلوني بما يشبعني! » .

تراخيت دون إرادة على الكرسي الذي سحبه النادل دون إرادتي .

قال النادل :

ـ ماذا تأمرون ؟

لعنة الله على الشيطان . . أي أمر ياهوه ، أنا أتيت لأطلب الشغل .

ـ طلباتكم يا سيدي ؟

طلباتي ؟ العمل هنا بأكلي .

قلت للنادل :

ـ ماذا يوجد ؟

ـ حساء ، لحمة مشوية ، بقدونس بالبصل ، سلطة ، أرز . . ومن الحلويات : مأمونية وهريسة . .

قلت :

ـ حساء!

ريثما أتى الحساء حسبت عشر مرات تقريباً نقودي إذا كانت ستكفي ثمن الطعام الذي سآكله أم لا . وطيلة فترة انتظاري ويدي في جيبي وأنا أعد فراطة النقود فيه .

شربت الحساء ، وأكلت اللحم المشوي ، ثم الهريسة ، وملأت معدتي جيداً . وبينما كنت أدفع الحساب ، لم أنس ترك خمسة عشر قرشاً بقشيشاً في الصحن . عندما خرجت من دكان المشاوي ، كان قد بقي في جيبي عشرون قرشاً .

وبمعدة شبعة ، وكأنني لن أجوع ثانية ، بدأت أروح وأجيء في الشوارع شارداً في خيالات كبيرة .

وقفت أمام بناء ضخم قيد الإنشاء . كان ذاك بناء ضخماً بُني منه أربعة طوابق . كان العمال ينقلون بالعربات اليدوية الرمل والإسمنت ، ويسحبون بواسطة البكرات الإسمنت المخلوط إلى الطوابق العليا ، وبعضهم يعمل على الهياكل الخشبية . كان العمل يسير ، وكأن المكان هناك خلية نحل . نسيت نفسي واقفاً هناك وأنا أراقبهم مدة طويلة ، ونسيت أنني أبحث عن عمل . ولكن بعد برهة صحوت . ألا يمكن لي أن أعمل هنا ؟ بينما كنت أدور حول

البناء ، رأيت رجالاً يدخلون ويخرجون من بناء إدارة الورشة ، ظننت أنهم مهندسون أو موظفون . دخلت بناء إدارة الورشة . كان الجميع منهمكين في العمل ، لا أحد يجد الفرصة ليرفع رأسه وينظر إلي .

بقيت هناك واقفاً أنظر إليهم . إلى أي واحد من هؤلاء سأذهب وأطلب عملا ؟ . كنت مسروراً بمراقبتهم وهم منهمكون في العمل . في تلك الأثناء وقفت سيارة فخمة جداً أمام باب الورشة . غلى الموظفون عندما وقفت السيارة . منهم من هب واقفاً ، ومنهم من ركض... وهرع كل من السائق ، ورجل كان قد رمى بنفسه من باب إدارة الورشة لفتح باب السيارة . خرج من السيارة رجل حسن اللباس ، يبدو في الخمسينات من عمره . دخل إلى بناء إدارة الورشة . انحنى ناظراً إلى المخططات التي على الطاولة ، استمع إلى الشروحات . سأل بعض الأسئلة . بينما كان خارجاً من الباب ، سألني :

ـ لماذا أنت واقف هنا ؟

قلت :

ـ لاشيء

ـ كيف لاشيء . .

ـ لا شيء فقط . .

ـ أليس لديك عمل أنت ؟ . أين تعمل ؟

سكتُ . فسأل الرجال الذين كانوا هناك :

ـ من هذا ؟

نظر الجميع إليّ مندهشين ، وكأنني مخلوق لم يُر ، ولم يُسمع عنه من قبل . فهمت من الحرارة التي شعرت بها في خديّ أن وجهي أصبح أحمرَ قانئاً .

ثم قلت بشكل ما :

ـ يا سيدي ، أنا أبحث عن عمل . .

ـ تعال معي لنر .

دخل إلى غرفة واسعة داخل مبنى إدارة الورشة . وأنا دخلت وراءه . أسند يده إلى طاولة وُضع عليها لوح زجاجي ، ونظر إلي .

ـ ماذا تعمل أنت ؟

ـ أي عمل يا سيدي .

ـ هم م م . . يعني تعمل أي عمل . . يعني أنت من أولئك الذين لاينفعون في شيء . أليس كذلك ؟

أطرقت برأسي ، ولم أنبس .

ـ أنت تقرأ وتكتب ، أليس كذلك ؟

ـ نعم .

ضغط على الجرس ، وقال للرجل الداخل راكضاً :

ـ خذ هذا إلى الوكيل حسان . كان يريد كاتب أمين مستودع . إسأله هل ينفع هذا في هذه الشغلة .

عندما خرجنا كنت أكاد أطير من الفرح . ذهبت خلف الرجل من بين أكوام الإسمنت والبلوك ، والأحجار ، والحديد . كان يوجد رجل يصرخ على العمال الذين يحملون المجبول الإسمنتي إلى الأعلى بواسطة البكرات ، وعلى الذين يعملون فوق الهياكل الخشبية . قال الرجل الذي اصطحبني للرجل الصارخ :

ـ يامعلم حسان ، أرسل السيد الكبير هذا . .

يجب أن يكون هذا هو الوكيل حسان . كان رأسه دائماً مرفوعاً إلى الأعلى ويحكي مع العمال . قال دون أن يلتفت :

ـ ماذا يعمل ؟

ـ سيعمل كاتب أمين مستودع . .

ـ هااا . . حسنٌ . . ليعمل . . هذا أنت ؟

ولكن رأسه كان دائماً إلى الأعلى . قلت :

ـ نعم ، أنا .

لم ينظر إلينا بعد ولا مرة واحدة . مازال رأسه نحو الأعلى .

ـ ستسجل المواد الواردة بدقة ، وتسلمها لأمين المستودع!

ـ أمرك!

ـ ثم ستسجل المواد الخارجة من المستودع في خانة الصادر . . فهمت ؟

ـ فهمت . .

فجأة صاح لأحد العمال على الهيكل الخشبي :

ـ ولاااه . . يا أهبل . . أخذت القالب بالغلط . . هذا ليس قالب هذه الجهة . إثر هذا قال بسرعة ودون فاصل :

ـ وستمسك دفاتر يوميات العمال . . تمام ؟

ـ تمام . .

مرة أخرى بدأ ينادي على العمال فجأة :

ـ ولاه مصروع أين القالب الرابع ؟ . . اضرب عليه من هذه الجهة . . اضربه ليثبت جيداً .

بينما كان ينادي على العمال ، كان يقول لي بعض الأشياء دون أن يترك فاصلاً بين القولين . ولأنه لم يلتفت إليَ أبداً اختلطت عليَ كلماته . لم أكن أفهم إذا كان يوجه الكلام إليَ أم إلى العمال :

ـ علي ي ي ي! وازنها ، وازنها أولاً!... ستمسك حساب يوميات العمال الذين يعملون كل يوم . . ولاااه . . أنا احكي معك . .

ـ معي ؟

ـ شد الحبل الى هذه الجهة . . ستمسك حساب كافة المواد التي يرسلها المتعهد . . هيـ يـ يـ ـه ، شد البكرة ، شدها . .! على هذا الطرف من الدفتر الداخل ، وعلى هذا الطرف الخارج... ليس إلى ذاك الطرف . . ليس إلى ذاك الطرف ولااه...

ـ سأكتبها في الطرف الذي تريدون . .

ـ انظر ، إلى اليسار ، إلى اليسار . خذوا الإطار الى الخلف . . ياالله ، رح خذ الدفاتر ، وابدأ... ستوقعه ولاه . .

لابد أن كلامه الأخير هذا كان موجهاً إلي . إنه لايدير وجهه عن العمال الذين على الهيكل الخشبي لأسأله . نظرت إلى خلفي فوجدت أن الرجل الذي اصطحبني إلى هنا قد ذهب . .

ـ لماذا أنت واقف هنا ؟ إذهب واطلب الدفاتر من إدارة الورشة .

هل كان الوكيل يراني دون أن يلتفت ، ودون أن ينظر إلي ؟

ـ طالعوا قوالب البيتون إلى فوق! . . لماذا تقف يا بني ؟ اذهب وخذ الدفاتر من إدارة الورشة . .

يجب أن يكون قد قال هذا لي . ذهبت إلى بناء إدارة الورشة . نظرت إلى الذين يعملون هناك باحثاً عن الرجل الذي أخذني إلى الوكيل فوجدته . قلت له بتردد :

ـ قال إنه يوجد دفاتر . .

فأخذني إلى رجل آخر :

ـ سيعمل كاتب أمين مستودع ، يريد الدفاتر . .

رفع رأسه الرجل الذي يجلس خلف الطاولة ، وسأل :

ـ من قال ؟

ـ السيد الكبير .

أخرج من هناك أربعة دفاتر ، وناولني إياها :

ـ هذا دفتر العمال ، وهذا دفتر اليوميات ، وهذا دفتر المستودع ، وهذا دفتر المواد . . أنت تعرف أليس كذلك ؟

لم أفهم مايجب علي أن أعرفه . ولكن لخوفي من ألا يقبلوني في العمل إذا قلت لا أعرف ، فقلت :

ـ أعرف .

وضعت الدفاتر الأربعة تحت إبطي ، ووقفت مندهشاً .

ماهذا المكان ؟ وأي رجال هؤلاء ؟ ودفاتر من هذه ؟ . . بينما كنت واقفاً مندهشاً . هبَّ من كان هناك واقفا ، منهم من لبس سترته ، ومنهم من خلع قميص الشغل . وخرجوا من الباب يتضاحكون ويتحاكون ، وعطّلوا العمالَ .

بقيت واقفاً أمام باب إدارة الورشة وفي يدي أربعة دفاتر . فجأة واجهتُ موقفاً مدهشاً جداً . لم أكن أستطيع فهم مايجري . في البداية دَهِشْتُ لسهولة إيجاد العمل . ثم إن هؤلاء الرجال الذين شغلوني لايعرفون من أنا ، ولايعرفون حتى اسمي ، وكيف وثقوا بي ؟ أو كيف أعطوني هذه الدفاتر ؟ الأهم من كل هذا أنني وجدت عملاً ، ولكن كيف هذا العمل ؟ كم سيدفعون لي ؟ بينما كنت واقفاً أفكر في هذه الأفكار المتداخلة ، لاحظت أن الوكيل قد أتى إلى أمامي . لم أفهم أن الرجل الذي يقف أمامي هو الوكيل حسان ، إلا بعد أن حكى :

ـ ما اسمك ؟

الحمد لله ، طلع من يسألني عن أسمي .

قلتُ له اسمي .

كيف عرفني هذا الرجل على الرغم من أنه عندما حكى معي لم ينظر إلى وجهي ولا مرة . فيما بعد ، ومع الأيام التي اشتغلت فيها هناك ، فهمت أن هذا الرجل يحكي مع من هم أدنى منه ، أو الذين يعملون بأجرة أقل من أجرته مثل العمال والمعلمين دون أن ينظر إلى وجوههم . كان لا ينظر إلى أمثال هؤلاء ، ولكنه مدهش بشكل لايصدق ، إذ كان يراهم دون أن ينظر إليهم . ولكنه عندما يحكي مع المتعهد أو المهندس أو مع أناس من هذه السوية كان ينظر إليهم . وكان لهذا الرجل عادة أخرى أيضاً : كان يستطيع التحدث مع ثلاثة أو أربعة أشخاص دفعة واحدة . أي أنه كان يساوي شخصين أو ثلاثة . ولكي يحكي بهدوء يجب أن يكون أمامه مهندس أو رب عمل ، أو رجل من هذه السوية . قيل إنه بدأ من صغره العمل في الإنشاءات . وحسب ما كنت أسمعه دائماً ، منه أو من الآخرين ، إنه معلم في البناء إلى حد أنه يضع حتى المهندسين في جيبه المخروق . كما انه يعمل منذ سنوات

طويلة مع المتعهد الذي يبني هذا البناء . وكان رجلاً ماكراً وقوياً ، وعارفاً لعمله ، وشغيلاً .

كان مديراً لي ظهره تقريباً عندما قال :

ـ ستبدأ العمل اعتباراً من صباح الغد .

قلت :

ـ حسن .

ـ يبدأ العمل في الثامنة ، ولكن عليك أن تكون هنا في السابعة والنصف ، لكي تأخذ أسماء العمال من رؤساء الورديات . هل تسكن بعيداً عن هنا ؟

سكتُ . كان لحظتئذ قد أدار لي ظهره تماما وقال :

ـ إذا كان مكانك بعيداً ، ابق هنا!

كان يحكي وهو ماشٍ :

ـ رح إلى أمين المستودع ، وقل له إنني بعثتك . . ليؤمن لك مكاناً تقيم فيه .

فيما بعد عرفت أنه دائماً يعمل هكذا . أثناء كلامه مع العمال ، يستدير لهم ، ويعقد يديه وراء ظهره ، ويمشي . والعامل الذي سيحكي معه يجب أن يذهب من ورائه . ولأنني لا أعرف هذا ، وقفت مكاني . وكان يتمتم وهو ماشٍ . أنا ظننت أن الرجل مجنون . آخر كلماته التي وصلت إلى أذني هي :

ـ باكراً . . في الساعة السابعة... على قدميك . .

قضيت ليلتي في المكان الذي أشار إليه أمين المستودع مع العمال الذين ينامون هناك . المكان هو الطابق السفلي من البناء . وبسبب برد الليل أشعل العمال بقايا أخشاب البناء . كان الدخان الذي ينبعث بشكل دائم من النار يخرج من الشباك .

أصبحتُ دون أن أنام تقريباً ، وأنا متمدد على الأخشاب .

وخلال يومين أو ثلاثة تعلمت العمل الذي سأقوم به . كان المتعهدون يجلبون مواد البناء من رمل وحصى ، وخشب وإسمنت ومسامير . لكل من

هذه المواد متعهدها . كنت أستلم المواد الداخلة ، وأسلمها لأمين المستودع الذي لايجيد القراءة والكتابة . ثم أعيد استلامها وتسليمها للوكيل فيما بعد . وأسجل كلاً منها على دفترها الخاص . وأبذل جهداً كبيراً لكي أحافظ على التوازن بين المواد الداخلة ، والمواد الخارجة من المستودع . غير هذا ، كنت أمسك دفتريوميات العمال . وفي نهاية الأسبوع كان يدفع للعمال يومياتهم على أساس هذا الدفتر . كانت يوميتي ليرتين . كنت أوفّر خمسين قرشاً على الأقل من الليرتين . في المساء ، بعد الانصراف من العمل ، كنت أصعد إلى الطابق العلوي من البناء ، وأرن قطع النقود الصغيرة الموجودة في جيب بنطالي ، وأنظر إلى المدينة من زاوية علوية . عندما كنت أنظر إلى أضواء المدينة من عل ، وأفكر بأن هذه المدينة ستكون في يوم ما لي ، أو على الأقل سيكون جزء منها لي ، كنت أرنّ بالنقود التي في جيبي بسرعة أكبر دون وعي .

كان العمال الذين أقضي معهم الليل يتحدثون عن مجيء المهندس المراقب في اليوم التالي بشكل مرح ، ويتضاحكون بصراحة ، لم أندمج مع العمال . لم أكن أحكي معهم وأنا مدير لهم ظهري مثل الوكيل حسان ، ولكنني كنت أنفر من خشونتهم ، وقذارتهم .

في اليوم التالي ، شغّل الوكيل حسان كافة العمال في صب البيتون . عمال الحديد يفرشون الحديد ، وآلة خلط البيتون تدور دون توقف ، والعمال يصبون المجبول البيتوني في القالب . وفي الأوقات التي لم يكن فيها ثمة ما يدخل إلى المستودع ، أو يخرج منه كنت أراقب البناء ، وكيفية تطوره باهتمام .

استمر سكب المجبول البيتوني فوق شبكات الحديد بعد الظهر أيضاً . عند المساء جاء المعلم بسيارته الفخمة . كان ثمة شاب إلى جانبه . عرفت من العمال أن هذا الشاب هو مهندس التفتيش . وقد جاء سابقاً عدة مرات ، وتفحص عملية البناء . كان المعلم الكبير يتأبط المهندس الشاب من ذراعه ،

وأحياناً يحكي له أشياء يمازحه فيها ، ويتضاحكان .

دخلا إلى إدارة الورشة ، وبعد برهة خرج مهندس المراقبة وفي يده مخطط البناء . جاء إلى جانب القوالب ، كان ينظر إلى المخطط ، ومن ثم إلى القالب ، وأحياناً يعد قضبان الحديد . كان من الواضح أنه يتأكد من مطابقة الحديد الموجود في القالب مع المبين في المخطط ، كان مهندس المراقبة يقوم بأعماله التفتيشية بجدية كبيرة . وأحياناً كان يلتفت إلى المعلم الكبير الذي كان بجانبه ، . ويقول :

ـ جيد جداً . . كل شيء تمام . . مطابق . . جميل جداً . .

وكان المعلم يبتسم لهذه الكلمات ، ويقول :

ـ كل شيء لدينا مطابق بالمليمتر . . كل ماهو موجود في المخطط ، موجود لدينا في البناء . .

انتهت المراقبة . وبعد أن بقي مهندس المراقبة مع المعلم الكبير مدة في إدارة الورشة ، ركبا السيارة ، وذهبا . كانت قد حلت ساعة الإنصراف . ولكن لم يُصرف العمال ، بل كانوا يشتغلون بكل مالديهم من طاقة . كان الوكيل حسان على رأسهم ، وكان يشتمهم ويصرخ بهم ليشغلهم بسرعة أكبر . لكنهم ماعادوا يصبون المجبول البيتوني في القوالب . على العكس ، كان يمسك قضيب الحديد عاملان ، أو ثلاثة ، ويشدونه . كانوا ينتزعون من كل شبكة جسر قضيبين حديديين . صارت قضبان الحديد المستخرجة من هناك تلة كبيرة . كان العمال يشتغلون بسرعة لا مثيل لها . ولكن الوكيل حسان يصرخ بهم من أجل أن يعملوا بسرعة أكبر . ثم صرخ قائلاً :

ـ يالله ، لا تقفا هكذا ، وتنظرا مثل المهابيل!

كان ظهره لنا ، ولكن كلامه موجه لي ولأمين المستودع . بدأنا نخرج قضبان الحديد التي أشير لنا أن نخرجها . سألت أمين المستودع عن سبب عدم الانصراف ، فقال :

ـ سيخرج الحديد!

ـ إذا خَرج في الغد فماذا سيحدث ؟
قال أمين المستودع الذي لايعرف حتى القراءة والكتابة :
ـ ولاه أهبل ، ليس غداً ، بل بعد ساعتين سيبدأ البيتون بالجفاف ، ولن يخرج الحديد من داخله .

لم أسأله بعدئذ عن سبب وضع الحديد إذا كان سيخرج بعد ذلك . لقد وضع هذا الحديد من أجل المراقبة وانتهت مهمته! وبينما كنت أسحب قضيب حديد مع أمين المستودع من داخل المجبول البيتوني الرطب ، سألته :
ـ ألا يهدم هذا البناء فيما بعد ؟
قال أمين المستودع :
ـ وهل أنت مهندس ولاه ؟ ابق في شغلك أنت .
كان الوكيل حسان يصرخ بكل قوته :
ـ اسحبوا! اسحبوا بسرعة ولاه ، سينشف البيتون!

في نهاية الأسبوع الثالث لعملي هنا ، وفرت أربع عشرة ليرة من يوميتي ، لا أنسى أبداً ، كان يوم اثنين . كنت سأرسل عشر ليرات من وفري إلى أمي . وبعد أن أرسلها ، كنت سأرسل لهم رسالة مطولة أحكي لهم عما جرى معي . كنت أعرف أن والديَّ سيفرحان كثيراً عندما سيأخذان النقود ، وهكذا سأعمل على تخفيف مصيبة فصلي من المدرسة عليهم . ولأنه عندما ننصرف من العمل يكون البريد قد أغلق ، فلم أجد الفرصة لإرسالها . يوم الاثنين بعد الظهر ذهبت الى الوكيل حسان لأطلب منه أذناً مدة نصف ساعة . عندما رآني من بعيد قادماً نحوه استدار ، وبدأ بالصراخ على العمال الذين ينصبون حديد البيتون في البناء :
ـ هذه حديدة بارزة ولاه . . اربطوا الأشرطة ولاه! . . ماذا تريد ؟
كان سؤاله « ماذا تريد » موجهاً إلي :
عندما قلت له :
ـ نصف ساعة . .

عاد إلى الصراخ على العمال :

ـ ولاه أنت تربط الأشرطة دون أن تشدها يابني . . قص نهايتها! ماذا تريد ؟ احك! . . أي قالب هذا ؟ . . آه يا أهبل! . . اسحب هذا الرأس . . احك يابني ماذا تريد ؟

عدة مرات وأنا اتمتم قائلاً : « نصف ساعة ، نصف ساعة » ، وفي اللحظة التي كنت سأحكي فيها ، كان يشتم العمال ويصرخ ، ويترك كلامي في فمي . غضبت كثيراً . لماذا أنا أحكي مع الرجل وهو يدير لي ظهره . . فجأة عبرت إلى مواجهته . عندما رآني استدار هو أيضاً . هذه المرة صار ينادي على العمال الذين صاروا وراءه . مرة أخرى عبرت إلى أمامه ، استدار مرة أخرى . استمر هذا الأمر عدة مرات . كدت أن أجنن الرجل ، ولكن فجأة ، وإذ بأمين المستودع ينادي :

ـ جلبوا الخشب ، جلبوا الخشب!

كان ثمة شاحنة محملة بالخشب واقفة عند باب المستودع . كان متعهد الخشب هناك أيضاً . ركضت إلى المستودع بسرعة . أخذت دفتر وارد وصادر اللوازم .

قال رجل المتعهد الذي يجلب الخشب :

ـ مجموعها ٢٤ متراً مكعباً ، أعطنا إيصالاً لنذهب .

ولكي لا يلاحظوا علي أي تقصير فيطردونني من عملي ، كنت أشتغل بدقة . قلت :

ـ عن إذنكم ، سنقيسها!

قال المتعهد :

ـ أي قياس يابني . هل تجلب إلى القرية القديمة عادة جديدة ؟ هات إيصال الاستلام لهذه . .

بدأت أقيس الأخشاب المكومة على الأرض بشكل اعتباطي ، وقلت :

ـ عن إذنكم ، سأقيسها بسرعة .

وبينما كنت أقيسها ، قال الرجل :

ـ يعني أنك لاتثق بنا ؟

قلت :

ـ أستغفر الله . لِمَ لا أثق بكم ؟ . . أليس من الأفضل أن أقيسها ؟ أنا أثق بكم ، ولكن لنر هل يثق الآخرون بي ؟ لأنني أنا سأسلمها إلى الأخ أمين المستودع .

قال المتعهد :

ـ اسمعوا هذا ياهوه . . إنه بلاء حل علينا . . ولاه من وضع هذا الجوكر هنا ؟ بقياس اعتباطي تبين لي أن الاخشاب ناقصة . لايمكن أن تكون أكثر من ١٨ متراً مكعباً . . بدأت قياسها بشكل أدق .

قال المتعهد لأمين المستودع :

ـ احك مع هذا ياهوه!

قال أمين المستودع لي :

ـ استلمها يا أخي ، استلمها!

ـ كيف أستلمها إذا كانت ناقصة ؟ وهي تبدو لي أنها ناقصة . انتظروا خمس دقائق سأقيسها . .

اقترب مني أمين المستودع وقال :

ـ ما الضرورة لهذا ياهوه! . . استلمها!

شككت في إصرارهم على هذا الأمر ، فقلت لأمين المستودع :

ـ حسنٌ ، ولكن هل تستلم مني أنت بضاعة ناقصة ؟

قال :

ـ أستلِمُها ولو كانت ناقصة . .

الله ، الله . .

ـ يعني أنك تعطيني وصلاً باستلامك ٢٤ متراً مكعباً ؟

ـ أما أعطيتك دائماً . . وهل أقيس أو أعد المواد التي أستلمها منك ؟

في الحقيقة كان أمين المستودع يعطيني إيصَال الاستلام دون قياس أو عد . لو حاول قياسها ، أو عدها فلن يستطيع ، لأنه لايعرف القراءة والكتابة .

مد إلي المتعهد عشر ليرات كاملة :

ـ ياللّه خذ هذه ، وكُلْ وجبة طعام على حسابي . . لاتطوّل الأمر بعد هذا . . ماشاء الله ستتعلم بشكل جيد . .

وقال أمين المستودع وهو يبتسم ابتسامة ذات معنى :

ـ تفتح بسرعة مثل زهر القرع . .

قال المتعهد :

ـ بيّن من عينيه ، ولد ذكي . .

رد عليه أمين المستودع :

ـ ما قال الأولون عن عبث : القرن ينبت بعد الأذن ، لكنه يتجاوزها .

يد المتعهد التي تمسك عشر الليرات ، مازالت ممتدة في الهواء :

ـ أشكركم ، لا أريد .

واستمررت بقياس الاخشاب بالمتر . قال أمين المستودع :

ـ استقلَّ المبلغ .

رد عليه المتعهد :

ـ هذا الشاب مفتح العينين أكثر مما كنا نتوقع... (التفت إلي) يابني ، لاتحاول أن تصبح غنياً بسرعة إلى هذا الحد . . آه ياما تعذبنا حتى وصلنا إلى ما وصلنا إليه نحن الآن . .

هذه المرة مد إلي قطعتين من فئة الليرات العشر :

ـ خذ هذه أيضاً خذ .

ـ أنا لا أريد منك نقوداً . أنا أتقاضى أجرتي . اسمحوا لي بقياسها .

ـ ولكن لن يكون هذا لصالحك .

عندما وجدني لا أنبس ، ومنهمكاً ، بقياس الأخشاب :

ـ حسنٌ ، أنت تعرف مصلحتك . . لم يبق علي ذنب (صاح) : يا وكيل

حسان ، ياوكيل حسان ، تعال كرمى لله . .

جاء الوكيل حسان راكضاً . عندما سمع صوت المتعهد تاركاً العمل والعمال . وقال المتعهد :

ـ من أين تأتون بمهابيل كهؤلاء ياهوه ؟ وهل ثمة أزمة رجال في هذا البلد ، أما وجدتم غير هذا نطعمه...

سأله الوكيل حسان وهو مدير ظهره إلي :

ـ خير إن شاء الله ، ماذا جرى ؟ هل قام بعمل مشين ؟

كنت واثقاً أنه عندما يعرف حقيقة الأمر سيقف إلى جانبي . كانوا سيخوزقون متعهد البناء الذي شغلني على مرأى من عيون الجميع . عندما سيرى أنني مستقيم سيزيد يوميتي . الإنسان هكذا يتقدم في عمله ، مهما كان هذا العمل...

قال المتعهد :

ـ افهمني . إنه يصر على قياس الأخشاب... إذا كان الأمر أمر قياسها فليقسها . . أنت تعرف أننا لانرسل بضاعة ناقصة . . ولكننا لا نستطيع توقيف الشاحنة هنا... ولم يسمع منا كل ما قلناه . . احك معه ياهوه . .

قال لي الوكيل وقد أدار لي ظهره جيداً ، وكأنه يحكي مع الهواء :

ـ ماذا جرى ولاه . . لماذا لاتستلم الأخشاب ؟

قلت :

ـ لأنها ناقصة . . أنا أستلمها ، ولكني أعطي وصل استلام بكميتها الحقيقية .

ـ إنظر إلى هذا ، جاء يعمل فوق رأسنا نزيهاً . . استلمها بسرعة ، وأعطه الإيصال...

وبسرعة التفت إلى امام الوكيل . ولأن المتعهد أمامه فلم يدرِ لي ظهره ، بل التفت برأسه فقط :

ـ ولكن يا معلم حسان ، أنا سأسلم هذه البضاعة لأمين المستودع .

قال أمين المستودع :

ـ أنت مالك ؟ ألا نعطيك إيصالاً بأننا استلمنا منك ياه ؟ . .

ـ حسن ولكنني سأسلم البضاعة التي تخرج من المستودع للوكيل حسان . إذا سلمت الوكيل حسان ١٨ متراً مكعباً من الخشب ، هل سيوقع لي على استلام ٢٤ متراً مكعباً ؟

ـ يالله ، يالله لاتطوّلها . أنا أوقع على الكمية بأنني استلمتها بقدر الكمية التي تدخل إلى المستودع .

في هذا العمل سفالة ما ، ولكنني لم أستطع فهمها . قلت :

ـ ولكن هذه مسؤوليتي . .

ـ ماهي مسؤوليتك ؟ انظر إلى هذا . . يابني أنت مجرد كاتب . . وظيفتك تسجيل الوارد والصادر . الكمية التي تدخل المستودع ، تخرج... ما علاقتك أنت في هذا الأمر . .

في الحقيقة كان الأمر على هذا النحو . أنا سأسلم الكمية التي استلمها مهما كانت الكمية المستلمة . ولكن كان يتهيأ لي أن في هذا العمل فساداً . يدخل إلى المستودع ١٨ متراً مكعباً من الخشب ، ويخرج ١٨ متراً مكعباً . ولكن سيبدو في الدفتر أنه خرج ٢٤ متراً مكعباً .

قلت :

ـ ستة الأمتار المكعبة من الخشب ؟

صرخ بي مراقب العمل :

ـ أنت مالك ولاه ؟ هذا المجنون ، يخرج الانسان عن طوره ياه . . اقطع الإيصال بسرعة .

ـ لن أقطعه .

ـ يا بني مادخلك أنت ؟ لا أحد يخسر في هذا الأمر . . يدخل ٢٤ متراً مكعباً ، ويخرج ٢٤ متراً مكعباً . أين الخسارة في هذا الأمر ؟

لابد أن هؤلاء اتفقوا على خوزقة المتعهد الذي شغّلني . فقلت :

ـ لن أعملها . .

ـ أطردك من هنا ولاه .

ـ وأنا سأخبر السيد الكبير . .

كان الجميع هناك يسمون متعهد البناء : «السيد الكبير» .

ـ أنا الذي سأقول للسيد الكبير ، ليطردك من هنا .

ذهب المتعهد الذي جلب الأخشاب بصحبة مراقب العمل . فقال لي أمين المستودع :

ـ لم تعمل حسناً . هذا ليس من صالحك . . روَحتَ من يدك عشرين ليرة وستطرد من العمل . . في البداية حسن مافعلت ، قلت لنفسي ولد ذكي . ولكنك لم تقتنع بالعشرين ليرة . قال الأولون : الطمع ضر مانفع . كم عدد الذين يوزع عليهم الرجل النقود من الآن حتى المساء . سيعطيني ، ويعطي للوكيل... إيه ، الفرق كله ستة أمتار مكعبة... على الرغم من كل شيء فالرجل جيد وكريم . .

ماحكيت ولا كلمة ، أضاف أمين المستودع :

ـ لن يضرك هذا الأمر في شيء . . تأخذ ٢٤ متراً مكعباً ، وتعطي ٢٤ متراً مكعباً . .

قلت :

ـ ولكن السيد الكبير يخسر .

ـ لماذا سيخسر السيد الكبير يا أخي . الكمية التي تدخل ، تخرج . لايوجد فرق . . إذا دخل ٢٤ متراً مكعباً ، وخرج ١٨ متراً مكعباً عندئذ سيخسر السيد الكبير .

ـ حسنً ، من الذي يخسر في هذا الأمر .

ـ لا أحد .

ـ الله ، الله . . ياهوه ، ستة أمتار مكعبة من الخشب تطير على مرأى الجميع ولا أحد يخسر ، أممكن هذا ؟

ـ احك أنت . من الذي يخسر ؟

لابد أن أحداً ما يخسر ، ولكن لا أستطيع بأي شكل من الأشكال معرفة من هو . تلخبط عقلي تماماً . قال أمين المستودع :

ـ يوجد من يخسر في هذا الأمر ؛ هو أنت . روّحت من يدك عشرين ليرة . . بالنسبة لنا فالأمور على مايرام . . إذا لم تستلم كيفما كان يوجد من سيستلم . . وشغلتنا لا تخرب...

من الممكن الذهاب وشرح كل شيء للسيد الكبير ، ولكن هذا كان مثل الإخبار . نحن في المدرسة لم نكن ننظر نظرة جيدة إلى من يذهبون ويشتكون . كيفما كان ستظهر حقيقة الأمر .

جاء عامل ، وقال :

ـ يريدك السيد الكبير .

هاا ، تمام ، ستُفهم القضية الآن ، كنت سأشرح كل شيء للسيد الكبير .

نقرت على باب غرفة السيد الكبير في إدارة الورشة ، ودخلت . كان المتعهد والوكيل أيضاً هناك . قال السيد الكبير :

ـ هذا أنت ؟

لم أكن أعرف ما سأجاوب . سألني هذه المرة :

ـ لماذا لاتقطع لهم إيصال الاستلام ؟

هاا ، الآن جاء وقت ما سأحكيه . فوق هذا سأقول ما سأقوله في وجه المتعهد والوكيل . . بدأت قائلاً : « يا سيدي » ، وأضفت :

ـ يا سيدي سلمني ١٨ متراً مكعباً من الخشب المسوّى ، ويريدني أن أعطيه إيصالاً بأربعة وعشرين متراً مكعباً .

ـ إيه . . ماذا جرى . أعطه الإيصال .

لابد أنني لم أستطع التوضيح .

ـ يا سيدي ، لم أستطع التوضيح . سلمني ثمانية عشر متراً مكعباً من

الخشب ، ويريدني أن أقطع له إيصالاً بزيادة ستة أمتار مكعبة .

ـ فليكن ، ماذا سيحدث ؟

الله الله ، لم أستطع التوضيح بأي شكل :

ـ يوجد فرق مقداره ستة أمتار مكعبة يا سيدي .

ـ ولاه ، إذا لم يجلبْ خشباً أبداً ، ولم يطلب منك إيصالاً بعشرين متراً مكعباً ، بل طلب منك إيصالاً بمائة متر مكعب فعليك أن تعطيه .

هذه المرة أنا الذي ما فهمت قوله .

وصاح بوجهي قائلاً :

ـ أعطه الإيصال!

بينما كنت أقول له :

ـ اسمحوا لي لكي أشرح لكم . .

خرّسني قائلاً :

ـ طولتها كثيراً . اقطع الإيصال بسرعة .

ولدهشتي عندئذ كدت أن أقول له : « أمرك يا سيدي » ولكن حسن أنني استجمعت عقلي وشرحت الوضع مجدداً . إثر هذا ضحك المعلم الكبير غيظاً مني لعدم تفهمي ، وقال :

ـ ولاه ابني ، عندما تعطي إيصالاً باستلامك أربعة وعشرين متراً مكعباً . ألا يعطيك هذا الوكيل إيصالاً باستلام أربعة وعشرين متراً مكعباً ؟

ـ يعطيني . .

ـ تمام . . هذا يعني أن الداخل إلى المستودع مثل الخارج منه . .

ـ ولكن ستة الأمتار المكعبة الفرق ، أين ذهبت ؟

ـ ولاه ، بأية ستة أمتار تهذي أنت ؟

ـ يوجد خسارة يا سيدي .

احمر المعلم غضباً ، فصار مثل الشمندر ، وصاح قائلاً :

ـ أي خسارة ولاه ؟

قلتُ :

ـ بالطبع يوجد خسارة .

كاد الرجل ينفجر من غيظه . نغَّمَ صوته :

ـ حسنٌ ، إحك! من الذي يخسر ، هل هو المتعهد ؟

ـ لا .

ـ أمين المستودع ؟

ـ لا .

ـ الوكيل ؟

ـ لا .

ـ أنت ؟

لا .

ـ إذا كنت أنت لا تخسر ، فلماذا تتدخل فيما لايعنيك . . هل يوجد ما يدخل عليك أو يخرج منك ؟

ـ ولكن يا سيدي ، يوجد ستة أمتار خسارة .

ـ أية خسارة ولاه! . . جننتني . . من يخسر ؟

ـ لابد أنكم أنتم تخسرون .

ضحك ساخراً .

ـ واخ . . يعني أنا أخسرهاا ؟ مابقي لنا غيرك يفكر بحمايتي ، وخسارتي ؟ ثم قل لي لماذا أخسر ؟ الكمية التي تدخل إلى المستودع تخرج منه . أين الخسارة في هذا الأمر ؟ من يخسر ؟

صار عقلي رأساً على عقب . قلت :

ـ من ناحية الخاسر فهو موجود ، وإذا لم تكونوا الخاسرين ، فأنا لا أعرف من الذي يخسر ، ولكن من المؤكد أن هناك خاسراً...

قال المعلم الكبير للمتعهد عني :

ـ إنه بغل . أنا لم أر عنيداً مثلك .

التفت إلى الوكيل :

ـ أين وجدتم هذا ؟

ـ نحن لم نجده ، أنتم أرسلتموه . .

ـ أنا ؟ متى ؟

ـ كان الكاتب السابق جيداً جداً ، وعاقلاً .

ـ وحتى الآن كان هذا جيداً أيضاً . لم يعكر أمورنا نهائياً . ماعمل هذا في موضوع الرمل والإسمنت والحديد .

عندئذ فهمت أنهم خوزقوني سابقاً . هذا يعني أنني لم أتأكد من كمية الرمل والإسمنت والحديد أثناء الاستلام . .

قال المعلم الكبير :

ـ ما اسمك ؟

على الرغم من عملي كل هذه الفترة ، سيعرف الرجل اسمي الآن . قلت له اسمي .

ـ هل ذهبت إلى المدرسة ؟

ـ نعم ، تركتها في السنة الأخيرة من الثانوية .

صاح قائلاً :

ـ ماذا ؟ من الثانوية ها ؟ ادعاؤك العلم ليس من فراغ ؟ لماذا لم تنه الثانوية ؟

أنا معتاد ألا أكذب . عندما قلت له إنني فصلت من الثانوية العسكرية . قال المعلم الكبير :

ـ هم م م ، الآن فهمت . من يدر أية سفالات عملت لكي يفصلوك ؟

التفت إلى الوكيل :

ـ من يعلم من هو هذا ؟ هل هو حرامي أم منحوس ؟ لماذا تشغّلون أمثال هؤلاء دون الاستفسار عن ماضيهم ؟ نحن يلزمنا رجل ثقة...

كدت أبدأ الكلام قائلاً :

ـ ولكن...

صاح بي عندئذ :

ـ اغرب ، انقلع . . أنت مطرود!

خرجت من هناك وأنا لا أعرف ما الذي جرى لي . كنت قد اشتريت بدلَ ألبسة داخلية . بينما كنت ذاهباً لأخذه ، سألني أمين المستودع :

ـ ماذا جرى ؟

قلت :

ـ طُردت من العمل .

ـ أنت بعقليتك هذه ستطرد كثيراً!

قلت لأمين المستودع :

ـ سأسألك شيئاً : طالما أن المواد التي تدخل المستودع لاتقاس أو توزن ، فلماذا شغلوني أذن ؟

ـ الروتين هكذا . . يجب إيجاد شخص بصفة كاتب أمانة مستودع ، لتكون الحسابات دقيقة . . إن كنت أنت ، أو كان واحداً آخر ، لافرق . . الآن يشغلون واحداً غيرك .

قلت :

ـ هناك شيء آخر لم أفهمه : قال السيد الكبير « يلزمنا رجل ثقة » . كيف يمكن الوثوق برجل يأخذ المواد ويسلمها دون قياس أو وزن ؟

قال أمين المستودع :

ـ أنت تسخرمني ، أم أنك فعلاً مهبول ؟

قلت :

ـ لا أعرف .

قال أمين المستودع :

ـ رجل ثقة يعني رجل لا يأخذ حتى الزبالة من هنا إلى الخارج ، ولايبيع مسماراً . منذ البدء في هذا البناء حتى الآن تغيّر تسعة كتاب ، جميعهم ألقي

القبض عليهم بالسرقة وطردوا . الوحيد الذي لم يسرق هو أنت ، وها إنك ترتكب حماقة . .

قلت :

ـ عفوك ، سأسألك عن شيء آخر .

قال :

ـ اسأل .

ـ اسمع يدخل الآن الى المستودع ثمانية عشر متراً مكعباً من الخشب ، ويعطى إيصال بأربعة وعشرين متراً مكعباً . والوكيل أيضاً يعطي إيصالاً باستلامه أربعة وعشرين متراً مكعباً من الخشب ، تمام ؟

ـ تمام ؟

ـ أنا لا أخسر ، وأنت لاتخسر ، والمتعهد لايخسر .

ـ نعم .

ـ الوكيل لايخسر ، والمعلم الكبير لايخسر . حسنٌ ، من الذي يخسر ياهوه ؟

ـ لا أحد يخسر . .

ـ سأجن ياهوه . ماذا جرى لستة الأمتار من الخشب ؟ هل طارت ؟!

في تلك الأثناء سمعت صوت الوكيل . كان ينادي عليَ :

ـ أما زلت هنا ؟ اجمع خرقك ، ومالَكَ ، واذهب من هنا!

عندما كان يقول هذا كان مديراً مؤخرته إلينا . صاح لأمين المستودع . كان يقول شيئاً ما ، وقد عقد يديه خلفه ويمشي ، وأمين المستودع يمشي وراءه وهو يستمع إليه ، وأحياناً يقول له :

ـ حسنٌ ، حسنٌ ، ممكن ، . . .

بينما كان الوكيل يبتعد سمعته يقول لأمين المستودع عني :

ـ لا تدخلوا هذا الكلب إلى هنا .

وضعت ألبستي الداخلية الملفوفة بورقة جريدة تحت إبطي ، ومشيت في

الشوارع لا أدري إلى أين . . كنت أبكي . ومن جهة أخرى أفكر : ماذا جرى للأمتار الستة من الخشب ؟ ثمة من يخسر ، ولكن من هو ؟

لم أستطع معرفة الخاسر إلا بعد سنوات طويلة . كانت الدولة هي التي تخسر . كان المتعهد يبني بناء للدولة . وكانت المواد تشحن على حساب الدولة . كانت الدولة تدفع ثمن المواد حسب إيصالات الاستلام . والكمية التي تدخل من المواد تصرف في البناء ، أي يُعمل على إظهارها أنها تُصرف .

في الحقيقة كان المتعهد لايريد أن يشتغل عنده لصوص . بعد سنوات تعلمتُ هذا أيضاً : اللص لايريد الآخرين أن يسرقوا من المكان الذي يسرق منه . خاصة إنه لايحتمل سرقة شيء دون علمه أبداً . فاللصوص الكبار يريدون تحديد الكمية التي يسرقها اللصوص الذين بحمايتهم ، لكي يستمروا بالقول لهم : « أمد الله بعمركم يا سيدي » .

الحلم المخيف

أظن أن لكل شخص حلماً ، أو حلمين لاينساهما أبداً . في الحقيقة إن حلماً رُؤِيَ قبل سنوات طويلة يبقى في ذاكرة الإنسان محفوراً أكثر من حادثة واقعية قام بها ألف مرة .

نعم مر على رؤيتي ذلك الحلم أربعون عاماً ، ولكنني مازلت لا أستطيع نسيانه ، وأتذكره بشكل متكرر . وهل بيد الإنسان عدم التذكر ؟ الحياة تذكرنا غصباً عنا . وكأن ما رأيته ليس حلماً ، بل تصوراً لأيام سأعيشها في المستقبل .

كانت الليلة الأخيرة لي في ورشة البناء . وقد عملت لنفسي فراشاً من أكياس الإسمنت الفارغة . كان يوجد في غرفة ترابية الأرض من البناء المجاور عمال بناء أكثرهم قرويون . كنت أسمع ضجيجهم من حيث أنام . كان النور الضعيف للفانوس يزيد من ظلمة الليل ، ويشعرني بالوحدة أكثر . كانت ليلة عاصفة . والسماء تمطر مزاريب وكانت ترعد بشكل مخيف يجعل صفيح سقف المستودع وزجاج شبابيكه تهتز . والبرق الذي كان يقدح أحياناً ، يجعل جدران الغرفة التي أنام فيها تلمع . وكما ترون كل التفاصيل مازالت شاخصة أمام عيني .

نثر الفانوس الموضوع على الطاولة التي صنعتها من أخشاب قالب البيتون ، دوائر ضوئية كبيرة على السقف .

كان المطر يخرج صوتاً يُشبه إطلاق النار من بارودة آلية جرّاء سقوط حباته على صفيح السقف . نمت وسط أصوات الصفيح والرعد .

رأيت نفسي في حلبة . ولكنها حلبة كبيرة ، مثل تلك التي يُعمل فيها مصارعة الثيران . كنت عارياً تماماً . . فوق هذا ، كانت السماء تمطر مطراً بارداً جداً . وكنت أرتجف ، وأسناني تصك بعضها بعضاً .

كانت جدران الحلبة مرتفعة جداً ، وعمودية مثل جدران القلعة . الوقت ليل . ظلام دامس... فجأة نُوِّرت الحلبة بأضواء برّاقة جداً . فجأة رأيت آلافاً ، أو عشرات الآلاف من المتفرجين في أجنحة مذهبة ومحفّرة ، وأركانها ملبسة بالمخمل الأحمر الغامق ، مصفوفة في محيط الحلبة على الجدران المرتفعة . الجميع يتفرج عليّ . كان يرتفع ضجيج لغو المتفرجين بشكل مخيف وكأنه صوت إطلاق مدفعية . ولا أخجل من كوني عارياً . أنا متبلل بالمطر وبردان...

أردت أن التجئ إلى مكان ما . كلما أردت إخفاء شيء من عريي كانت ترتفع أكثر أصوات القهقهات الظالمة لعشرات الألوف من المتفرجين المزدحمين .

بقيت أتلوى ، وأنا متكورٌ على نفسي في تلك الحلبة الضخمة . وأبكي .

فجأة ظهرت أبواب عديدة في جدران الحلبة العمودية ، وأنبعث النور من هذه الأبواب . وكلما دار المصباح الذي ينبعث منه ضوء مبهر على جدران الحلبة المرتفعة كانت تظهر بشكل أجلى الأبواب المزدانة ، المفتوحة على الجدران . لم يكن للأبواب مصاريع ، بل لها إطارات محفّرة ومشغلة ومذهبة ، ومزدانة جداً . كانت تشبه أبواب القصور . ومن كل إطار باب ينبعث ضوء ناعم وجميل بلون مختلف . وأنا لكي أهرب وأختبئ من قهقهات المتفرجين الظالمين الساخرين ، ومن مسكنتي ، ومن عريي ، هرعت إلى أقرب الأبواب المفتوحة قربي . كانت تتدفق من هناك أضواء زهرية بدرجات مختلفة كما تتدفق المياه من نافورة . وركضت وأنا أتمايل إذ أغطي عورتي . وفي اللحظة التي دخلت فيها من ذلك المكان المضيء ، وحسبت نفسي أُنقذت . فجأة قفز

نحوي رجال عمالقة جثثهم ضخمة ، بنياتهم عتية ، يحملون في أيديهم سياطاً طويلة ، زهرية اللون ، وبدأوا يضربونني بها . ولكن بعد برهة وجدت أن ما بأيديهم ليس سياطاً ، بل ديداناً طويلة ، لونها وردي . كان الرجال أصحاب السياط الدودية يجلدونني على ظهري ، وحيّاتهم تسوطني على كتفيّ العاريين . كنت أركض فيلحقونني . كلما هربت منهم وابتعدت كانت الديدان التي بأيديهم تطول ، وأينما ذهبت تلتف على خصري وذراعي .

كان ضجيج آلاف المتفرجين وهتافاتهم المدوية الساخرة ، يجعل السماء والأرض تتضاربان . رميت نفسي إلى باب آخر ينبعث منه نور أزرق لكي أهرب ، وأحتمي من وحدتي وشعوري بالبرد ، وخجلي ، ومن القهقهات المدوية . ولحظة غوصي في الباب الذي لا مصراع له ظهر أمامي الرجال العمالقة ذوو البنيات الضخمة ، وفي أيديهم أفاع زرقاء اللون... ركضت إلى الأبواب التي تنبعث منها الأضواء الصفراء ، والبيضاء ، والخضراء ، والحمراء . وفي كل باب يقفز نحوي الرجال حاملو الأفاعي ، وكان في أيديهم أفاع ملونة .

كان كل هؤلاء الرجال ذوو السياط الأفعوانية يحاصرونني ويدفعونني نحو ثقب ضيق ، ويعملون على إدخالي في ذلك الثقب . وبأمل الخلاص رميت بنفسي إلى ذلك الثقب ، ولكنه كان ضيقاً من جهة ، وواطئاً من جهة أخرى ، فلا يتسع لي... فوق هذا كان ينبعث من ذلك الثقب شرر حام .

نظرت إلى الثقب الضيق ، يا لطيف!... كان جباً عميقاً جداً . داخل الجب حمم تغلي وألسنة لهب تتراقص ويلتفُّ بعضُها على بعض .

كان الرجال ذوو السياط يريدون دحرجتي إلى جب الحمم الضيق هذا .

فجأة... طرت... تحولت يداي إلى جناحين . . وارتفعت قدماي عن الأرض . صارت الحلبة تحت قدميّ . ولكن لم أستطع الطيران إلى ارتفاعات شاهقة . لم أستطع الطيران أكثر من ارتفاع مكان جلوس المتفرجين . وآلاف ألسنة الحلوق المفتوحة تتراقص وتتلوى مثل الديدان . كنت أرى عشرات

ألوف العيون ، وكلها تتلامع ، وتشعل وتنطفئ وكأنها حشرات سامة . وكانت هذه العيون تتوجه صوبي مثل الرصاص .

كانت السياط الأفعوانية تستطيل نحوي من الأسفل . لم أستطع الطيران إلى ارتفاع أعلى . ثم التفت تلك الأفاعي الملونة على رجليّ وخصري وبدأت تشدني إلى الأسفل . انزلني العمالقة إلى الأرض ، وصاروا يدفعونني نحو ذلك الجب الناري . . كنت أريد أن أنادي ، ولكن صوتي كان مبحوحاً .

استيقظت وأنا أتخبط . كدت أغرق في عرقي ، وأرتجف خوفاً .

بقيت فترة وأنا أنظر إلى بقع الضوء الكبيرة التي تنعكس من فتحات أعلى الفانوس على السقف . نهضت . خرجت ، ووقفت أمام الباب دون أن ألبس بنطالي . كانت السماء تمطر مطراً غزيراً ، وتبرق وترعد .

رفعت رأسي إلى السماء . ملأت يدي بماء المطر ، وغسلت وجهي .

لم أنم في تلك الليلة حتى الصباح .

صار هذا الحلم بالنسبة إلي ما يشبه العقدة . هل جرى أنكم رأيتم الحلم نفسه عدة مرات ؟ أنا فيما بعد رأيت هذا الحلم عدة مرات . تتغير فيه بعض الأشياء ولكن الحلم نفسه دائماً... حتى إن تلك الحلبة صارت بالنسبة إلي وكأنها مكان عشت فيه طفولتي .

ثم اكتشفت أن ما رأيته ليس حلماً ، بل كان مستقبلي .

كان الناس قد سدوا المداخل إلى امكنتهم الجميلة الملونة التي جلسوا ، واحتموا فيها ، ولم يتركوا لي إلا ثغرة واحدة . وهذه الثغرة هي جب النار . كلما أردت الخلاص ، دفعوني إلى تلك الثغرة الوحيدة . مع أنني لا أريد الدخول فيها...

سدت كافة الثغرات ، وغُلِّقت كافة الأبواب ، وقطعت كافة الطرق . لم يبق إلا طريق وحيد أستطيع الذهاب منه ، وباب وحيد أستطيع الدخول فيه ، وثغرة واحدة أستطيع العبور منها . والجميع يضغطون عليّ للذهاب إلى هناك . ومهما فعلت لا أمل لي سوى الذهاب من ذلك الطريق الوحيد أو الدخول من

ذاك الثقب الوحيد وبالتالي السقوط في السجن .

تجولت على مدى يومين في تلك المدينة ذات المليون نسمة ، ولم أستطع إيجاد عمل يشبع بطني . صعدت إلى برج البيازيد . ولأن قدمي ما عادتا تستطيعان حملي من التعب صعدت وأنا أجرهما جراً كنت أمسك بحيطان البرج ، وأسحب نفسي ، وأرتاح على الدرج ثم أعود إلى الصعود .

ظننت نفسي برهة أنني برج . توحدت مع ذلك البرج ، وانصهرنا . (لم يستعمل باشازادة كلمة «انصهرنا» أثناء حكايته قصة حياته . ولا أذكر الكلمة التي استخدمها بدلاً من هذه الكلمة . ولكن هذه الكلمة تعبر عن المعنى الذي يريد قوله بدقة) .

ظننت أن طولي صار بطول البرج ، وأن جذعي هو جذع البرج ، وكنت أنظر إلى المدينة التي صارت بين قدمي من علٍ . إن الناس بالنسبة إلي في الحقيقة كما يُرون من هذا الارتفاع مثل النمل .

عندما نظرت من شرفة البرج إلى المدينة الواسعة ، وإلى السماء التي ظننت أنها صارت أقرب إلي ، وإلى حزم الضوء المنبعثة من بين الغيوم ، كان قلبي يمتلئ بالآمال اللطيفة والمضيئة... العيش... العيش مهما صار... هذا العالم جميلٌ . تهيأ لي أنني لو انحنيت على هذه المدينة ستصير طرقها وبناياتها تحت يدي... هذا المكان ، وهذه الطرقات ، وهذه البيوت ، وهذه البنايات كانت ستصير ملكي ياه ؟ . . مازال هذا ممكناً . . وبهذا الأمل الذي تفتق ، وأنتش ، وتبرعم نزلت من البرج ، وكأن الناس سيستقبلونني ، وسأجدهم... يبدون لي حلوين . كنت أندس في الزحام ، وفي زحام أكبر ، وفي زحام أكبر بكثير .

الحقيقة التي في كل كذبة

هل ما كان يحكيه لي حقيقة ؟ أم أنه كان يلّفق ؟ كثيراً ما فكرت بهذا . كان يعرف أنني أكتب في دفتري ليلاً ما كان يحكيه لي في النهار . لعله كان يضحك في داخله أثناء كتابتي في دفتري ما حكاه لي في النهار من كذب وجعلني أصدقه ، أي لما خدعني به . إذا كانت كل هذه الأحداث كذباً فهذا يعني أنه احتال علي كما احتال على كثير من الناس . ولكن لماذا ؟ إنه لا يستفيد مني أبداً ، وليس له أية مصلحة معي... إذا كان ثمة شيء من هذا ، فهو الشعور بالسمو وإرادة الخلود التي يشعر بها كل إنسان... هذا ممكن . أنا لم أقل له إنني سأنشر ما كتبته عنه في جريدة أو كتاب ، ولكن من المؤكد أنه يعرف هذا . ستدخل حياته الكتب . مادام الأمر على هذا النحو فلا بد أن في شخصيته ماهو خارق . لهذا السبب فهو لايحكي عن حياته التي عاشها في الحقيقة ، ولكن عن الحياة التي يتصورها . وهكذا سيسمو بشخصية خيالية خارقة ابتدعها وحكى عنها . وتتحول حياته إلى كتاب سيخلد مستمراً بحياة أخرى ذات بعد ثالث بعد مماته .

ولكنني أفكر أيضاً أنه لايمكن أن يكون كل ما يحكيه لي كذباً . لأنه يحكي ، كأن ما يحكيه حقيقة لا يمكن تلفيقها . كان يقنعني . لو لم أصدق فلماذا سأسجل ما يحكيه على دفتري ؟ ما الذي كان يقنعني ؟ كان يغوص في التفاصيل الدقيقة أثناء حكيه الى حد يصبح فيه من غير الممكن عدم

التصديق . ثمة تفاصيل لايمكن للإنسان أن يبتدعها ، أو يأتي على ذكرها إذا لم يعشها . كنت أكتب ما يحكيه على الدفتر .وعندما أفكر على هذا النحو أقتنع بضرورة تصديق ما يحكيه .

لعل باشازادة إنسان يعيش في أحلامه وتصوراته وتلفيقاته أكثر مما يعيش في حقائق حياته . وعندما يكون الأمر على هذا النحو ، تكون شخصيته الحقيقية عبارة عن تلفيقات كهذه .

عليَ قبل كل شيء تحديد ماهو مهم في موضوع باشازادة . لو حكى هذا الرجل المدعو باشازادة ماجرى له في الحقيقة ، أو لوكان كل ما يحكيه قد وقع له بالفعل ، فهل سيكون هذا أكثر أهمية مما سيحكيه ، وسيلفقه وكأنه وقع له ؟

في الحقيقة كنت محتاراً . لم أرد الاستماع إلى قصص باشازادة الملفقة والمحكية على أساس أنها جرت له ولم أرد كتابتها . أنا كنت أريد كتابة الحقيقة . ولكن ماهي الحقيقة في شخصية باشازادة ؟ هل هي أحلامه ، وتلفيقاته ، وتصوراته ، أم ما عاشه ؟

كنت قد أستمعت من قبل إلى آخرين حكوا أحداثاً ملفقة ، ومتصورة على أنهم عاشوها . بين هؤلاء أشخاص مشاهير جداً يحترمهم المجتمع ، وغدوا جزءاً من قيمه المشتركة . لماذا كانوا يكذبون ؟ وكما يكذب بعض الأطفال... من أجل لفت الانتباه ، ومن أجل أن ينظر إليهم بأهمية... مادام الأمر هكذا ، ما هي حقيقة حياة أولئك الأشخاص المشهورين والمحترمين ؟ هل ما لفقوه وحكوه ، أم ما عاشوه ، ومحوه من حياتهم ؟

بينما كنت أفكر بهذا تذكرت فصلاً من كتاب قرأته منذ زمن طويل . نسيت اسم الكتاب ، واسم مؤلفه ، وحتى موضوعه . ولكن ثمة فصل في ذلك الكتاب انحفر في ذاكرتي لا أنساه أبداً . كان الفصل عبارة عن قصة حادثة تدور بين شيوعي صيني ، وأحد أفراد الأمن السياسي في الصين . في الفترة التي كان يعمل فيها الحزب الصيني بشكل سري . كان أحد رجال الأمن مكلفاً بمراقبة شيوعي . كان عميل الأمن السياسي يتابع ذلك الشيوعي خطوة

خطوة . حتى إن ذلك الشيوعي الصيني ملّ المتابعة المكثفة هذه التي استمرت سنوات ، واضطرب تماماً من هذه الملاحقة . في يوم ما ، اقترح عليه العميل مايلي :

ـ أنا أعرف أنك مضطرب جداً للملاحقة . لا تظن أنني مسرور من هذا! وأنا مضطرب مثلك وأكثر! سئمت هذا العمل . ولكن ماذا سأفعل ، هذه مهمتي . إنهم يعطونني راتباً من أجل القيام بهذا العمل . كل مساء علي أن أقدم تقريراً مفصلاً حول تحركاتك إلى رؤسائي . وليس من السهل مراقبتك . إنك تعذبني كثيراً . تدخل إلى احد الأبنية ذات البابين فأظن أنك ستخرج من الباب الثاني لتضيعني ، فأركض نحو الباب الثاني ، لكنك تخرج من الباب الذي دخلتَ منه وتخدعني . أعرف أنك تقضي ساعات طويلة في المكتبات العامة تقرأ الكتب من أجل تعذيبي فقط . أي أنك انتزعت مني روحي . لقد مللت من هذه المطاردة المستمرة منذ سنوات . وأنت أيضاً مللت . تعال لنعمل اتفاقية فيما بينا .

كان الشيوعي الصيني يعرف أنه لايمكن الوثوق في أي وقت بمخبر للأمن السياسي ، وأنه لايمكن التوصل معه إلى اتفاقية . فسأله :

ـ كيف ستكون هذه الاتفاقية ؟

ـ اقتراحي هو : لن ألاحقك بعد الآن . ولنلتق في القهوة الفلانية كل مساء ، وستحكي لي كل ما عملته في ذلك اليوم بالتفصيل . وأنا أقدم التقرير حسب ماتحكيه لي لرؤسائي . كيف ؟ هل اتفقنا ؟

سأله الشيوعي الصيني شاكاً في الموضوع :

ـ كيف ستثق بأن ما أحكيه لك حقيقة ؟ يمكنني أن أكذب ؟

ـ أنا أثق بك .

ضحك الشيوعي الصيني .

ـ أنا عضو في حزب ممنوع . وأنت تعرف أنني لن أحكي الحقيقة لمخبر أمني .

ـ ليس المهم أن تقول الحقيقة أو تكذب . المهم أن أكتب بعض الأشياء في التقرير الذي سأرفعه لرؤسائي ، وهذا يكفيني . وبإمكانك إن أردت أن تلفق ، أو تكذب عليّ . احك ماتريد أن تحكيه .

وهكذا يتفق مخبر الأمن والشيوعي . من المؤكد أن الشيوعي الصيني سيكذب على العميل الأمني . ولو لم يتفق معه على هذا فأن المخبر سيتابعه خطوة خطوة ويعرف ما عمله .

ومن أجل ألاّ يقع الشيوعي ضحية لعبة ما ، ينتبه إذا ما كان ملاحقاً أم لا ، ويوصي أصدقاءه لكي يتابعوه ، ويعرفوا إذا ما كان ملاحقاً أم لا . في النهاية تم التوصل إلى أن ذاك العميل في الحقيقة لم يلاحقه .

كانا في كل مساء يلتقيان في المقهى الذي اتفقا عليه . وكان الشيوعي الصيني يحكي للمخبر عما جرى معه . كان كل مايحكيه كذباً ، وكله تلفيق . وكان المخبر يكتب على الرغم من معرفته أن مايحكيه الشيوعي كذب ، ومن ثم يرفع التقرير لرؤسائه .

ولكن بعد هذه الاتفاقية حدثت أشياء مدهشة جداً . صار عميل الأمن الذي لا يلاحق بالتأكيد الشيوعي الصيني ، يكتشف كل علاقاته . ومن المؤكد أيضاً أن الشيوعي لم يلاحق . مادام الأمر على هذا النحو كيف حدث هذا ؟ كانت الحقيقة على النحو التالي : كان العميل الأمني يكتب ما يمليه الشيوعي من تلفيق ، ويرفعه كما هو . كانت الجهات الأمنية قد حددت شخصية الشيوعي الصيني بشكل جيد جداً . كان ثمة خبراء يكشفون الكذب المختبئ سراً داخل تلفيقات الشيوعي . لأنه لا يمكن لإنسان أن يكذب بمعزل عن حقيقته الذاتية . ليلفق الإنسان ما يلفقه ، فإن حقيقته ستكون مختبئة داخل هذا الكذب . المهم هو اكتشاف الحقيقة المختبئة داخل هذا الكذب . إن كل كذبة تحمل داخلها حقيقة سرية ، وفي كل تلفيقة أمر صحيح فيها . مهما كذب الإنسان فلا يمكن له أن يتحرر من حقيقته . وهذا يطابق تماماً محاولة الإنسان للتخلص من الزمان والمكان اللذين يعيش فيهما .

مثلاً ، بشكل عام ، إذا ذهب الشيوعي في ذلك اليوم الى شرق المدينة ، فلكي لايُعرف المكان الذي ذهب إليه ، عندها يكذب قائلاً : ذهبت إلى غرب المدينة ، تكون الحقيقة أو الصواب مختبئة داخل الكذبة ، وتكون عكس ما قيل . لهذا السبب كان يفهم مايقوم به الشيوعي الصيني من خلال الكذب الذي يلفقه ، أكثر مما كان يفهم من خلال ملاحقته .

عندما تذكرت هذه الحادثة من كتاب قرأته منذ زمن طويل ، وتركتْ أثراً في ذاكرتي ، فكرت بأن باشازادة حتى ولو كان قد كذب علي ، وحكاه كما لو أنه حقيقة ، فلابد من وجود حقيقة ما حكاه داخل الكذب هذا .

وصلت إلى هذه القناعة ، ولكنني كنت أشعر بالضيق من احتمال أن يكون باشا زادة يخدعني . هل كان يلفق ، أم يحكي الحقيقة ، هذا ماكنت غير متأكد منه . لهذا السبب لم أهتم بباشا زادة مدة يوم أو يومين ، وابتعدت عنه . كان ذكياً جداً . يجب أن يكون قد أدرك ما أفكر فيه ، فحكى لي كيف يتحول الإنسان إلى جلد كرة قدم .

التحول إلى كرة قدم

منذ سنوات طويلة لا أحد يؤمن ببراءتي ، أو يصدق أنني سقطت في السجن دون ذنب ، حتى السجناء لا يصدقون . يقولون لي : « ياالله ، لتكن المرة الأولى افتراء ، والثانية ظلماً ، والثالثة كذباً ، والرابعة والخامسة كذباً أيضاً... حسن ، مارقم هذه المرة ؟ هل كلها افتراء أو كلها ظلم ؟ وكل هذا الظلم يدور ، ويدور ولايجد إلاك ؟ »

لا استطيع الرد . منذ زمن طويل ، لم أعد أقول لأحد إنني ظلمت . أعرف أن لا أحد يصدق هذا . لأنني لو كنت مكانهم لما صدقت أن كل البلاوي تقع على رأس الرجل نفسه . وفي الحقيقة لايمكن الإيمان بإمكانية سقوط كل هذه البلاوي على رأس رجل ما . لوكان غيرك لما حكيت له . أنتم سألتموني أكثر من مرة لهذا أحكي لكم .

كيف يحدث أن إنساناً يتعرض على مدى حياته للظلم ؟ أنا عرفت سبب هذا من مجنون في مشفى الأمراض العقلية قبل سنوات طويلة . عندما أقول عنه مجنون ، فهو ليس من اولئك الذين يخطرون على بالنا فور سماعنا لهذه الكلمة ، من المجانين تماماً ، بل يمكن تسميته نصف مجنون . حتى إنه بالنسبة إلي لا يُعَدُّ مجنوناً . .

أنا من بين كل هذه التقمصات التي تقمصتها ، تقمصت شخصية المجنون . وهي الشخصية الوحيدة التي تقمصتها عن سبق تخطيط . كانت

أعصابي قد خربت تماماً نتيجة تعرضي للظلم عدة مرات متتالية . كنت مسجوناً لتلبسي شخصية معلم أو طبيب لم أعد أذكر . كنت أعيش حالة مخيفة من الإنهيار . حتى إنني كنت أفكر بقتل نفسي . أردت أن أتخلص من هذا الوسط القذر مهما كان الثمن ولو لفترة قصيرة . بدأت أكلم نفسي بصوت عالٍ ، ولعل هذا بسبب الأزمة . وبينما كنت أروح وأجيء في ساحة السجن ، حركت يدي ، وبدأت أتكلم ، وأتصور ظُلاّمي أمامي واناقشهم وأعاركهم . كنت أحياناً أصحو لنفسي ، ولكن بعد مدة فقدت السيطرة عليها ، وبدأت أكلمها . لم أستطع السيطرة على نفسي . بدأ السجناء يسخرون مني . ونتيجة مطالبة السجناء أخذوني إلى مشفى السجن . عندئذ شعرت بأمل الخلاص من السجن ، ولو لفترة قصيرة . أمام الطبيب ، سرتُ بالأمر نحو الجنون جيداً . أرسلوني من السجن إلى مشفى الأمراض العقلية . وهناك استطعت إقناعهم بأنني مجنون . كان العيش في مشفى الأمراض العقلية مدة ما نوعاً من التغيير . ولأنني لست مريضاً عقلياً ، فكرت بأنني في الوقت الذي أريد أتحسن وأخرج .

عُولجت في مشفى الأمراض العقلية ، أي لم أعد أحكي مع نفسي . ليس الأطباء من داواني ، بل الذي داواني هو مجنون تعرفت به هناك . في مهجع المجانين المحكومين ـ علماً أن المجانين لايريدون أن يقال عنهم مجانين ـ تعرفت بمجنون ، أي بمريض عقلي مسنّ . لأن هذا كان أقل مَنْ في المهجع جنوناً ، حتى من الممكن أن نقول إنه ليس مجنوناً ، فكان قدرنا واحداً ، وكنا متشابهين كثيراً . أنا لم أستطع التخلص من السجن ، وهو لا يستطيع التخلص من مشفى الأمراض العقلية . كان هذا الرجل يعمل في محافظة بعيدة وكيل محامي . وهو صاحب سوابق مثلي . أنا كنت صاحب سوابق في الاحتيال ، وهو صاحب سوابق في شتم الكبار . كان هذا الرجل لا يستطيع العيش دون شتم الكبار ، وأصحاب المواقع المتقدمة . غير هذا لا يعاني من أي جنون . وإذا تركنا معاندته في شتم الكبار جانباً ، فيمكن أن نقول عنه عاقل جداً

ومتوازن . وشتائم هذا الرجل تكون عبر الرسائل . أينما وجد في البلد رجلاً كبيراً ، ومسؤولاً معروفاً كان يرسل إليه رسائلَ مليئة بالشتائم . وهو منذ أربعين عاماً يعمل هذا . ولأنه من أصحاب السوابق كانوا يقبضون عليه أثناء إيداعه الرسائل في مكاتب البريد . في البداية كانوا يرسلونه إلى المحكمة ، ومن ثم يحكمونه ، ثم يلقونه في السجن . ولكنهم لم يستطيعوا التغلب عليه . لأنه في اليوم الذي يخرج فيه من السجن يبدأ بإرسال رسائل الشتائم . في النهاية تبين لهم أن المسكين مريض عقلياً . انظروا ماذا يوجد من أمراض في هذا العالم ؟ مرض شتم الكبار... صاروا هذه المرة لا يرسلون الرجل عندما يقبضون عليه يرسل رسائل شتم الى الكبار في مكاتب البريد الى السجن ، بل يرسلونه الى مشفى الأمراض العقلية . كان يقول إنه عندما سيخلص من مشفى الأمراض العقلية سيعود إلى إرسال رسائل الشتم إلى الكبار . ولكن المسكين لن يخلص من مشفى الأمراض العقلية . لأن الأطباء كانوا يقولون إنه مصاب بمرض لايمكن الشفاء منه . حتى إنه كان يرسل وسائل احتقار وشتائم للكبار من المشفى ، ويعمل على إرسالها بواسطة أشخاص آخرين سراً .

كنت مندهشاً لهذا الانحراف لرجل متوازن صاحب أسرة وأولاد . في يوم من الأيام سألته عن سبب عمله هذا ، وقلت له إنه يظلم نفسه ، فقال لي :

ـ كيفما كان فقد صرت كرة قدم . .

لم أستطع فهم مقصده .

كنت أسأله هذا السؤال في بعض الأحيان ، وكان هو دائماً يجيبني قائلاً :

ـ كيفما كان فقد صرت مرة كرة قدم .

فيما بعد حكى لي عن حياته . في البداية كنت أصدق ما حكاه لي ، ولكن بعد ذلك حكى لي أشياء لايمكن تصديقها . كان يكذب . لأنه دائماً كان يدعي تعرضه للظلم ، وأن الجميع أساؤوا إليه . لقد حل به من الظلم مايمكن وقوعه على مائة شخص .

في أحد الأيام بينما كان يحكي لي عما جرى له ، فجأة ، وفي حالة لا تستدعي التوقف نهائياً ، قطع كلامه ، ونظر إلي ، وركز بصره على عيني مدة طويلة ، ثم قال لي :

ـ أنت لا تصدقني!

قلت :

ـ إيه . . لا يمكن أن يكون الأمر هكذا . ياهوه ، هل كل البشر سيّئون ؟ وهل اتفق كل البشر على الإساءة لك ؟

كان له ابتسامة مرة . كضحكة من يتألم على الآخر ، ضحك هذا ، وقال :

ـ بالتأكيد ، عندما تصير كرة قدم فالجميع سيرفسك .

سألته عن معنى التحول إلى كرة قدم التي طالما كررها ، فأجابني هكذا :

ـ كل إنسان معرض للظلم . بعد تعرضه للظلم ، إما أن يستجمع نفسه ، أو يهتز . والبعض يسقط . جميل أن يستجمع الإنسان نفسه... ولكن ليس كل شخص ينجح في هذا الأمر . ومن لا يستطيع استجماع نفسه بعد تعرضه للظلم ، ولأجل أن يبقى واقفاً على قدميه يذهب إلى من يعتبره قريباً منه أو صديقاً ، أو معرفة ، ويحكي له عن الظلم الذي تعرض له . ويطلب عونه لكي لا يسقط . ولكن الرجل المصغي إليه ، عندما يرى أنه مهزوز ، ولخشيته أن يسقط ، وينهار فوقه ، وأن يصبح حملاً عليه أو بمعنى آخر لكي يحمي نفسه ، يكيل ركلة لطالب المساعدة . ويهتز المركول أكثر . ويغدو على وشك السقوط... يذهب إلى صديق آخر لطلب المساعدة . يحكي عن الظلم الذي تعرض له في البداية ، ثم السوء الذي تعرض له ثانية . يقوم الرجل الذي يستمع إليه بتوجيه ركلة أخرى أقوى من الأولى خوفاً من سقوطه فوقه ، قائلاً ليسقط أينما يريد . يندهش تماماً الرجل الذي لاقى السوء بينما كان ينتظر المعروف . ولأنه قد كيلت له ركلتان بشكل متعاقب ، فما عاد يستطيع الوقوف بسهولة على قدميه . كان قد اهتز تماماً بفعل الركل . يذهب إلى شخص آخر بقصد المساعدة ، يحكي له عن الظلم الذي تعرض له في البداية ،

ثم عن الإساءة التي لقيها في المرة الأولى ، والثانية . فيقول الرجل لابد أن لهذا الرجل مشكلة ما حتى إنه تعرض لكل هذه الإساءات فيركله ركلة أخرى قائلاً لنفسه ، لأتخلص منه . وهذه المرة لايحتمل الرجل فيسقط . يذهب إلى شخص آخر زاحفاً ، يحكي له ماجرى . لا يصدقه سامعه . يقول له تماماً ما قلته لي أنت الآن : « ياهوه ، وهل كل الإساءات تقع لك ؟ » . ولكي يحمي نفسه منه يركل ذلك الرجل الملقى على الأرض ركلة أخرى . يطلب العون من شخص آخر ، فيتلقى ركلة . ومن هذا ركلة ، ومن ذاك ركلة . . . صار كرة قدم تتدحرج من قدم إلى أخرى . أينما ذهب قاصداً المساعدة لا أحد يصدقه . فيقولون له : « وهل كل الناس سيئون ؟ وهل ترتكب كافة المظالم ضدك ؟ » جميل لو كانوا قد قالوا هذا فقط ، ولكنهم يركلونه لكي يذهب بعيداً ، ويخلصون منه . . وهكذا يخرج المسكين من الإنسانية ، ويصير مثلي : كرة قدم .

فقلت :

ـ ومثلي أيضاً .

كم كان ذلك المريض عقلياً على حق . فوق كل هذا ، أنا الذي صرت كرة قدم لم أصدق كل ما تعرض له .

قال لي ذلك الرجل المسنّ :

ـ لو لم نكن في مشفى المجانين ، ولو كنت صديقي ، ولوجئتك لأحكي لك عما تعرضت له من ظلم ، كنت ستكيلني أنت أيضاً ركلة... أتعرف ماهو المهم ؟ المهم أن الإنسان عندما يتعرض للظلم ، وتنزل بلية ما على رأسه ، ألا تزل قدمه ، وألا يهتز وألا يتدحرج على الأرض ؟ عليه أن يحاول الوقوف منتصباً . إذا زلت قدمك ، أو اهتززت أو سقطت مرة واحدة بعد هذا ، فستحترق نفسك ، عندئذ سيعمل الناس على التخلص منك بأن يركلك كل منهم للآخر مثل كرة القدم . أليس عند كل ولد كرة قدم ياه ، يلعبون فيها ، تصير أنت مثلها .

وأنا أيضاً هكذا... لا أستطيع جعلكم تصدقون .

كانت كلمات المريض العقلي ذاك بمثابة منبّه كبير لي . أردت أن أستجمع نفسي مجدداً ، وأن أقف على قدمي ، وألا أكون كرة قدم للآخرين بعد هذه المرة .

قلت للطبيب الذي يعالجني إنني تحسنت ، وإنني في الأصل لم أكن مريضاً ، ولأنني تضايقت من السجن ، وبقصد التغيير عملت نفسي مجنوناً ، وأتيت إلى المشفى . قال الطبيب مبتسماً :

ـ التظاهر بالجنون نوع من أنواع الجنون أيضاً .

قال هذا ، لكنه خَرّجني من المشفى وعدت إلى السجن .

فيما بعد علمت أن ذلك الطبيب قد ركلني ركلة أيضاً . فقد رفع تقريراً حول حالتي يقول فيه : «مريض نفسي لايستطيع العيش دون الاحتيال» . مثل ذلك الرجل الذي لا يستطيع العيش دون شتم الكبار ، وأنا لا أستطيع دون الاحتيال . مع أنه لو كان قد استمع إلي قبل أن يدفعني ويركلني ، وعرف ما جرى لي ، لفهم أنني لم أعمل احتيالاً حقيقياً أبداً ، وأنني دُفعت إلى الاحتيال غصباً عني .

كانت هذه الركلة أكبر وأقوى ركلة سددت إلي . لأنني لم أعد أستطيع أن أخلص نفسي من الاحتيال . ليست العدالة وحدها ، بل الطب أيضاً أصدر حكمه عليّ بالاحتيال... لم أعد أستطيع أن أقول لأحد إنني لم أحتل على أحد ، وإنني مظلوم ، ولن أقول لأحد...

كيف للإنسان ألا يستطيع العيش دون احتيال ؟ سألت عن سبب هذا فيما بعد . حسبما قيل لي ، إن هذا مرض حب الغنى . ومرضى حب الغنى هؤلاء ، منهم من يبحث عن الكنوز تحت الأرض ، وبعضهم يطبع عملة مزورة ، وبعضهم ينشل ، وبعضهم من أمثالي يحتال . هذا ما قاله الأطباء .

في اليوم الذي قررت فيه استجماع نفسي ، والوقوف بعد أن تدحرجت ، والتخلص من كوني كرة قدم بعد تنبيه المريض العقلي الذي تعرفت به في

المشفى ، ركلني الطبيب ، وسقطت وتدحرجت . هذا الإحتيال هو الوحيد الذي أقدمت عليه عن سبق إصرار وتخطيط ، وهو التمظهر بالجنون .

كثير من أصحاب السوابق يعملون ما بوسعهم للحصول على تقرير كهذا . لأن تقريراً كهذا ينزل العقوبة إلى ثلث المدة . ولكنني لا آتي على ذكر هذا التقرير لأحد . لو ظهر هذا التقرير فسأتخلص من السجن ، ولكن لن أستطيع التخلص من مشفى المجانين . لأنني صاحب سوابق لا تحصى . لو علموا بما كتب في هذا التقرير بأنني مريض بالاحتيال وحب الغنى سيدخلونني مشفى الأمراض العقلية ، ولن يخرجوني من هناك .

عندما يحاكمونني ، جميل أنهم لا يعلمون بوجود هذا التقرير في سجلي المودع في العدلية . ومن هذا إلى ذاك ، ومن ذاك إلى ذياك . . مرت سنوات طويلة ، حتى من الممكن أن يكون ضاع هذا التقرير من زمن طويل...

ولكن مهما كان ، لم ينطفئ أمل خلاصي من كوني كرة قدم ، في أي وقت .

من أين أتت باشازاديته

لابد أنكم كأكثر الناس ، تتوقون لمعرفة من أين أتى لقب باشا زادة هذا الذي يطلقونه علي . البعض يظنني باشازادة حقيقي . حتى إنه يوجد من يريدني أن أكون باشازادة . لأنه من الطبيعي أن يكون ولد فقير نشأ في أحياء الأكواخ لصاً ، أو محتالاً ، ولكن أن يكون باشازادة محتالاً صاحب سوابق ، فهذا شيء غير عادي . والناس يهتمون بكل ماهو غير عادي ومدهش . ولعل الانتباه ناجم عن التناقض بين الباشازادية والاحتيال . كان لي زميل في المدرسة اسمه رجائي المتذبذب . هذا الزميل جلب إلى رأسي البلاء على مدى حياتي . بعد فصلي من المدرسة فصلوه أيضاً . رجائي المتذبذب هذا يذهب في السنة مرة ، أو مرتين إلى اوروبا . وحسب ما ادعاه ـ أظن أنه حكى هذا عن المانيا ـ أنه يوجد فندق ضخم ، وأن الراهبات يخدمن في مطعمه ، ومشربه ، وناديه الليلي . أي نساء في زي راهبات . زي الراهبات الذي نعرفه كلنا . وهؤلاء النساء لسن راهبات حقيقيات ، بل هن نساء لعوبات تقمصن زي الراهبات من أجل كسب الزبائن . والفندق يمتلئ بالزبائن . كما أن تلك النساء لسن جميلات جداً . حتى إنه يوجد بينهن من يعتبرن قبيحات . فوق هذا فالفندق غال جداً . ما سبب هذا الاهتمام الكبير إذن ؟ لأن العهر والرهبنة على طرفي نقيض . فالنوم مع الراهبة مهما كان الثمن يصبح جذاباً جداً للرجال .

لعل هذا هو سبب إرادة الناس أن يكون باشازادة محتالاً صاحب سوابق .
ومن الممكن ألا يكون هذا هو السبب الوحيد . فالناس لديهم شعور سري بإرادتهم أن يكون أولاد الأشخاص الأقوياء ، أو من هم في مواقع متقدمة مبتلين بالمصائب أو منحرفين . . وهكذا يكون الناس قد حصلوا على انتقامهم من اللامساواة ، والظلم الاجتماعيين عبر سقوط أولاد الكبار والأغنياء والمشاهير في الطرق السيئة ، أو الانحراف .

فكّرت بهذا الأمر بعد أن لاقى باشازادة قبولاً عاماً ، وترسّخ . مع أنني لم أعرّفْ بنفسي في أي فترة من الفترات ، ولا لأي شخص من الأشخاص كباشازادة . وهذا ناجم عن أقل الأحداث التي وقعت لي أهمية .

باشازاديتي حدثت بعد هذا الذي حكيته لك بكثير . وعلى الرغم من أنها حادثة صغيرة إلى حد أنها لا تستحق الذكر ، فقد نُسِيَتْ كافة الأسماء التي استخدمتها في الاحتيال وبقي هذا الأسم ، وصرت باشازادة... ولا أعرف بالضبط لماذا حدث هذا .

كانت الأحكام العرفية مفروضة في اسطنبول في تلك الأيام . ولأن الأحكام العرفية كانت جديدة التأسيس يومئذ ، فكانت تطبق بصرامة ، وحزم . وكما في كل الأعمال ، تبدأ بصرامة ، ومع الزمن تفقدها ، كذلك الأحكام العرفية ، فقد تراخت وبدأت بالانحلال . لهذا السبب أنا أخاف دائماً من بداية أي عمل . وأحذر كثيراً من عدم وقوعي في أي بلاء . ولأنني مع رجائي المتذبذب كان معي نقود ووضعي جيد ، ولباسي أنيق . وعلى الرغم من كل شيء كنت أريد ترك اسطنبول بسبب الأحكام العرفية ، والذهاب إلى مكان آخر . لم أكن فقدت أملي بايجاد عمل جيد ، وبأن أشتغل وأعيش بشرفي . وبينما كنت أبحث عن عمل كهذا ، فجأة سقط هذا البلاء على رأسي . لماذا ضحكتم ؟ ألأنني قلت فجأة ؟ ثقوا أنه حدث هذا فجأة... لايمكن للإنسان أن يكون حيادياً عندما يتحدث عن وضعه ، ولكنني أعمل ما بوسعي لأحكي الحكاية كما وقعت ، ودون حتها بساطور البيطار .

توجد بعض التصرفات تُغضب كثيراً من الناس . أعرف رجلاً من السجن كان يجن من صرير الباب . بعض الناس يجنون من إخراج صوت تنظيف فضلات الطعام من بين الأسنان . . لكل إنسان شيء ما يخرجه عن طوره... وأنا أجن من الذي يبصق على الأرض . ليس بيدي ، لا أستطيع مسك نفسي عن مجابهة الذين يبصقون على الأرض . خاصة ، يوجد بعض الناس بعد أن يلقوا بصاقهم على الأرض يدوسون عليه ، ويدورون فوقه . وتعال لا تجن! كثيرون جداً أوقعت نفسي في البلاء معهم لهذا السبب .

في تلك الأيام قرأت في إحدى الجرائد مقالة لأحد الكتاب الذين أحبهم . كتب داعياً مواطني اسطنبول ، إذا كانوا يحبون مدينتهم ، عليهم أن يعملوا كمفتشين فخريين . ويقول أيضاً . إن مفتشي البلدية وموظفيها لايكفون . على محبي اسطنبول أن يمنعوا من يوسخ اسطنبول ، ومن يلقي الأقذار ، والأوراق على الأرض ومن يبصق من القيام بذلك . أعجبت بالمقالة كثيراً . كان الكاتب على هواي تماماً .

كنت أسير من ساحة تقسيم إلى حي الحربية . كان الجو ربيعياً جميلاً . كان أمامي رجل يسير وكأنه يركض . أنا لم ألاحظ ذلك الرجل الذي كان أمامي . ولكن بينما كان الرجل يمشي وكأنه يركض ، بدأ يعزّل بلعومه ويبصق على الأرض . انتبهت إليه . رجل وسخ! يركض وينثر على الأرض بلغمه . جننت . ركضت خلفه ، ومسكته من ذراعه . وصحت به قائلاً :

ـ ياسيد ، لماذا تبصق على الأرض ؟

كان رجلاً ضخماً ، وأنيقاً جداً . حاول تخليص ذراعه من يدي وهو يقول :

ـ قف ياهوه ، سألحق موعد الباص . . لدي عمل مستعجل .

أنا تعلقت بذراعه ، وما تركته . ليس لكل شخص عمل . تجمع حولنا المارّون من هناك .

ـ لماذا تبصق على الأرض ؟

ـ ما دخلك أنت
ـ ماذا تعني بما دخلك ؟
ـ اترك ذراعي .
ـ لماذا بصقت على الأرض ؟
ـ أنت لا تستطيع التدخل في شؤوني .
ـ أنا أتدخل .
ـ ياهوه ، اتركني عندي عمل مستعجل .
ـ عليك أن تدفع الحساب قبل كل شيء .
ـ وقعنا في البلاء . . اتركني سيمشي الباص .

كبر الازدحام الذي يطوقنا . في الحقيقة ، أنا أيضاً فهمت أنني بالغت في الموضوع ، ولكنني لم أعد أعرف كيف سأترك الرجل بعد ما بدأت . بينما كنا نتدافع أنا والرجل . قال :

ـ وهل أنت مفتش ياهوه ؟
ـ نعم أنا مفتش ، هل لديك اعتراض ؟

لابد أنني مازلت تحت تأثير المقالة التي قرأتها في الجريدة . لا يستطيع موظفو البلدية القيام بكل الأعمال ، على كل مواطن في هذه المدينة أن يكون مفتشاً فخرياً .

ولكي يتخلص الرجل مني ، قال :

ـ إذا كنت مفتشاً ، عليك أن تكتب مخالفة ، وينتهي الأمر . . كم هي المخالفة لأدفع ، واتركني ياهوه... عندي شغل . .

ـ قلت :
ـ أنت ممنوع من البصاق على الأرض . .

صرخ ذلك الرجل الضخم :

ـ أبصق ولاه!

وبعد ذلك : «أخ تفوووو» . هذه المرة لم يبصق على الأرض ، بل وجهها

على وجهي ، وقال :

ـ كم هي المخالفة ، خذ!

وأخرج من جيبه قطعة من فئة عشر الليرات ، ورماها ، ثم ركض نحو الباص . ولأن لعاب الرجل لصق وسط وجهي ، طار صوابي . بينما كان علي أن أترك النقود في الأرض ، وأدير ظهري ، وأذهب قائلاً : «ليبعث لك الله البلاء» ، انحنيت على الأرض ، والتقطت عشر الليرات ، ولعل هذا تم تحت تأثير دواري ، وصحت للرجل :

ـ هيـ يـ يـ يـ ـه ، قف!

لابد أن لدى الرجل شغلاً بجد ، حتى إنه غاب مثل الريح . بينما كنت أركض خلف الرجل ، تعلق الجمع بي ، ثم فوجئت بيد تمسك ذراعي :

ـ أنت مفتش ماذا يا أخ ؟

ـ انت مالك ؟

ـ ماذا يعني أنا مالي ؟

سقطتُ هذه المرة بما سقط فيه الرجل الذي مسكت ذراعه قبل قليل . قال أحد الناس المزدحمين ساخراً :

ـ لابد أن هذا مفتش البصاق الذي كتبت عنه الجرائد .

قالت امرأة :

ـ واخ يا محتال واخ... يخالف الناس مدعياً أنه مفتش البصاق . .

وقعت في البلاء ، شكّوا بي تماماً من خلال ارتجاف يدي الماسكة لعشر الليرات . ونادى بعض الناس :

ـ يا شرطة ، يا شرطة!

في ذاك المكان . . لو ذبحت رجلاً بمنشار مثلم لما رَدَّ على صراخه شرطي واحد ، كما أنك لن تجد مواطناً واحداً يأتي للنجدة . . ولكن عندئذ ألا يأتي ثلاثة رجال شرطة راكضين ؟!

ـ يا سيدي الشرطي ، هذا الرجل يقول عن نفسه مفتش بلدية ، ويخالف

الذين يبصقون على الأرض ، ويضع النقود في جيبه . .

وبينما كانت الشرطة تأخذني إلى المخفر ، ومن خلفي جموع الشهود ، كنت أقول لنفسي : « مالك أنت إذا كان الرجل قد بصق على الأرض . ليشخَّ لو أراد! وليعملها لو أراد! أنت مالك ؟ »

حسن أن الرجل بصق على الأرض ولم يشخّ ، لو شخَّ وتدخلت بشأنه ، كان سيشخ على وجهي كما بصق ، ويقول : أنا حر بما لي ، ويرمي خمسينية ويذهب .

هل سقطتُ مجدداً في مديرية الأمن ؟!

قال شرطة الشعبة الثانية الذين تعرفوا علي فوراً ، ساخرين :

- واخ ، صرت الآن مفتش البصاق!

نادوا الصحفين ، وفرجوهم عليّ . والتُقِط لي المزيد من الصور . في اليوم التالي جاء في الصفحة الأولى من كافة الجرائد : « ألقي القبض على مفتش البصاق الفخري » .

حتى تلك الفترة لم ينادني أحد باشازاده ، باشازاديتي جاءت بعد هذه الحادثة .

وهكذا ألقي القبض عليَ كمفتش للبصاق . ولكنني كنت محظوظاً في هذه القضية . لأنها المرة الأولى في حياتي أخلص من الاعتقال في المحكمة ، هذا على الرغم من أنني محتال صاحب سوابق . دفعت كفالة نقدية ، وخلصت من هذه الورطة . ستستمر الدعوى ، ولكنني طليق . ونشرت الجرائد : « في الأيام الأخيرة يقوم بعض الماكرين ينتحلون شخصية مفتشي البلدية للبصاق ، ويتجولون في شوارع اسطنبول ، ويخالفون من يبصق على الأرض ، وبهذه الطريقة الجديدة من الاحتيال فتحوا لأنفسهم ساحات عمل جديدة » .

وإذ فرحت لإطلاقي ، خرجت من صالة المحكمة ، والتقيت في ممر العدلية بصديق سجن قديم جداً .

كان يدعى في السجن ، وفي سجله الأمني : « نيازي سيدي الباشا » .

كيف أن بعض الناس اعتادوا على مناداة الآخرين : « استاذ » ، « سيدي » ، « أخي » ، « عيناي » ، « سبعي » ، « أميري » ، نيازي هذا معتاد على قول « سيدي الباشا » لكل من يقابله صغيراً أم كبيراً . كان يضع في بداية كل جملة : « سيدي الباشا » . . لهذا لقبوه سيدي الباشا . وأثناء الحديث يناديه الجميع : سيدي الباشا . في الحقيقة كان الرجل من منطقة البحر الأسود ، ومثل الجنّ . جاء إلى اسطنبول صبياً ، وبدأ يعمل في أحد المطاعم معاون نادل . كان معلمه نادلاً روسياً ، ولأنه يقول للزبائن : « سيدي باسا . . أمرك باسا . . كما تريد يا باسا . . حاضر باسا . . » تعلم نيازي من معلمه ، وصار يقول للجميع : يا سيدي الباشا...

انظروا من أية أشياء تافهة يقع البلاء على رأس الإنسان . من يعلم كيف ، ومن أين لي شهرة باشازادة التي أتتني فجأة ؟

ولفرحي بعدم اعتقالي اتفقنا في ذلك اليوم في المحكمة على الذهاب معاً لنشرب قدحاً . في الحقيقة كان تصرفنا جنوناً . ياهوه ، إذا كان في مكان ما أحكام عرفية ، فهل يُعاش في ذلك المكان ؟ صاحب العقل من يهرب فور سماعه خبر الأحكام العرفية... هذا يعني أن عيوننا كانت مغماة . . سيقع ما كان . .

وبنشوة فرحنا ، ذهبنا إلى كازينو على البوسفور . كنا نشرب الأقداح أمام البحر على الخفيف وكنا قد ذهبنا إلى الكازينو مساءً ، وصار الوقت ليلاً . كانت ليلة صيفية جميلة... كانت تهب علينا من البحر نسائم دافئة! أنادي :

ـ غرسون

يأتي .

ـ تفضل :

ألتفت إلى نيازي :

ـ ماذا تأمرون سيدي الباشا ؟

يلتفت نيازي سيدي الباشا إلى النادل ويقول :

ـ يابني هات لنا صحناً من اللحم المشكل . .

بعد قليل أنادي :

ـ غرسون

ـ تفضل يا سيدي . .

أسأل نيازي :

ـ هل تأمرون بزجاجة أخرى يا سيدي الباشا ؟

ـ نعم ، هاتوا . .

وأنا أناديه « سيدي الباشا » كنوع من الاعتياد كما يناديه الجميع . ولكن هذه المرة صار يناديه النادل : « سيدي الباشا »

ـ على رأسي ياسيدي الباشا . . حالاً سيدنا الباشا . . كما تأمرون يا سيدنا الباشا . . هل تريدون ثلجاً ياسيدنا الباشا ؟

من هنا سيدي الباشا . . ومن هناك سيدي الباشا . . صدّق النادل أن نيازي باشا حقيقي . إيه ، كنا قد قلنا إن الوقت كان وقت الأحكام العرفية ، يعني وقت يزمر فيه زمور الباشا . . هرع النادل إلى معلمه ، ويبدو أنه قال له :

ـ دخيلك يا معلم ، يوجد بين زبائننا باشا ، وأنا أقوم بخدمته .

عندما سمع صاحب الكازينو الرومي بكلمة باشا طار عقله ، فقال له :

ـ ماذا قلت ولاه ؟ باسا صحيح...*

وجاء إلى طاولتنا...

نظرنا ، وإذ بالمعلم الرومي المكرش يقف بجانبنا متكتفاً ، ومتقوقعاً ، ومنحنياً ، ومتكوراً ومرحباً :

ـ زئتم أهلاً . . يا سيدي باسا . . سرّفتم الغازينو سيدي باسا...

قال نيازي سيدي الباشا :

* كافة جمل صاحب المطعم الرومي فيها تكسير لغوي ، ولفظي لأن الأصل هكذا... المترجم .

ـ شكراً ، شكراً...

وكأنه باشا حقيقي ، أشار له بقفا يده أن يبتعد ، ولكن الرجل الذي ورث مهنة الغازينو عن أبيه مازال يقول للنادل :

ـ ركائك عجين سخن . . فروج بالسلسلة . . باتنزان مكلي...

والرجل لم يعر أي انتباه لكلمتنا : « لانريد » كلما قال نيازي سيدي الباشا :

ـ لا نريد!

كان الرجل يزيد بطلب السرعة من النادلين :

ـ اركد ولاه . . سحن كلاوي للباسا . . اركد ولاه . . سحن كبد أرناؤوتي . . هات سمك للباسا . .

غضب نيازي سيدي الباشا من ممالقة الرجل ، فصاح به :

ـ قف ولاه . . وهل ثمنها يخرج منك أم مني ؟

ـ ماذا مساري . . عيب ، عيب كتير . . سرفتونا كتير . . مساري ، مساري ماذا ؟

ولأن إدارة الأحكام العرفية كانت كثيراً ما تغلق الكازينوهات في تلك الأيام ، صار المعلم يقفز فرحاً عندما سمع بالباشا . يعلم الله أن الرجل ظن صديقي جنرالاً في إدارة الأحكام العرفية . لِمَ الكذب ، مر على هذه القصة كل هذا الوقت ، في الحقيقة لا أنا ، ولا نيازي لم نفهم أن الرجل ظنه باشا . في البداية لم نفهم هذا ، حتى إن نيازي سيدي الباشا انحنى على اذني ، وقال :

ـ ولاه ، يبدو أن الرجل ظننا (أغوات) ، نفش نفسه مثل الديك .

وأنا قلت له :

ـ لا تهتم ، لاتخرب علينا ليلتنا ، إننا نبسط على الآخر . .

ولأن كلانا يحمل نقوداً فلم نكن نهتم لما يُجلب على الطاولة . ترك النادلون بقية الطاولات ، وصاروا يدورون حولنا مثل المروحة ، وصار المعلم الرومي السمين يقوم على خدمتنا بنفسه .

ـ استاكوز سيدي باسا ؟

ـ هات ؟

ـ كريدس سيدي باسا ؟

هنا ، نطيت قائلاً :

ـ أنا لا آكل القريدس . .

فقال لي نيازي سيدي باشا . .

ـ أما إنك باشازادة ياه . .

وأراد بهذا التعبير أن يقول عني مثل ابن الباشا أي لا يعجبه شيء ، ولا يأكل من أي شيء ، ويعمل نفسه من الأكابر . عندئذ قال صاحب الكازينو :

ـ بيض خروف ؟

قلت :

ـ أنا لا آكل بيض خروف .

فقال لي ساخراً :

ـ أما إنك باشازادة تماماً . .

ـ تريدون كافياراً سيدي باسازادة ؟

ـ نعم هات .

صار الرجل يلتفت على نيازي ويقول : «سيدي باسا» ، ويلتفت عليَ ويقول : «سيدي باسازادة» . . امتلأت طاولتنا جيداً ، وعندما لم تعد تتسع لصحون جديدة ، جلبوا طاولة أخرى . صارت طاولة كأنها مهيأة لوليمة سيحضرها عشرة أشخاص...

بالقوة دفعنا المعلم عن رأسنا . ولكن يوجد ثلاثة نادلين واقفين على مقربة منا ، ينظرون إلى أعيننا ، وفمينا مترقبين إشارة أو كلمة... ونحن نسكر . البحر جميل ، والموسيقى جميلة . . كل شيء على مايرام . فجأة ، قامت امرأة ، وصارت تغني أمام الفرقة الموسيقية ؟ ياسلام! . . كلانا وضع عينيه على المغنية . . فجأة جاءت امرأة اخرى وصارت تغني . . ثم جاء صبي

وغنى . . كان الأزواج يرقصون في الوسط . وأنا صرت مبسوطاً إلى حد جعلني أقول :

ـ يا بني نيازي الباشا ، أنا أشعر أن نهاية هذه الشغلة مثل الخراء .

قال :

ـ أية شغلة ؟

ـ انبساطنا في هذه الليلة .

ـ ولماذا ياهوه ؟ إننا ننبسط بنقودنا .

وكأنني أحسست بما سيجري . . قلت :

ـ أنا جربت كثيراً يا سيدي الباشا . كلما انبسطت كثيراً فلا بد أن ينقطع انبساطي ، وتكون النهاية مثل الخراء . وخمس دقائق انبساط تخرج من أنفي . . إنني أعيش ليلة حلوة إلى حد أنه دب الشك في نفسي...

قال نيازي سيدي الباشا :

ـ ماذا يمكن أن يحدث ؟ عليك بمتابعة الانبساط .

ورفع الكأس :

ـ بصحتك . .

ـ بصحتك . .

كان نيازي سيدي الباشا ينظر إلى الزوج الذي يؤدي الرقص الإسباني ، أو على الأصح كان ينظر إلى الشاب ، وأنا سهوت ناظراً إلى المرأة التي في أصابعها الصنوج وتصيح : « أولي ي ي » . فجأة أتى المعلم إلى جانبي ، وأشار بذقنه إلى المرأة ذات لون الكاكاو التي ترقص الرقص الإسباني ، وغمز بعينه غمزة شبقة ، وقال :

ـ أيأمرون باسا ؟

انظروا إلى جهلي! ظننت أن الرجل يحكي عن شيء من المازاوات ، أو المقبلات ، فقلت :

ـ ما بقي عندنا إمكانية لنأكل المزيد . أنت جدد لنا العرق .

ولكن نيازي سيدي الباشا فهم لغته ، فقال :

ـ سيكون هذا جميلاً جداً ، ولكننا لا نفهم لغة المرأة . .

ـ تحكي تركي باشا . . من هنا مهلية . .

عندما انتهى الرقص الاسباني ، أما جلب المعلم المرأة إلى طاولتنا ؟ . . وإذ بالمرأة احدى ألعبانات حارة (التبة باشي) . . كنا مستمرين بإملاء رؤوسنا . ولنيازي سيدي الباشا عادة سيئة . وترى هذه العادة عند الكثير ممن يسقطون في السجن وهم في سن الشباب . فلا يحبون النساء . ونيازي سيدي الباشا واحد من هؤلاء . عندما صفق بيديه وكأنه ينادي مكيّس الحمام ، هرع النادل الذي كان على أهبة الاستعداد . قال له :

ـ ناد لنا معلمك! . .

جاء المعلم متدحرجاً :

ـ تفضل سيدي باسا . .

همس في أذنه . لم أسمع ما قاله . وإذ به ينادي الشاب الذي كان قبل قليل يرقص مع المرأة الرقصة الإسبانية . المعلم يستطيع عمل الكثير... مسك الشاب من ذراعه وأحضره... صار نيازي سيدي الباشا على مايرام . . تذهب زجاجة وتأتي أخرى... صرنا سكارى تماماً . . تدلل نيازي سيدي الباشا إلى آخر حد عندما وجد أن كل مايطلبه يحضر ، فصاح متوجهاً إلى الفرقة الموسيقية :

ـ أسكتوا هذه القرقعة ولاه ، اعزفوا السماح...

وجد من تأتأ أو فأفأ ، لكن صاحب الكازينو هرع إليهم ، وقال :

ـ دخيلكم ، أمر باسا...

من يجرؤ على رفض أمر باشا في زمن الأحكام العرفية ؟ ، ، ونحن لا علم لنا بشيء ، كان كل زبائن الكازينو ينظرون إلينا ، ويحكون عنا . ولكن انظروا إلى هذه العقبة : كان في الكازينو نقيبان حقيقيان ، ليسا مثلنا تقليداً ، ولكنهما يلبسان ألبسة مدنية ، ومعهما زوجتاهما . وكانا أكثر الغاضبين

لانشطاطنا ورذالتنا . ولكنهما كانا يظنان أن نيازي باشا حقيقي ، فما استطاعا أن ينبسا بكلمة .

عندما بدأت الفرقة تعزف رقصة القصابين سحب الولد اليهودي الذي يجالسنا نيازي إلى الوسط . فجأة انضم آخرون إلى الرقص . وعلى الرغم من أنني لا أحب هذا النوع من الرقص ولكن لايمكنني جعل نيازي يسمع الكلمة لشدة سكره . وشدتني الفتاة اليهودية إلى الرقص أيضاً . إيه ، إذا رقص الباشا رقصة القصابين فلابد أن يتهيج الباقون . . لم يحدث ماهو غير عادي حتى هذه اللحظة . ولكن نيازي سيدي الباشا عندما صاح بالعازفين :

ـ اعزفوا لنا رقصة ولاه ، . . رقصة البحرية .

وخلع سترته ، عندئذ وصل غضب النقيبين إلى حده الأعلى . . عندما سحب نيازي غطاء طاولتنا ، سقط على الأرض ماكان عليها مقرقعاً ، ومكسراً . ربط نيازي الغطاء على خصره وبدأ يهز . في هذه الأثناء كان النقيبان غير المحتملين لسفالتنا ، اتصلا بقيادة إدارة الأحكام العرفية ليفهما وضع باشويتنا . وجاءهم الرد من هناك : « سنأتي الآن ونفهم الوضع » .

عندما تعب نيازي من الرقص كثيراً ، تراخى على الكرسي بجانب طاولتنا ، وبدأ يهذي ، ولأنني لم أستطع الامساك به ، وضع رأسه بين يديه ، وصار يتمتم من جهة ، ويعلق على من كان بجانبه تعليقات جارحة من جهة أخرى . أحسست بما سيحدث من سوء ، فناديت النادل وطلبت الحساب . واستدعى النادل معلمه . قال المعلم مبتسماً ببرود :

ـ دخيلك ياباسازادة . . أقبل رجلك . . عفوك . . حساب لايوجد . . لا أخذ منكما! . .

ـ لماذا ؟

قال إننا شرّفنا الكازينو في العمر مرة ، فهل يأخذ منا حساباً! في هذه الأثناء أرسلت القيادة التي سمعت برذالتنا ضباط الانضباط لتفتيش هوياتنا . . نحن حتى الآن لا علم لنا بشيء . ولكن لاأدري لماذا بقينا أنا

ونيازي سيدي الباشا على الطاولة . عندما رأى المعلم مجيء ضباط الانضباط ، فهم أننا ضباط خلبيون... وكان الزبائن يتهامسون حول مصيرنا .

وتحت تأثير حرارة العرق فتح نيازي سيدي الباشا صدره المشعر إلى الرياح البوسفورية القاسية . ثم بدأ بالشهشهة والبكاء ، ولا أدري إن كان هذا تحت تأثير عودة عقله إلى رأسه ، أم ذهابه تماما . أنا أقول له :

ـ لا تعملها ياسيدي الباشا . .

محاولاً إسكاته ، لكنه كان يقول :

ـ هذه عادتي ، عندما أشرب أبكي هكذا ، لأبكي قليلاً ، وأفرّج عن نفسي .

في الحقيقة بعد أن بكي قليلاً نزل عليه شعورٌ بالحزن . ومرت أمامنا من البوسفور سفينة متلامعة الأضواء .

كان يوجد ضابط مع مجموعة من ضباط الانضباط يطوقوننا ، ويستمعون إلينا ، قلت :

ـ سيدي الباشا ، حل عليك الحزن .

كان يحاول تحريك لسانه ويتمتم . ولكن فجأة تفتقت عليه قريحته الشعرية... وبدأ يلوّح بيده للسفينة التي كانت مارة أمامنا ويقول :

ـ أيتها السفينة ، أيتها السفينة المجهولة . . أنتِ خلاصي . . خذيني حرريني!

ووصل الأمر إلى نهايته . صرخ للنادل . وبينما كان يقول له :

ـ نادلِي سيارة أجرة!

وإذ بالضابطين اللذين على جانبي ، يقولان لي :

ـ اسمكم ؟

قلت لهما . كان نيازي سيدي الباشا مازال يلوح للسفينة ، لكزته قائلاً :

ـ هشت ، ولاه سيدي الباشا ، اصح! . .

سأل أحد الضباط :

ـ أنت باشا في أي مكان ؟

يجب أن يكون قد سمع هذا السؤال الأخير ، فتمتم دون أن يلتفت :

ـ محمود باشا ، حيدر باشا*

قال أحد الضباط :

ـ وأنت ؟ لابد أنك معاونه...

صحوت وبدأت أرتجف . مسكونا ، وألقونا في سيارة جيب ، ولحق بنا المعلم المكرش وقال :

ـ دخيلكم ، هسابنا . .

خوزقنا الرجل خازوقاً مزيّتاً . . عندما عرف أنه لا علاقة لنا بالباشاوية أخذ نقوده .

وبعد أن أكلنا ذلك الخازوق ، أكلنا علقة في المكان الذي أخذونا إليه ، لايوجد أقوى منها...

بعد ذلك غبت عن وعيي ، ولا أدري إن كان هذا تحت تأثير الضرب ، أم تحت تأثير المشروب . وصباح اليوم التالي أخذونا إلى التحقيق . وكررت كثيراً :

ـ إن لقب هذا الرجل نيازي سيدي الباشا . . الجميع ينادونه سيدي الباشا... وأنا ناديته سيدي الباشا...

ولكن لا حياة لمن تنادي .

كان الخبر الذي نشر في الجرائد بعد أيام على النحو التالي :

« ألقي القبض على شخص متقمص شخصية باشا ، وآخر باشازادة يتقمص شخصية المساعد » .

لو انتهى الأمر عند هذا الحد لكان جميلاً جداً ، إذ قيل : « يوجد إحتمال قوي إننا جواسيس » كما قيل : ألقي القبض بالجرم المشهود على محتال

* اسمان لحيين في اسطنبول... المترجم .

يتقمص شخصية جنرال ، ومن المحتمل أن يكون جاسوساً ، وتم هذا أثناء إعطائه بعض الإشارات لسفينة روسية كانت تعبر المضيق .

انظروا إلى هذا البلاء . . إن نيازي سيدي الباشا الذي سكر إلى أبعد حد ، لوح بيده ونادى السفينة التي كانت مارة من أمامنا قائلاً : « خذني أيضاً إلى الموانئ المجهولة أيها الربااان » . . من أين لنا معرفة أن هذه السفينة روسية ؟ استمر التحقيق أشهراً .

ـ لماذا لوحت بيدك للسفينة الروسية ؟

ـ أنا مالوحت ، نيازي لوح .

ـ لماذا لوّح ؟

ـ ماكنا نعرف أنها سفينة روسية . . لو عرفناها ، فهل نلوح لها . . نحن ظننا أنها سفينة البوسفور الذاهبة نحو الجسر .

ـ وتكذب أيضاً . . ماذا يعني : « خذني أيضاً إلى الموانئ المجهولة أيها الربان » ؟ وهل رصيف الجسر هو ميناء مجهول بالنسبة لكما ؟

ـ يا سيدي أنا مالوحت بيدي . . كان صديقي سكران ، ولوّح بسبب سكره . .

ـ عندما يسكر البني آدم يتقيأ ، لا يلوح بيده . . وهل صديقك عندما يسكر يلوح بيده ؟

ـ يبدو أنه يلوّح بيده يا سيدي .

ـ وبماذا يلوح أيضاً ؟

ـ مالوّح بشيء آخر .

ـ قيل إنه لوح بعلم . . وأنه أعطى إشارة بالعلم للربان . .

ـ لم يلوح بالعلم .

ـ قيل إنه لوّح . . بعلم أبيض . . أي علم الاستسلام . . يوجد من رآه ، ويشهد بهذا...

ـ لم يكن علماً يا سيدي . . كان منديلاً . . نعم منديل أبيض . . كان

يبكي . . ومن أجل أن يمسح دموعه...

ـ حسنٌ بماذا لوحت أنت ؟

ـ أنا مالوحت بشيء

ـ قيل أنك لوحت . . لوحت . . يوجد شهود . . وأنت لوحت بعلم ، علم أزرق . .

ـ يا سيدي نحن كنا في الكازينو ليلاً . . ثم إن السفينة عندما مرت كان الجو مظلماً جداً . فلا يُرى العلم الأزرق من السفينة .

ـ إذا كان الوقت ليلاً ، فكيف رأيتما أنتما السفينة ؟

ـ يوجد في السفينة مصابيح .

ـ أين العلم الأزرق الذي كنت تلوح به ؟

فجأة خطر ببالي :

ـ يا سيدي لم يكن ذاك علماً . إنها ربطة عنقي ، وهاهي . . انظروا إنها زرقاء . . لعلها تحركت في الهواء . .

بعد أن نمنا في السجن أشهراً ، فُهم أننا لسنا جواسيسَ . ولكن نيازي حُكم لتقمصه شخصية جنرال . وشهد كل من صاحب الكازينو الرومي المكرش ، وبعض النادلين ، والشاب والفتاة اليهوديين اللذين يرقصان الرقص الإسباني ، وبعض الزبائن . وادعوا أن نيازي قال إنه جنرال من أجل ألا يدفع الحساب ، وأنني ادعيت الباشازادية . . لم يحسب ادعائي باشازادة ذنباً . . لأنه بتقمصي شخصية باشازادة لايمكنني الاحتيال على أحد . ولكن المعاونية ؟ سقطت في ادعاء المعاونية . خلصنا من الجاسوسية وحكمنا كلانا ، نيازي بتقمص شخصية جنرال ، وأنا بتقمص شخصية معاونه ، أي ضابط الارتباط .

نُسيت باشوية نيازي سيدي الباشا ، ولكن لم تُنس باشازاديتي بأي شكل من الأشكال .

وهكذا ، منذ ذلك الوقت حتى الآن ينادونني باشازادة . قبل هذا ارتكبت

عدة ذنوب بأسماء مستعارة ، ولكن لم يدرج أي منها عليّ ، ولكن عدة سطور نشرتها جريدة حول باشازاديتي درجت بين الناس . ماقولكم في هذا ؟ فكرت بسبب هذا كثيراً . يتهيأ لي أن الناس المسحوقين يريدون انضمام أناس الطبقات العليا إليهم ، وأن يصبحوا منهم . وهكذا يحمِّلون همومهم ومعاناتهم لمن هم في الطبقات الأعلى ، ويقاسمونهم إياها من جهة ، ويحصلون على شيء من الانتقام من جهة أخرى... وانتشر لقبي باشازادة من لاشيء ، كنوع من انتقام سري للناس المسحوقين . إنهم يريدون أن يقولوا : « كيف ؟ هاهو واحد من ابنائكم سقط بيننا . . » أما قال الأولون : « العرس الذي نأتي به بأيدينا هو العيد » .

ومهما قلت إنني لست باشازادة فلا جدوى . . فوق هذا ، يالكثرة الأساطير والحكايات الملفقة حول باشازاديتي . كل محكوم يعتبرني ابن باشا قديم سَمِعَ عنه في يوم من الأيام . أيُّ صدر أعظم ، أو قائد جيش لم أصبح ابنه ؟!...

الشيخ سعيد العرياني
المنحدر من سلالة الرسول

عندما خرجت من السجن ، كنت أعرف أنني لن أستطيع البقاء في اسطنبول مهما كان نوع العمل الذي سأعمله . لن تدعني الشرطة أعيش في هذه المدينة . ولأنني أصبحت من أصحاب السوابق فسيقبضون علي دون سبب ، ولهذا أيضاً لا أستطيع البقاء في المدن الكبيرة غير اسطنبول أيضاً . كان معي نقود . لأنني بقيت مدة طويلة في السجن ، فقد عملت سمّاناً للمهجع وكاتبَ عرائض ورسائل ، وجمعت نقوداً كثيرة . كنت أنوي الإقامة في إحدى بلدات شرق الأناضول ، والقيام بعمل ما ، وأريد الابتعاد عن عيون رجال الشرطة الذين يعرفونني . لابد لي أن أجد عملاً هنا ، مهما كان هذا العمل . علّني أفتح دكاناً صغيراً هناك . كيفما كان فأنا وحيد ، أليس كذلك ؟ . .

كنت أخاف حتى من التنزه في شوارع اسطنبول . ستقبض عليّ الشرطة دون ذنب ، وستحمّلني كثيراً من الجرائم المجهولة الفاعل . ركبت حافلة متجهة إلى المحافظات الشرقية . لا أعرف سوى اسم المكان الذي كنت متجهاً إليه ، ولا أعرف أحداً هناك .

بعد أن استغرق سفرنا النهار كلّه ، تابعنا المسير ليلاً . كانت الجبال تحيط بالطريق من جانبيه . وسرنا في طريق كثير المنعطفات ونحن نهتز ، في ليلة مظلمة دون قمر . نحن الساقطين خارج المجتمع نصير على الأغلب

ساخرين ، كما قلت لكم من قبل . ولكن ثقوا أننا دائماً نحلم أن نكون أناساً شرفاء ، ومحترمين اجتماعياً . بينما كانت تسير الحافلة متلوية من منعطف إلى آخر ، كنت أسرح في خيالي وأنا بين نائم وصاح ، وأحسُبُ إنني سأنزل في بلدة لا أعرفها وأسكن في فندق ما .

كنت جالساً إلى جانب النافذة في الحافلة . بجانبي رجل ممزق الثياب ، التصق جلده بعظمه . وعظامه ضخمة . سألته عن موعد وصولنا إلى البلدة . برّم شاربيه النازلين إلى أسفل ذقنه وقال :

ـ إذا أراد الله ، و...

وتوقف . قلت له :

ـ و . . ماذا ؟

ـ وإذا ما قطع المجرمون طريقنا ، سنصل عند الفجر .

ـ مجرمون ؟ أي مجرمين ؟

ـ إيه ياه . . مجرمون . . المجرمون الذين نعرفهم جميعاً . .

ضربت يدي على جيب سترتي الداخلي الأيسر حيث نقودي .

ـ وهل يوجد هنا مجرمون ؟

ـ ماذا تقصد ؟ وهل يسمى المكان مكاناً دون مجرمين ؟ الجبال تشتاق للمجرمين والمجرمون يشتاقون للجبال . عندنا هنا مجرمون لا مثيل لهم في أي مكان آخر...

كان الرجل يفخر بمجرمي منطقته . سألته :

ـ حسنٌ ، ولكن ألا يوجد درك ؟

قال وكأنه يحكي عن شيء طبيعي جداً :

ـ موجود . . وهل يسمى البلد بلداً دون درك ؟ لكل بلد دركه ومجرموه . . لماذا أنت تستغرب هذا الأمر ؟

ـ كيف يوجد مجرمون في مكان يوجد فيه درك ؟

ـ الله ، الله . . شغل الدرك أمر يختلف عن شغل المجرمين . . خلق الله

لكل رزقه من طريق . . هل سينقطع المرضى عند وجود الأطباء ؟ فللمنطقة ـ ولله الحمد ـ أطباؤها ، كما لها مرضاها . . وعلى هذا المنوال ، شغل الدرك شيء ، وشغل المجرمين شيء آخر . . لا أحد يتدخل في شغل الآخر ، إلا في أحيان قليلة . . .

ـ من يتدخل ؟ . .

ـ لا يتدخل المجرمون في شغل الدرك نهائياً ، ولكن في بعض الأحيان ، يتدخل الدرك في شؤون المجرمين . .

ـ مثل ماذا ؟

ـ مثل ماذا سيكون ؟ في بعض الأحيان تحاول الدرك القيام بشغل المجرمين . . عندئذ يخرب النظام .

عندما رآني مندهشاً تماماً ، سألني :

ـ من أين أنت ؟

ـ من اسطنبول .

ـ ألا يوجد في البلد التي تدعى اسطنبول ، لصوص ، ونشالون ، ومحتالون ، ومزورون ؟

ـ نعم ، يوجد . .

ـ ألا توجد شرطة ؟

ـ وهذه أيضاً وافرة . .

ـ انظر! . أرأيت ؟ . . توجد شرطة ، ويوجد لصوص . . وهكذا هي الأمور هنا . . عندنا مجرمونا والحمد لله ، وعندنا دركنا . ولكل منهما مصدر رزق يختلف عن الآخر . . هذه مشيئة الله ، روحي فداؤه . . هذا هو نظام الكون يا أخي . . إن مجرمي هذه المنطقة قساة ، وذاع صيتهم في سبعة الأقاليم . .

ـ وهل سيقطعون طريقنا الآن ؟

ـ العلم عند ربي . . هذه قسمة ونصيب يا أخي . إذا كان (بتشيدو) راح

إلى شغلة أخرى ، فسنعبر ونسير في طريقنا بأمان ، أما إذا كان الدور على هذا الطريق فسيقطعون طريقنا هذه الليلة .

كأن الرجل يحكي عن مواعيد حركة السفن .

كان سبب اختياري لتلك البلدة تعرّفي برجل منها في السجن . سمعتُ منه كثيراً عن تلك المناطق ، كان يقول لي :

ـ عندكم هنا نقود كثيرة . أما عندنا هناك ، فيعدُ صاحب الألف ليرة غنياً . يوجد عندكم هنا أصحاب ملايين . . إذا كان في جيبك هناك مائة ليرة فتعد من كبار السمانين ، وإذا كان معك ألف ليرة فستكون كبير التجار . لايوجد هناك نقود ، وقيمتها كبيرة جداً .

لهذا السبب فكرت بتلك الأمكنة . كنت قد جمعت ثلاثة آلاف ليرة . قلت لنفسي : بهذه النقود أستطيع أن أعمل وأعيش بشرفي ، ومن ناحية أخرى ، فإن شرطة تلك المناطق ودركها لا يعرفونني . .

أية أحلام كنت أحلمها وأنا ساهم طوال الطريق . كنت سأفتح دكاناً . دكاناً من دكاكين الأناضول التي يباع فيها كل شيء...

كلما سرنا في الطريق أكثر ، كان يغيب عني الخوف من المجرمين . كدنا أن نصبح ، وبالتالي أن نصل إلى البلد . كان الذي يغيّب عني الخوف على الأكثر ، صف الضابط الدركي الذي يجلس بجانب السائق . عندما ركبت السيارة ورأيت الدركي خفت من وقوع بلاء ما على رأسي... ولكن عندما سمعتُ عن قاطعي الطرق من الراكب الذي بجانبي شعرت بالأمان لأنني سافرت مع صف ضابط دركي . .

كنت أنام وأصحو ، وأعيش الأيام القادمة بين حلم النوم ، واليقظة . وأحياناً أفتح عيني وأنظر من النافذة . كان الوقت على وشك بزوغ الفجر . صارت تظهر بفعل الضوء الصخور المدببة والدغلات . ولأننا نسير عبر جبال عالية كان الجو بارداً ، لذلك تكورت جيداً . قدحت عدة رصاصات ، إثر هذا ضُغط على مكابح الحافلة ، فضرب رأسي بالمقعد الأمامي وقفزت . ثم صَدَرَ

صراخ إمرأة أو اثنتين ، وبكاء طفل . . كان السائق ومعاونه أول النازلين من الحافلة . بعدهما نزلنا جميعاً بالدور . في المقدمة والمؤخرة يوجد رجلان مقنعان بجورب أسود ، يحمل كل منهما بندقية .

ولأن السائق والمعاون أول النازلين من الحافلة رفعا أيديهما ، رفعنا أيدينا . بحثت بعيني عن صف ضابط الدرك . كان قد رفع يديه إلى أعلى ، وباعد بين ساقيه كأنه خرج إلى درس التربية البدنية .

بدأ ثلاثة رجال خرجوا من خلف الدغلات بتفتيش الركاب . وضعوا في كيس من الخيش النقود والمحافظ ، والأدوات ، والساعات ، إضافة إلى أساور وأقراط النساء وكل ما وصلت أيديهم إليه . كان صف ضابط الدرك يرتجف مثل القصب . لابد أن هذا من البرد... لأنه كان يوجد برد قارس .

يوجد في السجن قانون : الحرامي لايسرق الحرامي . ياترى إذا قلت لهؤلاء الحرامية : «يا شباب أنا منكم . . أنا محتال مزور» ، فهل سيتركونني... ولكن عندما أسند أحدهم فوهة البندقية إلى ظهري انعقد لساني ، وكاد أن ينقطع نفسي . فرّغ جيوبي الرجل ذو القناع الأسود الذي وقف أمامي . وأخذ غير نقودي قلمي الجاف ، وساعتي وموساي ، وقداحتي ، ومرآتي ، وكل أغراضي . ولم يكتف بهذا ، فقال :

ـ اخلع!

كان يشير إلى حذائي الذي كنت قد اشتريته جديداً من اسطنبول .

عندما انتهت عملية السلب ، ركّبونا في الحافلة . ركب معنا ثلاثة مسلحين من قاطعي الطرق . كانوا يوقفون الحافلة كل خمسة ، أو عشرة كيلومترات وينزلون عدداً من الركاب ، ويتركون أحياناً أحد الركاب وحده . تركوني وحدي في مكان ما هناك ، ثم ذهبت الحافلة . ليس لدي حذاء ، وأكاد أن أتجمد من البرد الشديد . مشيت مدة من الزمن وأنا أرتجف . عندما أصبح الصباح ، وطلعت الشمس ، وجدت نفسي أصعد قمة جبل . كنت قد انتهيت تماماً من التعب والجوع والبرد . على الطرف الأيمن من

الطريق يوجد منحدر عمودي . . وعلى الطرف الأيسر صخور متناثرة ، وإلى الأمام قليلاً يوجد أشجار قزمة... خرجت عن الطريق باتجاه الأشجار . يجب أن يخرج أمامي في تلك اللحظة دب ويمزقني ليكتمل كل شيء .

في الثانوية العسكرية كان عندنا مدير برتبة عقيد ركن . طالما كان يقول لنا : «لاتحسبوا أن أي حادث سيء يحلّ بكم هو مصيبة ، وكما لا تحسبوا أي حادث جيد أنه سعادة . انتظروا نهاية أي أمر لعل ما ظننتموه مصيبة هو سعادة ، وما ظننتموه سعادة هو مصيبة» . وكان يضرب لنا مثلاً من خلال حكاية جرت معه . يقول إنه تم تعيين ملازم في الفصيل الذي كان يحارب فيه في الشرق عندما كان نقيباً . ولأنه صغير في السن فمن الواضح أنه يخاف من الحرب ويرتعد من صوت المدفع والبارودة . ولم يترك الرجل وسيلةً وتوسلاً ودموعاً إلا أقدم عليها من أجل تكليفه بالخدمات الثابتة . المسكين عريس جديد ، أرسلوه إلى الجبهة قبل دخوله على عروسه ، فلهذا كان حزيناً . بكى مثل الأطفال ، ومديرنا كان نقيباً ، لم يحتمل توسل الملازم الشاب ، ولأنه كان مساعد قائد الفصيل لفّق له مهمة ، وأرسله إلى اسطنبول مدة شهر . عندما ذهب الملازم رمى نفسه على يدي وقدمي النقيب وقال له : «حققتم لي أسعد لحظة في حياتي» . مديرنا يقول : آه لو أنني لم أرسله . . من أين لي معرفة ما سيحدث... لأن الملازم في اللحظة التي وضع فيها قدمه في اسطنبول ، وقبل أن يرى زوجته أصابته رصاصة طائشة من قتال كان يجري بين اثنين فمات ميتة قذرة . كان مديرنا يعتبر نفسه مسؤولاً عن موت هذا الملازم . كان يقول : «ركض المسكين نحو حتفه ظناً منه أنه السعادة» .

نعم ، لا يستطيع الإنسان في البداية تحديد ما إذا كان الذي وقع له سعادة أم تعاسة .

ألم أظن أن سلبي مع بقية الركاب ، وتركي حافي القدمين على رأس الجبل مصيبة ؟ لكن نهاية هذا الأمر كان سعادة . ولأن المجرمين أخذو حذائي فصعدت من الطريق نحو الأعلى باتجاه الغابة حافي القدمين . عبرت الأشجار

ووصلت إلى فسحة صخرية . نظرت إلى السهل الذي يبدو مثل الصحن من الأعلى . ولأن الشمس قد أشرقت للتو بدا السهل غريقاً بالضباب . . كان يبدو في البعيد قرية أو اثنتان بيوتهما متناثرة بشكل عشوائي ، والدخان ينبعث من مداخنهما . فكَّرت برهة بما يمكنني عمله... هل أنزل كل هذا الطريق وأذهب إلى درك القرية وأخبرهم أنني سُلبت ؟ لا . خفت أن يسألوني عن هويتي ، ويعرفوا أنني صاحب سوابق . إذا سألني الدرك : «ماذا تعمل ولاه هنا ؟ من أين أنت ؟ » سأحترق . وليس معي ما يمكن لي بيعه مثل الساعة... وبينما كنت أفكر بالذهاب إلى إحدى هذه القرى ، غطت غيمة سوداء القمة التي أقف عليها ، ثم هطل مطر . وأي مطر! ؟ البرد نتيجة ارتفاع المكان من جهة ، وصقيع الصباح من جهة ، والمطر من جهة أخرى جعلتني أرتجف مثل القصب . تسرب المطر إلى لحمي ، غدوت كأنني قد سبحت . ذهبت يميناً ، ثم يساراً وأنا أبحث عن مكان أحمي نفسي فيه . دخلت تحت الأشجار لأحتمي من المطر ، ولكن قطرات كبيرة من الماء تنزل من أغصانها . وكأنه لم يكفني سلب قطاع الطرق فجاء المطر لكي ينهيني . بينما كنت أذهب يميناً ويساراً وجدت كهفاً صخرياً ارتميت فيه . عندما دخلت إلى الكهف توقف المطر ، ولم تمض خمس دقائق ، ظهرت الشمس . بعد قليل دفئت الأرض فصارت تنفث بخاراً . خلعت ألبستي فوراً وصرت كما ولدتني أمي . عصرت ألبستي الداخلية والخارجية فتدفقت منها المياه . بعد أن عصرت ألبستي جيداً نشرتها فوق دغلات الأشجار لتجف . كنت مثل ما ولدتني أمي ياه . . من سيمرّ من هناك ؟ يبدو أنه مكان لم تطأه قدم بشر . ولأن أرض الكهف جافة دخلت إليه . كنت أرتجف من البرد وأسناني تصطك ، فتكورت على نفسي مثل الخنفساء . وبينما كنت افكر فيما جرى لي سمعت أصواتاً تأتي من الخارج! الله ، الله . . لوكان الكهف عميقاً لهربت إلى داخله واختبأت . ولكن عمقه يتراوح بين ثلاث ، وخمس خطوات . زحفت على ركبتي إلى باب الكهف ، فماذا رأيت ؟ ألا أرى قاطعي الطرق الخمسة الذين

سلبونا قبل قليل ؟ عرفت أحدهم على الرغم من خماره الأسود ، بسبب أذنيه اللتين تشبهان المغرفتين ، ورأسه الأقرع . وتعرفت إلى ألبسة واحد آخر منهم . واخ! إذا لم يرني هؤلاء الآن ، وأخذوا ألبستي المنشورة على الدغلات فسأبقى على رأس هذا الجبل مثل طرزان . . كانوا يقتربون من باب الكهف الذي أختبئ فيه . ما الذي يمكن عمله في وقت ضيق ؟ بدأت فوراً بالدعاء : « يا رب! كفاني ما وقعت فيه . لا تتركني على رأس هذا الجبل دون سروال يا رب! » ، ووضعت يدي على ركبتي وجلست . ولكي لا أرى وجوه قاطعي الطرق مهما كان ، وضعت رأسي بين فخذي وانتظرت . كنت أرتجف ، واصطكاك أسناني يجعلني مثل المصاب بنوبة حمى ، لأن جسدي كله يهتز . إذا كنت أرتجف مرة من البرد ، صرت أرتجف ألف ضعف من الخوف . وصل هؤلاء إلى جانبي وهم يتحادثون . رأيت زوجين من الأقدام . يبدو أنهم رأوني أيضاً ، فقالوا :

ـ الله الله . . الله الله! . .

ـ يا سبحان الله . .

ـ أنس أم جن ؟

نعم معهم حق بالدهشة . لم يبق فيّ ما يشبه الإنسان ، ولايمكن تمييزي إن كنت جنياً أو أنسياً . .

ـ أنس أم جن ؟

هل أرفع رأسي وأقول : « أنا مثلكم ابن آدم » ؟ أم أسكت ؟

ودون أن أرفع يدي من فوق ركبتي ، قفزت إلى الداخل .

بعد أن توقف الرجال برهة ، وتهامسوا . دخل ثلاثة منهم إلى الكهف . مسك يدي من كان في مقدمتهم وصار يشدها ، وأنا لا أعطيه يدي لأنني سأكشف عورتي إذا رفعتها . . وهل يُقاوم ذراع مجرم ؟ ولكن بعد أن سحب يدي ألا يقبلها ويرفعها على رأسه ؟ الآخران أيضاً قبلا يدي ، ثم ذهب الجميع .

بعد أن ذهبوا بزمن طويل ، خرجتُ . نظرت وإذا بفراء وصرة . . لابد أنهم تركوها لي . التففت بالفراء ، وفتحت الصرة فوجدت خبزاً مشروحاً ، وجبنة ، ولحمة مسلوقة ، وبصلاً وخبزاً محلى . . كدت أدوخ جوعاً . أكلت وملأت بطني .

تفقدت ألبستي فوجدتها ما نشفت . التففت بالفراء ونمت في الكهف . نمت بعد فترة قصيرة وأنا أفكر فيما وقع لي . استيقظت على أصوات عجيبة ، ولكنني تظاهرتُ بالنوم لكي أفهم ما يعملون . سمعت كلمات مثل : « العرياني » ، « شيخ ، حضرة الشيخ » . كان المجتمعون بجانبي كثيرين .

قالت امرأة :

ـ هذا هو الذي رأيته في حلمي . نعم كان عرياناً مثل ما ولدته أمه ، وجئت وقبلت يده . قلت له : « تكرّموا علي باسمكم ياشيخنا » فقال : « الله يرضى عليكِ يا بنتي . اسمي الشيخ سعيد العرياني » ، وقال : « بعد ثلاثة إشارات سأظهر في كهف في جبل (كونت) اذهبي وبشري الأهالي ، وليعلموا أنهم سيصلون إلى السلامة عاجلاً » . وهذا هو الرجل الذي رأيته في منامي .

كانوا يتكلمون عني . ثقوا أنني لم أحاول تزوير شيء . ولكن لابد للإنسان أن يماشي محيطه . . قلت : « يالله ، بسم الله » ، وقفت ، وأسندت ظهري إلى الصخر . ولأنني لم أكن لابساً سروالاً داخلياً ، فسأتبهدل أمام المرأة عندما يظهر كل جزء مني . وحينما سندت ظهري على الصخرة ، قال لي ذو اللحية السوداء الواقف أمامي :

ـ حللتم أهلاً ، وجئتم سهلاً يا أبانا العرياني...

نعم إذا كنت لم أحاول التزوير ، فلا أستطيع القول إنني لم أحاول المكر . ماذا كنت أستطيع أن أفعل بعد أن سلبني قطاع الطرق ، وبقيت عارياً جائعاً ، عطشاً في مكان لا أعرفه ؟ . . لم أستطع قول : « لا أنا لست العرياني » . قبَّل الجميعُ نساءً ورجالاً يدي وقدمي . وأنا كنت أقول لمقبلي يدي كما رأت المرأة في نومها : « الله يرضى عليكم » . ثم تحلقوا أمامي وجلسوا . أنا عند

باب الكهف وهم في الخارج . فجأة مثلت أمام عيني الكتب الصغيرة التي تحتوي قصصاً مرسومة ملونة من الإنجيل . وقفتي عارٍ ملتف بالفراء ، والنساء والرجال الواقفون أمامي باحترام يلبسون ثياب الفقراء ذكرتني بقصص الإنجيل المرسومة .

عشت أياماً في حياتي يمكن أن أكون فيها سعيداً جداً . ولأنني أعرف أن هذه الأيام لن تدوم طويلاً ، وأعرف أنني سأتبهدل فلم أستمتع بتلك الأيام . وهكذا بدأت عملية انتحال شخصية الشيخ .

صرت الشيخ أحمد سعيد العرياني الشهير . كان يتوافد عليَ المرضى والمهمومون من كل القرى المجاورة ليحصلوا على أدعيتي بالخير . وكانت شهرتي تتوسع من يوم إلى يوم . صار القرويون يقدسون حتى التراب الذي أدوس عليه ، ويأخذونه ويستعملونه دواءً لكل داء . لم تبق ذرة تراب عند باب الكهف الذي أسكنه . كانوا يصنعون من هذا التراب كل أنواع الأدوية من شرابات ومراهم وحبوب . على الرغم من إلحاحهم عليّ بالسكنى في إحدى قراهم ، ولكن عملت كالأولياء ، وقلت إنني تلقيت أمراً ببقائي هنا ، وهذا لكي تستمر سلطنتي مدة أطول . وبالتأكيد إن الأمر سماوي ورباني . ما سألني أحد من أين أتيت ، لكنهم كانوا يلفقون حولي بعض القصص . بالنسبة للبعض فأنا قادم من نواحي بخارى وسمرقند وخراسان ، وبعضهم الآخر يدّعي أنني من شيراز أو الحجاز . عندما يذكرون بخارى أو (عشق آباد) فيظنون أنها أمكنة بعيدة بعد الكواكب . إذا ذهبت إلى قرية من قراهم فسيقبض عليّ بسرعة كبرى . هذه المرة لم أكن أنوي الذهاب من هناك . قلت لنفسي : أعيش ما أعيشه ، وتركت نفسي لتيار الحياة . كان أمراً كالحلم . نعم ، إنني أشعر الآن بأن تلك الأيام حلم لايمكن تصديقه . وبالطبع لم أبق في تلك المغارة . عندما رفضت الذهاب إلى إحدى قراهم بَنَوا لي على رأس ذلك الجبل بيتاً . وكان على باب بيتي شابان يتناوبان دائماً . كما أن النساء اللواتي يقمن على قضاء حاجاتي ما تركنني وحيداً أبداً . وفهمت فيما بعد أن قراري

بعدم الإقامة بينهم ، وبقائي على رأس الجبل قرار صائب . كانوا يظنونني سامياً ، وعلى مستوى عالٍ ، علو الجبل الذي أقيم فيه ، ولايمكن الوصول إليه .

كانوا يجلبون الخراف والنعاج والجبن والسمن والعسل من أجل الحصول على حفنة تراب من جانب بيتي . صار لدي خلال فترة قصيرة قطيع من الغنم .

سألوني ذات مرة :

ـ البيك يطلب الإذن بزيارتكم ، فماذا نقول له ؟

لم أستطع أن أسألهم : « من البيك ؟ » لأنني أدعي معرفة كل شيء ، والعلم بالغيب ، فقلت :

ـ ليتفضل . .

كنت أشعر بالملل لأنني قليلاً ما أتكلم مع من في البيت والزائرين . أي أنه بدأت تزول عوامل الراحة... وتكلمي مع الآخرين بشكل نادر ، لكي لا ترتفع الكلفة بيننا . هذا الوضع يجعلني أكثر احتراماً . لهذا السبب تقت لمعرفة البيك . استطعت الحصول على معلومات قليلة حوله . كان مالكاً لثماني عشرة قرية من القرى التي كنت شيخها . أي في يده سندات تمليكها .

في وقت الصلاة كنت أقول لمن حولي : « هذا وقت الصلاة والعبادة » ، وأذهب إلى غرفتي وأغلق الستائر وأنام . وفي ذلك اليوم لم أستطع فتح عيني لشدة النعاس بعد طعام غذاء غُلِّبْت معدتي به ، قلت : « هذا وقت الصلاة والعبادة » وذهبت إلى النوم . ولا أعرف كم مضى عليَّ من الوقت نائماً . لأنني في بعض الأيام أدخل ظهراً إلى النوم ، فأخرج وقد صليت صلاتي العصر والمغرب ، فأجلس إلى طعام العشاء .

كنت نائماً على ثلاث فرشات ناعمة ، فأفقت خائفاً من شخيري . سمعتُ في الخارج بعض الأصوات . أسندت أذني إلى الباب فسمعت المناوب عند باب بيتي يقول :

ـ حضرة الشيخ سعيد العرياني في الذكر ، إنه يذكر الله .

فقال له شخص آخر صارخاً :

ـ ماهذا الذكر ولاه ؟ ابعد عن الباب!... شخير الرجل يقتلع الزجاج ، ويهز الحيطان... حضرة هذا الشيخ سيهدم البيت بما يصدره من صوت . أيقظ حضرة الشيخ . .

كان الشاب الواقف عند باب بيتي يقول :

ـ غير ممكن . عندما يكون الشيخ العرياني في الذكر فلا ندخل إليه بحاجة .

ـ قلنا لك : هذا ليس ذِكراً .

ـ ذِكر ، ذِكر . . سبب ارتفاع صوته ، وتردّد صداه لأنه يخرجه من القلب . عندما يذكر شيخنا فيصدر صوتاً بقوة صوت جنود خمس فصائل عسكرية معاً . أنا قربان صدره... عندما يقول : « الله » كأنه الرعد . .

ـ أذا كان الأمر هكذا ، فالذكر قد انتهى ، وتوقف الشخير...

ـ عندما ينتهي الذكر يسبّح ، ثم يعمل استخارة... بعد قليل يخرج من نفسه...

بالنظر إلى عناد الرجل أمام المناوب تظن أن قوات الحكومة تداهمني . صرت أرتجف خوفاً خلف الباب . ولكن عندما قال الرجل :

ـ ولاه ، وهل يُترك البيك على ظهر الحصان منتظراً في الخارج ؟

فهمت أن البيك قادم . صرخت من خلف الباب :

ـ جاء البيك ، ليتفضل . أدخلوه!

فقال الشاب المناوب لذاك الرجل :

ـ أرأيت ؟ لأن حضرة الشيخ صاحب كرامة فعرف بمجيء البيك . إن شيخنا يرى ويسمع ما يحدث في أقصى الأرض من خلف جدران قلعة .

صرخت قائلاً :

ـ من هناك ؟

قال المناوب :

ـ وكيل البيك . .

عندما قلت :

ـ نعم ، هذا عرفناه . . إنه الوكيل . .

سمعت الوكيل يقول :

ـ نعم عرفَنا . كيف عرفَنا ؟

قلت :

ـ لينتظر . نحن قادمون .

وذهبتُ إلى الباب الثاني للغرفة ، وصرخت للنساء :

ـ سنستقبل الضيوف .

لبست ثيابي ، وذهبت إلى الغرفة الكبيرة . وجلست على المقعد المفروش بالسجاد والشبيه بالعرش . عندما نظرت من النافذة رأيت ثمانية أو عشرة خيّالة . ومن الواضح أن الذي في المقدمة هو البيك... هل أذهب إليه ، وأمسك رسن الفرس ، وأساعده على النزول ، وأقول له «تفضل ، تفضل» ، أم أبقى مكاني دون حراك ؟ بدأت أفرك لحيتي التي أطلقتها منذ صرت شيخاً ، وأنا انتظر . فُتح الباب . دخل شاب رفيع وخلفه خمسة أشخاص . يبدو هذا الشاب في الثلاثين من عمره . أما الرجال فهم غلاظ وطوال ، وذوو شوارب سوداء . . صرت تمثالاً ما تحركت . . يجب أن يكون الرفيع الماشي في المقدمة هو البيك . قبَل في البداية الأرض ثم ثوبي ثم يدي . فقلت : «الله يرضى عليك» وسحبت يدي . جلسوا على ركبهم أمامي . دخل رجالي الذين يعرفون آداب هذا العمل جيداً وأشاروا إلى البيك ليجلس بجانبي .

عندما رأيت البيك عن قرب فهمت أنه ليس شاباً ، فهو تجاوز الأربعين من عمره . قال :

ـ جئنا لنأخذ خير دعائكم .

فقلت :

ـ دعائي دائماً لكم وللدائم .

أتت القهوة . تحدثنا من هنا وهناك . ورجاني البيك أن أشرف (ڤيلاه) . فقلت :

ـ نعم دعوتكم مقبولة .

ولأنها كانت زيارة رسمية فقبلوا يدي وثوبي وخرجوا . ولم أنهض من مكاني .

بعد عدة أيام أرسلت للبيك خبراً بأنني سأزوره في الڤيلا . لم أكن أعرف شيئاً عن مكان الڤيلا ، ولا كيف نذهب إليها ، وبأية واسطة . ولأنني أدعي معرفة كل شيء فلم أسأل أحداً . لو سألت فسيخرب السحر . وفي صباح اليوم المتفق عليه جاء عشرة خيالة ومعهم عشرة خيول إضافية . البيك أرسلهم . ركبت مع رجالي على الخيول . ولكنني لم أستطع الثبات على ظهر الفرس لأنني لا أعرف الركوب . واذا سقطت عن ظهره سيفتضح أمري . وهل يسقط الشيخ العرياني عن الفرس ؟ لوطرت لما دهشوا ، ولكن لو سقطت عن الحصان لدهشوا .

أثناء ذهابنا كان بجانبي من هذه الجهة وكيل البيك ، ومن هذه الجهة (مكو) رئيس العصابة التي سلبتني أثناء سفري . قلت لمكو :

ـ يا بني مكو ، حلت شفقتنا على الحصان . لنذهب مشياً ، ولكن لا أريد أحداً غيرك معي .

استنتج مكو من كلامي ما يتفاخر به . فهذا يعني أنني أحبه وأثق به وحده .

ترجلنا مكو وأنا . بعدت عن الخيل . فقال مكو :

ـ إذا ذهبنا في عرض الأراضي ، سنصل بأذن الله قبلهم .

ولأن مكو ذئب الجبال ، وكثيراً ما لعب أمام الدرك هنا ، فهو يعرف جميع الطرق المختصرة هنا . ومكو لايذهب إلى أي مكان دون اصطحاب خمسة أو ستة رجال ، وهو يذهب مع حضرة الشيخ وحده لأنه يثق به . لأنني كنت أساوي فرقة درك . وفي الحقيقة أنا الذي أعتمد على مكو . عندما يكون

معي فلا يستطيع سلبي مجرم الجبال السبعة .

ولأن الجو بارد ، كان يسير بسرعة ويقفز من حجر الى حجر ، ومن صخرة إلى صخرة . لم تمض ساعة ، وصلنا إلى ڤيلا البيك . هرع رجاله نحونا . وإثرهم ركض البيك واستقبلنا . أخذ يدي بسرعة وقبلها ، فسحبتها ، وصرت أفرك لحيتي ، وقلت :

ـ الله يرضى عليك يا بني...

ولكن البيك الذي قلت له : « يا بني » يكبرني بخمس أو ست سنوات على الأقل . سأل البيك :

ـ أين رجالنا ؟

قال مكو :

ـ في الطريق .

ومثلما قال مكو ، وصلنا من الطريق المختصر قبل الخيالة .

وفي ڤيلا البيك ، أدخلني صالوناً مفروشاً بفرش فخم إلى حد الإدهاش . سبب دهشتي أن الصالون مفروش بما يجعله لايختلف أبداً عن صالونات بيوت أغنياء اسطنبول . كان في الصالون مكتبة ، وفي المكتبة كتب مجلدة . أتت القهوة . وبينما كنا نشرب القهوة قال البيك إنه سيذهب قريباً إلى اسطنبول ، وإنه لا يقضي إلا بعض أشهر السنة هنا ، وبقية الوقت يعيش في اسطنبول ، وإن ولديه يدرسان في انكلترة ، وإن لديه فتاة متزوجة تسكن في سويسرا . عندئذ وصلت دهشتي إلى حدها الأعلى . بعد ذلك قال :

ـ عن إذنكم يا سيدي الشيخ . .

وخرج .

فهمت من الضجيج الذي حدث في الخارج أن الخيالة قد وصلوا . جاء البيك وقال :

ـ تفضل إلى الطعام يا شيخي .

عبرنا إلى غرفة الطعام ، وجلسنا إلى المائدة . ما رأيت في حياتي حتى

تلك اللحظة مائدة بهذه الفخامة . يوجد رجلان للبيك يقفان على أهبة الاستعداد لخدمتنا ، وامرأة تجهز المائدة . أكثر ما أدهشني وجود زجاجة العرق على المائدة . بعد ذلك أما ملأ البيك القدحين بيده ؟ ماهذا الأمر ؟ عملت نفسي متصوفاً ، فقلت :

ـ هذا حرام علينا ، يجب ألا نشرب... أنتم تفضلوا يا بيك بالعافية . .

آه لو أنني ما حكيت ، وشربت ما في الأقداح والزجاجة . لأن البيك الذي كان يبدي لي احتراماً كبيراً ، فجأة ، ابتسم بسخرية ، وقال :

ـ اشرب ولاه . . كذا ابن كذا . . أعلينا هذه المظاهر ؟

نظرت إلى وجه البيك فوجدته في غاية الجدية... ياهوه ، ما الذي يمكنني فعله الآن ؟

ماذا يُعمل في مواقف كهذه ؟ الضحك بسخرية . . وهذا ما فعلته ، وقلت :

ـ تفضلوا ، فأنا متوضئ ، وسيخرب وضوئي .

نظرت إلى البيك ، وإذ بوجهه قد كمد ، وبدأ يحرك يديه بعصبية ، وصاح :

ـ قلنا اشرب ولاه كافر!

نظرت إلى الذين يقفون أمامنا على أهبة الاستعداد . عندما أشار لهم البيك بقفا يده خرج الرجلان والمرأة عندما بقيت مع البيك ، ورفع قدحه ، وقال :

ـ بصحتك ياحضرة الشيخ الكبير .

رفعت قدحي دون أن أنبس . لم افهم حركة التغيير المفاجئة للبيك . منذ صرت شيخاً اعتدت على احترام الجميع لي . والبيك أيضاً كان يحترمني كالآخرين . ما الذي جعله يشتمني فجأة ؟ لو كان قد شرب قدحين من العرق ، لقلنا : سكر الرجل... لكنه لم يشرب بعد . . بعد أن أفرغت قدحي الأول في فمي ، قال :

ـ أحسنت ولاه كبير الديوثين . لو ما شربت ، كنت سأهوي بقبضتي على نقرة رأسك عندئذ سيخرب وضوؤك بجد ، لأنك ستعملها في ثيابك...

تمادى الرجل أكثر . بعد قدحه الثاني قال لي فجأة :

ـ الآن آمنت أنك ستنجح في المشيخة . أنا أعجبت بك . .

لم أستطع الإجابة ، لأنني كنت أفكر بهذا البلاء الذي سقط على رأسي ، وأقول بيني وبين نفسي : يا الله ، كيف سأتخلص منه . سألني البيك :

ـ من أين جئت ؟

ماذا سأقول للرجل ؟ هل أقول إنني جئت من مدغشقر ، أم بخارى ، أم خراسان . . بينما كنت إفكر في هذا قال :

ـ لتكن جئت من قعر جهنم . ولكن احك الحقيقة! هل دخلت السجن ؟

واخ! . . وهل يعرفني هذا الرجل من السجن ؟ قلت :

ـ حاشى أنا لا أعمل في أمكنة كهذه .

ـ ماهذا ؟ غريب... يبدو عليك قليل ناموس ، دفتر سوابقه ممتلئ . المهم . صدقتك . . ولكن زعلت لأنك ما دخلت السجن .

لماذا ؟

ـ كان سيكتمل علمك لو دخلت إلى السجن عدة مرات ، وسيكون هذا أفضل لك وستصير شيخاً دون نقص . . هذا يعني أن عندك نقصاً .

عندما قلت له : مشيختي أبا عن جد قال :

ـ اصح ولاه . . وهل يمكن أن يطير طير في هذه المنطقة دون علمنا لتدعي أن المشيخة من اختراعك ؟ عندما وجدوك في الكهف عارياً كما ولدتك أمك ، وصل خبرك إلينا أولاً . قالوا لي : «وجدنا رجلاً عارياً . ولأنه لايوجد عليه شيء يمكن سلبه تركناه للذئاب والطيور الجارحة وجئنا . ماذا نفعل يا سيدنا ؟ ولأننا كنا في تلك الأثناء بحاجة ماسة إلى شيخ ، قلنا لهم : «ماذا تخلطون ولاه . . هذا هو الشيخ الذي كنا نبحث عنه وننتظره . . بينما كنا نبحث عن الشيخ هنا وهناك وجدناه أمامنا . . هل الرجل عار كما ولدته

أمه ؟ . . هذا يعني أنه حضرة الشيخ العرياني » . وأصدرنا الأمر : « احترموه ، وأطعموه السمن والعسل » . قال لي رجالي : « ليس اسم هذا الرجل عرياني . نحن سلبناه . وقال إن اسمه أحمد » قلت « ياهوه . . لأن الرجل عار ، فهو يتجول متنكراً باسم آخر . لاتهتموا لقوله إن اسمه أحمد . أخفى عنكم اسمه . اذهبوا وقبلوا يديه ورجليه ، وقولوا له ياحضرة الشيخ العرياني . وهكذا صرتَ بفضلنا شيخاً .

نظرت وإذ بالبيك ليس من النوع الذي سيبتلع المشيخة ، فقلت له :

ـ بفضلكم...

ـ عندما قال لي المخبرون" « لايريد الشيخ العرياني النزول إلى القرية ، وسيبقى في الجبل » قلت لنفسي : « هذا الشيخ قوّاد أكثر مما كنا نتصور » وأعجبت بفكرك . أحسنت ياكبير الكفرة... لو أنك نزلت إلى القرية ستضطر لرفع الكلفة بينك وبين القرويين . يجب على قطّاع البيكوات والآغوات والمشايخ أن يبقوا بعيداً عن الناس ليكبروا بأعينهم ، وليفهموا أن هؤلاء ليسوا منهم... عندما قالوا لي : « حضرة الشيخ لايريد النزول إلى القرية » قلت لنفسي : يجب أن يكون هذا السافل قد خضع لتدريب جيد في السجون فعرف هذه المعرفة... من أين لرجل لم ينم في السجن أفكار كهذه . . وهذا هو سبب سؤالي لك : « هل نمت في السجن ؟ » . . والآن قل الحقيقة : « هل نمت في السجن ؟ »!

ليس من الممكن أن أكذب . لهذا ابتسمت قائلاً :

ـ إيه . . نمنا قليلاً يا سيدي . .

ـ بأي جرم ؟

أيقال : احتيال . . ياهوه ؟ قلت :

ـ إطلاق نار على أحدهم .

كنت سأقول : « قتل » ولكن لساني ما طاوعني على كذبة بهذا القدر .

نظر البيك إليّ نظرة تقييم ، وقال :

ـ ولاه ، وجهك ليس وجه من يطلق النار على أحدهم . احك الحقيقة ولاه سافل! هل نمت بجرم اللصوصية ؟ وحتى إنك لا تبدو من اولئك الذين يستطيعون الإقدام على عمل الليل . هل مسكوك وأنت تخطف حقيبة امرأة عجوز في السوق ؟

ـ سقطت في السجن عدة مرات بجرم الاحتيال ، ولكن لا أصل لها جميعها ، كلها افتراء...

ـ هاااا . . هذه هي الحقيقة إذن... أعجبت بك أكثر . ستنجح في المشيخة جيداً... ولاه لو قصدنا البحث عن واحد مثلك لما وجدنا ، يا للصدفة . . هذا يعني أن الله قد ساقك إلينا . ناسبتك المشيخة وكأنك فُصِّلتَ لها . .

ـ بعد أن اندمجنا قلت له :

ـ عن إذنكم ، ما سبب بحثكم عن شيخ ؟

ـ وهل يمكن أن تسير الأمور بدون شيخ ؟ شعب هذه المنطقة بحاجة إلى شيخ... كان لدينا شيخ له جوانب جيدة ، وجوانب سيئة ، ويسيّر الأمور . كان قواداً ممتازاً . لا نفضّله عنكم . ولكنه عندما خرَّب الأمور هنا ، أوقع نفسه في البلاء . طردناه . وبقي شعبنا هنا دون شيخ . من الممكن أن يعيش الناس هنا دون خبز ، ولكنهم لايستطيعون العيش دون شيخ . . ومنذ مدة طويلة ونحن نبحث عن شيخ . أرسلنا أخباراً إلى هنا وهناك ، وإلى كل معارفنا : « إذا وجدتم شيخاً مناسباً أرسلوه لنا! » . لكن لم نستطع إيجاد من هو مناسب . في النهاية ، ساقك الله إلينا . . يوجد لدينا هنا في قرانا قطيع من الكلاب يمكن أن يكونوا شيوخاً . . كثير منهم توسل إليَّ وقبَّل قدمي وقال : « دخيلك يا بيك اعملني شيخاً » ولكن ما عيّنت أحداً منهم .

ـ تعيين ؟

ـ نعم تعيين ياه . . ماذا تظن ؟

ـ شوقتني كثيراً يا سيدي ، لذلك أسألكم ، أرجو عفوكم! لماذا لم تعينوا شيخاً من أبناء المنطقة ؟

بعد أن رفع قدحه ، ونقره بقدحي ، قال :

ـ لايمكن . إذا كان الشيخ محليّاً ، يجب أن يكون بالوراثة ، أي أباً عن جد . . عندما لايكون شيخاً بالولادة ، أي مثلك ، أخذ المشيخة بعد كبر ، يجب أن يكون غريباً . عندما يكون محلياً ، فالكل يعرف أعماله وأصله وفصله ، فلا يحترمونه . لهذا السبب يجب أن يكون غريباً ، ولو كان حماراً .أما قال الأولون : «لا يظهر نبي في قومه» . . لهذا السبب أعجبت بعدم نزولك إلى القرية ، وبقائك على رأس الجبل . الرجل الكبير ، يجب ألا يختلط بالناس لكي يكون رجلاً كبيراً . وكما قال (كور أوغلو) : «اختُرعت الحديدة ذات الفوهة ، فخرّبت الجرأة» وعلى هذا الأساس : «اخترعت الديمقراطية ، فخرّبت العظمة» . إذا أخذتك الديمقراطية ونزلت بين الناس مرة هذا يعني أنك سقطت .

نعم ، قالوا ديمقراطية آمنا . . لا ندع أحداً يضع عيباً بمقدار ذرة على ديمقراطيتنا . . وبسبب وجود الديمقراطية يجب ألا نبتعد عن الشعب . يجب أن ندخل بين الشعب كثيراً . ولكن يجب أن نغوص بين الجماهير في سبيل الديمقراطية ، ولكن يجب أن نخرج بسرعة .

هل فهمت الآن يا شيخ أفندي . إذا أخذتك الديمقراطية مرة ودخلت بين الناس فهذا يعني أن شغلك انتهى . نعم ، كان الشيخ السابق جيداً ، ولطيفاً ، وتمتد مشيخته إلى سبعة أجداد . لكنه خرق القانون . وعندما خرق القانون ، طُرد .

ولأنني تشوقت كثيراً سألته :

ـ ما هو القانون الذي خرقه الشيخ السابق .

ـ مهلك ، لا تستعجل . لكل درس من الدروس التي ستأخذها دوره .

ـ لا ، أخشى من خرقه بغير علم .

ـ نعم . عندئذ سنحترق . ولكن لا تقم بأية حماقة بغير علم وتتركنا بدون شيخ ، فنسقط مرة أخرى في دوامة البحث عن شيخ . ولا تسنح الفرصة

دائماً لتخليص أمثالك من حبل المشنقة أو الخازوق . .

صار البيك يتمادى في حديثه ، ولكنني لا أنبس بكلمة من خوفي . استمر قائلاً :

فيما بعد ستتعلم وبالتدريج جزئيات القانون . لا تلخبط ذهنك الآن فجأة ، ولكن سأقول لك هذا : إن القانون هنا يترابط ثلاثياً . عليك ألا تخرب الترابط الثلاثي في أي وقت . اسمع هذا المثال . هذا يشبه ثلاثي السجن تماماً . إذا أراد رجل أن يبيع الهيروويين في السجن فماذا يلزمه ؟ أولاً تاجر يرسل له الهيروويين من الخارج . . ثانياً ، يجب أن يكون زعيماً في السجن . . . إيه ، كيف سيُدخل الهيروويين من الخارج ؟ لهذا يجب أن يكون له يد سرية في إدارة السجن . وهذا هو الأمر الثالث . إذا لم تجتمع هذه الشروط الثلاثة فلايمكن حدوث هذا ، ولن يباع الهيروويين في السجن ، وسيتلوى السجناء المدمنون في أزمات الإدمان مثل الحلزون . . وهذا العمل يشبه ذاك يا ابن الكلب يا شيخ أفندي . وهنا يوجد ثلاثي . الأول هو البيك ، أي أنا . . والثاني الشيخ ، وهو أنت . . والثالث الدولة ، وهو قائد الدرك .

عندما قالها كدت أذوب ، فقال البيك :

ـ ولاه شيخ ، عندما سمعت كلمة الدرك صار لون وجهك يتأرجح بين الأصفر ، والأخضر . . عليك أن تعطي الدرك قيمته ، فهمت ؟

ـ يعني أن الشيخ السابق...

ـ لا ترجعنا إلى الشيخ السابق . القواد خلط كثيراً من الأشياء . كانت علاقته مع الدرك جيدة ، وعلاقته معي جيدة . .

ـ إذا كان الأمر هكذا ؟

ـ ولاه ، نحن قلنا الحكومة . إذا جاء أحد كبار رجال حزبنا عليك أن تعمل سياسة دقيقة ومتقنة ، مثل مجموعة جناح اللوردات الإنكليز . ولكن شيخنا لم ينجح بهذه السياسة الدقيقة ، فذهب بالطوشة . المهم أنك أخذت

درسك الأول . . احفظه جيداً . إذا لم يتحد هذا الثلاثي الذي ذكرته ، فسيغدو الفلاحون هنا مثل المساجين المدمنين بدون هيروييين ، وأصابتهم النوبة ، الله يحمينا... هذا هو سبب استنفارنا لنجد شيخاً . إذا لم يجد فلاحنا مخلوقاً مثلك يشبه الإنسان ، سيعمل واحداً من خشب السنديان . أنت الآن شيخ صاحب كرامات . أنا قبل قليل خرجت ياه . . ماذا كانوا يقولون عنك ، أتعرف ؟ أما نزلت عن الحصان ، وجئت مع كبير قاطعي الطرق بشكل مختصر إلى هنا ؟

ـ نعم . .

ـ ووصلتما مشياً من الطريق المختصر قبل الخيالة ياه . .

ـ نعم . .

ـ ماذا يقول قاطع الطريق الذي جاء بك في عرض الأراضي بشكل مختصر ، في الخارج الآن ؟ يقول : بعد أن ابتعد الخيالة ، قلتَ لكبير قاطعي الطرق : « يجب أن نصلي » .

ـ لم أقل هذا . .

ـ بالتأكيد ما قلت ياروحي . اسمع نهاية الكلام . . وقفتم للصلاة ، أنت في المقدمة إماماً ، ووقف وراءك قاطع الطرق الشهير . واعتبرته بدل جماعة في جامع لكثرة ما ارتكب من جرائم ، ونهب . وصليتما جماعة . صليتما ركعتين . وفي الركعة الأخيرة عندما قلت « السلام عليكم ورحمة الله » ، والتفتما برأسيكما إلى اليمين ، فماذا رأى قاطع الطرق ؟ . .

ـ ماذا رأى ؟

ـ ولاه ، مازلت تسأل . . نظر وإذ أنتما هنا . بينما كنتما تصليان هناك ، جئتما إلى هنا بلمح البصر . انظر إلى هذه الكرامة التي عندك! ما الحكمة في وصول الخيالة الماشية على أربع بعدكما بساعة ؟ إنها كرامتك . هذا ما يحكيه كبير قاطعي الطرق . جمع من حوله الهُبل وقد فتحوا أفواههم شبراً ويستمعون ويقولون : « الله ، الله » .

ـ كذب . . جئنا في عرض الأراضي من الطريق المختصر ، ودلّني عليه

كبير قاطعي الطرق مشياً . .

ـ يا روحي ، بالتأكيد هذا كذب . . ومن المعروف أن هذا الحديث كله من تلفيق كبير قاطعي الطرق . والحمقى الذين يسمعونه يعرفون هذا ، وأنت تعرفه ، وأنا أعرفه . وهل يمكن لسكان هذه المنطقة ألا يعرفوا أن طريق جبل كونت إلى هنا بشكل مباشر يستغرق نصف ساعة ؟ . . الأطفال يعرفون هذا . . ماذا يقول الكافر وكيلي ، مقابل تلفيق قاطع الطريق ؟ يقول : «الله الله . . كنا ذاهبين على الخيل . . نظرت وإذ بسحابة بيضاء ظهرت أمامي ، وفوق السحابة فرس أبيض . . وعلى الحصان حضرة الشيخ سعيد العرياني . . » ويقول : « كأن حضرة الشيخ يطير فوق الحصان » . وعندما قال وكيلنا هذا قال الآخرون : « نعم ، هذا ما رأيناه تماماً ، ودهشنا . . هيه يا الله . . أما نزل الشيخ سعيد العرياني عن الحصان أمام أعيننا ، وأتى ماشياً ؟... » .

ـ ولكن عندما وجدوني في الكهف عارياً كما ولدتني أمي ، أرتجفُ من البرد . أتت امرأة وقالت لمن حولها إنها رأتني في حلمها . قالت : «الرجل المبارك الذي رأيته في حلمي هو هذا بالضبط » .

كنت أريد من خلال كلامي هذا تقوية وضعي ، واعتبار نفسي أمام نفسي « في وضع شرعي » . ولأن البيك رجل ذكي جداً ، فقد فهم هذا وقال :

ـ ولا أنت رجل تستحق الربط من لحيتك في ذيل بغل ليجرك في هذه الجبال . ولا رذل! بماذا تختلف أنت عن هؤلاء المساكين ؟ . . أنظر إلى هذا ، تلفق كذبة ، ثم تعتقد أن كذبتك حقيقة فتصدقها . لماذا ؟ لأنك رجل مسكين ، ما معك قرش ، وأنت تعرف أنك إذا طُردت من هنا فستبقى جوعانَ وعطشانَ وسترتكب لصوصية ، وستسقط في السجن مرة أخرى . عندما تفقد أملك تصدق كذلك الذي ابتدعته أنت ، وكذب الآخرين الذي يخدم مصلحتك .

سألت البيك :

ـ وهل يعرف الآن كل هؤلاء القرويين أنني في الحقيقة لست الشيخ سعيد العرياني ؟

ـ يعرفون .

ـ ويصدقون كذبهم ، أليس كذلك ؟

ـ نعم .

ـ حسنٌ لماذا ؟

ـ وهل كنا نغني في الطاحون منذ الصباح حتى الآن ؟ لماذا قدمناك كمثال يا أحمق ؟ ولاه ، لأنك وقعت في المأزق الذي لا مخرج منه ، فستلفق كذباً ، وتصدق نفسك . مع قلة العقل هذه التي تعاني منها لا أصدق أنك وقعت في السجن . لايمكن لشخص قليل عقل إلى هذا الحد أن يكون قد وقع في السجن . حتى احجار السجن لكثرة ماسمعت تعقلت قليلاً وصارت قريبة من الانسان . قل لنر! لماذا يكون السجين كثير السخرية ؟ لأنه لا أمل له بالنجاة يا بني . رجل دُفن بين الجدران ، فهو مضطر لتلفيق الكذب وتصديقه . في الحقيقة لايمكن أن نسمي هذا كذباً . لأن الكذب تلفيق من أجل خداع الآخر في سبيل مصلحة معينة . فالرجل الذي في السجن قد حوصر ، وسقط ، وصار بدون أمل ، لذلك يبني خيالات . يبدأ بخداع نفسه . بعد هذا يبدأ بمراجعة كذبه وتزيينه . ولكثرة حكيه الكذبة يبدأ بتصديقها . أين الكذب في هذا يا هوه ؟ . . يمكن للإنسان أن يطير في حلمه . لأن الرجل في حلم مخيف ، تضايق كثيراً ، إذا لم يطر فماذا سيفعل ؟ . . هو مضطر للطيران...... وهل يمكن للإنسان أن يغدو طيراً ، ويطير ؟ إنّ كذب إنسان المناطق هذه يشبه الذي يطير ليتخلص من حلمه المخيف . إنساننا هنا يكذب عن قصد . ويصدق كذبته قبل كل الناس . والذين يستمعون إليه أيضاً يعرفون أن هذا كذب ، ولكنهم يصدقونه أيضاً . لأنهم مضطرون للتصديق . ولا يسمى الكذب كهذا كذباً . ومثلما أعرفك أنا الآن محتالاً ، فكبير قطاعي الطرق يعرفك ، والكافر وكيلي يعرفك أيضاً . والمرأة التي رأتك ترتجف وأنت عار كما ولدتك أمك في المغارة ، وقالت : « هذا هو الرجل المبارك الذي رأيته في حلمي » تعرف أيضاً . لفقوا هذا الكذب قصداً . . لأن قريتهم بحاجة إلى شيخ .

سألته :

ـ ولكن لماذا ؟

ـ لماذا سيكون ؟ . . واضح جدا . ليس عند إنسان هذه المنطقة طبيب ، ولا قابلة ولا دواء ، ولا عمل ، ولا نقودٌ... عندما لا يكون عنده شيء يقول لو كان عندي شيخ على الأقل . ولاه قواد ، سأبصق على لحيتك السوداء . إن التراب الذي تدوس عليه بقدمك القذرة هذه يأخذه القروي ليجعل منه مرهماً لجرحه ، ودواء لرئتيه ، وشراباً لزوجته العاقر ، وهل يفعل هذا لأنه يعرف عدم إفادته ؟ ولاه ، لايوجد دواء ، ولا نقود . ماذا سيفعل ؟ إنه نوع من الأمل ، ولو كان هذا الأمل فارغاً . لو كان لدى هؤلاء البشر بيوت يُعاش فيها كالبشر ، ولديهم عملهم ، وطبيبهم ودواؤهم ، لربطوا لحيتك بتنكة ولحقوا بك حتى يحصروك .

أحدث كلام البيك في داخلي ثقلاً ، فقلت :

ـ حسنٌ ، والحكومة ؟

ـ قلت الحكومة ؟ اسمع . . ماذا تستطيع أن تفعل الحكومة ؟ لوكان عند الحكومة مرهم لدهنت به نفسها . لولا وجود البيك والآغا والشيخ ، فهل تستطيع الحكومة ضبط هؤلاء الناس ؟ لا تستطيع! والآن ، هل فهمت شغلك ؟ أنت الآن بمعنى من المعاني رجل دولة غير رسمي ، وما قيمة رجل الدولة الرسمي بجانبك ؟ . .

كنا البيك وأنا قد سكرنا جيداً... كنت ضيفه مساءً أيضاً . لم يترك البيك الانشطاط صباحاً ، عندما تناولنا الفطور استمر بالسخرية مني :

ـ ولاه شيخ . يوجد كتب في هذه الخزانة . اختر ما يعجبك من هذه الكتب وخذها . إقرأها ليشتغل عقلك بشكل أفضل .

عندما استعرضت الكتب التي في المكتبة دهشت . لأن أكثر الكتب ضد المشيخة والبيكاوية . إنه جمع الكتب التي سمعت عنها وأعرف أنها ممنوعة . يجب أن يكون عندما قال لي : «اختر كتاباً» يريد أن يجس وضعي . فأخذت

كتابين نسيت عنوانهما منذ زمن طويل . والكتابان لكاتبين مؤيدين لحكومتنا .

ـ قال البيك :

ـ هات لأرى!

أعطيته الكتابين .

كان يخطر ببالي أنه يريد معرفة فيما إذا كنت مع الحكومة أم ضدها .

ـ بعد كل هذا البحث اخترت هذين ؟ بماذا يفيد هذان ولاه ؟

أعطاني كتاباً تناوله من المكتبة .

مازال عنوان الكتاب محفوراً في ذاكرتي : «المشيخة والإقطاع من وجهة نظر الإسلام» .

قال :

ـ اقرأه جيداً ، واعرف موقعك وموقعي من وجهة نظر الإسلام .

عندما كان يودّعني مع رجاله حدث ما أدهشني أيضاً .

بينما كنت أركب الحصان في فسحة الڤيلا ، احترمني احتراماً شديداً ، مثلما حدث يوم تقابلنا لأول مرة . . أدهشني هذا الاحترام بعد كل هذا الشطط والشتائم في المساء والليل . كانوا قد سحبوا حصاني الأبيض إلى جانب حجر الركوب . . إن ذلك البيك العظيم ساعدني بالوصول إلى حجر الركوب ، وثبت قدمي على الركاب بيده ، وكأن كل هذا الكَلَب ماكفى ، فمسك يدي وقبلها ، وعندئذ دهشت أكثر . انحنيت على أذنه وكأنني سأقول له شيئاً سرياً ، وهمست له :

ـ منذ مساء البارحة وأنت تشتمني ، ماذا تعني تظاهرة الاحترام هذه ولاه بيك ابن البيك...

ولكثرة ما شتمني البيك على مائدة المشروب ، ولكي أحمي اعتباري ولا أبقى دونه استعملت هذا التعبير «بيك ابن البيك» . ولأنني صرت على ظهر الحصان ، فقد تعاطى البيك على رؤوس أصابع قدميه وقال :

ـ هذا ما تتطلبه المصلحة . سأحترمك أنا لكي يحترمك هؤلاء القرويون . ولاه مفضوح العرض ، ياشيخ ملفق ، ماذا قال أجدادنا : «الذكاء الحاد يدفع الكرامة إلى الرفس » . أرني نفسك . اجعل الكرامة تُرفس لكي لايبقى شك في ولايتك . .

ثم مسك يدي ، وقبّلها ، وقال بصوت عال لكي يسمع القرويون :

ـ أرجوك يا شيخي ، لا تحرمنا نحن الخطائين من دعائك!

خرجت إلى الطريق ، والخيالة من خلفي وعلى يميني ويساري . . بعد أن ذهبنا مسافة قصيرة ، قلت مثلما قلت عند المجيء :

ـ حلت شفقتنا على الحصان . علينا أن ننزل .

وهممت بالنزول عن الحصان ، فاقترب مني كبير قاطعي الطرق وقال لي هامساً :

ـ أرجوك يا شيخي . أثناء المجيء ، لأن النزول من الجبل سهل ، أتينا بسهولة وسرعة . لا نستطيع الصعود من هذا المنحدر العمودي ونحن عائدون . . سوف يميتنا الصعود . لومشينا ثماني ساعات فلن نصل . أرجوك أبق كما أنت ، ولا تفكر بالنزول عن الحصان .

ـ حسن ، ولكن يا بني أنا لا استطيع التوازن على ظهر الحصان .

ـ لا تخف ، ولا تترك لجام الحصان . .

هكذا . . كنت أعيش حياة الملوك ، وأفكر أحياناً بما سيؤول إليه هذا الوضع ، ولكي أُنسي نفسي هذا ، أمد يدي إلى جرة النبيذ . بينما كانت تمرأيامي هكذا جاءني خبر :

ـ سيأتي الرائد بدري القائمقام...

كان كبير قاطعي الطرق من أخبرني بهذا . فسألته :

ـ من هو القائمقام بدري ؟

دهش كثيراً لعدم معرفتي به ولكنه حاول ألا يبدي نفسه مندهشاً . بدأ بالشرح قائلاً :

ـ القائمقام بدري قائد درك صعب جداً . قبل مجيئه كانت هذه الجبال ملجأ للمجرمين . ولم تستطع قوات الحكومة اقتلاع هؤلاء المجرمين من هذه الجبال . كانت يومياً تقطع الطرق وتداهم السيارات حتى صارت لا تستطيع واحدة أن تمر من هذه الطرق . زادها المجرمون إلى حد لم يعد فيه الدرك والقوات الأخرى تستطيع مواجهتهم . قومت الجرائد يومئذ القيامة وهي تحكي عن عدم وجود أمن هنا . لم يعد أحد هنا يأمن على ماله وعرضه وروحه . مفرزات درك عديدة لاحقها المجرمون . لم يستطع أي قائد درك من اولئك الذين كانوا يتغيرون بشكل مستمر مجابهة هذا الوضع . في النهاية (قال كبير قاطعي الطرق : لله الحمد) جاء القائمقام بدري هذا ، وصب على جذور شجرة المجرمين ماءً كبريتياً ، وحفر حتى نشَّف جذورها .

الذي حكى لي هذا هو قاطع الطرق الذي قطع طريق السيارة التي كنت أركب فيها قبل عدة أشهر ، وسلب ركابها . فسألته قائلاً :

ـ حسن ، كيف نجح القائمقام بدري في هذا الأمر ؟

وعد القائمقام بدري الحكومة قائلاً : « إذا لم تتدخلوا بشؤوني نهائياً مدة ستة أشهر ، سأجفف وضمن حدود القانون جذور المجرمين من هذه المنطقة » . وعندما لم تستطع الحكومة فعل أي شيء قالت له : « حسنٌ ، منحناك مهلة ستة أشهر . اعمل ماتريد عمله . أمرنا لك هو : انْهِ هؤلاء المجرمين وكفى . ولكن لا تفعل ماهو غير قانوني » . ولكن القائمقام بدري هذا نشف جذر المجرمين قبل مضي الأشهر الستة ودون أن يعمل ماهو غير قانوني .

ـ كيف عمل هذا ؟

ـ وجد الطريقة الأسهل يا شيخي... سكان هذه المنطقة يصعدون إلى الجبل نتيجة الفقر والعوز . عندما لا نجد عملاً ماذا نفعل ؟ في فترة الشهرين عند أول مجيء القائمقام بدري لم يتدخل في شؤون المجرمين . عندما لم يتدخل صارت الجبال تنبع بالمجرمين . صارت ثلاث عصابات تتصارع على

مغارة في الجبل . صارت العصابات تقتتل بسبب ادعاء شيء ما لها . امتلأت الجبال بالمجرمين وصاروا مثل النمل . عندما صار عدد المجرمين أكبر من عدد غير المجرمين فماذا سيفعلون ؟ بعضهم يسلب بعضاً . لم يتدخل القائمقام بدري أبداً في هذا الأمر . لم يرسل دركياً واحداً ، ولم يُسِلْ قطرة دم من أنف أحد . لهذا صار المجرمون ممنونين جداً من هذا الوضع ، وبدؤوا يدعون له قائلين : «الله لا يحرمنا منك» .

عندما بدأت العصاباتُ يسلب بعضُها بعضاً ، صارت تتعارك ، ويقتل من افرادها . ونتيجة هذه المعارك مات من مات ، وسلَّمَ نفسه من لم يمت للقائمقام بدري ليرسله عن طريق المحكمة إلى السجن . وهكذا قلّ عدد المجرمين .

في أحد الأيام استدعى القائمقام بدري كبير قاطعي الطرق هذا . ولخوفه ، لم يجرؤ على الذهاب ، خاف أن يضعه في السجن . . لأنه في تلك الأثناء اكتوى الكثير من الناس بناره . عندئذ قال البيك لكبير قاطعي الطرق هذا :

ـ لا تتصرف بغباء . القائمقام بدري رجل شهم ، لايخون من يذهب إليه...

اضطر للذهاب .

دخل إلى مبنى القيادة ، وارتمى على قدمي القائمقام بدري ، وقال له :

ـ أرجوك يا سيدي . إذا كنت قد فعلت شيئاً ، فلا تفعل بي . تدبر لي عملاً في بلدية الناحية ، وليكن جمع الزبالة . يكفيني أن أتقاضى راتباً شهرياً في عمل حكومي ، فسأعود عن الإجرام ، وأنزل من الجبل . يكفي أن يكون لنا راتبٌ مثلك نملأ منه بطوننا .

قال له القائمقام بدري :

ـ أحسنت ولاه ابن الكلب . أنت شهم أكثر مما توقعت . طالما أنك لن تستطيع ترك الإجرام ، استمر فيه . عينتك ملكاً على هذه الجبال . من الآن

فصاعداً ستتلقى الأوامر مني .

وقال إن الرائد بدري كلفه بالمهمة الأولى . كان قد بقي في الجبال عصابتان ، وعليه أن يوقعهما في الفخ ، لأنه لايمكن أن يكون ملكاً بغير هذا . لكي يكون ملك الجبال يجب ألا يكون فيها أحد سواه . والملكية والإجرام تتشابهان . مثلما في دولة واحدة لايمكن أن يوجد ملكان ، فلا يمكن أن يوجد في جبل واحد مجرمان .

بينما كان كبير قاطعي الطرق هذا خارجاً ، قال :

ـ أمرك يا سيدي .

ولكن عندما قال له القائمقام بدري :

ـ انتظر لحظة .

خاف كثيراً ، ووصف خوفه قائلاً : « كدت أوسخ تحتي لشدة خوفي » .

قال له القائمقام بدري : «اذهب إنت الآن الى جبل كونت . وادخل إلى المغارة . جاء صحفي من اسطنبول ليلتقي بك . لأن شهرتك تنتشر في كل أرجاء الدولة . وكل الجرائد تحكي عنك . سيصورك الصحفي وينشر صورتك . سنكلف دركيين بمرافقة الصحفي . ولكن الجميع يجب أن يعرف أننا لانعرف مكانك . ستبدو أنك تتكلم مع الصحفي بدون علمنا . سيسألك الصحفي عن سبب صعودك إلى الجبل ، وكونك قطّاع طرق . ولكن ولاه ، إحذر أن تقول له بسبب الفقر والعوز . إذا قلت : «لوعملت زبالاً في البلدية براتب شهري لما خرجت إلى الجبل» ، سأجرك إلى هنا مثل الكلب ، وأكسِّر عظامك . ستقول إنك سقطت في هذا الطريق دفاعاً عن الشرف . ستقول : «بينما كنت أقوم بأداء واجبي الوطني بخدمة العلم وضع أحدهم عينه على زوجتي فاضطررت لحماية شرفي» فهمت ؟ ثم ستقول : «أنا لم أقتل أحداً ؟ أنا آخذ من الأغنياء وأعطي الفقراء ، وأجهز العرائس الفقيرات ، وأعمل لهن أعراسهن» . . إذا لم تقل هذا سأقلع لك عينك...

قال كبير قاطعي الطرق : «أمرك يا سيدي» وذهب . انتظر في مغارته في

جبل كونت . بعد قليل جاء الصحفي الاسطنبولي ، وحكى معه ، وصوره . حكى له قصصاً جعلت الصحفي يبكي ، وتتدفق الدموع من عينيه مثل النبع . فقال له الصحفي : « يا هوه ما أجمل هذا الكذب الذي تكذبه . إن الذين يعرفون القراءة والكتابة لا يفلحون بالكذب مثلك . أبكيتني . . أنا سأكتب ما حكيته لي في الجريدة بعد أن أبهّره ، وأملِّحه . عندئذ من سيبقى عنده قوة لشدة البكاء ، ستتورم عيون القراء . . » .

قال كبير قاطعي الطرق :

ـ لله الشكر ، ما بقي مجرمون في هذه المنطقة غيرنا . بإذن الله أولاً ، وبفضل القائمقام بدري ثانياً نشفت جذور المجرمين في هذه المناطق .

قلت له :

ـ وأنت ؟

قال :

ـ أنا بأمر الحكومة...

حسب ما فهمت فإن القائمقام بدري ذكي وماكر جداً . لأنه يعرف عدم إمكانية بقاء هذه المنطقة دون قطاع طرق ، فأبقى على عصابة منها تحت أمره ، وهكذا يمنع ظهور غيرها ، ويسد حاجة المنطقة للمجرمين . لابد من وجود المجرمين ، وإذا كان الأمر هكذا فلتبق عصابة وحيدة ، وهذه تحت أمر الدرك . لو أراد فسيزيل هذه أيضاً ، ولكن عندئذ سيظهر مجرمون جدد في أمكنة لا يعرفها .

ومن خلال حديثنا هذا علمت سبب طرد الشيخ الذي ورث المشيخة أبا عن جد . كان القائمقام بدري جمهورياً وثورياً إلى أبعد حد . والشيخ القديم حمى عصابة إجرام ، وخبأهم عنده . لهذا غضب القائمقام قائلاً : « واخ ، كيف تحمي عصابة مجرمين ، بينما لدينا عصابتنا ؟ . . » وطرده بتهمة معارضة الجمهورية والثورة . وبينما كان الشيخ ذاهباً قال له القائمقام بدري : « بالطريقة التي وجدنا فيها عصابة مجرمين كما نريد ، سنجد شيخاً كما نريد

أيضاً . ولن نترك شعبنا دون شيخ في أي وقت» .

والبيك قال لي هذا : «لن يبقى أي قطيع متروكاً سائباً . لكل قطيع غنم صاحبه ، وراعيه وكلبه . ومن الممكن وجود عدد من الرعاة والكلاب لقطيع واحد ، لكن صاحبه واحد . والشعب يشبه القطيع . سيوجد على رأسه إقطاعي أو بيك ، بعد هذا سيكون لهذا القطيع شيخ مثلك ، ويكون له رجاله ومجرموه لكي يحموه . . .» .

قال كبير قاطعي الطرق :

ـ قائمقامنا بدري رجل صلب جداً . إذا غضب فيضرب الإنسان حتى يغمى عليه .

إن القائمقام بدري الذي سيأتي إلى زيارتنا رجل كهذا . خفت كثيراً عندما عرفت أنه جمهوري وثوري . إذا عرف القائمقام بدري أنني من أصحاب السوابق ، هذا يعني أنني احترقت ، سيسحب عليّ العصا و... وأنا لا أحتمل العصا أبداً . ياترى هل عرف بدري القائمقام هويتي وسيأتي للقبض علي ؟ كتبت رسالة بسرعة للبيك ، وقلت لأحد رجالي :

ـ يا بني ، خذ الفرس واذهب مثل السهم! اعط هذه الرسالة للبيك ، وخذ جوابه وتعال . رح ، وتعال مثل الطير!

جاء الجواب المكتوب من البيك :

« يا سيدي حضرة الشيخ المحترم الذي كسر زجاجة الشرف والناموس .

إذا كان قائد الدرك سيأتي إلى عندكم فمن المؤكد أن لنا علماً بهذا ، ولدينا تخطيطنا . أما قلنا لك يا كبير القوادين ، لايمكن أن يطير هنا طير دون علمنا ؟ هذا المراسل الذي جلب لك الرسالة رأسه يؤلمه . اعمل من هذه الرسالة تميمة . واحرقها بيدك ، وليستنشق دخانها دون التفريط بذرة منه ، وبإذن الله لن يبقى في رأسه أي ألم . أرنا كرامتك يا رذل! إذا لم تحرق رسالتنا ، وخبأتها ، فعليك أن تفكر بما سيحدث لك . . أقبل يديكم ياشيخنا

المحترم» .

عندما قرأت الرسالة دهشت ، فقلت للمراسل :

ـ هيا اذهب!

قال :

ـ قال البيك . .

ـ ماذا قال ؟

ـ رأسي يوجعني

ـ رأس من ؟

ـ رأسي يوجعني ، هكذا قال البيك .

ـ إيه ؟

ـ قال إن دخان التميمة يروّح وجع الرأس .

فهمت أن الرجل منَبَّهٌ عليه بشكل جيد . . حرقت الرسالة بعود الكبريت . ولأن المراسل انحنى على الدخان واستنشقه فسعل . ثم حسب الأوامر التي تلقاها من البيك نثر رماد الرسالة في الهواء .

في ذلك اليوم وصل كبير قاطعي الطرق مكو ، ونَفَسهُ يصعد ويهبط بسرعة ، وقال :

ـ آه يا شيخي! القائمقام بدري قادم .

وإذا كنت قد عملت على التظاهر باللامبالاة أمام مكو وبقية الرجال ، بقولي :

ـ ليأت . ماذا جرى . أهلاً به...

ولكثرة ما حكوا لي عن القائمقام بدري ، عندما سمعت بمجيئه خفت أيضاً . ونحن أصحاب السوابق نعيش دائماً هذا الخوف . إن أمثالنا المحنيي الرؤوس ، والمنبوذين من المجتمع نخاف من الشرطة لوصرنا شيوخاً ، بل لو صرنا شيوخ الإسلام بشكل عام . وهم أكثر ما يدخل أحلامي .

ولأنني لا أعرف بروتوكول المشيخة ، فكنت أجد صعوبة في عملية

الاستقبال والوداع . أين موقع الشيخ بين البيك وقائد الدرك ورجل الحكومة ، أو الناس من أمثال هؤلاء ؟ هل هو في المقدمة ، أم في المؤخرة ؟ عرفت وضعي مع البيك . عندما نبقى وحدنا يشتمني ويقول لي : « ولاه كبير الكفرة » ولكن عندما نكون بين الناس أكون في المقدمة . كان يحترمني بين الآخرين ويقبل يدي . كيف سيكون وضعنا مع بدري القائمقام ؟ هل أركض إلى الباب واستقبله ، أم أذهب إلى الطريق لمقابلته ؟ . . أم أجلس على بساطي وأتظاهر بالتسبيح كشيخ صاحب كرامات ، وعالم بالغيب ؟

ودون إظهار جهلي علمت من رجالي أن قائد الدرك كان يأتي إلى زيارة الشيخ السابق ، ولكن الشيخ كان يقول : « أنا أعمل استخارة » ، ولا يُدخل القادمين إلا بعد أن يجعلهم ينتظرون حوالي نصف ساعة .

أنا لو قمت بالفعلة نفسها سيقول لي القائمقام بدري الذي صفّى المجرمين الذين زرعوا الرعب في قلوب الذئاب الطائشة في رؤوس الجبال : « ولاه جئنا كقوات حكومية ، وأنت تجلس متكئاً ، أليس كذلك ؟ » ، ثم سيطرحني على الأرض لينزل علي بالعصا . .

لا أنسى أبداً ما شرحه لنا أستاذ التاريخ في إحدى الحصص : كان الصدر الأعظم يبقى واقفاً على قدميه عند استقبال السفراء لكي لايقوم لهم . لأنه من غير المناسب أن يقوم صدر أعظم لايوجد أعلى منه سوى السلطان لسفير لايساوي قرشين . وإذا لم يقم فهذا يعارض أصول الاحترام . . لهذا السبب كان يبقى واقفاً ، وكأن وقوفه ليس للسفير ، بل لنفسه . وأنا ألا أُعَدُّ صدرهم الأعظم ؟ لهذا يجب علي أن أعمل ما كان يعمله الصدر الأعظم . تجولت في الغرفة ، ووقفت أمام النافذة .

رجالي في الغرفة وصحن الدار ينتظرون . سمعنا صوت سيارة . ومع سماعنا الصوت دخلت سيارة خاصة بالأراضي الوعرة الى صحن الدار . نزل من السيارة عدد من الأشخاص . بسبب خوفي لم ألاحظ من هم القادمون . دهشت كثيراً لصعود السيارة إلى هذا المكان .

سمعت أصواتاً في الخارج . إذا كنت قد قلت أصواتاً ، فهذا من سياق الحديث . . لايمكن أن يسمى ما سمعته صوت إنسان ، الكلمات إنسانية ولكن الصوت ليس صوتاً إنسانياً ، إنه رعد . .

ـ هل سيستقبلنا حضرة الشيخ ؟

الرحمة ، وهل من قدرنا ألا نسمح بقبول رعد كهذا ؟ ياهوه ، ليس من لا شيء أدخل القائمقام بدري هذا الذعر في قلوب المجرمين المتحجرة . لوخرج هذا الرجل إلى أول الطريق وصاح «أنا قادم» سينبطح المجرمون في كل الأماكن التي ستوصّل الريح صوته إليه . ومن الممكن أن يختنق صوتهم من الخوف . فجأة ماذا خطر ببالي ، هل تعرفون ؟ خطر ببالي أن ألقي بنفسي على قدمي القائمقام بدري ، وأبدأ بالتوسل : «أنا فعلت ، ارحمني . .» لأن بدري القائمقام هذا لو عرف أنني محتال أو فهم هذا فلن يجعلني أخرج من هنا سليماً . لهذا حكو لي ماحكوه . . ليس للقانون عمل هنا ، يروح الإنسان ولا أحد يعرف من قتله .

ضجيج آخر :

ـ هل شيخنا يصلي ويتعبد ؟ أم أنه مشغول بالدعاء ؟

الرحمة . . آه لو همست من خلف الباب : «نعم مشغول بالدعاء» ، ثم قفزت من النافذة الخلفية وأهرب ؟ ياهوه ، ما الذي جاء بي إلى المشيخة ؟ . . وهل انتهت كل أنواع الاحتيال ، وما بقي إلا انتحال شخصية الشيخ ؟ معي نقود ، هل أقفز من النافذة ، واستلم طريق البلدة ؟ ولكن عندئذ ألا يقفز القائمقام بدري إلى سيارته الخاصة بالأراضي الوعرة ويلحقني ويمسكني ؟!

ـ هل تأذنوووون ؟ بالإذ......ن! . .

ومع كلمة بالإذن هذه الطويلة ، فتح مصراع الباب ، واصطدم بالجدار ، فتساقطت قطع من اسمنته ، وظهرت في البداية جزمة جلدية . يبدو أنه رفس الباب بجزمته فصفق الباب على الجدار ودخل إلينا . ولاه ، ويسأل أيضاً : «هل تأذنون» . إذا كان قد رفس الباب وهو مأذون ، فلابد أنه سيهدم البيت

على رؤوسنا إذا لم نأذن له . . كنت أقول في سري : «هيه ، يا ربي الأعظم . . » أعطني كرامة شيخ حقيقية ، لأنفخ على هذا الرجل المدعو القائمقام بدري ، فأحوّله إلى تمثال حجري . وإذا لم يذهب إلى رحمة ربه فلا أفكه . .

لاتضحكوا ، لاتضحكوا . . سبق وقلت لكم إننا نحن أصحاب السوابق الذين لا أمل لنا بشيء ، نحلق بخيالنا دائماً ونجعل أنفسنا نؤمن بما لايمكن حدوثه لأننا نشعر بالانسحاق .

دخل ، ومن ثم دخلت جزمته . . الله الله! . . هل هذا هو القائمقام بدري ذو الصوت الشبيه بزمور الباخرة ؟ ياهوه . . هذا رجل ربعة ، طوله ستة أشبار . . لو وزناه بألبسته وطين جزمته فلا يساوي أكثر من خمسين كيلو . . من أين يخرج هذا الصوت ؟ وكيف ؟ إذا قلت إن هذا الصوت من فمه ، فالفم لايحتمل ، وسيتمزق . إذا قلت من بطنه ، فإن بطناً بقدر حفنة لا يتسع لكل هذا الضجيج ، سينفجر . أي لو أصدر جسم الرجل كله صوتاً لما كان بهذه القوة . حاولت عدة مرات أن أذهب وأقول له : « أهلاً وسهلاً » لكن شفتي ارتجفتا وما خرج صوت من فمي . أنتم قدروا الذعر الذي سيطر علي من حالتي هذه . عندما رأى رائد الدرك شفتي ترتجفان ، التفت إلى الخلف وأرعد بصوته الجهوري لأحد رجاله الذي كان واقفاً باستعداد :

ـ ولاه ، انظر يا حمار ابن الحمار . . حضرة الشيخ يبتهل بالدعاء . . أما قلنا لك اسأله إن كان يأذن لنا ؟ . .

وضربه بالكف ، فدار الرجل عدة دورات مثل الغازول ، وارتطم بالجدار .

ولكنني فهمت حركة رائد الدرك . . لأن هذه الحركة مثل حركة آغا السجن تماماً . . إيه ونحن مساجين سابقون . إذا أراد آغا السجن أن يحصل على أتاوة أكبر من سجين غبي دخل السجن لتوه ، يلفق حجة ما ويبدأ بشتم وضرب أحد رجاله المهيأ خصيصاً لهذا الأمر ، كما فعل رائد الدرك ، لكي يخوف السجين الجديد . . في أكثر الأحيان يعمل هذه الحركة لحظة دخول

السجين إلى المهجع ، وهو مازال عند مكان تحضير الشاي . يوجد رجال في السجن يطعمهم الآغا من أجل تلقيهم هذه الكفوف فقط .

لحظة لطم الرجل بالكف وشتمه ، وترديد الجدران صدى الكف تكون قد امتدت صينية الشاي أمام القادم الجديد ويقولون له : « بخلاصك إن شاء الله » وبسبب خوف الرجل من العلقة يرمي الخمسينية ، أو أم المائة إلى الصينية .

فهمت حركة القائمقام بدري . كان يعمل على تخويفي بشتم رجله الواقف خلفه ، وصفعه . مع أن وضعي لايحتمل خوفاً أكثر من الذي أنا فيه... مازلت أرتجف من الخوف ، وشفتاي تتراقصان وتتلامسان . أريد أن أقول : « أهلاً وسهلاً » ، ولكنني أبدو كمن يحوش كلباً عنه :

ـ ها . . أها . . أها . .

ولا أستطيع إتمام العبارة .

قطب الرائد حاجبيه المفتولين إلى الأعلى عندما لم يعجب بهذه الأهأهات . فسأل قائلاً :

ـ ماذا ؟

عندئذ ارتبط لساني تماماً . صرت أقول :

ـ أهـ . . أهـ . . أهـ . .

ولشدة خوفي أتراجع إلى الوراء . في النهاية بذلت جهداً كبيراً ، فصدر من فمي صوت صغير ناعم :

ـ أهلاً وسهلاً .

قال الرائد باحترام كبير :

ـ تفضلوا علينا بلطفكم ، وبكرمكم ياحضرة الشيخ . . لاتعذبوا أنفسكم! اجلسوا أرجوكم! . .

ثم دفعني وهو يمسكني من كتفي وأجلسني على الفراش . وهكذا عرض الاحترام من جهة ، والقوة من جهة أخرى... أنا لست ممن يحب العراك ،

ولكنني كنت في المدرسة من البارزين في الرياضة... لوبقينا وحدي وهذا الرجل وتصارعنا فسأنهيه ، ولكن ماذا أفعل ؟ أنا شخص واحد وهو مجموعة كبيرة . . لأنه واحد وحكومة مع هذا الواحد . . ماذا تعني البزة التي يلبسها ؟... لو التقطت هذا الرجل على الشاطئ وهو يلبس التبان...

قال :

ـ لأكن تراباً تحت قدميكم . . اجلسوا يا حضرة الشيخ . .

ـ أست . . أست... أستغفر الله .

ـ لم نأت لزيارتكم حتى الآن . قصرنا بهذا ، نرجو عفوكم . . العفو من شيم الرجال العظام...

وهذا كان يقبل يدي مثل البيك . جلسنا متقابلين . الرجل كثير الحكي ، وكلامه حلو . بينما كنا نتحدث من هنا وهناك ، قال فجأة :

ـ ياحضرة الشيخ ، كل شيء معلوم لديكم ، ولكن لأذكركم : لست أنا من سيفرض الأمن والاستقرار في هذه المنطقة ، بل أنتم . لأن قوات الدرك لاتكفي . لوحشدنا كل قوات الدرك التي في البلد هنا فلا نستطيع تحقيق الأمن . سمعنا من أجدادنا ، وكبارنا قولهم : « الشيخ الواحد يغني عن خمس فصائل درك » . هذا يعني أنكم هنا مثل خمس فصائل درك . إننا نثق بكم من بعد الله سبحانه وتعالى .

لم يكن كما حكوا لي عنه . كان رجلاً لطيفاً ومحترماً . ولسانه ليس بذيئاً كالبيك . ولكنني أتصرف معه بحذر خشية حدوث شيء ما . ثم فجأة أما سأل :

ـ حسبما سمعت ، إذا كان هذا صحيحاً فأنتم من سمرقند أو بخارى ؟

وحسن أنه لم يدع لي مجالاً للجواب ، قال :

ـ أنا أشبهكم بأحد أصدقائي . التفتوا إلى الضوء قليلاً يا شيخنا!

ثم أدار رأسي بيده نحو زجاج النافذة ، وبعد أن نظر بتمعن إلى وجهي ، وكأنه يتفحص قطعة قماش ، قال :

ـ الله اللهَ . . لولا لحيتك يا شيخي لكنت هو بالذات . . لا يمكن أن يكون الشبه أكثر من هذا...

كأن ماءً مغلياً صُبَّ على رأسي . تابع الحديث :

ـ عندما كنا في الثانوية كان لنا صديق ممتاز لا نفضله عنكم . كان مشاغباً . عندما يناوب في المطبخ كان يجلب لنا الأوعية المليئة بالكلي والكبدات المقلية والحلويات . كان يوقظني من أحلى لحظات نومي باللكم والرفس قائلاً" «قم ، ولاه بدري!» ، وكنا نأكل اللحم حتى التخمة في منتصف الليل...

سكت . ثم نظر إلى وجهي بدقة لمدة من الزمن . كانت نظرة كأنه يقول فيها : «أنا أعرفك ولاه حمار» . في النهاية ، أنا أيضاً عرفته . كان هذا (بدري الجربوع) أحد أصدقائي المقربين في المدرسة . هذا يعني أنه صار رائداً في الدرك بعد كل هذه السنوات . خطر ببالي لحظة أن أرتمي عليه ، واحتضنه قائلاً : «أخي بدري» . ياترى هل عرفني بجدّ أم أنه شبهني ؟ عرفني لأنه كان يتصرف وكأنه لا يعرفني .

ولكي أتأكد إذا كان عرفني أم لا ، سألته :

ـ ماذا جرى له ؟

قال لي متسائلاً :

ـ من ؟

ـ صديقكم .

ـ أي صديق ؟

ـ الذي حكيتم عنه . .

كنت قد فضحت نفسي من خلال ارتجاف شفتي . ركز عينيه على عيني ، وقال :

ـ طرد من المدرسة . جاء الجنرال مفتش الثانويات العسكرية إلى مدرستنا . لبس ألبسة الجنرال ليلاً لكي يخوفنا ، وقبض عليه الضابط

المسؤول عن صفنا حقي المهدة .

فجأة قطع كلامه وقال لي :

ـ اهتممتم به كثيراً! . .

أصبح كل منا يلعب على الآخر . أنه يعرف من أنا ، وأنا أعرف أنه بدري الجربوع . ولكن كل منا يتظاهر بعدم معرفة الآخر . هو الآن القائمقام بدري ، وأنا الشيخ سعيد العرياني .

عندما لم أجبه على عبارته : «اهتممتم به كثيراً» ابتسم لي ابتسامة ذات معنى ، وقال :

ـ هل تعرفونه أنتم يا شيخنا ؟

قلت :

ـ لا أعرفه .

ـ نعم ، فيما بعد سمعنا أنه صار محتالاً ومزوراً ماكراً . . وكثيراً ما تنشر صوره في الجرائد . ولكن يبدو من عدم نشر صوره منذ مدة طويلة أنه في مكان ما ، ومن يعلم أي مساكين يخوزقهم . .

ـ لعله في السجن . .

ـ لا أظن .

ولكي أذهب في اللعبة التي نلعبها حتى النهاية ، سألته :

ـ هل التقيتم به بعد المدرسة ؟

ـ لا .

ـ إذا رأيتموه ، فماذا ستفعلون ؟

ـ لو قبضت عليه الآن ، فمن المؤكد أنني سأقوم بأداء واجبي الوظيفي . سأسلمه إلى المدعي العام فوراً .

ـ حتى ولو كان دون ذنب ؟

ـ تعوّد ، والتعود أخطر من الكلب . لم يعد يستطيع العيش دون ارتكاب جرم .

سكتنا مدة طويلة . أشعل سيجارة :

ـ سبب مجيئي إلى هنا أمر آخر . تلقيت مكالمة من أنقرة ، قيل لي إن السيد برهان قادم . لابد أنكم تعرفون السيد برهان .

فجأة نسيت أنني الشيخ العرياني ، فسألته :

ـ من هذا السيد برهان ؟

وهو شرد بفكره ، فقال :

ـ ياهوه ، برهاننا ، برهان البوق . .

ثم انتبه إلى نفسه فجأة ، وصار جدياً :

ـ كان من بين أصدقائنا في المدرسة زميل يدعى برهان البوق . لأنه كان يصغي دائماً إلى بوق الطعام فلقبناه برهان البوق . . هذا هو القادم . يبدو أن الولد ذكي . في المدرسة كان عقله جامداً مثل عقلي تماماً ، لكن ذكاء الولد تفتح فيما بعد . وجد طريقة ترك فيها الجيش عندما كان ملازماً . والآن هو نائب في البرلمان ، ونحن نتجرجر من جبل إلى جبل .

أخذت نفساً عميقاً وقلت :

ـ نصيب .

ـ لأن هذه المنطقة هي الدائرة الانتخابية للسيد برهان ، فسيأتي في الأسبوع القادم ليلتقي مع ناخبيه ، وكما تعلمون ، اقترب موعد الانتخابات . كان الأمر قديماً أسهل من هذا . منذ جاءت الديمقراطية صار شغل النواب أصعب . ترتب عليهم أن يأتوا كل سنة إلى دوائرهم الانتخابية ، أو على الأقل من موعد الانتخابات إلى موعدها كل أربع سنوات مرة ، ويتحدثون إلى ناخبيهم ، شيء لا يطاق... لا تنظر إلينا ، لقد كان عملنا صعباً قبل الديمقراطية ، والآن أيضاً كذلك... وهذا هو السبب الأساسي لمجيئي إلىٰ هنا . السيد برهان كان رفيقنا في المدرسة ، ويجب أن ينجح في الانتخابات هذه المرة أيضاً . . يا سيدي الشيخ عليكم أن تخدمونا ، ونحن نبذل ما في وسعنا... نجاح السيد برهان بيدكم . . لا تحرمونا من هذه الجودة .

ـ أستغفر الله... ولكن ماذا أستطيع أن أفعل ؟

ـ أنتم تستطيعون القيام بالكثير يا شيخنا . . إذا قلتم لهؤلاء المجاذيب «أعطوا أصواتكم للسيد برهان! » فينتهي هذا الأمر . . لا يستطيعون مخالفتكم بالرأي . لوقلت أنا لهؤلاء : «أعطوا أصواتكم للسيد برهان » ، فللعناد فقط يعملون العكس ، ولا يأخذ السيد برهان صوتاً واحداً . عندئذ سيعطون أصواتهم للرجل المدعو رسول حميدو . لا تنظروا إلى تظاهرهم بالخوف والاحترام أمامي... هم يريدون انتخاب رسول حميدو لكي يصير نائباً ، ويتخلص من السجن . . لا تظنوا أنني أؤيد السيد برهان لأنه كان زميلي في المدرسة . السيد برهان (كمالي)* وثوري إلى أبعد حد . وهو ليس رجعياً كرسول حميدو . والبيك . . أنتم تعرفون البيك . حسب ما سمعت أنكما متحابان كثيراً .

ـ هذا صحيح . .

ـ ثم إن صلاح الدين بيك صاحب ثلاثين قرية . . وهو يسكن في مكان بعيد من هنا . ذهبت إليه منذ فترة . وقلت له : «لي عندكم رجاء » . الرجل مثل الجنّ . فهم ما أردته فوراً ، لكنه تظاهر بعدم الفهم ، وقال : «أمرك ياصاحب السيادة... أمرك على الرأس والعين » فقلت : « إذا أردت أن ينجح السيد برهان فسينجح . . هذا هو رجائي » . قال لي : «اطلب مني ثلاثمائة خيال ، أقول لك : على رأسي . . قل لي عندك أولاد سآخذهم إلى الجيش ، أقول لك عندي أربعة أولاد خذهم . . اطلب مني إطعام فرقة الدرك مدة شهر ، فأطعمها ليس شهراً بل سنة ، وبالسمن والعسل ، واللحم والحليب . . قل لي فلان وفلان وفلان أعدائي ، اقتلهم . . على رأسي ، سأجد من يقتلهم فوراً . . أما . . ولكن لا تطلب مني أن أوجه الناس إلى عدم انتخاب رسول حميدو . . هذا ما لا أستطيع عمله . لاتؤاخذني . . » .

(*) نسبة إلى كمال ، والمقصود مصطفى كمال أتاتورك...(م) .

لهذا السبب بقي أمل انتخاب السيد برهان معلقاً على هذه المنطقة . البيك موافق . . لأن علاقته مع رسول حميدو ليست جيدة . يوجد بينهما سوء تفاهم . إذا قلتم أنتم « نعم » سينتهي هذا الأمر . . وسينجح السيد برهان . وكما قلت : إنه كمالي إلى أبعد درجة . . ويحترم المشايخ أصحاب الحظوة من أمثالكم . رجل مصلي وإسلامه كامل . سيأتي بعد أسبوع . أنا لن أكون معه حتى لا يقال إن الدرك تتدخل في السياسة . . هذا ما أرجوه منكم ، وأنتم تعرفون الباقي .

قال عبارته الأخيرة : « أنتم تعرفون الباقي » ، وكأنه يقصد : « إذا لم تعمل ما أقول فسأعمل بأمك . . » .

ثم عندما صرخ بصوته الجهوري مرجفاً الزجاج :

ـ ولاه . . أين أنتم يا أولاد الحرام! هل داهمكم المجرمون ؟

فُتح الباب ودخل ثلاثة من رجال الدرك ، وضربوا أقدامهم بالأرض وأدوا التحية . وكان وراء رجال الدرك اثنان من رجالي . عاد القائمقام بدري إلى الافراط بالاحترام أمامهم :

ـ أنا آمل بدعائكم يا حضرة سيدنا الشيخ . .

ثم خرج .

وبعد أن ابتعد صوت هدير السيارة سقطت متعباً كأنني حملت على ظهري ثلاثة أطنان ، مدة ثلاثة أيام . .

ما الذي أفهمه أنا من السياسة يا عزيزي ؟ ليس معي نقود . فكرت بأخذ أغراضي والهرب . ولكن أينما ذهبت سيلتقطني القائمقام بدري مثلما يلتقط الصقر فريسته . وهذا هو المقصود بعبارة : « انتم تعرفون الباقي » . دخلت هذه المرة في أعمال كبيرة ، وغطست حتى أنفي في مستنقع السياسة ، وليس أمامي مخرج...

تقولون لي : اكتب هذا . كيف أستطيع كتابته ؟ ثم إذا كتبته فهل ينشر ؟ إذا انبعثت رائحة هذه القذارات ، فستلف العالم .

المهم . . يوم سيأتي برهان البوق ، أخبرني بدري القائمقام بواسطة

رقيب خيال :

ـ يسلم عليكم سيادة الرائد يا سيدي ، ويقول لكم ، سيأتي ضيفنا من أنقرة اليوم بعد الظهر ، ويقول لكم ، أي يرجوكم أن تقابلوه بأكبر عدد ممكن من الناس . وكلما كان العدد أكبر ، كان أفضل .

قلت :

ـ حسنٌ . بلغ سلامي سيادة الرائد...

لم تبق ضرورة لإخبار القرويين بالاجتماع . لأن الرائد قد أخبر الناس من جهة ، وأعلم سكان القرية منذ مدة طويلة من جهة أخرى . وقد جاء المختار والوجهاء وهيئة المسنين . امتلأت غرفة بيتي الكبيرة ، ولم تعد تتسع . ولم يأت واحد من هؤلاء دون هدية . ولأنه لايمكن أكل وشرب ما يجلبونه لي ، كنت أوزع ما يتجمع عندي على الفلاحين الفقراء ، فكانوا يدهشون لما أوزعه عليهم وكأنه أتاني من السماء ، أو حسب قول البيك : يتظاهرون بالدهشة .

أتى برهان البوق بعد العصر وبجانبه رجلان . أنا كنت قد تأقلمت جيداً مع المشيخة ، ولم أعد أتحرك عن الفراش الذي أجلس عليه . وفور دخول برهان البوق قفز بسرعة نحوي . قبّل فراشي ، ثم ذيل ثوبي ، وبعد ذلك قدمي ، فقلت :

ـ الله يرضى عليك يا بني . . تعال اجلس .

ولكن غالبتني الابتسامة . . ياهوه ، هذا هو البوق برهاننا . .

يا ترى أخبر بدري الجربوع برهان البوق بشخصيتي الحقيقية ؟ أم أن برهان البوق لم يعرفني وظنني شيخاً حقيقياً ؟

ـ أهلاً وسهلاً يا سيد برهان .

ـ يا للعجب يا شيخي ، لقد تفضلتم بكرامة . لم أجرؤ على تقديم أسمي . ولكن كل شيء معلوم بالنسبة لكم ، فقد عرفتم اسمي .

استكلب حتى أصبح من غير الممكن وصف ما فعله . ولكي أخرب عليه

هذا ، قلت له :

ـ ما سبب زيارتكم ؟

فقال :

ـ يا شيخي ، انتم تعلمون . السبب الوحيد لمجيئي من هنااك من أنقرة إلى هنا هو رؤيتكم ، ونيل خير دعائكم . أنا محسوبكم ، كثيراً ما أتجول . وأينما ذهبت أسمع عنكم وعن كراماتكم . ومنذ مدة طويلة وأنا عازم على زيارتكم ، ولكنني لا أجد متسعاً من الوقت بسبب مشاغل الحياة الدنيا . ولكن عندما رأيتكم في حلمي ، تركت كل شيء وجئت لأظفر بتقبيل يديكم ، ونصيبنا أن نظفر بهذا اليوم .

آه منك يا أبن الكلب! ولكي يفهم تأثير كل كلمة من كلماته ، كان ينظر إلى وجوه القرويين ، وكأنه يريد أن يقول لهم ، انظروا كم أحترم شيخكم . وحسب قوله فإنه جاء من أجل أن يحظى بدعائي فقط ، وليس لديه نية أخرى . لأنه عرض على وجهاء القرية ولاءه لي . لماذا سيتعب نفسه ويتجول على قراهم ويحدثهم ، وهم لا يفهمون الألف من العصا! كسبه موافقتي يكفيه من أجل النجاح في الانتخابات .

بعد أن شربنا قهوتنا ، قال :

ـ أنا ما صليت العصر . عن إذنكم سأصلي العصر هنا . .

اسمعْ هذا الحمار الآن . ما هذه الحركات ولاه ؟ من صلى العصر ، حتى تصليها أنت ؟

فقلت له ؟

ـ نحن صليناها ، ونسأل الله القبول . ادخلوا إلى الغرفة المجاورة ، وصلوا!

عبر إلى الغرفة المجاورة . وكما أعرف أنه لن يصلي ، لا أظن أنه يعرف كيف يصلي .

بعد الصلاة صار يتكلم بتوسل : « يا شيخي » ، أخبركم البيك وقائد

الدرك » فقاطعته :

ـ لدينا علم . .

بدأت أحكي له عن أيامنا وذكرياتنا في المدرسة لكي أفهم منه إذا كان قد عرفني أم لا ، أم أن بدري الجربوع قد أخبره بشخصيتي الحقيقية . من استماعه لي بدهشة كبيرة فهمت أنه لم يتعرف علي . كلما حكيت له عن بعض مواقفه في المدرسة ، كان يقول لي بدهشة :

ـ حسنٌ ، ولكن كيف عرفتم هذا ؟

كنت أقول له :

ـ لدينا علم . .

عندما حكيت له عن العلقة التي أكلها من حقي المهدة نسي أنه في حضرة الشيخ سعيد العرياني ، ووضع يده على فمه ، وقال كأنه يحكي مع نفسه ، ولكنني سمعته يقول :

ـ ياهوه . . يبدو أنه لديكم علم بجد . .

أنا أعرف جيداً أنه بعد أن يذهب من هنا ، سيسأل الرائد بدري عني وسيعرفني ، ولكنه سينفجر من توقه ريثما يعلم الأمر . .

المهم وعدناه ببذل ما بوسعنا من أجل أن يحصل على أصوات الناخبين في هذه المنطقة ، ودفعناه عنا .

انظر يا عزيزي ، أنا صرت أحكي كما كنت أيام مشيختي ، فقلت لك : « دفعناه عنا » . أنا عندما أكون الشيخ فلان الفلاني فلا أقول : « دفعت » أو « عملت » ، بل أقول « دفعنا وعملنا » لأن الشيخ أو البيك أو الآغا ليس فرداً ، هو جماعة...

دفعت برهان البوق عن رأسي ، ولكنني بدأت أفكر كيف سأنجحه في الانتخابات . نعم ياه ، وهل إذا قلت لهؤلاء الرجال : « انتخبوا السيد برهان البوق » سينتخبونه ؟ لا... وهذا ما تفكرون به ، أليس كذلك ؟ نعم . . ولكن هذا خطأ يا سيدي . . كان علي أن أقول لهؤلاء الناس مباشرة : أنا كشيخ

صاحب كرامة أقول لكم : اعطوا أصواتكم لفلان . هكذا هي الأصول . . ولأنني لا أعرف هذه الأصول ، أو أنني كنت أظن أنهم سيأتون إلي ويقولون لي لنعط أصواتنا لذاك الآخر ، ففكرت بهذا . لا أدري لماذا شردت ، وظننت أنهم سيسألونني ففكرت بهذا . ماذا يجب علي أن أقول لهؤلاء الناس لكي يعطوا أصواتهم لبرهان . يجب علي أن أقول لهم : « إذا أعطيتم أصواتكم للسيد برهان ، فسيعمل كذا وكذا . . » وهكذا يعطونه أصواتهم . أي أنا هكذا ظننت . وكنت أخاف كثيراً من عدم نجاحي . أنا لا يهمني إن نجح السيد برهان أم لم ينجح ، ولكن البيك والقائمقام يريدان نجاحه . إذا لم ينجح فسيكون هذا بسببي . عندئذ لن يتركوا لي مأوى في تلك المناطق . سأكون سعيداً جداً لو رفسوني على مؤخرتي وقالوا لي : « مع السلامة »... ولكن الجماعة سيجلبون إلى رأسي بلاوي لا تخطر ببال إنسان . بدأت أقلق ، وعدت لا أستطيع النوم لكثرة التفكير فيما سأفعله من أجل جمع الأصوات للرجل .

عندما كانت تقع بيدي جرائد اسطنبول أستعرض عناوينها إذا لم أقرأها . مع اقتراب الانتخابات صارت الجرائد حارة ، وأخبارها تنفث لهباً ، وعناوينها تقدح شرراً . في هذه الأثناء كنت أقرأ في الجرائد : الإصلاح الزراعي ، الإصلاح الزراعي... أنا لا أعرف ماذا يعني الإصلاح الزراعي . ولكن ما فهمته من خلال ما ورد في الجرائد أنه توزيع الأراضي على الفلاحين... أحد رؤساء الأحزاب يصرخ أكثر من الآخرين : إذا شكلنا الحكومة نحن فسنعمل الإصلاح الزراعي » . ويبدو أنه يصرخ أكثر من الآخرين لأن الجرائد تنشر أقواله أكثر من الآخرين . وأنا أيضا فيما بعد منتصف الليل قلقت بسبب غوصي في هذه الأفكار . بينما كنت أفكر بما يمكن لي أن أفعله من أجل جعل السيد برهان هذا يكسب الأصوات ، فاكتشفت اكتشافاً كبيراً . قفزت من الفراش . تمام... الإصلاح الزراعي يا عزيزي... ألم يعطني البيك كتاباً لأقرأه ؟ بحثت عنه ووجدته . لماذا أعطاني هذا الرجل المدعو بيك هذا الكتاب ؟

لوكان ذاك الكتاب هنا وقرأته . إن كل كلمة من كلماته تنفث السم ، وكل جملة من جمله تشتعل وكأنها ستحرق العالم . . مرت سنوات طويلة ولكن مازال في ذاكرتي بعض أفكاره : «إذا لم تعط الأراضي للفلاحين فلن يحصل هؤلاء على شخصياتهم ، وحرياتهم . ...كل إقطاعي في الشرق يمتلك آلاف الدونمات حتى أن بعضهم يمتلك مئات الآلاف ، والعديد من القرى... وكل إقطاعي من هؤلاء بمثابة حكومة ، ويجب تخليص الفلاحين من هؤلاء الإقطاعيين . أما الشيوخ والبيكوات فلا يريدون توزيع هذه الأراضي . وهؤلاء الشيوخ الذين يعدون أنفسهم أولياءَ الأنبياء ، ومن أحفاد النبي ، ويسمون أنفسهم سادة لا يريدون أبداً توزيع هذه الأراضي . لأنهم إذا حصلوا على الأراضي فسيستيقظون من غفلتهم ، ولكن يؤمنون بكرامات الشيوخ ، ويطردونهم... » .

خربط هذا الكتاب عقلي تماماً . جاء في الكتاب أن البيك لايريد توزيع الأراضي . وأنا هذا ما أعرفه . ولكن البيك هذا الذي هنا يقول : «ليُعمل الإصلاح الزراعي » ، ولايقول شيئاً آخر .

الآن ، سأقول للفلاحين : «إذا أعطيتم أصواتكم للسيد برهان ، وإذا نجح يعدكم بتوزيع الأراضي... » .

إذا قلت هذا فلابد أن يعطي كافة القرويين أصواتهم للسيد برهان . لأنه لا أحد منهم يمتلك شبراً من الأرض . جميعهم يعمل في حقول مسجلة باسم البيك . إذا سمع الرجال بأنهم سيحصلون على الأراضي فسيرقصون فرحاً . وسينتخب السيد برهان . ولكن فيما بعد لا أحد يوزع أراضي على أحد . . لايوزع . . من أين سيأتي الرجل بالأراضي لكي يوزعها ، هل هو تاجر أراضي . . لينجح أولا ، وفيما بعد نفكر فيما سيحدث .

في الصباح سأرسل خبراً للفلاحين : إذا نجح السيد برهان سيوزع أراضي ، ويتبرع بحقول .

آه لو أنني نمت بعد أن اكتشفت هذا . . دخلت الفراش ، ولكن النوم ما

دخل إلى عيني بأي شكل . ظننت أنني سأنام بسرعة بعد كل ليالي القلق نتيجة التفكير بالانتخابات . شربت كثيراً من النبيذ ، وقضيت وقتاً مسلياً مع المرأة التي تقوم بأعمال البيت ، وتعبت ، ودخلت الفراش متأخراً . ولكنني لم أستطع النوم . خطر ببالي حب السخرية الذي أتاني من السجن . أما خطر ببالي توزيع الأراضي ؟ أنا الآن أفكر بهذا . أفكر كيف ستوزع الأراضي على الفلاحين اجتمع الناس ، ثمة فوضى الرجال والنساء يتصايحون ، وأنا أقول لهم : « قفوا! ماهذا الضجيج ؟ . . اسكتوا! . . اصطفوا بالدور ، اصطفوا!... من لا يصطف لن يأخذ أرضاً » . هكذا تكون عقدة السخرية ، يفكر الإنسان بأدق التفاصيل ، ويعيشها . وسيسمع الفلاحون كلامي ، ويهدؤون ، ويصطفون . ومختار كل قرية يؤنب فلاحي قريته ويصفّهم . هذه المرة تتصاعد الأصوات من الصفوف :

ـ أنا أريد حقلاً من المنطقة المروية .

ـ وأنا أيضا . .

ـ إذا أعطيتني أرضاً تربتها كلسية ، فلن آخذها . .

ـ أنا لا أريد حقلاً في منطقة منخفضة . سيجرفها السيل . .

فجأة يبدأ هؤلاء بالقتال من أجل اقتسام الأراضي الجيدة ، ويشترك الجميع في القتال بمن في ذلك النساء والأولاد .

أصيح فيهم قائلاً :

ـ قفوووا . .! إذا بقيتم هكذا فلن أعطي أحداً منكم حقلاً! . . اسكتوا! ألسنا نحن الشيخ سعيد العرياني ؟ وبالتأكيد نحن نعرف أين وكم ولماذا وكيف ومتى تعطى الحقول .

أسأل أحد الواقفين أمامي بصوت خفيض :

ـ أين تريد حقلك أنت ؟ في السهل أم السفح أم في المنطقة المروية ؟

ودون أن يرفع الرجل رأسه يقول :

ـ أنا لا أريد حقلاً يا شيخي .

ـ لماذا ؟

ـ حقل من ستعطيني ؟ أليست كافة الحقول هنا للبيك ؟ إذا حاولنا أخذ حقل من حقول البيك ألا يضعنا تحت العصا ويحرِّم علينا الحياة هنا ؟ عندئذ لن نجد مكاناً نشتغل فيه . . لا ، لا أريد . مستحيل . لا أريد قطعياً .

فجأة صحوت . ياهوه . . ماذا أفعل أنا ؟ حقل من وأرض من أوزعها ، ولمن ؟ إذا سمع البيك بهذا سيحرق نَفَسي . .

قلقت هذه المرة لخوفي من البيك . لم يرف لي جفن حتى الصباح . كانت الشمس قد أشرقت للتو عندما طرق باب غرفتي . فقلت :

ـ من ؟ ماذا حدث في هذا الوقت ؟

قال لي رَجُلي من خلف الباب :

ـ عفوك يا شيخي . . عن إذنك عندي خبر لك . أرسل البيك الخيالة . . وهم ينتظرون في صحن الدار . .

ـ ماذا حدث ياهوه ؟ أية خيالة في هذه الساعة من الصباح... هل هناك تعبئة للهجوم على الأعداء ؟ إذا كان يريد البيك إذناً بالسفر ، فأذنه معه . . ليذهب . .

قال الرجل من خلف الباب :

ـ نعم ، البيك سيسافر ، وقبل سفره سيشاورك في أمر...

ـ وهل جاء في هذا الظلام ؟

ـ لم يأت شخصياً . . أنتم ستذهبون . . وقد أرسل الخيالة لكي يأخذوك...

لا أستطيع وصف الخوف الذي حل بي . . الخوف من الموت ليس هكذا . . الموت مهما كان فهو موت . . ولكن هذا البيك لا يقتل الإنسان فوراً ، بل يعذب الإنسان وأنا لا أحتمل... كيف عرف هذا البيك بأنني سأوزع حقوله فاستدعاني في هذه الظلمة... أنا لم أقل لأحد . . دع التوزيع جانباً ، أنا فكرت بهذا مجرد تفكير فقط . . ماذا يحدث إذا فكرنا ، هل هذا ذنب ؟ ثم

إنني عدلت عن تفكيري . . الله الله . . في الحقيقة أنا لست من أهل الكرامات ، بل هو . . إن ما خطر ببالي ليلاً شعر به هذا الرجل . أم أنني هذيت أثناء نومي ، وأثناء الهذيان حكيت . . وهل قلت : « إنني سأوزع أراضي البيك » ؟ . . وإن الرجل الذي وثقت به ووضعته مناوباً على باب غرفتي هو جاسوس للبيك . . وإن هذا المناوب سمع هذياني . . وهرع في ساعة من هذا الليل إلى البيك ، وقال له : « الشيخ العرياني سيوزع أراضيك » . . أنا احترقت . . . احترقت . . سيفرمني هذا البيك فرماً . . إذا كانوا قد شعروا بأنني سأودع أراضي البيك ، فلماذا لم يشعروا بأنني عدلت عن قراري ؟

لا يجب ألا أذهب إلى البيك . . ولكن باب غرفتي يقرع : طاخ ، طاخ . . رفعت الستارة ونظرت إلى صحن الدار . . الله الله . . ماهذا ؟ الخيول على أهبة الاستعداد ، وعددها مجهول . . يبدو أنني إذا ما ذهبت بالهين ، سيحملونني بالقوة ، ويأخذونني . فقدت قوتي . لبست ثيابي بصعوبة ، وخرجت . . كان وكيل البيك هناك . . قلت له :

ـ أهلاً وسهلاً يا حضرة الوكيل!

لكن الرجل ببرودة الثلج . قال :

ـ أهلاً . . طلبك البيك . . علينا أن نذهب بسرعة . .

ـ ماذا حدث ؟ هل يوجد عمل مستعجل ؟ أليس معنا أذن لصلاة الصبح .

ـ قال البيك : « بسرعة ، بسرعة كبيرة »

هذا يعني أن ما فكرت به صحيح . . مسكني رجلان من ساقي ، ووضعاني على ظهر الحصان .

أأقول ما قلته في المرة السابقة : « حلت شفقتنا على الحصان » وأنزل ؟ هل يتركونني أنزل عن الحصان ؟ بعد أن أنزل عن الحصان ، أأقول لهم أنا من أهل الكرامات ، وأذهب من الطريق المختصر عرض الأراضي ؟ هل يدعونا نذهب وحدنا ؟ إذا استطعنا الذهاب وحدنا من هذا الطريق ، هل ننحرف عنه ، ونذهب إلى المدينة ، ومن هناك نهرب حتى نصل إلى قعر جهنم ؟ لا لن

يدعني الخيالة أفعل هذا!...

كلما حاولت أن أطمئن نفسي قائلاً : «لعله أمر آخر . . كيف يستطيع الرجل معرفة أنني فكرت بتوزيع أراضيه ليلاً... لابد أنه استدعاني من أجل شيء آخر» . أعود وأقول : لماذا يستدعيني في ساعة مبكرة الى هذا الحد من أجل أمر آخر ؟ ثم إن الشيخ سعيد العرياني الكبير هل يذهب إلى عند قدم البيك!

تصبب مني عرق الموت ريثما وصلت إلى ڤيلا البيك . عندما وجدت أن البيك قد خرج لمقابلتي شعرت بالراحة قليلاً . ركض البيك نحوي ، وأخرج قدمي من الركاب بيده ، وهذا أكبر عمل يحترمني فيه . . صرخت : «أستغفر الله . . أرجوك . .» .

ـ عذراً يا شيخي ، أقلقت راحتكم... ولكن من الضروري أن أذهب فوراً ، فأردت أن أودعكم . .

ـ من الضروري أن تذهبوا ؟

ـ نعم .

بينما تحدثنا هكذا ، ونحن متجاوران دخلنا إلى غرفته . عندما بقينا وحدنا ، فجأة انشط ، وقال :

ـ بعد قليل سأذهب إلى اسطنبول .

فرحت كثيراً ، فقلت صارخاً :

ـ مع السلامة .

حسب قول البيك ، إن وجوده هناك أثناء الانتخابات غير سليم ، وسيشيعون حوله أنه يمارس ضغوطاً على الفلاحين ، أو أنه يؤيد المرشح فلان ، أو الحزب الفلاني/ والبيك يجب أن يبقى دائماً محايداً . نعم يوجد بيكوات حزبيون ، ولكن أولئك ، بعد أن دخلوا إلى قذارة الأحزاب ، وزعوا أفراد عائلاتهم على كافة الأحزاب ، وهكذا لا يتضررون من نجاح أي حزب ، ويعتبرون حياديين أيضاً . لكن أولاد هذا البيك لا أحد منهم يريد أن يتحزب ،

أو يستمر بالبيكوية .

قال لي البيك :

ـ الله أعلم . . حلال عليهم الحزبية ، والبيكوية ، والأغوية . . آه لو صار الإصلاح الزراعي وخلصنا من هذه المنطقة النائية . . ماهذا الذي أتحمله ؟

حين قال هذا ، قفزت من مكاني دون وعي . ياهوه ، ماذا يقول هذا البيك ؟ هل يقول إصلاح زراعي ؟ من الواضح جداً أنه يريد أن يجعلني أنزلق بالكلام . هذا يعني أن أحدهم سمعني فعلاً أهذي أثناء نومي ، وجاء وأخبره .

قفزت إلى الخلف وأنا أقول :

ـ الله لا يرينا ، الله لايرينا . .

قال :

ـ ما الذي تدعو الله ألا يرينا إياه ؟

ـ البلاء المدعو إصلاح زراعي .

ـ ولاه سألعن الذي عملك شيخاً . . أتعرف أنت ماذا يعني إصلاح زراعي لتحكي هذا الحكي ؟

ـ أرجوك يا بيك ، سيأخذون منك أرضك وحقولك المسجلة باسمك ، والتي آلت إليك من أبيك ، وإليه من جدك ، ويعطونها لأولئك الذين لاتعرف قرعة آبائهم من أين . .

ـ حسنٌ ، ياهوه . . ليأخذوها ويوزعوها . . وهل لي مخرجٌ غير هذا ؟ وهل سأقضي حياتي في هذه المناطق النائية ؟ . . لماذا أؤيد العدالة الاجتماعية منذ سنين ؟ لهذا السبب . .

انظر إنه مازال يريد أن يزلق لساني . . لكي أزلق بكلمة ، أو أحنّ على الفلاحين المساكين ، وأقول لماذا يمتلك بيك واحد ثماني عشرة قرية ؟ ثم يقول الرجل : «واخ ، هذا يعني أننا نغذي أفعى بيننا ولا نعلم ، أليس كذلك ؟ ، وسيرميني دون قميص وسروال داخليين على رأس جبل كونت ، كما تركني قاطعو الطريق يوم سلبوني...

قلت صارخاً :

ـ لا يمكن أن يحدث شيء كهذا . . حتى لو أردتم أنتم هذا فنحن لا نريد . . قال : عدالة اجتماعية! . . ماذا يعني هذا ؟ أنا أعرف أن هذا كلام الكفرة الحمر ، كلام الشيوعيين . .

ـ اسكت ولاه! أنت لا تصلح شيخاً على رأس جبل كونت ، بل تصلح رجل حكومة... الآن تكلمت مثل رجال الحكومة . . يريدون توزيع القرى التي ورثناها من آبائنا . . ليوزعوها . . وهذا ما نريده نحن ياه . .

فهمت الآن أنه لا يريد أن يجعلني أنزلق بالكلام . ولكن لم أفهم ولا بأي شكل ، كيف يمكن لبيك صاحب ثماني عشرة قرية أن يؤمن بالعدالة الاجتماعية ، ويؤيد الإصلاح الزراعي . سيأخذون منه كل أراضيه ، ويوزعونها على من لا يملكون أراضي... هذا يعني أنه صاحب قلب طيب ، ويحنّ على المساكين كما قالوا عنه . . قلت في داخلي : الله يرضى عنك . .

ثم بدأ يقول :

ـ أنا صاحب ثماني عشرة قرية . . آه لو لم أكن . . عيون الجميع علينا . . صار اسمنا بيك . إذا ذهبت الآن إلى اسطنبول ، فيقصدوني كل يوم من هذه المنطقة أربعة أو خمسة أشخاص . ماذا سنفعل ؟ اسمنا بيك . سنطعمهم ونسقيهم ، ونؤمن لهم مكاناً للنوم ، ونكرمهم . . هذا يتكرر يومياً . . غير هذا فأنا أستخدم بناءً كاملاً مثل فندق لهؤلاء . وأكلهم وشربهم على حسابنا . . صرت بيكا ، فماذا يعني هذا . . كل سنة أتجرجر هنا أربعة أو خمسة أشهر . وماذا تعطينا هذه الأرض الكلسية ؟ نعم ، آه لو صار الإصلاح الزراعي ، وخلصنا مما نحن فيه...

ـ ماذا ستفعل عندما يأخذون أراضيك ؟

ـ ياهوه ، يا شيخ ، قلنا ليأخذوها . . من سيأخذ هذه الأراضي ؟ وهل الحكومة عصابة مجرمين لتأخذ الأراضي منا ، دون أن تدفع ثمنها . . بالتأكيد ستعطينا تعويضاً نقدياً عنها ، وتوزعها على الفلاحين . . أوف ، أترى ما

أجمل هذا لو حصل .

علينا أن نبيع أراضينا وقرانا هذه للدولة بالجملة ، ونرتاح ، ونذهب إلى المدينة . . بعد هذا لتكسر رجلي إذا جئت إلى هذه النواحي . . عيون الجميع على ملاكي الأراضي . . أيوجد من ينظر إلى ملاكي الأبنية في المدن ؟ كم قرية عندي ؟ ثماني عشرة . . أنا مستعد لمبادلة كل قرية على بناء . هل عندك ما تقوله في هذا الموضوع ؟ ماذا يعني ثمانية عشر بناء في مدينة مثل أنقرة أو اسطنبول . هيا ، أنا أرضى بالمبادلة على سبعة عشر بناء . . بل خمسة عشر . . عشرة أبنية ولاه . . عشرة أبنية والدفع فوراً . . هل تدر عليّ هذه القرى ما تكسبه عشرة أبنية ؟ لاااا... ولكن عندما تأخذ الحكومة أراضينا فلا تدفع المبلغ نقداً ، بل تدفعه تقسيطاً . . لتقسطه . . يكفينا المبلغ الذي ستدفعه سلفة ويزيد . . والباقي سيكون مثل القشطة على الكنافة . . أنا لماذا أنادي بالديمقراطية منذ كل هذه السنوات ؟ لهذا السبب : إذا تحققت الديمقراطية ، فلا بد في النهاية أن تتحقق العدالة الاجتماعية . وعندما تتحقق العدالة الاجتماعية ، ستضطر الحكومة لدفع نقودنا وتوزيع هذه الأراضي . . ولكن ليس كل أصحاب القرى يريدون هذا...

ـ بالطبع . . أين يوجد بيك شريف مثلكم ؟

ـ أي شرف يا هوه . . إذا كان عند الرجل أراضي قيمتها بقيمة الدم ، ليست جافة كأراضينا... فلا يريد الديمقراطية ، لأنه إذا تحققت في النهاية العدالة الاجتماعية ، والإصلاح الزراعي ستذهب أراضيهم التي قيمتها قيمة الدم . . لكن الحكومة ليست حكومة . . أنا لماذا أؤيّد السيد برهان ؟ هذا هو السبب . . إذا ملأنا المجلس النيابي بأمثاله ، فسيكون العمل على أكمل وجه . . لو فهم القرويون الحمير هذا . . آه لو فهموا أن الإصلاح الزراعي شيء جميل! لكنهم لا يفهمون . . إنهم لا يريدون الإصلاح الزراعي نهائياً . .

بعد أن شرح لي هذا الموضوع كثيراً ، قال :

ـ خرجنا عن موضوعنا . سبب استدعائي لك مبكراً هو أنني سأذهب بعد

قليل . . ولا أعلم متى سأعود . . لنأخذ نتائج الانتخابات . . أتى السيد برهان ، والتقيتَ به وتحادثتما . . أُعجب بك كثيراً . . وأخبرك القائمقام بدري بمجيئه . . والآن عليك أن تعمل ما يجب أن تعمله... فهمت ؟ عليك أن تكسِّبَ السيد برهان أصوات هذه المنطقة .

ـ سنعمل ما في وسعنا . .

صرخ فجأة :

ـ ماذا يعني ما في وسعنا ؟ هذا أمر لابد منه .

ودعني البيك ، وعدت .

من أين لي معرفة أن الإصلاح الزراعي سيجلب على رأسي مشاكل كثيرة ؟ أنا مازلت مصرّاً على عدم القول لأحد أن الأراضي ستوزع ، وما شابه ذلك . لكن الذي خدعني هو المرشح الآخر . قدوم برهان البوق جلب إليّ الحظ ، صار المرشحون يخرجون من المدينة ، وفوراً يمرون عليّ لتقبيل يدي ونيل دعائي بالخير لهم . ولمّا لم يكن أحدهم أقل من برهان البوق إيماناً بالأتاتوركية ، فكان يعمل الجميع على إملاء عيون الناخبين باحترامهم لي . وازدادت ثقتي بنفسي . هذا يعني أن كل ما أريده يحضر . بينما كنت أتحدث إلى أحد المرشحين العقلاء ، سألته عما سيفعله حزبه إذا نجح . فقال إنه سيعمل إصلاحاً زراعياً . وفيما بعد سمعت من رجالي أن هذا المرشح تجول على القرى ، وقال :

ـ منذ قرون وأنتم تُستَغَلون ، ماهذا الذي تتحملونه أيها المواطنون ؟ نحن سننقذكم من هذا الفقر .

سأل ذو لحية بيضاء من القرويين :

ـ كيف ستنقذوننا ؟

ـ أمن المعقول أن يمتلك بيك واحد ثماني عشرة قرية ؟ ماهذا الظلم ؟ سنأخذ حقول البيك ونعطيكم إياها . . ستصبحون أصحاب حقول . . .

وبينما كان المرشح يتحدث عن هذا ، تفرق القرويون آحاد ، ومثنى ،

وتركوه على كرسي المقهى مثل ديك على مزبلته .

سألت مكو الذي حكى لي هذا :

ـ حسنٌ ، ولكن لماذا عملوا هذا ؟ ألا يريدون أرضاً ؟

قال مكو :

ـ لا ، لا . .

ـ لماذا يا مكو ، وأنت ، ألا تريد ؟

ـ لا أريد يا سيدي الشيخ . .

أمن الممكن الا يريد ؟ إنه يريد ، ويريد هذا مثل العسل . ولكن لخوفه من وصول كلامه إلى أذن البيك ، يقول لا أريد . .

نعم . . عليّ أن أنزل إلى القرى والنواحي ، وأن أدخل بين الناس من أجل القيام بالدعاية الانتخابية باسم برهان البوق . ولكن لا أنسى ما قاله البيك... الدخول بين الناس يشبه الدخول إلى البحر في الشتاء البارد ، عليك أن تدخل ثم تخرج بسرعة . . إذا ما عملت هذا ، ودخلت وبقيت ، سينظر الناس إليك وسيجدون أن للشيخ عينين مثلما لهم ، وللشيخ فماً مثلما لهم . . وللشيخ... لايختلف عنهم . . وعندما يفهمون أن الشيخ إنسان مثلهم فلا يبقى له قيمة عندهم . أكثر ما تعلمته من البيك هو أنه يوجد ما يحتاج الإنسان إلى تعلمه في كل مرحلة من مراحل عمره . .

ذهبت إلى الناحية لكي أقول للأهالي : «انتخبوا السيد برهان ، وأعطوه أصواتكم! » . كان يوم جمعة . . نزلت إلى الناحية في يوم مبارك . أصلي الجمعة في الجامع وأعود . كانت المرة الأولى التي أنزل فيها إلى الناحية . ولكن يا سيدي وصلت شهرتي إلى هناك ، وانتشرت ، لا أدري كيف أحكي لك عنها . لا أحد يستقبل هكذا إلا سلطان الهند أو اليمن . ولكن انظروا إلى سوء الحظ هذا . في اليوم الذي ذهبت فيه إلى الناحية ، أتى أحد النواب إلى الناحية لعمل الدعاية الانتخابية... لم يستقبل أحد الرجل . خرج شخص أو شخصان من حزبه لاستقباله . مع أن الرجل عندما كان يأتي سابقاً كان سكان

القرية جميعاً من سن السابعة إلى السبعين يذهبون للقائه عندما خرجت الناحية لاستقبالي بقي الرجل مثل الولد اليتيم . ولكن لأنه متفتح الذهن جيداً ، ولأنه سياسي ماهر ، عندما سمع بمجيئي إلى الناحية قال :

ـ أرجوكم . . لابد أن أمي ولدتني في ليلة القدر . . ماهذا النصيب! . . خذوني إلى حضرة سيدي الشيخ .

بينما كنت عند باب الجامع ، وإذ برجل يشق الجمع الذي يحيط بي ، ويماوج الناس ، وارتمى عليَ . . جاء الرجل وفور مجيئه ارتمى على قدمي ، وبدأ يقول مثل المتسولين :

ـ أنا قربان المكان الذي تطؤه قدمك يا حضرة الشيخ العرياني . . كنت أبحث عنك في الأقاصي فوجدتك أمامي . . كل يوم تدخلون أحلامي . . أتيت إلى الصلاة...

سألت مكو كبير قاطعي الطرق الذي جئت به كمرافق ، همساً :

ـ من هذا السافل ؟

عندما قال لي مكو إنه نائب سابق لهذه المنطقة ، مسكت الرجل من يده وشددته عن الأرض قائلاً : « أستغفر الله » . . ولأنه كان يوجد وقت حتى موعد صلاة الجمعة خرجنا للتجول في السوق . مسكني النائب من ذراعي ليراه أصحاب الدكاكين في السوق ، ويزيد قدره أمامهم... عندما رآني الناس وإلى جانبي نائب سابق تهيجوا ، وخرج أمامنا فرقتان أو ثلاث فرق تقرع الطبول وتزمر . بالطبع الطبول والمزامير ليست لي ، بل هي للنائب . كان كلما جاء يلاقون له بالطبل والمزمار ، ولكن هذه المرة ما عملوا له حفل استقبال بسبب مجيئي إلى الناحية . والآن عندما ظهرنا معاً ، اغتنم حزبه الفرصة وأخرج الطبول والمزامير ، ليعمل على إظهاري أنني مؤيد له . ياهوه نحن ذهبنا لنجعل الناس ينتخبون برهان البوق ، هل سنجعلهم ينتخبون منافسه للمرة الثانية ؟ . . والرجل مثل الطين الرطب علق بي ولم أعد أستطيع التخلص منه .

كلما قلت له : « عن إذنك » ، يلتصق بذراعي ورجلي أكثر ، ويتوسل

قائلاً :

ـ أرجوك يا شيخي ، لا تترك الفقير وحيداً .

بقي يحكي معي هكذا حتى أدخلني مبنى حزبهم . لو كنت أعرف أن المكان هناك مركز حزب لما دخلت ، ولكن ما عرفت هذا... دخلنا . أتت الشاي . والطبول تقدح والمزامير تصدح أمام المبنى .

أشار النائب إلى الذين يرقصون ويقرعون الطبول ، وينفخون في المزامير ، وقال :

ـ مثل احتفالات عيد الذكرى العاشرة لتأسيس الجمهورية .

ولأنني أردت أن أُغضِب الرجل ، فقلت :

ـ لماذا مثل عيد الذكرى العاشرة ، وليس العشرين .

ـ لأن الجمهورية في الذكرى العاشرة كانت طازجة ، والاحتفالات بذكراها جميلة ، ونابعة من القلب . ولكن بعد الذكرى العاشرة بدأوا يعتقون أعياد الجمهورية ، ولم يبق لها ذاك الطعم القديم ، وصارت الاحتفالات مثل السُخرة . . واهترأت الأعياد . .

فوجئت بأن الرجل صاحب نكتة . . وأعجبني حديثه الساخر . هو مثل البيك . عندما بقينا وحدنا في الغرفة ، ما عاد يظهر لي الاحترام السابق الذي كان يظهره لي .

سألته قائلاً :

ـ من أين اخترعت أن أعياد الجمهورية بعد الذكرى العاشرة قد عتقت ؟

ومهما كنت شيخاً ، فلكي أظهر جمهورياً أكثر أمام نائب ، تحسباً لأي طارئ ، أضفت :

ـ بإذن الله ، ستغدو جمهوريتنا في كل سنة أنضر ، وستبرعم ، وتقوى وتخضر وتزهر . . وتعطي أغصاناً . . لِمَ ستعتق كل سنة أكثر من التي قبلها ؟

قال :

ـ أتسأل لماذا ؟ اسمع هذا . . من أجل أن نخدع الناس ونأخذ

أصواتهم ، ونُنتخب نواباً بدأنا تقبيل أثواب وذيول المشايخ ، ورجال الدين من أمثالك . . ماذا سيحدث أكثر من هذا . . في الذكرى العاشرة للجمهورية صارت حتى جحور الفئران تباع في السوق السوداء ، لأن أكثر أمثالك كانوا لا يجدون جحراً يختبؤون فيه . .

وفجأة قال :

ـ أنت ابن من ؟

ولاه ، ماهذا الحكي ؟ انظر إلى قلة تربيته هذه . ماذا يعني : « أنت ابن من ؟ » ، ياحمار .

فقلت :

ـ ماذا تقصد ؟

ـ لاشيء . . سألت ابن من أنت فقط...

قلت :

ـ حسن ابن من أنت ؟

ـ أنا ابن الجمهورية!

ـ هاااا . . هذا الأمر مختلف . . بالطبع وأنا أيضاً ابن الجمهورية .

نعم ، أُعجبت بمزاج الرجل .

أشار إلى قارعي الطبول ، ونافخي المزامير من النافذة ، وقال :

ـ يا سيدنا الشيخ ، هل تعرف ماذا تقول هذه الطبول ، وهذه المزامير ؟

ـ ماذا تقصِد ؟ ماذا يمكن أن تقوله الطبول والمزامير ؟ وهل هي بشر لتقول ؟

ـ نعم ، إنها تحكي مثل البشر . . اسمع ، انتبه ، اصغ إلى الصوت . . اسمع جيداً . ماذا يقول الطبل ؟ إنه يقول : « طز . . طز . . طز . . » أليس كذلك ؟ ألا يقول « طز » كلما نزلت عليه العصا .

وفي الحقيقة ، هذا الذي كان . كلما رفع الطبال يده وهوى بالعصا على طبله يخرج من الطبل صوت : « طز » . ولأن الطبال قد تعب ، صار كلما هوى

بعصاه على الطبل يشارك صوت الطبل ، ويقول : « طز » . لأول مرة انتبهت إلى أن أصوات « طز . . طز . . » تخرج من الطبل .

قال النائب :

ـ والآن اصغ إلى المزمار . اسمع صوته جيداً . المزمار أيضاً يُخرج صوت : « طـ . . .ز ، طـ . . .ز . . » .

نعم ، هذا ماكان . الطبل يصرخ من جهة ، والمزمار من جهة : « طز ، طز » طز الطبل ممتلئة وقوية ، أما طز الزمر فهي رفيعة وممطوطة .

قلت :

ـ نعم كلاهما يقول طز .

ـ حسن ، لمن يقولان طز ؟

ـ لا أعرف...

يجب أن تعرف ولاه شيخ . . ليتني أنتف لحيتك . . علم الغيب ، والحديث عن أخبار العالم الآخر ليس كرامة . . هذا ما يجب أن تعرفه . . لماذا صار الطبل والمزمار آلتين موسيقيتين قوميتين ؟ يجب أن يكون لهذا الأمر سبب . . لماذا الطبل والمزمار وليس العود أوالكمان أو الفلوت ؟ آآ . . لماذا ؟ إذا ما عرفت هذا ، فما ضرورة اللحية ؟

وجدت أن هذا الرجل مثل البيك ، بدأ يقلل حياءه معي ، أمر غير معقول :

تحركت قائلاً :

ـ ياالله . . تأخرت عن صلاة الجمعة . .

لكنه مسكني من جبتي ، وأجلسني . وقال :

ـ سأقول لك هذا لتتعلمه . .

ولأنني في الحقيقة أتوق لما سيقوله ، قلت :

ـ تفضل . . لماذا صار الطبل والمزمار آلتين موسيقيتين قوميتين ؟

ـ أليس هذا واضحاً ؟ اسمع كلاهما يقول : « طز . . طـ . . . .ـز »

العارف هو الذي يفهم . . هذا الشعب لا يستطيع أن يُخرج صوته منذ قرون . عندما يحاول فتح فمه تنزل القبضة على رأسه . . فماذا يستطيع أن يعمل ؟ بحث وبحث فما وجد غير هذا الطبل والمزمار ليحكيا مكانه ، وليقولا ما لا يستطيع قوله . في الوقت الذي يأتي فيه أحد الكبار إلى مدينة أو قرية ما ، يهب الناس ، ويلتقطون الطبل والمزمار ، ويلاقون له . لماذا ؟ هكذا ، دون سبب ؟ أمثالك من المهابيل ، يظنون أنهم يخرجون دون سبب... ولاه ، ما لايستطيع قوله الناس يجعلون الطبل والمزمار يقولانه . . إنهم يجعلون الطبل والمزمار يقولان « طز . . طـ . . . ـز » ، وهذا مالا يستطيعون قوله في وجوهنا . وهل صار الطبل والمزمار آلتين موسقيتين قوميتين بدون سبب ؟ . . لو سألتهم فهم لا يعرفون هذا الأمر أيضاً . . ولكن هذه هي الحقيقة . . صار عبر كل هذه السنين تقليداً . . إنهم يجعلون الطبل والمزمار يقولان في وجهنا : « طز . . طـ . . . ـز » ثم يرتاحون وكأنهم فرغوا كل ما في داخلهم من هموم . . هل فهمت الآن ماذا تعني : « طز » ؟ هي اللفظة المختزنة في قلوبهم منذ مئات السنين ، يطلقونها عبر الطبل والمزمار . لايوجد أي شيء في هذا العالم دون سبب . عليك أن تفكر في كل ماهو موجود على هذه الأرض ، وفي سبب وجوده ، ولماذا يستخدم . . .

ـ أرجوك ، صلاة الجمعة...

ـ انتظر! . . وأنا أيضاً سأذهب إلى صلاة الجمعة ، وبرفقتك ، لكي يرى الناس احترامي لك ويعطوني أصواتهم ، وأستحق « طز . . . ط . . . ـز » الطبل والمزمار التي سيودعونني بهما عندما سأذهب من هنا . .

خرجنا من هناك . . وحقيقة كان الطبل والمزمار يقولان « طز . . ط . . . ـز » من خلفنا . .

على الرغم من مرور كل هذه السنوات ، لم أنس كلمات ذلك الرجل . . والآن كلما سمعت صوت الطبل والمزمار ، أشعر بصوتهما بشكل مختلف . أشعر به يصيح : « طز . . ط . . . ـز » وكأنه ينتقم لقمع الشعب عبر مئات

السنين .

عدت فور انتهاء صلاة الجمعة . وحسب ما سمعت بأن هذا النائب وعد الناس بأراض وحقول . سألت :

ـ كم هي المساحة التي وعد بتوزيعها ؟

قالوا لي :

ـ عشرون دونماً لكل بيت .

فكرت بأن هذا الرجل سيحصد الأصوات كلها إذا كان قد قال هذا ، وسيصير نائباً . وسيأخذ برهان البوق هواءً... أنا لا يهمني أخذه هواء ، ولكنهم سيطردونني لأنني لم أفرض على الفلاحين رأيي ، قائلين : «شيخ كهذا لا يناسبنا ، لنبحث عن غيره . . » لهذا السبب علي أن أقدم ما هو أكثر تأثيراً . صرت أقول في الأمكنة التي أذهب إليها ، إذا كان ذلك الرجل سيعطي لكل بيت عشرين دونماً ، فإن السيد برهان فيما إذا نجح سيعطي ثلاثين دونماً ، وليس لكل بيت ، بل لكل فرد . . وما المقصود بكل فرد ؟ المقصود ، كل رجل وامرأة وطفل وشيخ ، وحتى الرضع حديثي الولادة... عندما كنت أقول هذا وأتجول من مكان إلى آخر ، لاحظت أن الناس ماعادوا يحترمونني كما كانوا سابقاً . وإذ أنني أحفر أمامي بنفسي دون علم...

كنت حتى فترة قصيرة أحتفظ بكل ما نشرته الصحافة من أخبار حول انتحالي شخصية الشيخ . في الحقيقة كنت أقص كافة الأخبار التي نشرتها الجرائد حولي ، ولكن لأنني لم أعش حتى الآن حياة منتظمة . . فلم يبق منها لديّ شيء .

جاء في أكثر الصحف : «ألقي القبض على منتحل شخصية عالم» . وحسب ما ادعته هذه الصحف أنني : «شيخ مزور ادعيت أنني من سلالة الرسول ، وخدعت النساء الغبيات» ، وحسب بعض الجرائد : «يحرض الناس ضد ثورات الجمهورية» .

كيف سقطت في هذا الفخ ياهوه . . كان بين النساء اللواتي جئن من

القرية المجاورة لخدمتي واحدة تدعى (فاديك)... وأنا كنت رأيت كثيراً من النساء اللعوبات حتى عمري ذاك ، والحمد لله ، ولكن لم أر لعوباً مثلها ، ولايوجد مثلها... بعد أن أكون الشيخ العرياني صاحب الكرامات فلا يوجد امرأة لا ترضخ لرغبتي . لهذا الأمر ثواب يذهب كافة سيئاتهن . وعندما يكون الأمر هكذا تتسابق النساء اللواتي يقمن على خدمتي للدخول بين ذراعي لنيل الثواب . كانت المشيخة بالنسبة لي في البداية باباً لسد حاجتي إلى لقمة الخبز . فلم تكن عيناي تريان النساء . حسن ، ولكن يا سيدي بعد أن يأكل ويشرب وينام الإنسان براحة يصير مثل ثور معلوف جيداً... نعم في البداية لم أُعر النساء انتباهاً ، مهما كن لعوبات ، ومجلوات . ويجب أن يكون البيك الذي لا يغيب عنه شيء قد انتبه إلى هذا الأمر ، فحكى لي حكاية فضائحية في إحدى جلسات الشرب ، حكى لي كيف وضع عينه على زوجة متسول كان يطعمه ويسقيه ويكسوه ويحميه . كان واضحاً جداً أنه يقصدني بالحكاية .

كنت قد فهمت ما رمى إليه البيك من خلال حكايته ، ولكنه لم يكتف بهذا ، وقال :

ـ ولاه شيخ سافل ، يا من أتمنى نتف لحيته السوداء التي امتلأت قملاتها بالدم . . لن تستطيع البقاء وحيداً بعد الآن . . حسب ما سمعنا أنك نظمت أمورك مع النساء . . الذنب ليس ذنبك . عندما احتجنا إلى شيخ تألمنا على وضعك ، فقلنا لك إن الطعام من عندنا...

فقلت وأنا أمسد لحيتي :

ـ أستغفر الله . . لسنا ممن يخرج ، ويخطو خطوة دون وضوء ، ويفك تكة سرواله على حرام . .

ـ ارفع كأسك الآن . . بصحتك يا شيخ العرياني... أنت عندما دخلت عتبتنا ، لم تكن من أهل الشرف ، ولكن ماذا نستطيع أن نفعل ؟ وصلت في زمن ضيق . .

نعم كانت علاقتي بالنساء جيدة . . ولكن فاديك هذه . . آه منك

يافاديك آه . كانت تتلوى في ثوبها المطرز بالخيوط الذهبية ، وتتهادى نحوي . . فيما بعد عرفت أن هذا فخٌ ، وأنها كانت تنتظر الفرصة المناسبة لإيقاعي فيه . وأنا عندما كنت أجوب القرى وأقول للناس إن السيد برهان سيعطي لكل فرد ، إمرأة ورجلاً وشيخاً وطفلاً مساحة كذا من الأراضي لكي ينجح ، كنت أرتكب خطأ دون علم .

ماذا أقول لك عن فاديك . . شدت حزامها المذهّب ، فاندفع ثدياها إلى الأمام . . تهيأ لي أنني لو نقفت بأصبعي على ثوبها المطرز عند صدرها النابق إلى الأمام ، سيرنُ مدة طويلة ويحدث اهتزازاً . . كانت بشرة المرأة سمراء محروقة جافة لم أر مثل حلاوتها... جننتني فاديك هذه . كلما اقتربت منها ، تتجه نحو القبلة ، وتقول : «الله أكبر» ، وتبدأ بالصلاة . كفى ، ذوبتني... وإذا حصرتها في زمان لا مجال لديها لتصلي ، تقول :

ـ أنا صائمة يا شيخي . .

ـ يابنت ، نحن لسنا في شهر الصيام . .

ـ أنا أصوم الأشهر الثلاثة . .

ـ يابنت لسنا في الأشهر الثلاثة . .

ـ أستقبل الأشهر الثلاثة . .

غضبت من إسلام هذه المرأة . تحينت فرصة ، وضربت بيدي على مؤخرة المرأة ، فارتدت يدي عدة مرات مثل كرة مطاطية سقطت على الأرض .

لا أحتمل نارها ، فأطردها لتذهب إلى قريتها ، ولكن لا أحتمل هذا أيضاً . . أتمدد متظاهراً بالمرض ، وأقول :

ـ هاتو فاديك لتعتني بي . .

تأتي . .

في أحد أيام تعبي من ذهابي إلى القرى لعمل دعاية للسيد برهان . حضرت فاديك ، قالت :

ـ غير ممكن . .

ـ ألست مسلمة ؟

ـ لماذا . . مسلمة والحمد لله . .

ـ يابنت ، ماهذا الإسلام . . هل يمكن للمسلم أن يكون متحجر القلب هكذا ؟ . . ستصيرين حطباً لنار جهنم ، لأنك تحرقين الشيخ العرياني وتجعلينه رماداً .

ـ وهل مد اليد على النساء من الإسلام ؟

ـ ماذا يعني هذا ؟ ألم يتفضل علينا الرسول بأربع ؟ هذا يعني أنك الآن . . تعارضين كلام سيدنا الرسول ، وبهذا تصيرين كافرة يجب حرقها في النار . .

ـ سيدنا يختلف عنك . .

ـ ماذا يعني هذا . . ألست من سلالة الرسول ؟ . .

نعم ، أنا كذبت . قلت إنني أنحدر من سلالة الرسول . . هذا صحيح . . ولكن من أين لي معرفة أنهم يحيكون مقلباً لي .

عندما فهمت فاديك أنني من سلالة الرسول ، فكت عقدتها .

في الصباح التالي ، كان عليَ أن أذهب باكراً إلى القرى . أما فاديك فلا تنهض من الفراش... عندما حاولت النهوض مسكتني من يدي ، ومن رجلي ، ولم تدعني أنهض . كانت أحياناً تقفز من الفراش وترفع طرف الستارة ، وتنظر من النافذة .

ـ كفى يابنت ، انتهينا . . اتركيني .

لم أستطع جعل فاديك تسمع كلمتي على الرغم من كل ما فعلت .

ـ توقفي يابنت ، راحت منا صلاة الصبح . .

ـ تقضيها . .

بدأنا نتداعب في الفراش... لكن هذا الذي أسميه مداعبة ، كان أشبه بالمصارعة . لا تظن أن فاديك هذه امرأة وحسب ، لا يمكن للمرء مجابهتها . . وقعتُ مع قحبة دون علم .

ـ اتركيني يا بنت . . كفى مداعبة . . كفى يا بنت . . قفي ، لا

تدغدغيني . . لا تحضنيني ، انتهيت...

فجأة يا سيدي سمعت وقع حوافر ، وأصوات تلقيم البندقيات ، وصراخ . .

قالت فاديك وهي تضحك :

ـ دوهمنا

ـ دوهمنا ؟ . . ولاااه بعد أن نكون الشيخ العرياني بعظمته ، ماذا يعني هذا ؟ يالله ، بسم الله .

قلتُ هذا ، وانتفضتُ واقفاً .

ـ هاتي جبتي من هناك!

كانت فاديك تتلوى من الضحك ، وتقول :

ـ دوهمنا . .

وتكاد القحبة ترقص فرحاً . . أنا مازلت غير فاهم للعبة التي لعبت عليّ...

ـ يالله ، بسم الله . .

قالت فاديك التي قللت أدبها تماماً :

ـ ألست صاحب كرامة ؟ أرنا كرامتك! . .

ـ وهل هذا وقتها ياه ؟ دعي الكرامات الآن ، هاتي الجبة ، ستظهر عورتنا . .

ومع صفق مصراع الباب على الجدار دخلوا... الدرك ، المختار ، القرويون نساءً ورجالاً ، ... وعلى الرغم من تصنعي المشيخة ، لكنهم قبضوا عليّ بسروالي الداخلي ، وقذفوني إلى صحن الدار... جميعهم يضربونني . .

ـ قفوا ولاه ، ياعديمي الإيمان . . ماذا جرى ؟

انهالت أعقاب البنادق ، وأحزمة الذخيرة ، والأحزمة ، والعصي ، والحبال على رأسي وجسمي .

ـ ولاه عدو الشرف!

ـ ولاه ياشيخ الـ.....

آلاف الشتائم لا تساوي شيئاً . . لم أتألم لشيء إلا أن رجالي كانوا أكثر من يضربني... رجالي الذين كنت أطعمهم ، ويرابطون عند باب بيتي . . آآآه . . ألا أقول رجالي الذين كنت أطعمهم ؟ كنت قد اعتدت على المشيخة جيداً . . ليس هذا سهلاً ، صرت أظن أنني أطعم رجالي بعد أشهر من مشيختي...

وما قولكم حول كبير قاطعي الطرق مكو ؟ كان يضربني دون رحمة ، ولايقول إن هذا خلقه الله...

ـ قف يا مكو ، قف . . اليد التي ترتفع على الشيخ ستتحول إلى حجر...

ـ آه ياشيخ الـ... ولاه ، أنا أعمل الشيخ من أمثالك...... حقول من تريد أن توزع يارذل ؟ . .

بدأت أصحو إثر هذا الكلام .

ماذا تظنون وكيل البيك كان يقول ؟

ـ ولاه ، وهل توزع أموال أبيك يا كلب ؟

سقطت مغمياً عليّ . كان الإغماء تظاهراً . . وجدتهم سيقتلونني ضرباً ، فصرخت :

ـ دخيلكم ، انتهيت...

وتمددت على الأرض متظاهراً بالإغماء . .

صاح صف الضابط الذي يترأس الدرك :

ـ قفو ولاه ، ستقتلون القواد .

قلت عندئذ في داخلي : «ما أحسن هذا الرجل ، الله يرضى عليه» . ولكنني انتهيت تماماً عندما أضاف :

ـ قال القائمقام بدري لا أريده جثة ، اجلبوه إلى الناحية حياً .

رفعت العصي عني إثر هذا الكلام . فقال صف الضابط :

ـ صبوا عدة سطول من الماء البارد فوقه لكي يصحو هذا الرذل . .

صبوا فوقي الماء ، فتبللت من رأسي إلى قدمي ، والتثت بالطين .

ـ اربطوا هذا الرذل ، وجروه...

لم يدعني الظالمون ألبس حتى بنطالي . أوقفوني على قدمي وأنا بسروالي الداخلي الطويل ، وقميصي ، وربطوني من يدي ، وأمسكوا طرف الحبل لأحد رجال الدرك الذي يركب حصاناً .

ـ امش ولاه ، كلب ابن كلب!

كنت بين الدرك الذين يركبون الخيل ، والقرويون خلفي . . حافي القدمين ، الماء يبللني ، والطين يسيل من كل أطرافي... ويتصبب الدم من قدمي بسبب سيري في الوعر . سقطت ، وقمت ، ودفعوني ، ولكزوني... بعد أن سرنا ساعات ، وصلنا إلى الناحية . اجتمع سكان الناحية في ساحة مبنى الحكومة . . حسب علمي ، أن سكان هذه الناحية ليسوا بهذا العدد . هذا يعني أنهم أتوا من القرى المجاورة لرؤيتي... لأنه ليس لدى سكان هذه الناحية أية وسيلة للترويح عن أنفسهم ، فيركضون إلى أية فرجة تحدث عندهم في العمر مرة... فور وصولي إلى مبنى الحكومة ، هجم عليّ الجميع . كادوا يمزقونني إرباً . .

فيما بعد فكرت بهذه الحادثة كثيراً . لماذا هجم عليّ هؤلاء الناس ، وأرادوا أن يقتلوني ؟ إنهم لا يعرفونني . . وأنا لم أفعل لهم شيئاً . إذا كان الأمر هكذا ، فما الذي يريدونه مني ؟ هاجموني وكأنهم متعطشون للدم ، ولروحي... أنا أعتقد أنهم يريدون الانتقام لانقماعهم ، وانسحاقهم ، وفقرهم على مدى كل هذه السنين ، مني ، ومن أمثالي لكي يفرّغوا ما في داخلهم ، ويرتاحوا . لماذا خطر هذا ببالي ؟ لقد خطر ببالي هذا نتيجة تذكري لمرشح النيابة حين فسّر صوت الطبل أنه «طز ، طز» ، وصوت المزمار« طـ . . . ـز ، طـ . . . ـز» . . تعرض هؤلاء الرجال للظلم ، وتألموا حتى شعروا بضرورة الانتقام بهذا بالوقوف ضد الحكومة . فلو حاولوا هذا لسُحِقوا أكثر . لهذا السبب ، عندما ألقي القبض على من تتهمه الحكومة ، يضربونه حتى تمزيقه متكئين على الحكومة ، وبهذا يفرغون ما في داخلهم . ليكن من

يكون الرجل الذي سيضربونه ، غير مهم ، يكفيهم ألا تقف الحكومة أمامهم بعد هذا ، وتحقق معهم . . سيضربون رجلاً ما ، ويتخلصون من القضية بدون اتهام . . مثلما تنزل العصا على الطبل تماماً . . هل تنزل على الطبل ، أم على رأس شخص يتخيله الطبال ؟ هذا مالا نعرفه...

وأنا أيضاً كثيراً ما شعرت بهذا الشعور . تعرضت إلى الظلم حتى إنني رغبت بالثورة . ولكن على من ؟ حدث معي مرات عديدة أنني لكمت الجدران ، وعضضت على الأبواب بعد أن ضربني رجال الشرطة... لو كان مكان الجدار أو الباب إنسان ، فسأعتبره المسؤول عن كل الظلم الذي تعرضت إليه ، وأخنقه .

ولكنني عندما كنت أُضرب في ساحة مبنى الحكومة ، لم أكن أفكر في هذا ، بل بإنقاذ روحي . نعم ، لولا الدرك لمزقوني هناك . أنقذني الدرك من السحق ، كان رجال الدرك يصرخون :

ـ اتركوه ولاه . . رئيسنا يريده حياً . . اتركوه!

وبينما كان رجال الدرك يجرونني إلى بناء قيادتهم ، كان الناس يتوسلون إليهم قائلين :

ـ اتركوني على الأقل أبصق في وجهه!

كانوا يبصقون على وجهي رجالاً ونساءً . لأنني كنت عدو الشرف . النساء اللواتي بصقن عليّ كن ينتقمن من خداع ، أو اغتصاب الآخرين لهن . . والرجال أيضاً هكذا . إنهم لايريدون تضييع الفرصة التي سنحت لهم بالبصاق في وجه رجل ما ، بدلاً من رجال آخرين لم يستطيعوا أن يبصقوا في وجوههم . وهكذا ينتقمون لشرفهم مني .

هل تعرفون كيف تأكل الذئاب الجائعة بعضها بعضاً ؟ حكى لي عن هذا أحد المحكومين المسنين عندما كنت شاباً . لم أر أي موظف حكومة محكوم بتهمة الاختلاس ، أو الرشوة ، أو سوء استخدام الوظيفة قد اعترف بذنبه . إذا سألتهم فسيقولون إنهم أبرياء ، وحكموا ظلماً . ولكن واحداً منهم هو هذا

المحكوم المسن الموظف الذي يعترف بذنبه حكى لي قصة الذئاب الجائعة التي يأكل بعضُها بعضاً . . كان يقول : «نعم ، أخذت رشوة . . ولكن لم أكن آخذ الرشوة أنا وحدي . . كافة موظفي الدائرة يأخذون الرشاوى ، كل منهم حسب موقعه . عندما لم يبق من لم يسمع بالرشاوى التي تؤخذ في دائرتنا ، وجبت التضحية بأحد الموظفين من بيننا ، لإنقاذ شرف الدائرة ، وشرف بقية الموظفين . بحث زملائي ، وما وجدوا غيري ليختاروه . لماذا ؟

لأنني أضعفهم ، وأكثرهم مسكنة ، وأقلهم أخذاً للرشوة... وهذا يشابه تماماً مايحدث عند أكل الذئاب الجائعة بعضها بعضاً . . في أيام الشتاء القاسية تذهب قطعان الذئاب إلى هذا الطرف ، والى ذاك من أجل أن تجد صيداً ، وعندما لا تجد شيئاً تهاجم القرى... إنه الجوع . . يجعلها تهاجم اجمام الدجاج ، ومرابط المواشي ، وعندما لا تجد هناك شيئاً ، تتحلق في جبل بعيد ، وتتبادل النظر فيما بينها . إنها نظرات الذئاب الجائعة... نظرات عيون لا يرف لها جفن . . إذا تعب ذئب ، أو أخطأ وحاول أن يرف بجفنه تهاجمه الذئاب كلها معاً ، وتمزقه .

لهذا السبب تبرق عيون الذئاب الجائعة أكثر لخوفها على حياتها . وتستمر هكذا ساعات طويلة . ولكن في النهاية يطأطئ رأسه أضعفها ، وأكثرها تعباً وجوعاً ، ولا يستطيع مقاومة النعاس الذي يداهمه فيغلق عينيه . وبالنسبة لقطيع الذئاب ، إذا رف جفن أحدهم ، فهذا يعني أنه ترك نفسه إلى الموت ، وفوراً تنقض الذئاب الأخرى على صديقها الذي بدأ يكبو من الجوع والتعب وتمزقه ، وتأكله . ثم تعود مرة أخرى للتحلق ، والتحديق كل منها في الاخر . هكذا تستمر ليلاً أو نهاراً... مرة اخرى عندما لا يقاوم أحدها ، فيغمض عينيه . . فهذه المرة يأتي الدور عليه... وأصدقائي في الدائرة فتحوا عيونهم عليّ عشرة على عشرة من أجل أن ينقذوا أنفسهم ، والجميع ركّز النظر علي . وكنت أكثرهم تعباً ، ومسكنة . . » .

لم أنس أبداً قصة هذا الموظف السجين المسنّ الذي حكى لي قصة

الذئاب الجائعة على الرغم من مرور كل هذه السنين . لأن الذئاب القوية والجائعة دائماً تهاجمني . . وشعبنا هكذا أيضاً . . وجدوني أمامهم مربوط اليدين فهاجموني ، وضربوني ، وبصقوا عليّ... بعملهم هذا يظنون أنهم سينقذون... لولا أن حماني الدرك ، كانوا سيمزقونني هنا . وكان قد فج رأسي بحجر رموه عليّ ، وسال منه الدم .

كان الدرك يجرونني على درج مبنى الحكومة . أنا كنت قد تمددت على الدرج الحجري . ولأن أحد رجال الدرك فك رباط يدي ، رفعت رأسي فرأيت جزمة ذات مهمازين . نعم إنهما قدما القائمقام بدري... مددت يدي إلى الجزمة ، وكأنني غريق أمد يدي إلى منقذ...

ـ أرجوك يا سيدي ، أنقذ حياتي...

ولكن إحدى فردتي الجزمة لكزت رأسي . فهمت أنه لا أمل لي من بدري الجربوع... أدخلوني جراً . ثم وضعوني في مكان مظلم ، وأغلقوا علي الباب . بقيت وحدي . بعد أن زحفت على الأرض الترابية هناك ، فكرت قائلا لنفسي : «ماذا فعلت أنا ، ومن ضررت حتى وقع كل هذا على رأسي ؟» . ثم غبت عن وعيي... لا أعرف المدة التي بقيت فيها مغمياً عليّ . فك بقية الحبال دركي دخل إلى حيث أنا ، وأوقفني على قدمي بصعوبة . وأخذني إلى غرفة في الطابق العلوي . نظرت وإذ بالرائد بدري أمامي . خرج الدركي . وبقينا وحدنا .

ـ ولاه ، تقول إنك من سلالة الرسول ، وتعمل نفسك شيخاً ، وتخدع القرويين المساكين . .

ـ أنا ؟

ـ لا ، أبوك . . تقول إنك من سلالة الرسول ها ؟ . .

ـ هذا كذب يا سيدي...

ـ كذب ها ؟ . . وهل كتابتك على بطن العاقر أدعية ، وقولك لها أنها ستحمل كذب ؟

وصرخ : «هاتوا المرأة المدعية» . أتت فاديك . آه ما الذي حفظوها إياه ، فكررته مثل البلبل . قالت : خدعتها بادعائي أنني من سلالة الرسول ، وأنني قلت لها تعالي لأكتب على بطنك أدعية . . وأن القرويين الذين هرعوا على صراخها قبضوا عليّ في غرفة النوم وأنا أركض خلفها وهي عارية . . ثم اشتكوا للدرك . . وأنني أعارض قوانين الجمهورية وثوراتها ، وأدعو إلى ضرورة وجود خليفة على رؤوسنا . . جاء الشهود ، وشهدوا . . تم التحقيق ، ونُظِّم الضبط... ثم خرج الجميع . بقيت مع بدري الجربوع مرة أخرى وحدنا . . ولأنني مللت الحياة ، وقلت لنفسي ، ليكن مايكون ، فقلت له :

ـ انظر إلي يا بدري!

حاول بدري أن ينبهني عندما فوجئ بتغير لهجة كلامي معه ، رافعاً الكلفة ، فصرخ «هييه» لكي يخيفني ، ولكنني وببرود أعصاب جلست على الكرسي وقلت :

ـ لا يهمني كل ما ستفعله . . أنت تعرف من أنا ، وأنا أعرف أنك بدري الجربوع . كفانا تمثيلاً ، كل منا على الآخر . . أنا أعرف حقيقتك منذ كنا في المدرسة... نحن صديقان على مدى كل تلك السنوات... صار ماصار ، وعملت ما أردت أن تعمل . . ولكنني أريد معرفة شيء ما ، وأتوق لمعرفته كثيراً . أنا ماذا فعلت ومن ضررت لكي تجلب لي كل هذا البلاء ؟

لعلني قلت هذه الكلمات بحساسية مفرطة ، فاغرورقت عينا بدري بالدموع :

ـ أنت لا تعرف كم أحبك . .

كاد يبكي . .

ـ إنك تحبني حسنٌ . ماهذا الذي فعلته ؟ أتصدق أنت أنني أدعو إلى مجيء خليفة على رؤوسنا ؟

ـ لا أصدق .

ـ وهل تصدق أنني كتبت دعاء على بطن المرأة ؟

ـ لا أصدق . . وماذا أفعل . . أنا أتألم من أجلك كثيراً . . أنت لست الإنسان الذي سيحل به ما حل . . ولكن الصداقة شيء ، والواجب شيء آخر . . أنا الآن على رأس عملي . . لقد وصل سجلك العدلي منذ زمن إلى المخفر . وأنا أعرف أنك زميلي في المدرسة من قبل مجيئي إلى جبل كونت لرؤيتك .

ـ حسنٌ ، لماذا لعبتم عليّ هذه اللعبة ؟ وهل أردت أن أكون شيخاً ؟ مسكتوني عارياً تماما على قمة الجبل وجعلتموني شيخاً غصباً عني .

ـ هذه تدخل ضمن القضايا الوطنية... المصلحة الوطنية العليا تتطلب هذا منا . . وليس من الصحيح أن أحكي لك حتى هذا الكلام . . هذه أسرار دولة . ولكنني أقول لك هذا لأنني أثق بشرفك ووطنيتك . أنا أعرف أنك لن تقول لأحد إن الرائد بدري أخبرني بهذا . . كان يلزمنا في تلك الأثناء شيخ . دلنا البيك عليك . عندما فهمت أنك صديقي وافقت ، ثم وافق عليك السيد برهان . . ولكن من أين لنا معرفة أنك ستحطم تلك الاصنام ياأخي ؟

ـ أية أصنام حطمت ؟

ـ ما الذي ستفعله اكثر من ذلك ؟ لن يعطي أحد صوته للسيد برهان ، محقت الرجل . . جعلت صديقنا برهان البوق في وضع لن يحصل فيه على صوت واحد من دائرته الانتخابية التي ينجح فيها منذ سنوات طويلة . خربت الدنيا . . حتى إن وضعي قد اهتز...

ـ ماذا عملت يا هوه ؟

ـ ولاه ، حتى الآن تتجاهل الأمر . . لولا أن أتاني الخبر من أنقرة ، فأنا أيضا لا علم لي... اشتكى عليك القرويون إلى أنقرة . . يا أخي ، وهل يُقال لهؤلاء الناس : ستوزع عليكم أراضي وسيُعمل لكم إصلاح زراعي ؟ هل يقال هذا لهؤلاء ؟

قال بحدة أكبر :

ـ قالوا إنك قلت لهم إن السيد برهان سيوزع عليكم أراضي إذا أعطيتموه

أصواتكم ونجح في الانتخابات . .

قلت :

ـ وهل أسأت بهذا ؟

ـ لم أكن أعرف أنك حمار إلى هذا الحد . . أراضي من ستوزع ، وعلى من ؟

ـ أراضي البيك... وهو قال لي بالحرف الواحد : «أنا مع الإصلاح الزراعي . آه لو اشترت الدولة مني هذه الأراضي ، ووزعتها على الفلاحين ، وتخلصت من هذا المكان... أذهب إلى اسطنبول ، وأشتري بثمنها أبنية ، وأعيش من إيجاراتها مثل بيك حقيقي . . آه مما أعانيه في هذه الأراضي القاحلة . . » .

ـ ولاه ، وضَعَكَ البيك موضع رجل فأعطاك سره . . بالطبع هو يريد الإصلاح الزراعي وهل من السهل العمل مع هؤلاء المهابيل والدببة ؟... سيبيع أراضيه للحكومة ، ويتخلص من هذا البلاء . . ويذهب إلى اسطنبول ليعيش على هواه . . ولكن هذا ما يفكر فيه بداخله . . وهل يعلنه ؟ . . هل يقول للفلاحين سأعطيكم أراضي ؟ لايقول . ولا في أي وقت سيقول هذا...

تخربط عقلي تماماً . ماهذا العمل ؟ بيك صاحب قرى يؤيد الإصلاح الزراعي ، والفلاحون الفقراء الذين سيتملكون أراضي من هذا الإصلاح الزراعي يعارضونه . .

ـ حسن ، ولكن المرشح الآخر يجوب القرى ، ويعلن أنه من مؤيدي الإصلاح الزراعي...

ـ ليقل . . لنر إذا كان سيأخذ صوتاً واحداً ؟ . . لن يأخذ . .

ـ مادام الأمر على هذا النحو ، فلماذا كل هذه الجرائد تكتب مطالبة بالإصلاح الزراعي ؟

ـ الجرائد تكتب . . لكلٍ عمله في هذا العالم . . وعمل الجريدة هو الكتابة . . لماذا دخلنا إلى الديمقراطية ؟ لهذا السبب . . ليحك كل شخص

ما يفكر به . . يجب أن يقول أحدهم : ليطبق الإصلاح الزراعي ، والآخر يجب ألا يطبق . . عندئذ تتحقق الديمقراطية . . وهل يمكن أن تكون الديمقراطية بغير هذا يا أهبل ؟ ولاه ، أنت أيام المدرسة كنت مثل الجان . . وهذا يعني أن مخك فيما بعد صار مثل البيتون . . ياهوه ، كيف صرت مع قلة العقل هذه محتالاً ، وخدعت كل هؤلاء البشر وصرت صاحب سوابق . تفو! . . ولاه إذا كان القرويون لايريدون أرضاً ، فهل تعطيهم إياها بالقوة ، الجماعة لايريدون...

نعم ، صرتُ أفهم الآن . . عندما قلت لهم : « إذا نجح السيد برهان ، فسيسن قانون توزيع الإصلاح الزراعي » ، نظروا إليّ نظرة عداوة ، وما حكوا كلمة واحدة . هذا هو السبب . . حسنٌ ، ولكن لماذا لا يريد هؤلاء أراضي ؟

ـ لايريدون ، بالتأكيد . . من سيعطي هؤلاء الأرض ؟

ـ الدولة...

ـ الدولة ؟

ـ الحكومة . .

ـ الحكومة آآآ... ياهوه ، إذا ملأت الحكومة حضنها بالذهب ، وقدمته للفلاحين ، فلن تجد فلاحاً واحداً يأخذه... لأن هذا الفلاح يعرف أنه سيأكل الخازوق بعد هذا... سيقول : « ستعطيني ذهباً ، ولكن من يدري ماذا ستأخذ مني بالمقابل ، بعد هذا ستجعلني أنزف من أنفي الحليب الذي أرضعتني إياه أمي . . » الجماعة أصحاب تجربة على مدى سنوات طويلة ، لايثقون بالحكومة... سيقول : تعطيني خمسة دونمات من الأرض ، ثم تبكي أمي عليّ... الجماعة يخافون . . إنهم يفكرون بأنه إذا كانت الحكومة ستوزع أراضي فلابد أن وراء هذا أمراً ما... هل فهمت الآن هذا ؟ البيك سيرقص إذا باع أراضيه للدولة ، ولكن لا يقول هذا للفلاحين أبداً . يضغط على الحكومة بشكل سري من أجل الإصلاح الزراعي ، ولكن لايريد إظهار هذا . . فيما بعد عندما يطبق الإصلاح الزراعي سيشكو همه للفلاحين قائلاً : « ماذا أفعل ؟

أخذت مني بالقوة هذه الأراضي التي بقيمة الذهب دون مقابل» . .

ـ أعمال دقيقة . .

ـ نعم ياه ، أعمال دقيقة... وهل ظننت أنه من السهل على الإنسان أن يصير قائد درك! يا لما نفعله نحن هنا يابني... قيادة الدرك لا تعني إلقاء القبض على مواطن لأنه نظر نظرة سيئة إلى لوحة المخفر ، وضَرْبه علقة فقط . .

ـ أريد أن أسألك سؤالاً ، أنت شخصياً هل تؤيد قانون الإصلاح الزراعي ؟

ـ بالتأكيد . . كيف ينهض هذا الفلاح المسكين إذا لم يُعمل هذا . .

ـ أنت تؤيد قانون الإصلاح الزراعي ، والبيك يؤيده ، والفلاح في الحقيقة يؤيده أيضاً . . الجميع يريدون الإصلاح الزراعي . ولكن لأنني صرّحت بهذا ، فما بقي بلاء إلا ونزل عليّ . أنا أفهم وضع الفلاح ، إنه لا يثق بالحكومة ، ولأنه يعرف أن الحكومة والبيك في طرف واحد ، لا يجرؤ على القول بشكل علني إنه يريد الأرض . ولكن ما السبب الذي يجعل البيك يبدي نفسه أنه لا يريد الإصلاح الزراعي على الرغم من أنه يريده ؟

ـ ياهوه ، هذه مساومة . يبدي نفسه أنه لايريد بيع أراضيه للحكومة ليرتفع سعرها قليلاً . وهل تظن أن هذه المنطقة هي (إيجة) أو (تشكوروفا) . . أراضيها خصبة تموج بالحياة ، لايريد ملاكوها الكبار بيع أراضيهم .

فهمت كل شيء .

ـ والآن ، أين خلاصي ؟

ـ لم يعد لك خلاص بعد الآن . . أنت احترقت . .

في هذه الاثناء قرع الباب . تغيّر وجه بدري الجربوع فجأة ، أصبح أقسى .

ـ انهض! الواجب شيء ، والصداقة شيء آخر . . انتهى وقت الصداقة . والآن بدأ وقت المهمة . . انهض ولملم نفسك ولاه...

نهضت مطأطئا رأسي ، وبعد أن أنّبني جيداً ، صرخ بصوته المشابه لزمور السفن ، والذي لا أعرف من أية منطقة من جسمه الضئيل يخرج :

ـ ادخل...

قال للدركي الذي دخل :

ـ خذوه إلى الادعاء العام .

وهكذا انتهت قصتي مع المشيخة ، ونشرت كافة الصحف صوري ، وكتبت : « يكاد الناس يسحقون المحتال الشهير صاحب السوابق باشازادة ، عندما ألقي القبض عليه وقد انتحل شخصية شيخ من سلالة الرسول يحرِّض القرويين المساكين ضد الجمهورية وثوراتها ، ويكتب دعاءً على بطن عاقر ، وقد أنقذه الدرك . . » .

أنا من جماعتنا

يُحدثُ الصوت صدى قوياً في ممر مهاجع المحجر الصحي المرتفع السقف . صوت فكرت الملخبط المخنوق ، يقلق الإنسان بشكل مزعج . منذ مجيء باشازاده ، وفكرت الملخبط الذي يجوب كافة أقسام السجن ، صار يمر على مهاجع المحجر الصحي عدة مرات في اليوم . في بداية مجيء باشازاده لم يكن يصرخ هكذا بصوت مرتفع . يأتي ، يتهامس مع باشازادة ، ويذهب . ولكن بعد مجيئه بعدة أيام ، عاد إلى صراخه القوي لبيع مابين يديه من سلع . استنتجتُ بإحساسي أن سبب رفعه صوته هو عدم تبقي ما لدى باشازادة للبيع . على الرغم من حديثهم همساً ، كنت أفهم ما يدور بين باشازادة ، وفكرت الملخبط . كان يريد باشازادة أن يبيع أغراضه في الأقسام الأخرى ، ولا يبيعها في المحجر الصحي . لأنه لايريد فضح إفلاسه . وأظن أنه يخجل مني على الأكثر . لعله كان يظن أنني إذا عرفت بإفلاسه فلن أحترمه .

وحسب ما فهمت مما كان يُحكى في المهجع أن البعض واثق من أن باشازادة دخل إلى السجن وليس معه سوى خمسمائة ليرة ، والبعض الآخر يدعي أن محتالاً شهيراً كهذا عَبَرَ من دائرة نار مصاعب الحياة لا يمكن أن يدخل السجن ومعه خمسمائة ليرة فقط ، لابد أنه يخفي في بعض أغراضه آلاف الليرات . وماهو مؤكد أنهم لايقولون عن باشازادة : « محتال شهير » ، بل يسمونه « محتال عتيق » أو « المحتال المبيض شعر مؤخرته » .

وكان هؤلاء الآخرون يقولون : لولم يكن معه سوى خمسمائة ليرة ، لما دفع كل هذه البقشيشات منذ اليوم الأول للحلاق والحمامي ، وبائع الشاي ، وصبيان الخدمة . فإذا لم يكن معه سواها ، يجب أن تكون قد انتهت في ذاك اليوم... أما الآخرون فيقولون : لضرورة الاحتيال فهو يقدم على صرف هذه النقود . وبالنسبة لهؤلاء أيضاً : « إذا دخل محتال إلى مطعم ، وتناول طعاماً بثلاثين ليرة ، ولم يكن معه سوى خمسين ليرة ، يدفع الخمسين ليرة للنادل بقشيشاً ، ويعمل على الهرب من المطعم دون دفع ثمن الطعام » .

بالنسبة إليّ لا أدري إذا كان قد أسرف باشازادة بصرف خمسمائة الليرة في اليوم الأول لوصوله ، أم لا ، ولكن يجب أن يكون قد صرف نقوده . إثر أحد الأحاديث الهامسة مع فكرت الملخبط طارت قداحة باشازادة المذهبة . في ذلك اليوم أشعل لي سيجارة سركولدوريان بالثقاب وهو أيضاً شرب سيجارة أخرجها من علبة سركولدوريان . ولكن في هذه العلبة كان يوجد سجائر ريف ، وضعها مسبقاً . وبعد أيام من هذه الحادثة صار يشرب أنصاف السجائر . كان يقول : إن السجائر باتت تؤثر كثيراً على صحته ، وصار يسعل منها ، لذلك فهو يشرب أنصاف السجائر . لكنني فهمت الحقيقة . انتهت نقوده ، ولم يبق لديه إلا القليل مما سيجعل الملخبط يبيعه له . لهذا السبب فهو مضطر للاقتصاد ، فصار يشرب نصف سيجارة بدلاً من واحدة كاملة .

في تلك الأيام كان فكرت الملخبط يحكي مع باشازادة همساً ، ولم يكن ينادي بأعلى صوته في ممر مهاجع المحجر الصحي لبيع سلعه . هذا لأنه يظن أن ثمة سلعاً كثيرة ستخرج من حقيبة باشازادة ليبيعها ، فلم يُزعله . لم أكن متأكداً من هذا الأمر ، ولكن كنت أدرك هذا .

عندما بيّع باشازادة حقيبته ، فلم يعد يحترمه فكرت الملخبط ، ولو كان هذا الأمر لمجرد المجاملة . لأنه كان سابقاً يخاطبه قائلاً : « ياسيدي باشازادة » ، ولكن بعد مدة صار يناديه : « عجوز » ، أو « ولاه عجوز » ، ثم

إن الملخبط لم يعد يحكي همساً كما في السابق عندما يدخل حجرتنا ، بل يحاسب باشازادة في المبيعات بصوت مرتفع . في هذه الأثناء يضطرب باشازادة ، ويحاول أن يغمز له ، ويشير إليه أن يسكت ولكن الملخبط يتظاهر بعدم الملاحظة ، ويحكي بصوت أعلى لكي يفضح باشازادة ، وكان أحياناً يضطر للخروج من الحجرة . كان الملخبط يعمل على الانتقام لانسحاقه ، من باشازادة ، ويجب أن تكون أول مبيعات باشازادة ، من أجل تأمين ثمن الفراش واللحاف اللذين جلبهما له فكرت الملخبط .

كان فكرت الملخبط يقدح بصوته المخنوق الممزوج بكحّات مرضيّة ، منادياً بلغة مسجوعة في ممر مهجع المحجر الصحي الطويل :

ـ اخوتي الحرامية المنحوسين! أصدقائي النشالين! رفاقي المحتالين! متكاتفي قطّاع الطرق ، ومزوري العملة ، وحملة المنشتر ، ولعيبة الثلاث ورقات الرصيفيين . جاء فكرت الملخبط يا أعزائي . . يا أعزائي الليليين! يا صبياني المتكبرين . . يا مدمنين ، وبائعي الأبيض . . يا حشاشين ، ومدخنين ، وضاربين أمورهم عرض الحائط ، ومستهترين... ليسمع الجميع . . لئلا يقولو فيما بعد : ماسمعنا . . أنا عملت ما علي . . انهضوا جاء فكرت الملخبط . . هذه أشياء أرخص من المجان . انظروا فإننا لا نأخذ من أجل النظر نقوداً يا أخوتي . . من يريد معطفاً كهذا ؟ معطفاً كهـ . . . . ـذاااا . .! هذا المعطف يجعل شباطاً ، آباً! هل يوجد من يريد معطفاً كهذا ؟

اضطرب باشازادة فور سماعه صوت فكرت الملخبط المخنوق ، خاصة عندما عرف أن ما يبيعه هو معطف . عندئذ كان يحكي معي . نهض . رسم على وجهه ابتسامة مصطنعة ، ولكن مع ألم شديد ، وخرج من الجناح قائلاً :

ـ عن إذنكم ، اسمحوا لي بدقيقة من فضلكم . . .

عندئذ كنت أسمع حديث فكرت الملخبط مع أحدهم بصوت عال في الممر . .

ـ خذ هذا المعطف يا آغا . . تفصيله وخياطته فقط خمسمائة ليرة...

ـ معطف من هذا ولاه ؟
ـ معطف باشازادة . فرّغنا بالأمس حقيبة العجوز ، والآن نبيع المعطف .
كانا يتكلمان بصوت عال على هذا النحو بشكل خاص من أجل إغضاب باشازادة وجرح شعوره .
عندئذ خرج باشازادة إلى الممر . ابتعدت الأصوات والضحكات الساخرة .
مع مرور الوقت صار باشازادة يشد انتباهي بشكل أكبر . كانت لديّ رغبة ملحة لرؤية وجهه الحقيقي . ولكن أي وجه من وجوهه هو وجهه الحقيقي ؟ هل يوجد له وجه حقيقي كهذا ؟ كان من خلال أحاديثه معي ، وما حكاه لي يعمل على إظهار نفسه رجلاً شريفاً في الواقع ، ونزلت على رأسه بليات عديدة . وتصرفه هذا أكثر ما يثير تفكيري . وكأنه بهذا يقوم باحتيال من نوع آخر . لعله إلى جانب انتحاله شخصية القاضي والضابط ، وحتى المجنون ، ينتحل الآن أمامي شخصية الرجل الشريف . وقصة انتحاله شخصية المجنون هي أكثر قصة أثارت تفكيري بين قصص انتحاله كلها . هل شخصية المجنون تلك هي مُنتحلة ، أم كما ورد في تقرير مشفى الأمراض العقلية أم ، أنه مريض نفسي وقع في عقدة جمع أموال كثيرة لهذا لايستطيع التوقف عن الاحتيال ؟ على الرغم من كونه محتالاً شهيراً صاحب سوابق لكنه يدعي أنه لم يُقدم على أحدها إرادياً . فقد دُفع بالقوة إلى عمليات الاحتيال تلك دون إرادته . والمذنب ليس هو ، بل المجتمع . لأن كافة الطرق غلِّقت في وجهه ، ولم يبق أمامه إلا طريق وحيد مفتوح ، فاضطر للذهاب من ذلك الطريق الوحيد .
ومن بين كافة عمليات الانتحال حبه لانتحال شخصية المجنون تجعلني أشك أكثر في أنه مجنون لديه عقدة حب جمع المال .
عندما توضع كلماته التي كان يقولها في الماضي إلى جانب كلماته وتصرفاته التي قام بها فيما بعد ، تكتسب تلك الكلمات معنى جديداً . عندما

حكى لي قصة طرده من المدرسة ، فقد قال إنه حتى في أيامه تلك التي لم يكن لديه فيها أي أمل ، لم ييئس ، وفكر بأن هذه المدينة الكبيرة ستكون في يوم من الأيام له ، وإن لم تصبح كلها له ، فإن جُزءاً منها سيكون له . وقد عبّر عن شعوره بهذه العقدة عدة مرات ولو بأشكال مختلفة . كلما خرج من السجن يعزم على أن يكون غنياً ، ولم يسقط في اليأس أو اللامبالاة . وقال أيضاً إن شعوره بالغنى هذا كان يزداد قوة في كل مرة يخرج فيها من السجن . وجدت كلامه هذا طبيعياً عندما قاله أول مرة . ولكن عندما كرر هذا كثيراً ، وعندما حكى عن عقدته هذه ، وازدياد قوتها في كل مرة يخرج فيها من السجن ، فما وجدت مناصاً من الربط بين التقرير الصادر عن مشفى الأمراض العقلية ، وبين شعوره هذا .

مرة أخرى حكى لي عن شعوره هذا عندما خرج من السجن بعد أن نام بتهمة انتحال شخصية ، على النحو التالي :

« كنت مهلهلاً ، ولكنني سرت كالملوك في أحد اكثر الشوارع ازدحاماً . لأن هذه المحلات الفخمة ، والأبنية المصطفة على جانبي الشارع ستكون في يوم ما لي . ألا يقولون إن هذا المسمى قطاراً قبل أن يقلع إلى الأمام يتراجع عدة أمتار إلى الخلف ؟ . . وإن الذي يريد أن يقفز أو يجري بسرعة يتراجع عدة خطوات إلى الخلف ثم ينطلق ؟ . . إن هذه البليات التي كانت تقع لي هي الخطوات التراجعية من أجل القفز إلى الأمام . . إلى المقدمة . . » .

عندما كان يحكي لي هذا كانت تقدح شرراً عيناه ذات الحدقتين اللتين تشبهان رأس الإبرة وسط الدائرتين الواسعتين المشعرتين والظليلتين ، كان شرر عقدته ، ينعكس في حدقتيه . وتتسارع حدقتاه المتحركتان بشكل دائم أكثر فأكثر . عندما تبرق بعقدة كهذه .

في إحدى المرات قال لي : « في بعض الأحيان ، عندما لا يكون في جيبي مايكفيني لإملاء بطني ، أقف أمام المحلات الفخمة تحت الأبنية الكبيرة وأضع

يدي في جيبيَ الفارغين ، وأفكر بشكل جديّ فيما إذا كنت سأشتري في المستقبل هذه المحلات أم لا » .

يجب أن يكون بين المساجين من ظفر بنجاح ما . أما باشازادة فما حظي بالغنى ولو لفترة قصيرة . وعندما سألته عن سبب هذا أجابني قائلاً :

« الفرق بين المحتال والإنسان الناجح الغني ، هو أن المحتال قد قُبض عليه لحظة وصوله إلى نقطة النجاح ، أما الناجح فلم يُقبضْ عليه أثناء قيامه بالاحتيال » .

لم يصبح غنياً لأنه حسب رأيه ، لم يعمل احتيالاً حقيقياً في أية فترة ، بل دُفع إلى الاحتيال خارج إرادته .

كان شذوذه الوحيد هو سيطرة فكرة الطريق الوحيد عليه . هذا الشذوذ دخل إلى أحلامه في عهد شبابه ، وبقي على مدى حياته تحت تأثير هذا الحلم . أو أن فكرة الطريق الوحيد فكرته التي تمسك فيها ، وهكذا لايعد نفسه فرداً مذنباً ، بل يرى أن المجتمع الذي غَلّقَ في وجهه كافة الطرق ، ولم يترك إلا هذا الطريق مفتوحاً هو المذنب .

هل كان ينتحل شخصية الرجل الذي تعرَّض بشكل دائم للظلم ساعياً إلى خداعي ؟ ولكن لِمَ سيخدعني ؟ ليس له أية مصلحة لدي... وليس من المؤكد أنني سأجعل من حياته كتاباً . لا أعتقد أنني أشرت له بهذا . ماذا يمكن له أن يأخذ مني إذا احتال علي ؟ فكرت بهذا كثيراً ، وفي النهاية وجدته ، أو ظننت أنني وجدته . كان يأخذ مني مقابل احتياله عليَ احتراماً! كنت أحترمه . لم أنظر إليه كمحتال ما ، بل أنظر إليه كمسكين وقعت على رأسه كل هذه البليات بسبب مصادفات المجتمع اللا منظم . أي كان يريدني أن أنظر إليه هكذا . لهذا السبب كان يحتال عليّ بشكل مختلف . ... أو هل كان يفعل هذا ؟ لست متأكداً من هذا . وكثيراً ما كان يعرِّج على ذكر المآزق التي سقط فيها . عندما حكى لي كيف صار شيخاً على رأس الجبل ، قال لي عن لسان البيك :

« وهل كنا نغني في الطاحونة منذ الصباح حتى الآن ؟ لماذا قدمناك كمثال يا أحمق ؟ ولاه ، لأنك وقعت في المأزق الذي لا مخرج منه ، فستلفق كذباً ، وتصدق نفسك » .

هل ثمة بيك كهذا في الحقيقة ؟ هل هو بيك ؟ هل تكلم هكذا ، أم لفق عن لسانه هذا ـ أو أَبْدَعَهُ ـ أم أن هذا بيك يتكلم بلسان باشازادة ؟ ومن الممكن ألا يكون ثمة بيك كهذا . ولعل حادثة المشيخة كلها من تلفيق باشازادة . ولكن كيف يمكن تلفيق حادثة كهذه بكل هذه التفصيلات وكل هذه الحقائق ؟

نعم ، ثمة جزء حقيقي خفي ضمن مايحكيه ولو كان كذباً . ولكن الحقيقة هي أنني لا أريد الاستماع إلى كذبه ، وأنا أعرف أنه كذب .

بسبب اشتباهي بأنه يكذب علي قررت الابتعاد عن باشازادة . ولكن في يوم ما أثار عواطفي بعبارة له . كان ذاك اليوم يوم زيارة . كانت تقرأ أسماء المزارين . كان باشازادة يجلس القرفصاء أسفل جدار بجانب الحمام . وثمة عدد من الأشخاص هناك . كنت في الخلف . لم يرني باشازادة ، ولاشعر بوجودي . كان أحد المساجين واقفاً على درجة يقرأ أسماء المزارين . خرج الرجل بعد أن قرأ القائمة . قال أحد المساجين هناك لباشازادة :

ـ أما أتى أحد من جماعتك يا باشازادة ؟

كان باشازادة يرسم خطوطاً بعود ثقاب على التراب أمامه ، ودون أن يرفع رأسه قال عدة مرات متسائلاً :

ـ من جماعتنا ؟ من جماعتنا ؟

ثم رفع رأسه ونظر إلى السائل ، وقال :

ـ أنا موجود... أنا موجود من جماعتنا .

من الممكن إيجاد هذه العبارة أنها ليست هامة ، ولكنها أججت عواطفي كثيراً عبارة باشازادة المجردة هذه . شعرت بشفقة مخيفة . عندئذ تذكرت عبارات كان قد حكاها عن نفسه سابقاً :

« في أغلب الأحيان ـ أو على الأصح ، دائماً ـ أشفق على نفسي . وأشفق على نفسي وكأنني أشفق على شخص آخر . كأنني أصير شخصيتين . الأولى هي الشخصية التي يجب أن أكونها ، والثانية هي الشخصية الحالية التي لم أرد أن أكونها أبداً... وكذلك الإنسان الذي أتوق أن أكونه ، أو يجب أن أكونه ، يشفق على الإنسان الحالي الذي صرته » .

انتحال شخصية ضابط

بعد أن طُردت من المدرسة ، كنت لا أريد مواجهة زملاء صفي ، فهم انتقلوا إلى الكلية الحربية وصاروا ضباطاً . لو حسّنت وضعي قليلاً ، ولو كان لي دخلٌ أو عملٌ مضمونٌ ، فبالتأكيد أود لقاء أصدقائي . فأنا أتجنب رؤيتهم حتى أصل إلى وضع كهذا .

كنت أطرق كل الأبواب من أجل إيجاد عمل . وليكن مايكون هذا العمل . كان الوقت شتاء . الجو بارد جداً . الطرقات مليئة بالثلج الممزوج بالطين . ولأن أرض حذائي مثقوبة كانت تدخل مياه الثلج إلى قدمي . داخل حذائي يصدر صوت : جق ، جق . .

سمعت أحدهم ينادي باسمي من الخلف . التفت . ومع التفاتي اضطربت ، ولم أعد أدري ماذا أفعل . كان الذي يناديني زميلي في المدرسة رجائي المتذبذب .

كان زملائي عندما يلتقونني في الشارع يتظاهرون بعدم رؤيتي . وأنا أعمل على التظاهر بعدم رؤيتهم ولأن رجائي ناداني باسمي فلم أستطع التظاهر بعدم رؤيته . جاء من خلفي ووضع يده على كتفي ، ثم تعانقنا . في الحقيقة لم أكن آمل بتصرفه القلبي هذا . لم أرتح له في أي وقت عندما كنا في المدرسة ، لأنه كان ولداً مصلحياً ماكراً . وكان يعتني بهندامه عندما كنا في المدرسة ، لايعجب بالألبسة التي توزعها المدرسة ، بل كان يفصّل عند خياط خاص بزّة

ومعطفاً من قماش أفضل من قماش المدرسة بكثير . كان سبب ندائنا له باسم المتذبذب ، انه يقوم ببعض أعمال الخدمة في المدرسة بشكل طوعي . كان لديه صديقات وعشيقات ، ويحكي لنا عن تغييره لعشيقاته بشكل مستمر ، فمن الممكن أن يكون هذا سبب ندائنا له المتذبذب ، ومن الممكن أن يكون هذا الأسم لصق به لأنه يناسب اسم رجائي* . وهو لايغضب من لصقنا هذا اللقب به ، لأن الجميع كانوا يُنادَون بألقابهم ، بل هو على العكس كان مسروراً لهذا اللقب . كان يستخدم الاسم المستعار «المتذبذب» في توقيعه على دفاتر ذكريات طالبات ثانوية البنات المذهبة الأطراف ، والمجلدة .

هذا أول لقاء برجائي المتذبذب بعد فصلي من المدرسة . يجب أن يكون ضابطاً . قلت له :

ـ أنت تلبس ألبسة مدنية . .

ـ لأنني مدني .

وقبل أن أسأله ، قال لي إنه طُرد من المدرسة بعد طردي منها بفترة قصيرة . وحسب ما فهمت من كلامه ، أنه وجد طريقة حصل فيها على إحالة إلى المشفى من عيادة المدرسة على الرغم من عدم مرضه ، وحصل على تقرير نقاهة من الهيئة الصحية للمشفى ، وإذ بهذا التقرير من تنظيمه . عندما عرفوا بالتزوير والتغيير الذي أجراه على التقرير الرسمي طردوه من المدرسة دون رحمة أو شفقة . هذا يعني أنه مدني منذ ثلاث سنوات تقريباً . لم أقل له شيئاً .

قال :

ـ أنا لست مهيأ لأكون ضابطاً . لكنني حزين من أجلك .

بما أن ألبسته جيدة فهذا يعني أن أحواله على مايرام .

أمّا أنا ، فلأن حذائي ملآن بماء الثلج ، كلما دست على الأرض يصدر

* كلمة المتذبذب هي ترجمة لكلمة (هرجائي) التركية ـ فارسية الأصل ـ وكما يلاحظ ثمة علاقة لفظية بين رجائي وهرجائي... المترجم .

من تحت قدمي صوت : جق . ألبستي مهترئة . ولأنني في وضع مخجل أردت تركه بسرعة . كنت أستطيع تركه متذرعاً بعمل مستعجل . نعم ، هكذا . . ماذا أقول ؟ لو كنت قد استطعت ترك رجائي المتذبذب فمن الممكن أن تتغير حياتي كلها . ولكن من يعلم أن لقاءً لمدة خمس دقائق بصديق ما يغيّر مستقبل هذا الإنسان كله ؟ أمسكني من ذراعي . لم أستطع سحب ذراعي والذهاب في طريقي . سيكون من الفظاظة عمل هذا مقابل هذه الحميمية التي قابلني بها . لم أستطع سؤاله عن عمله خوفاً من أن يسألني عن عملي . كان هو الذي يتكلم على الأكثر . قال :

ـ هيا . . لنذهب إلى البيت .

عندما لم أنبس قال :

ـ لنشتر لك حذاءً في البداية ، ثم نذهب إلى البيت...

لم أستطع أن أقول له : لا . ولا نعم . ولكنني شعرت بحرارة في وجهي . كنا نسير من أمام واجهات المحلات . وقفنا أمام واجهة محل أحذية كبير . سألني :

ـ هل يوجد ما يعجبك في هذه الواجهة!

ولكي أقول شيئاً فقط ، قلت :

ـ شكراً ، لا تهتم لهذا الأمر . .

قال بلهجة الصديق القديم :

ـ ما عدم الاهتمام هذا ولاه ؟ اختر واحداً! . .

أشرت إلى أحد الأحذية وقلت :

ـ لا أدري ، هذا جيد على ما أظن . .

إثر هذا تأبط ذراعي من جديد ، ومشينا . فكرت أنه يسخر مني . كان ينظر إلى واجهة كل دكان من دكاكين الأحذية التي نمر أمامها . استعرضنا الأحذية الموجودة في عدة واجهات . ثم أشار إلى حذاء في واجهة محل ، وقال :

ـ انظر أليس هذا مثل الحذاء الذي اخترته قبل قليل ؟
كان مثله تماما . قلت :
ـ الموديل نفسه .
سألني عن قياس قدمي . قلت :
ـ اثنتان وأربعون
قال :
ـ سندخل الآن إلى هذا الدكان . قف أنت خلفي ، وأجبني بأمرك يا سيدي على كل ما سأقوله لك .
دخل إلى المحل . قفز البائع قائلاً :
ـ تفضلوا . .
قال لي رجائي المتذبذب بقسوة :
ـ انتظر هناك!
قلت له :
ـ أمرك يا سيدي .
ووقفت في المدخل بعد الباب مباشرة .
أشار للبائع على الحذاء الذي اخترته في الواجهة ، وقال :
ـ اخرجوا هذا...
أخرج البائع من أحد الصناديق المرصوفة على الرفوف شبيه ذلك الحذاء . قال رجائي :
ـ كم القياس ؟
ـ أربعون .
ـ هل يوجد قياس اثنتان وأربعون ؟
ـ يوجد يا سيدي .
أخرج البائع حذاءً قياسه اثنتان وأربعون .
ـ اعطني اللون البني .

أخرج البائع حذاءً بنياً
ـ هات الأفتح قليلاً .
بعد أن فتح البائع عدداً كبيراً من الصناديق أخرج الحذاء البني الأفتح .
تفقد الحذاء جيداً ، بعد ذلك قال :
ـ ألا يوجد مثله ، بجلد أنعم .
ـ هذا ناعم ، ولكن يوجد لدينا أنعم
أخرج الأنعم .
خجلت من العذاب الذي عذبه للبائع ، قلت بيني وبين نفسي : «لعنة الله على النقود . . سيعمل لي جودة ، لكنه سيجعلني أخرج الحذاء من أنفي» .
هذه المرّة سأله :
ـ أيوجد مثله ولكن على تزيينات أكثر ؟
قال البائع :
ـ يوجد يا سيدي . .
أظن أنه إذا طرح مطلباً آخر ، سيضربه البائع بالحذاء ، ويطردنا .
أخرج من أحد الصناديق التي على الرفوف واحداً أكثر تزييناً . أخذ رجائي الحذاء ، وقلّبه ، ونظر إلى أسفله ، وأعلاه ، وبعد برهة سأله عن سعره . بعد هذا دخلا مساومة عنيفة جداً . لقد عمل مساومة كادت تجعلني أسقط مغمياً علي ، لأنني أكره المساومة . في النهاية اتفقا .
عندما قال له :
ـ سأشتري هذا الحذاء لأبي . .
دهشت . أما كان سيشتري الحذاء لي ؟! . .
وتابع قائلاً :
ـ أبي مريض ، نائم في البيت . . لا يستطيع الخروج إلى الشارع . سنأخذ هذا الحذاء ـ وأشار إلي ـ وليأخذه خادمنا إلى البيت ليراه أبي ، ويقيسه على قدمه ، إذا وافقه ، سيأتي رجلنا هذا ويأخذ الفردة الثانية . .

وقبل أن يدع للبائع فرصة للإجابة ، قال :
ـ خذ فردة الحذاء هذه ، واركب سيارة أجرة بسرعة ، وخذها لأبي!
قلت :
ـ أمرك يا سيدي...
قال للبائع :
ـ صرّوا هذه الفردة .
وقال البائع مثلما قلت أنا :
ـ أمرك يا سيدي...
أخرج محفظة نقوده ، وسأل البائع :
ـ كم سأترك لك ؟
قال البائع :
ـ عندما تأخذون الفردة الأخرى تدفعون .
قال لي :
ـ خذ الصرة!
قلت :
ـ أمرك يا سيدي...
وأخذت الصرة من الفتاة العاملة على الصرّ هناك .
ثم قال :
ـ سيأتي رجلنا هذا بعد أقل من ساعة .
قال البائع :
ـ ما الضرورة للعجلة يا سيدي ، لايهم حتى لو بقي إلى المساء .
خرج هو في المقدمة ، وتبعته أنا .
بعد مرور لحظات على هذا الحديث ، قال :
ـ سنجد أهبلاً يعطينا فردة أخرى .
لف صرة الحذاء جيداً بجريدة اشتراها من بائع الجرائد .

ذهبنا إلى بائع الأحذية الذي وقفنا عند واجهة محله في البداية . دخلنا . وعمل ما عمله في المحل السابق تماماً . وقام بكثير من الحركات ليبدي نفسه غير معجب بالحذاء . كاد أن يُخرج روح بائع الأحذية . لعل هذا ليس مجرد بائع ، بل هو صاحب الدكان . ثم دخل عملية مساومة صعبة . عندما اتفقنا على السعر ، وطلب أن يجرِّب والده المريض في البيت هذا الحذاء . ناول البائع الفردة اليمنى لعامل الصر . قال :

ـ اعطونا اليسرى . لأن في قدم والدي اليسرى زائدة لحمية ، فإذا وافقته اليسرى ، لن يكون هناك مايزعجه في اليمنى .

التفت إليّ مجدداً ، وأمرني :

ـ خذ الصرّة .

قلت له :

ـ أمرك يا سيدي .

وأخذت صرة فردة الحذاء .

كرر الكلمات نفسها :

ـ عد بسيارة أجرة بسرعة . . لا تُقلق الجماعة . .

قال الرجل :

ـ أرجوك يا سيدي ، لا ضرورة للعجلة . . ليجلبه مساءً . .

أخرج رجائي محفظته ، لكن الرجل قال إنه سيأخذ النقود عندما نأخذ الفردة الأخرى .

شكره ، وخرجنا من المحل .

اشترى زوجاً من الجوارب من عند بائعها .

انعطفنا نحو زقاق فرعي ، ودخلنا إلى مدخل بناية ، وفي المدخل قال :

ـ اخلع حذاءك ، والبس هذا .

خلعت حذائي القديم المثقوبة أرضه ، وخلعت جواربي المبتلة ، ولبست الجوارب الجديدة ، والحذاء الجديد . تطابقت فردتا الحذاء اليمنى واليسرى .

سأل رجائي البواب الذي خرج فجأة من شقته عما إذا كانت عيادة الطبيب ـ وذكر اسمه ـ في هذا البناء . مدّ البواب يده مشيراً إلى لوحة معلقة على البناء المقابل . فهمت أن رجائي كان قد قرأ لوحة الدكتور هذه ، وسأل البواب عن هذه العيادة ، لكي لا يشتبه بنا .

هذه هي الحسنة التي عملها معي رجائي المتذبذب ، ومن الممكن أن نسميها أول إساءة . وأظن أن هذه الحادثة تكفي للتعريف برجائي هذا ، وزيادة .

كانت ثيابي مهلهلة ، ولكن قدمي مرتاحتان ، أي دافئتان داخل الحذاء الجديد .

قال :

ـ جعنا يا هوه . .

دخلنا إلى مطعم فخم . وطلب أطعمة غالية ، وشربنا نبيذاً .

أثناء الطعام تحدثنا . سألته عما سيفعله لو طلب بائع الأحذية نقوداً من أجل فردة الحذاء .

قال :

ـ كنت سأعطيه . . وبعد ساعتين ، ستعيد له أنت فردة الحذاء ، وستقول له : «ماوافقت فردة الحذاء والد سيدي ، ولايريد غيرها» . وستستعيد النقود .

بالنسبة لرجائي ، لابد من وجود بائع ألبسة شبعان ، سيعطينا فردة الحذاء دون نقود . ليس بائع أحذية واحد بل اثنان .

سألته عن تظاهرة اللاإعجاب ، والمساومة الحادة التي عملها ، فقال : إنه عمل هذا ليقنع الرجل بأنه زبون حقيقي . وإلا سيعرف أننا سنحتال عليه .

طلب الحساب من النادل ، فوضع النادل الفاتورة على الطاولة ، فقال للنادل :

ـ ناد المعلم!

ودون أن ينتظر مجيء المعلم ، نهض ، وأشار إلي بأن أتبعه . دخل إلى مطبخ المطعم . فور دخوله إلى المطبخ بدأ يخربط الأشياء هناك ، ويفتح القدور ، وينظر إليها . بدأ يصرخ :

ـ ما هذه القذارة ؟!

كان كبير الطباخين يدور حول رجائي ، ويتمتم بكلمات غير مفهومة . لكن رجائي يصرخ بدون توقف :

ـ ماهذه القذارة .

جاء الرجل الذي يبدو أنه صاحب المطعم مضطرباً . أغلق باب المطبخ لكي لايسمع الزبائن الموجودون في الصالة . صاح رجائي متجاهلاً المعلم :

ـ يبدو أن جماعتنا في البلدية لا يفتشون هذا المطعم أبداً ؟

قال المعلم الذي اندسّ خلف رجائي :

ـ مطبخنا نظيف دائماً . إنه يتلامع يا سيدي . .

أشار رجائي إلى صرصارين ، أحدهما يسير على الرف ، والثاني على البورسلان الأبيض ، وقال :

ـ هذه ، أهذه هي النظافة ؟

فتح المعلم والطباخ فميهما ، وعيونهما ، وكأن مايريانه في المطبخ فيلاً ، وليس صرصاراً .

قال رجائي :

ـ سننظم ضبطاً .

تأبط المعلم ذراع رجائي قائلاً :

ـ أرجوك يا سيدي .

ـ ستفرض عليكم مخالفة نقدية من جهة ، ونُغلق المحل من جهة أخرى... وسيعلق على الباب قرار البلدية .

صار المعلم يتوسل إليه . المطعم الذي دخلنا إليه قديم . كان صاحبه مستعداً لدفع المخالفة النقدية ، ولكن لا يريد أن يشيّع قصة وجود صراصير

في مطبخه ، سيفتضح أمره . . وكان رجائي يضيف عندئذ قائلاً إن الجرائد أيضاً ستكتب عن هذا الأمر . سأل صارخاً :

ـ أين الهاتف ؟

كان يعرف مكان الهاتف من قبل ، فذهب نحوه دون أن يشيروا إلى مكانه ، أخذ السماعة ، وأدار القرص :

ـ ألو . . البلدية . . البلدية ؟ من يتكلم معي ؟

صار وجه المعلم يتصبب عرقاً . ذهب إلى جانب رجائي وهمس في أذنه . أغلق رجائي الهاتف . تأبط المعلم ذراع رجائي ، ودلفا إلى مكان جانبي معاً . بعد قليل خرجا . والمعلم يقول لرجائي وهو يصافحه :

ـ مع السلامة يا سيدي المفتش .

فقال رجائي :

ـــ مفتش ماذا ؟ أنا لست مفتشاً . . أنا مواطن عادي ، أنا زبون مطعمكم . .

تميّز المعلم غضباً ، ولكن قال محاولاً عدم إظهار غضبه :

ـ أهلا بكم ، تفضلوا على الدوام . .

خرجنا إلى الشارع .

كان قد انعقد لساني دهشة لما حدث . قال :

ـ هيا لنذهب إلى البيت .

البيت قريب جداً . إما أننا لم نتكلم في طريقنا إلى البيت ، وإما أنني لم أعد أذكر ماحكيناه . كان يسكن غرفة في إحدى الشقق الكبيرة في بناء ضخم . كانت صاحبة الشقة امرأة رومية عجوز . سألت رجائي قائلة :

ـ اتصلتم قبل قليل ؟ . . أو أنني شَبهتُ الصوت إلى صوتكم . . لماذا كنتم تصرخون بلدية ، بلدية .

فقال رجائي :

ـ اعملي لنا فنجاني قهوة .

كنا في غرفة جميلة الفرش . قلت له :

ـ صاحب المطعم ظن أنك مفتش بلدية غالباً...

فقال :

ـ هذا ماظنه ، لأنه أعطاني خمسمائة ليرة .

تصور خمسمائة ذاك الزمان...

ـ ولكنك قلت إنك لست مفتشاً .

ـ بالتأكيد سأقول هذا . . هؤلاء السفلة يدفعون الرشاوى ، ولأن لهم معارف من كبار المسؤولين يخبرون عن الموظف ليُقبض عليه .

قلت له :

ـ هذا الذي فعلته أنت يسمى احتيال .

ـ لو كنت محتالاً لانتحلت شخصية المفتش . .

ـ حظك جيد إذ أنك وجدت في المطبخ صرصارين . . لو ماوجدت الصرصارين كنت ستدفع ثمن الطعام...

ابتسم ساخراً ، وأخرج من جيبه علبة كبريت ، وفتحها ، فقفز منها ثلاثة صراصير ، وقال :

ـ يجب ألا يترك الأمر في أي وقت للحظ .

عندئذ فهمت سبب إخراجه سيجارة في المطبخ ، وإشعال السيجارة بعود الكبريت . وبخفة يد ، ألقى هناك صرصارين أخرجهما من علبة كبريت أخرى .

كانت شهادة حقوق في إطار جديد معلقة على الحائط . عندما رأيت صورة رجائي على الشهادة دهشت . نظرت إليها عن قرب ، كانت الشهادة باسمه .

عندما رآني أنظر إلى الشهادة بإمعان قال :

ـ سأستخرج لك شهادة إن أردت .

في هذه الأثناء ، كانت المرأة قد جلبت قهوتنا .

اقترح علي الذهاب إلى مكان ما لنستمتع بوقتنا ، وعلى الرغم من رغبتي الكبيرة لهذا شكرته ، وطلبت أذناً بالخروج وأنا أشعر باضطراب يشبه الخوف . فقال :

ـ تعال إلي في أي وقت تشعر فيه بالضيق ، أو تحتاج فيه شيئاً .

أعطاني نقوداً . لم أستطع التظاهر بأنني لن آخذها . مضى على ذلك اليوم الكثير ، لم أعد أذكر كم أعطاني ، وقبل أن نفترق تعانقنا .

بعد لقائي برجائي المتذبذب بعدة أيام ، قرأت في الجريدة إعلاناً لمصرف يطلب موظفين مديري أقسام ، ومحاسبين ، ومفتشين ، ومعاوني مفتشين ، ومستخدمين . وكل هؤلاء سيقبلون بمسابقة . يجب أن يكون المتقدمون من حملة الشهادة الثانوية للتوظيف في كافة تلك الوظائف ماعدا المستخدمين . وفي هذا الوضع أنا لا أصلح للعمل إلا مستخدماً . نعم أنا أرضى بهذا . ليكن لدي عمل . . المهم بالنسبة إلي أن أخطو الخطوة الأولى . بعد هذا سأمشي ، وفيما بعد سأركض وسأتسلق القمة .

كان حذائي جديداً جداً ، والبستي مهترئة . لو دخلت بهذه الألبسة لما كان لدي حظ بالنجاح . كان رجائي المتذبذب قد قال لي صادقاً ، تعال إلي في الوقت الذي تريد . لأقل بصراحة ، ذهبت إلى رجائي على استحياء بعد أن وجدت كل هذا التغيير قد طرأ عليه بعد مرور ثلاث سنوات . في المرة الأولى التي ذهبت إليه ما وجدته . مررت إليه في الليل . لم يكن هناك أيضاً . انتظرت عند الباب . جاء بسيارة في ساعة متأخرة من الليل . كان سكراناً . حكيت له عن وضعي . سألته إعطائي بدل ألبسة من ثيابه القديمة ليوم واحد فقط لأتمكن من دخول الامتحان ؟ صعدنا إلى غرفته . فتح خزانته ، وقال :

ـ خذ ما يعجبك ، والبسه . . ولاتعده .

الألبسة كلها تكاد أن تكون جديدة . أخرجت بزة ولبستها . أخذت معها القميص وربطة العنق . كان الجو بارداً ، ولكنني خجلت من طلب معطف . . وإذا كان لم يخطر بباله إعطائي معطفاً فهذا بسبب سكره . قال لي

وأنا ذاهب :

ـ اخبرني بالنتيجة .

كان سيُقبل عشرة مستخدمين . تقدم إلى الامتحان أكثر من مائتين . عندما وجدت نفسي سأتقدم معهم إلى الامتحان خجلت أمام ذاتي . لأن أكثرهم إما أنهى الابتدائية ، وإما لم ينهها . وأنا مضطر للدخول إلى الامتحان مع أمثال هؤلاء . في البداية دخلنا إلى امتحان شفهي . نسيت ما سألوني ، ولكن بالتأكيد كان سؤالاً سهلاً . بعد هذا الامتحان الشفهي بقينا حوالي خمسين شخصاً . كنت واثقاً من نجاحي في الامتحان الكتابي . كيف يمكن ألا أنجح في الامتحان الذي أتقدم إليه مع هؤلاء ؟!

أبلغونا أن النتائج ستصدر بعد عشرة ، أو خمسة عشر يوماً .

ذهبت مع رجائي للاطلاع على النتائج . كان رجائي يقول لي : إن ذهابنا للإطلاع على النتائج لا جدوى منه ، لأنني لن أنجح . غضبت منه فقلت صارخاً :

ـ يا هوه ، كيف لا أنجح وقليل جداً من المتقدمين قد أنهى المرحلة الابتدائية ، وعرفت الأسئلة كلها .

ضحك رجائي مقهقهاً ، وقال :

ـ هذا يعني إنك لن تنجح أبداً . . من الواضح جداً أنك رسبت . . أتراهنني ؟ إذا نجحت فلك مني وليمة كما تريد . . وإذا لم تنجح فأنا أدينك بوليمة ستعملها لي في المستقبل عندما يصير معك نقود .

ذهبنا إلى المكان الذي تقدمنا فيه إلى المسابقة ، سألت موظفة كنت قد رأيتها سابقاً هناك عن المكان الذي سنسأل فيه عن النتائج . نظرت المرأة إلى ألبستي المرتبة ، وقالت :

ـ هل تقدمت إلى مسابقة معاوني المفتشين ؟

قلت :

ـ لا .

ولكن لم أقل مسابقة المستخدمين ، فسألتني مرة أخرى :

ـ امتحان الموظفين ؟

قلت :

ـ امتحان المستخدمين .

قالت المرأة :

ـ مع الأسف . لم تنجحوا . .

خرجنا من المصرف . كان دمي قد تجمد . لو ذبحوني لما سالت قطرة دم .

كيف لا أنجح في امتحان دخله معي أولئك الناس ؟ قال رجائي :

ـ هل فهمت الآن ؟

قلت له :

ـ فهمت ، لم أنجح...

قال :

ـ أنا لا أسألك عن هذا . هل فهمت لماذا لم تنجح ؟ يابني أنت لايمكن أن تكون رجلاً بمعنى الكلمة . . شغّل عقلك هذا ياه . . المرأة لاتعرف اسمك ، ولا كنيتك ، ولا تعرف من أنت ، ولا تعرف حتى إذا ما كنت قد دخلت إلى مسابقة المفتشين أو المستخدمين ، كيف عرفت أنك لم تنجح دون أن تسألك عن هويتك وتقول لك : « مع الأسف » ؟

ـ هذه هي الحقيقة ياهوه . . كيف عرفت ؟

ـ يا بني ، أنا عرفت أنك لن تنجح قبل أن تعرف تلك المرأة . . لأن الذين سينجحون معروفون قبل الامتحان . .

ـ إذا كان الأمر هكذا ، فلماذا يعملون هذه المسابقات ؟ ألكي يسخروا منا ؟

ـ لا ياروحي ، لماذا سيسخرون من مساكين أمثالكم ؟ هم يقومون بعملهم ، قانون المصرف ونظامه الداخلي ينصان على عمل مسابقة ، وهم

ينظمون مسابقة . . شخص مثلك يصلح أن يكون مديراً للمصرف ، بالطبع سيرسب في امتحان المستخدمين .

في الحقيقة إن رجائي المتذبذب أعطاني دروساً كثيرة .

كنت حزيناً جداً في ذلك اليوم . لم يتركني رجائي . قال لي :

ـ أنا سأجعلك مديراً لهذا المصرف الذي لم تقبل فيه مستخدماً .

لم أنبس بكلمة .

ذهبنا إلى مصور يعطي الصور بعد التقاطها بعشر دقائق . هناك سحب لي اثنتي عشرة صورة . ثم ذهبنا إلى بيت رجائي . وضع أمامي ورقة . وقال :

ـ اكتب!

هو أملى ، وأنا كتبت .

إلى مديرية ذلك المصرف . . أطلب وظيفة في مصرفكم ، «وأرجو موافقتكم» . ووقعت ، وكتبت عنوان بيت رجائي لكي يردوا عليّ الجواب .

لم يكن لدي أي أمل . ولكن في بعض الأحيان كنت أمرُّ على بيت رجائي وأسأل عما إذا كان قد أتى جواب من المصرف . عند ذهابي للمرة الثانية أو الثالثة . . شيء مدهش للغاية . أتى جواب الاستدعاء الذي قدمته بعد أسبوعين . عندما رآني رجائي قال :

ـ البشارة...

وأعطاني المغلف .

صرت موظفاً في شعبة ذلك المصرف في مدينة إزميت . فرحت إلى حد أنني بكيت وقبَّلْتُ تلك الرسالة . هاهي الخطوة الأولى التي أخطوها . المهم ، الخطوة الأولى . صار بإمكاني أن أمشي خطوة خطوة ، ثم أركض ، ثم أصعد ، وأصل إلى الذروة .

قال لي رجائي المتذبذب ساخراً :

ـ لاتبك ولاه ، قطّعت قلبي .

كيفما كان فهو لا يعرف ما عانيت منه . . وفرحت أكثر لأنني عُينت في

شعبة إزميت . فسأبتعد عن هذه المدينة الكبيرة المزدحمة من جهة ، وهي قريبة من جهة أخرى . . وأستطيع قضاء عطل نهاية الاسبوع في اسطنبول .

وشردت بخيالات أثناء ذهابي إلى إزميت بالقطار تملأ حياة إنسان . لم أتلق أي خبر عن والديّ . وهما أيضاً لا يعرفان عني شيئاً . لم أستطع استجماع نفسي بأي شكل لأكتب لهما رسالة . لأنني لست في وضع يكتب عنه . عزمت على إرسال قسم من أول راتب سأتقاضاه من المصرف إلى والديّ . ومع الزمن كلما تحسن وضعي كنت سأزيد من مقدار النقود التي سأرسلها لهما . وسأستأجر غرفة ، أو غرفةً وممراً وأسكن . سأعمل كثيراً ، وسيعجب بي رؤسائي . وسأدخل امتحان الثانوية حراً . كان رجائي قد سخر مني قائلاً : «انت تتقدم إلى مسابقة المستخدمين في مصرف يجب أن تكون مديره» . ولكن في الحقيقة سأكون في يوم ما مديراً لهذا المصرف . . أية أحلام كنت أحلمها في القطار .

كاد طريق إزميت ألا ينتهي . . تهيأ لي أنها سفرة دامت سنة . وكنت أريد الذهاب إلى البنك والبدء في العمل فوراً . كنت أشعر بأن المصرف على وشك الإفلاس ، وإنني ذاهب لإنقاذه ، وحتى إن المباشرة بتأخير ساعة ، ستوقع المصرف بخسائر كبيرة . .

وصلت عند العصر إلى إزميت . سيُغلق المصرف بعد ساعة تقريباً . لهذا فإن الذهاب إليه لا معنى له . بحثت عن فندق رخيص... رخيص ونظيف . أسكنني كاتب الفندق غرفة بسريرين وأخبرني أن ضابطاً مرشحاً ينام في هذه الغرفة ، وقال :

ـ شاب بعمركم... لهذا السبب أسكنتكم هذه الغرفة . . يأتي عادة عند المساء في مثل هذه الساعة...

حقيقة بعد قليل جاء شريكي في الغرفة الضابط المرشح . وبسرعة شعرت بقرب منه . كان شخصاً قريباً من القلب . وخلال ساعة أو ساعتين تقارب كل منا إلى الآخر . هو أيضاً مثلي مضطر للاقتصاد في المصروف . وقال

إنه مهما كان فالنوم في الفندق ، وتناول الطعام في المطعم يكلف كثيراً . وسألني عما إذا كنت أرغب باستئجار شقة صغيرة بغرفتين بالاشتراك معه ؟ وهذا سيكون أرخص علينا . وعند الضرورة ، نستقبل في البيت ضيفاً ، أو صديقة...

اقتنعت باقتراحه . وحسب ما فهمت منه أنه مهووس بعلاقات الفتيات . . ليكن . . أنا أريد أن أسكن معه في البيت لسبب آخر . سأرتاح في البيت إذ سأخلع ثيابي . وسأجد وقتاً لدراسة الثانوية العامة ، والتقدم إلى امتحانها حراً ، وسنحضّر طعامنا بنفسينا . .

انقلب حظي . ووجدت صديقاً يناسبني . كنت مسروراً إلى حد شعرت فيه أن الدنيا لا تتسع لي . تناولنا طعام المساء سوية في مطعم . ثم ذهبنا إلى غرفتنا . لديه على (الكوميدينة) مجموعة كتب . أخذت واحداً ، وبدأت بقراءته .

قال الضابط المرشح :

ـ أريد منك خدمة ، أرجو أن تلبيها لي .

قلت :

ـ استغفر الله ، تفضل .

لأنه في إزميت منذ ستة أشهر ، فقد تعرف بفتاة ، ويريد أن يقابلها هذا المساء ، ولكن ليس لديه ألبسة مدنية . وهو لايستطيع التجول براحة مع الفتاة عندما يكون لابساً الألبسة العسكرية ، فهل يمكن لي أن أعطيه ألبستي المدنية مدة ساعة ، أو ساعتين هذا المساء ؟

إيه . . ماذا يوجد في هذا ؟ . . خلال عدة ساعات ، صرنا كصديقين مضى على صداقتهما عشر سنوات . وكيفما كان ، سنسكن معاً في بيت واحد . . فقلت له :

ـ بالتأكيد ، إذا ناسبتك خذها والبسها .

خلعت ثيابي وأعطيته إياها . كانت تلك الألبسة التي أعطانيها رجائي

المتذبذب . ولكنها جديدة جداً ، وجيدة . خلع ألبسته العسكرية ، وارتدى ألبستي . ناسبته تماماً . عندئذ فهمت كم كانت الألبسة جميلة علي عندما رأيته يلبسها . كان كل منا يمتلك بدل ألبسة واحد . لباسي مدني ، ولباسه عسكري . .

خرج ، وذهب .

وأنا تمدّدت على السرير وبدأت قراءة أحد الكتب . انتصف الليل ولم يأت صديقي . كنت أحياناً أسرح في الكتاب . فكرت أنني لو سهرت أكثر من ذلك ، فلن أستطيع الاستيقاظ باكراً . كان عليّ أن أذهب باكراً إلى المصرف . أطفأت النور ونمت .

استيقظت باكراً . نظرت ، وإذ بسرير الضابط المرشح فارغ ولم يخرب . ألم يأت ؟ . . فكرت وأنا بين صاح ونائم أنه من الممكن أن يكون قد ذهب إلى قطعته العسكرية باكراً ، ولكن صحوت بعد قليل . إنه لا يستطيع الذهاب إلى قطعته وهو يرتدي ألبستي المدنية ياه... لأن ألبسته العسكرية كانت هناك في الغرفة .

صارت الساعة ثمانية ، ثم تسعة . . الضابط لم يأت . . كدت أجن . . استدعيت عامل الفندق وسألته عنه . قال إنه لا يعرف . صار الوقت ظهراً . ورجلنا مازال غائباً . . نويت أن أقول في وجهه إنني لن أسكن معه في البيت . صار الوقت مساء ولم يأت . . آه لو أتى... إنني لم أعدل عن السكنى معه فقط ، بل سأهوي بقبضتي على وجهه ، وأضربه حتى أخرج روحه . . صار الوقت ليلاً . وأنا سجين في الغرفة . أكلت طعاماً أحضروه لي إلى الغرفة .

في الليلة الثانية لم يغمض لي جفن وأنا أفكر بمجيئه . أه لو أتى... لو حصلت على ألبستي المدنية فسأهرع في الصباح الباكر إلى المصرف الذي عُينت فيه . إلى المصرف ؟ ليس مصرفاً . إنه مصرفي . هذا المصرف بالنسبة لي ليس كأي مصرف . إنه مصرفي .

غمرت زرقة الصباح غرفتي . كانت الشمس تشرق ببطء . قطعت أملي

بمجيء الضابط . فكرت بما يمكن لي فعله . لقد وقعت على رأسي هذه البلية في الوقت الذي انقلب فيه حظي التعيس . عليّ أن أعمل أي شيء لكي لا أفوّت فرصة عملي في المصرف . أي في مصرفي .

حلقت لحيتي ، وغسلت وجهي . وبما أنني لا أستطيع الخروج إلى الشارع بالقميص والسروال الداخليين لبست بزة الضابط المرشح . نظرت إلى نفسي في المرآة المتساقط طلاؤها ، المعلقة على الجدار . لم أكتف بالنظر إلى وجهي في المرآة . رفعت سلسلة المرآة عن المسمار المثبت في الجدار ، وصرت أنظر إلى صدري وخصري ، وكل جزء مني ، وأنا لابس بزة الضابط . ثم أعدت المرآة إلى الجدار . ابتعدت عنها ، ونظرت إلى ساقي وهما داخل بنطال الضابط . مع الأسف أنني لم أر نفسي بشكل كامل في المرآة المتساقط طلاؤها والمكسور طرفها .

كنت مسروراً من ألبستي هذه... ظننت نفسي أنني صرت ضابطاً مثل زملائي . هذا يعني أنني لو كنت مستمراً في الدراسة فسأكون ضابطاً كما أنا الآن .

كنت لا استطيع سجن نفسي في غرفة الفندق . ولا أستطيع الذهاب إلى المصرف ، أي مصرفي الذي عينت فيه بألبسة الضابط . الأفضل أن أركب سيارة بسرعة وأعود إلى اسطنبول . سأجد رجائي المتذبذب ، وأشرح له ما وقع لي . وأرجوه أن يعمل معي جودة أخرى . فإما أن يشتري لي لباساً ، أو يعطيني من ألبسته بزة أخرى ، أو يقرضني نقوداً لاشتري بها ألبسة . إذا سافرت في الصباح الباكر ، فسأحل كل الأمور في يوم واحد ، وأعود في اليوم التالي إلى إزميت . وهكذا أستطيع البدء بعملي في المصرف ، أي عملي في مصرفي بعد تأخير يومين ، أو يوم ونصف .

عندما كنت أدفع أجرة الغرفة لكاتب الفندق ، رجوته إخبار الضابط المرشح الذي أسكن معه في الغرفة ـ أو أظن أنني أسكن معه ـ أن ينتظرني حتى أعود .

فكرت أنني سأصل بسرعة أكبر لو ذهبت بالسيارة . ولكن لم يكن في تلك الأيام سيارات كثيرة ، مثلما الآن... لم يكن هناك رحلات منتظمة في فترات زمنية قصيرة . عندما علمت أن السيارة ستنطلق بعد القطار ، فاضطررت لقطع تذكرة قطار ، في أول رحلة ستنطلق إلى اسطنبول .

كنت أطفح بحيوية لايمكن التعبير عنها . العالم لا يسعني . في المحطة ، قفزت إلى القطار قبل أن يتوقف ، وكأنني سأجعله يذهب بسرعة أكبر... كان في غرفة القطار امرأة شابة ، ورجل عجوز . لا أدري إن كانت المرأة بعمري أو تكبرني بسنة أو سنتين . من الصعب تحديد أعمار النساء بين العشرين والخامسة والعشرين من أعمارهن ؟ فيمكن أن يقدر لهن ثماني عشرة سنة ، ويمكن تقدير ثلاثين . . في البداية ظننت أن الرجل العجوز والد هذه المرأة . ولكنهما كانا لايتكلمان . المرأة تغلي . ليس في جسدها جزء إلا ويتحرك . عندما خرج الرجل إلى الممر فهمت أنه لا توجد علاقة بينه وبينها .

لم أعد أتذكر الآن كيف بدأنا الحديث . أخذ الرجل العجوز سلته من الغرفة ونزل في أول محطة .

لا أذكر كيف بدأت الحديث مع المرأة ، وكيف استمر ، ولكنني لا أنسى أن تلك المرأة كانت تُحبب الآخرين بها بسهولة ، وتَضحك ببساطة ، وعندما تضحك ، لا تضحك بفمها فقط ، بل تضحك بجسمها كله من فرقها إلى قدميها . وأظن أن هذا هو سبب اندماجنا ، وتفاهمنا في رحلة القطار هذه القصيرة جداً . كانت تضحك لكل ما أقوله ، ولكنني كنت أيضاً أتعمد أن أحكي كل شيء من أجل إضحاكها ، وأسعد من ضحكها لكلماتي . لأول مرة في حياتي أشعر بسعادة كهذه . حتى ذلك اليوم ما كان لي صديقة ، أو امرأة قريبة مني . ولم أتعرف إلى المرأة أنثوياً بعد . درست في مدرسة داخلية منذ كنت صغيراً . لهذا السبب كنت أستمع بتوق كبير لحكايات رجائي المتذبذب التي حكاها لنا عن علاقاته بصديقاته ، وعلاقاته الذكورية بالنساء . كنت

أشعر أنه يقفز إلى عالم لن أستطيع في أي زمن أن أخطو إليه خطوة . في ذلك اليوم ، كان أمامي الشيء الذي أظن أنني لن أصل إليه ولن ألمسه وأريد أن أُضحكها ، وهي تضحك مقهقهة لكل كلمة من كلماتي .

كما تعلمون ، يوجد أفلام تعليمية تشرح كيفية نمو النبات ، في تلك الأفلام يعرضون لنا كيف تنمو زنبقة ، وكيف تتفتق أوراقها وتتلون ، وتبرز في الوسط زهرة كبيرة خلال ثوان معدودات . تلك المرأة الشابة تتفتق منها أوراق مثل تلك الأفلام التي أحكي لكم عنها ، ومع كل قهقهة تتساقط هذه الأوراق المتفتقة . ولكن كانت لا تنتهي أبداً ، مع كل ضحكة كانت تتفتق مزيد من الأوراق ، وكأنها لن تنتهي . لم أنسَ ذلك اليوم أبداً .

وحكى كل منا للآخر شيئاً عن حياته . كنت مضطراً للكذب . من المؤكد أنني لا أستطيع أن أقول لامرأة جميلة جداً ، وأبدت قرباً مني إلى هذا الحد أنني طُردت من المدرسة ، ولا أستطيع أن أحكي لها عن البليات التي وقعت على رأسي ، ولأن ضابطاً مرشحاً لبس ألبستي المدنية ، وهرب اضطررت للبس ألبسته العسكرية ، وأنا ذاهب إلى استطنبول لكي أستعير ألبسة من صديقي ، لهذا السبب قلت لها إنني ضابط ، وأنا ذاهب إلى اسطنبول بإجازة . لا أقول لك هذا لأدافع عن نفسي . الحقيقة هي أنني لو كنت أعرف أن علاقتي مع هذه المرأة لن تنتهي مع نهاية رحلة القطار ، فسأخبرها بالحقيقة . ولكن كيف لي أن أعرف هذا ؟ من يعرف ماذا سيحدث بعد خمس دقائق ؟ أنا مؤمن بإمكانية تجهيز أنفسنا للدقائق الخمس القادمة مسبقاً ، ولكن ماهي النسبة التي نستطيع تحقيقها من مستقبلنا ؟ وكم هي النسبة التي تفرض علينا خارج إرادتنا ؟ (دخل إلى غرفتنا في هذه اللحظة أحد القادمين على الخدمة ، وقال لي إن الإدارة تستدعيني . ضحك باشازادة وقال : «هذا مالا تستطيعون معرفته سابقاً . لنر ما الذي ستواجهونه... هذا ما أردت أن أشرحه لك . وعند عودتي من الإدارة ، قلت لباشازادة : إنني لم أواجه ماهو غريب ، وإن أحد أصدقائي جلب لي الكتب التي كنت قد طلبتها منه ، وتركها

لحراسة باب السجن ، واستدعوني لاستلامها) .

كنت أريد معرفة إذا كانت المرأة متزوجة أم لا . بينما كنت أفكر بهذا ، قالت لي : انفصلت عن زوجها من فترة قريبة ، ولكنها لم تغادر بيت الزوجية بعد ، وهي ابنة عائلة ليست اسطنبولية .

لأول مرة أشم رائحة عطر نسائية من مسافة قريبة إلى هذا الحد . مع كل قهقهة كانت تنتشر موجة جديدة من رائحة عطرها . باختصار كانت سفرة سعادة لي في ذلك اليوم .

لم يترك أحدنا الآخر عندما نزلنا من القطار في محطة حيدر باشا . ومن الأصح أن أقول ، لم ينفصل أحدنا عن الآخر . اقترحت الذهاب إلى بيتها .

كانت الأنثى الأولى في حياتي . أثبتُ رجولتي لأول مرة معها في تلك الليلة... بماذا كنت أحلم . سأخبرها بالحقيقة ، أي أنني لست ضابطاً ، وأنني موظف جديد في مصرف . . وسنتزوج ، ونؤسس عش زوجية...

على صوت ضجيج مخيف قفزت من الفراش . كانت الغرفة مظلمة . أبرق لهب حاد . . أو على الأصح نار انقذفت من ثقب ضيّق . . صوت انفجار . . آخر شيء سمعته هو صياح امرأة . كان صياحاً يشبهه صياح من غُرز في جرح لها أظافر طويلة حادة...

فتحت عيني في المشفى . كنت في مشفى عسكري . لظنهم أنني ضابط أدخلوني مشفى عسكرياً . قيل لي إنني نمت مدة يومين وأنا غائب عن وعيي . أصابتني الرصاصة في كتفي الأيسر...

أنا كذبت عليها بقولي إنني ضابط ، وهي كذبت عليَ بقولها إنها منفصلة عن زوجها . ولكن الحقيقة إنها رفعت دعوى طلاق . وداهمنا في بيته الزوج الغيور الذي كان يعارض الانفصال .

عندما صحوت سألوني عن هويتي ، وقطعتي العسكرية . ولأن المرأة قالت في التحقيق إنني ضابط ظهر فوراً أنني منتحل شخصية ضابط . بينما كنت أحاكم بجرم الزنى وانتحال شخصية ضابط ، ظهرت عمليتا تزوير قمتُ

بهما وهما : تنظيم شهادة ثانوية مزورة ، واستخدام بطاقات المسؤولين ، وتقليد توقيعاتهم لتحقيق مكسب شخصي ، وهو الحصول على وظيفة في المصرف بالتزوير...

فهمت أن كل هذا قام به رجائي المتذبذب ليفعل لي خيراً . ولم أخبر عنه أثناء المحاكمة . وهذا ليس شهامة مني ، بل لأن ذكر أسمه في التحقيق لن يخفف عقوبتي...

كتبت الجرائد أنه تم القبض على منتحل شخصية ضابط ملازم . . وقد بالغت ، وشطت ، وأضافت على كل واحد مقدار ألف . . واسهمت في الكتابة عني حتى جعلتني رجل الساعة .

عندما قضيت فترة العقوبة ، وخرجت من السجن لم أكن يائساً ، بل كنت مندفعاً أكثر من السابق . كانت البليات التي وقعت لي تدفعني أكثر ، وتزيد من طموحاتي .

باشازادة صيّاد نساء صاحب سوابق

رجائي المتذبذب مثل أصحاب العاهات المستديمة . كان ذا عاهة نفسية ، وليست جسدية . كل هذه المدة التي قضيناها معاً في المدرسة الداخلية لم أفهم أنه ذو عاهة نفسية . لأنه كان ماكراً جداً . لهذا السبب لم يكن له أي صديق حميم في الصف . على الرغم من هذا ، فإن أكثرنا يتسابق لسماع قصص مغامراته مع صديقاته عند عودته بعد الإجازة الأسبوعية .

كان مريضاً نفسياً . لأنه لا يقدم على عمل السيئة ، والأذى من أجل مصلحة ، أو عمل ما ، بل يقدم عليها لمجرد رغبته بعمل الأذى . وليس للمؤذي هدف سوى عمل الأذى . والبعض يسمي أمثال هؤلاء أذكياء... من الممكن أن يكون هذا صحيحاً ، إنه ذكاء غير عادي لكنه سافل .

لماذا ذهبت إلى رجائي حين خروجي من السجن ؟ في البداية ـ أي حتى ذاك التاريخ ـ لم أعرف أنه على هذه الدرجة من السوء . غير هذا ، أُعدُّ أنني سقطت في السجن بسببه . وظفني في المصرف بعد تنظيمه شهادة ثانوية عامة ، وبطاقات توصية مزورة . وقبل معرفتي به جيداً كنت أظن أنه فعل هذا معي بحسن نية . فيما بعد وجدت أنه لا يفكر بمصلحتي أبداً . والسبب الآخر لذهابي إليه هو عدم وجود مكان آخر أذهب إليه ، أو بابٍ أطرقه ، أو أحدٍ أطلب منه المساعدة . أي أنني كنت في مأزق . ماجعلني أذهب إليه هو انسداد كافة الطرق الأخرى في وجهي . (كان باشازادة كثيراً مايكرر هذا

التعبير كجزء من حلمه ذاك المحفور في ذاكرته . . كان في مأزق . لم يكن أمامه أي حل . أغلقت كافة الطرق في وجهه ، وبقي أمامه طريق وحيد يمكن له الذهاب منه . وهكذا اضطر للذهاب من ذاك الطريق الوحيد)!

لم يسأل عني ، أو يزورني في السجن أبداً . لا توجد عنده أصلاً أحاسيس الصداقة والارتباط والمودّة . قابلني وكأنني قد تركته للتو .

من الممكن له أن يصبح غنياً جداً لو أراد ، وبالطبع ليس بعمله وحقه... لم يكن غنياً ، لكنه كان دائماً يستطيع أن يعيش مثل الأغنياء . كان يصرف نقوده حتى آخر قرش ، وعندما لا يبقى معه نقود يفكر بضربة . عندما سألته عن سبب هذا ، قال لي : إن عقله لا يفكر إلا عندما يفلّس .

إذا لم يبق سوء على سطح الأرض ، فيستطيع رجائي هذا وحده توزيع كافة مساوئ التاريخ على الأرض مجدداً . لا يمكن تصور أي مكر لا يستطيع عمله . فكرت كثيراً بهذا . كيف يمكن للإنسان أن يكون سيئاً إلى هذا الحد ؟ أظن أنه يحاول إثبات استطاعته خداع أي شخص ، وخوزقة الجميع بذكائه ، ويريد اثبات هذا لنفسه أكثر من إرادته إثباته للآخرين . يريد أن يؤمن بأنه فوق البشر .

في يوم ما كنا في ساحة (تقسيم) في اسطنبول . وقف فجأة ، وأشار إلى جموع الناس ، وقال :

ـ هل ترى هؤلاء البشر ؟

نظرت إلى وجهه دون أن أنبس . . تابع قائلاً :

ـ كل هؤلاء الحمقى ، والآخرين مالئي المدينة ، والذين يعيشون في هذه الدولة كلهم ، كل هؤلاء يعملون من أجلي . .

وبعد صمت قصير أضاف :

ـ بينما يوجد كل هؤلاء المهابيل ، كيف يبقى صاحب قليل من العقل دون نقود ؟...

كان يستخف بي بكلامه هذا ، ويضعني في موضع الأحمق . .

يمكن لكم أن تفهموا مقدار سفالته إذا قلت لكم إنه في يوم ما فك مزاريب البيت الذي يستأجر إحدى غرفه ، وباعها ، عندما لم يبق معه نقود . لم يفعل هذا لأنه لم يبق معه نقود فحسب ، بل من أجل الإساءة لصاحبة البيت . ولم يكتف بهذا ، فأقدم على سفالة أكبر ، إذ باع صاحبة البيت العجوز لرجل عجوز شبق . المسكينة صاحبة البيت لم يكن عندها علم بهذا . أخذ النقود من الرجل العجوز الشبق في الشارع ، ووضعها في جيبه ، ثم اصطحب الرجل إلى البيت ، وفي ساعة من الليل أدخل الرجل عليها . . بعد فترة سمعنا صوت استغاثة المرأة العجوز ، وصياح الشبق . كان رجائي مسروراً للغاية ويضحك . . ويقهقه وهو يقول : سترضى المرأة بعد قليل ، ستغدو مسرورة . وخرجنا من البيت ونحن نسمع أصوات الصراخ والإستغاثة .

في أحد الأيام ، قال لي فجأة :

ـ هيا ، سنذهب إلى أنقرة . .

لم أكن استطيع تركه ، لأنني عاطل عن العمل من جهة ، وليس معي نقود من جهة اخرى . نزلنا في فندق ضخم في أنقرة .

اتصل بالاستقبال ، وطلب إرسال جريدتين إلى الغرفة .

بعد قليل وصلت الجريدتان ، فأعطاني واحدة ، وترك لنفسه واحدة ، تمددنا على سريرينا وكل منا بدأ قراءة جريدته .

جاء في الصفحة الأولى من الجريدة خبر عن انتشار مرض الأنفلونزا الساري ، والقاتل ، وأن وزارة الصحة تنبه المواطنين لاتخاذ الحيطة ضد هذا المرض . كما نُشر حديث الاختصاصيّين حول التدابير التي يجب اتخاذها ضد هذا المرض ، وأن فيروسات هذا المرض تنتقل من إنسان إلى آخر حتى عبر جهاز الهاتف . لهذا السبب فإن من الخطورة استعمال الهواتف العمومية في فترة انتشار المرض ، وإذا اضطر الإنسان لاستخدامها ، فعليه إبعاد السماعة عن فمه .

قفز رجائي فجأة ، ورمى جريدته ، بعد أن كان يقرؤها وهو متمدد على

السرير ، وصرخ :

ـ تمام!

سألته عما حدث ، فقال :

ـ رمينا السنارة . .

ولأنه مجنون يستصغر الجميع ويريد عرض ذكائه على الآخرين ، وإثبات ذاته أمامهم ، فما كان يقول شيئاً بشكل مسبق حتى ولو كنا نعمل معاً .

ـ هيا ، انهض ، لدينا عمل . .

من يعلم أي عمل جنوني سيقدم عليه مرة أخرى ، وسيستخدمني فيه .

خرجنا إلى الشارع ، وبعد سؤال واستفسار وجدنا مطبعة صغيرة . طلب طباعة عشرين دفتر فواتير ، في كل دفتر خمسين فاتورة . وشرح لصاحب المطبعة مطولاً عما سيُكتب على الفاتورة ، وشكل الكتابة ، وكتبه على ورقة ليريه له . سيكتب كترويسة : محافظة أنقرة ـ الخدمات الصحية . «الوحدة الثالثة للتعقيم» . عندما قرأت الورقة قلت إن كلمة : «للتعقيم» خطأ . فقال لي :

ـ وهل تعرف ماذا سأفعل لتقول هذا ؟

ـ لا أعرف ولكن الخطأ في كتابة الكلمة أنت كتبتها «لتعقيم» ، ويجب أن تكون «للتعقيم» . صَحْحَهَا . .

وكتب أشياء كثيرة من أجل أن تطبع على الفاتورة . مثل : «تاريخ الزيارة ـ العامل المسؤول ـ رقم المنطقة ـ العنوان...» .

قال صاحب المطبعة إن الفواتير ستنتهي بعد ثلاثة أيام . دخل صاحبنا مرة أخرى عملية مساومة حادة ، ثم قبل بإعطاء الرجل المبلغ الذي يطلبه ، شريطة انتهائها بعد يومين .

في اليوم الذي سنأخذ الفواتير تجولنا على دكاكين بيع الأدوات القديمة والمستعملة . بحث في دكاكين باعة الأشياء المستعملة حتى وجد مرشاً . إنه أكبر من مرش قتل الذباب بقليل . لعله يُستعمل من أجل رش الدواء

للنباتات . ملأ المرش بالماء ، وجربه ليتأكد من سلامته . ثم اشترى من دكان آخر حقيبة كبيرة مستعملة تتسع للمرش . ثم ذهبنا إلى المطبعة . قال صاحب المطبعة إنه لم يجهّز الفواتير ، وإن طباعتها قد انتهت ، ولكن تجليدها لن ينتهي قبل الغد . غضب رجائي إزاء هذا ، حتى أدهشني غضبه... لأنه لايوجد ما يدعو إلى كل هذا الغضب . ثم قال لصاحب المطبعة بقسوة :

ـ حسن ، حسن . . اعطنا الآن عشر ، أو خمس عشرة فاتورة مما طبعته . . غير مهم ، لتكن بدون جلد ، وغداً نأتي ونأخذ المجلدة .

أعطانا صاحب المطبعة كدسة من أوراق الفواتير .

عندما عدنا إلى الفندق قال :

ـ كنت أعرف أن الفواتير لن تنتهي اليوم ، مهما فعل . . لو كانت منتهية فليس معي ثمنها . .

فهمت أنه خلق هذا الموقف القاسي لكي يأخذ الفواتير غير المجلدة دون أن يدفع الثمن . .

ملأ الرشاش بالماء من الصنبور ، وأعطاني إياه ، وقال :

ـ أينما قلت لك رش ، عليك أن ترش .

دخلنا بناء مكاتب ضخم . أظن ، أول مكان دخلنا إليه في البناء . كان مكتب تأمين . كان رجائي في المقدمة . وبعد أن سلم برقة شديدة ، سأل :

ـ يا سيدي ، لديكم هاتف ، أليس كذلك ؟

قال الرجل :

ـ نعم ، لدينا .

ـ نحن قادمون من الخدمات الصحية لمحافظة أنقرة ، كفرقة تعقيم .

قال الرجل متسائلاً :

ـ نعم ؟

ـ كما تعلمون ، إن الأنفلونزا منتشرة بشكل واسع . . وهي تنتقل إلى الناس على الأكثر عن طريق الهاتف . . ألا تريدون أن نعقم لكم هاتفكم ؟

فرح الرجل كثيراً لهذا ، وقال :

ـ بالتأكيد ، بالتأكيد . . تفضلوا . .

قال رجائي الذي سار نحو الهاتف مباشرة ، وأشار إليه :

ـ رش يا بني...

وأنا فوراً فتحت الحقيبة ، وأخرجت المرش ، وبدأت برش الماء .

وبصوت لا يسمعه الرجل الواقف هناك ، قال :

ـ ولاه ، ماذا تعمل ؟ . . ارفع السماعة ورش الماء عليها!

ومع رفعي للسماعة ورشي الماء عليها سمعت صوتاً خشناً ينبعث منها قائلاً :

ـ ماذا يجري هناك يا هوه ؟

وأنا لخوفي من أننا سيُقبض علينا ، تركت المرش من يدي .

وصرخت بوجه رجائي بما معناه : « وقعنا » :

ـ أعجبك هذا!!

كأن رجائي ليس معي أبداً ، قال :

ـ لم يعجبني ، رش بشكل جيد ، اضغط أكثر .

في هذه الأثناء ، مد الرجل القابع في المكتب رأسه إلى الغرفة المجاورة ، وقال :

ـ لا يوجد شيء ، لايوجد شيء... جاء عمال الصحة لكي يعقموا الهاتف .

عندئذ فُتح ذاك الباب ، وخرج رجل من هناك يبتسم ، وقال :

ـ لحظة رفعي السماعة لأحكي بالهاتف ، سمعت صوت (فس ، فس) ، دهشت .

عندئذ فهمت ماحدث . كان يوجد خط فرعي للهاتف في الغرفة المجاورة . وكان أحدهم يحكي بالهاتف الموجود في الغرفة الداخلية . وأنا في تلك الأثناء فتحت السماعة ، ورششت الماء على أنني أعقمها . لهذا السبب صرخ الرجل : « ماذا يجري هناك يا هوه » .

صار الهاتف يقطر ماء لكثرة الرش . كتب رجائي على الفاتورة التي معه كتابات ما ، ووقعها . ناوله الرجل عشر ليرات ، وأخذ الفاتورة وهو يقول له :

ـ شكراً جزيلاً .

قال الرجل الكائن في الغرفة المجاورة :

ـ أرجوكم ، عقموا هذا الهاتف أيضاً...

كاد أن يتوسل إلينا .

دخلت إلى الغرفة المجاورة ، وبللت له الهاتف بالمرش . ملأ له رجائي فاتورة ، وأخذ عشر ليرات .

وكانوا يشكروننا بشكل مستمر .

دخلنا إلى مكتب آخر من مكاتب ذلك الطابق .

ـ يا سيدي ، نحن فرقة التعقيم من الخدمات الصحية لمحافظة أنقرة . . لمكافحة ميكروب الانفلونزا... هل تريدون تعقيم هاتفكم ؟ كما تعلمون أن فيروسات هذا المرض تنتقل بالعدوى...

كنا نسمع الكلمات نفسها في كل مكتب ندخله . كان الجميع يقابلنا باهتمام .

عندما ندخل ، يقول لي رجائي :

ـ رش يا بني . .

وأنا أسقي الهواتف .

بعضهم كان يسأل رجائي عندما يأخذون الفاتورة :

ـ كم تستمر فاعلية التعقيم هذه ؟

كان رجائي يحكي كالعالم :

ـ شهر على الأقل . .

ـ وبعد الشهر ؟

ـ نمر عليكم مرة أخرى يا سيدي .

ـ أرجوكم يا سيدي ، لاتتوانوا عن هذا الأمر . .

كان بعضهم يعطينا عشر ، أو خمس ليرات إضافية ، فوق العشرة مقابل الفاتورة ، لكي نأتي مرة أخرى ، ونبلل لهم هواتفهم . . وكما تعلم عشر ، أو خمس ليرات ذاك الزمان تساوي كثيراً من نقود هذا الوقت...

بعضهم كان يسألنا عن الاحتياطات التي يجب أن يتخذوها لكي لاتنتقل عدوى مرض الانفلونزا عن طريق الهاتف . كان رجائي المتذبذب يجيب بشكل جدي مثل طبيب متخصص :

ـ حاولوا أن تبعدوا فمكم قدر الإمكان عن سماعة الهاتف . . حتى إنه من الأفضل أن تغلقوا فمكم بمنديل . . ثم حاذروا من العطاس وأنتم تتكلمون بالهاتف...

في إحدى المرات إثر كلام رجائي هذا قال أحد أصحاب المكاتب مؤنباً شاباً يبدو أنه يعمل عنده :

ـ هاا ، أرأيت ؟ . . أنا دائماً أقول لك لا تسعل وأنت تحكي بالهاتف... أنت كلما أخذت سماعة الهاتف في يدك تبدأ بالسعال فوراً . .

وقبل أن ندخل إلى نصف المكاتب الموجودة في ذلك البناء لتبليل هواتفها ، انتهت الفواتير التي معنا . والجميع يصرون على تبليل هواتفهم . وعندما كان يقول لهم رجائي :

ـ انتهت الفواتير يا سيدي ، سنعود بعد الظهر . .

كانوا يردون عليه قائلين :

ـ ما أهمية هذا يا سيدي ، ليكن بدون فاتورة...

لكن رجائي يتظاهر بمظهر الموظف الشريف ، فيقول لهم إنه يستحيل أن يأخذ نقوداً دون فاتورة .

عدنا إلى الفندق . امتلأت جيوب رجائي بالنقود ، أخرجها رجائي ، ونثرها على السرير وقال :

ـ أرأيت ، هاهم الجميع يعملون لأجلنا .

قلت له إنني خائف ، ومن الممكن أن يقبضوا علينا . فقال إننا لم نرتكب

أي ذنب ، لأن ترويسة الفواتير تحمل اسماً خاصاً : «الخدمات الصحية لمحافظة أنقرة» . . كل شخص يستطيع تأسيس عمل كهذا . إننا لا نجمع نقوداً باسم دائرة حكومية ، ولا نقوم بأي تزوير لكي يوجهوا لنا اتهاماً . . ولكننا نرش الهواتف بماء من الصنبور على أننا نعقم الهواتف .

قال :

ـ انظر هذا صحيح . .

وأضاف أننا كنا نرش الماء لأنه لم يكن لدينا نقود ، والآنِ بما أننا نمتلك النقود سنشتري من الصيدلية برمنغنات كقاتل للميكروب ، ونمزجه بماء الرش .

أخذنا الفواتير من المطبعة ودفعنا ثمنها . وشكر رجائي صاحب المطبعة وأعطاه قليلا من النقود زيادة على المتفق عليه . والمساومة الحادة التي عملها عند أول مرة نذهب فيها إلى المطبعة لإيهام صاحبها أنه زبون سليم ، ولكي يأخذ عدة فواتير أو كدسة منها دون دفع النقود . صرت أتعلم حيله بالتدريج .

ملأنا خزان المرش بالماء الممزوج بالبرمنغنات . كنا نخرج كل صباح في ساعة مبكرة ، ونجمع النقود طوال النهار . نعم وكأننا لا نجد وقتاً لجمعها . صار معنا نقود كثيرة . وكلما عبرت له عن مخاوفي ، كان يرد علي :

ـ كيفما كان ستفوح رائحة هذا العمل ، لنسرع قليلاً ، وبما أن الصنبور مفتوح فلنملأ أوعيتنا . .

في أحد الأيام وقع لي ما خفت منه . دخلنا إلى مكتب محام . كان رجائي يكرر تلك العبارات :

ـ يا سيدي ، نحن من الخدمات الصحية لمحافظة أنقرة . . كذا ، كذا...

أنا كنت أرفع سماعة الهاتف الذي على الطاولة ، وأرش الماء الممزوج بالبرمنغنات . ولكي نستطيع التجوال على أكبر عدد من المحلات كنا نسرع ،

فلم أنظر إلى وجه المحامي الذي في المكتب ، كنت منهمكاً في عملي . .
مسكت اليد الممتدة من خلف الطاولة معصمي :
ـ قف!

رفعت رأسي ، ونظرت إلى الرجل الجالس خلف الطاولة . . وفي اللحظة التي نظرت فيها إليه انحلت ركبتي ، وسقط المرش من يدي .

كنت أعرف المحامي الذي مسكني من معصمي . كان يضحك ، ولكن ضحكة بمعنى ها قد سقطت بين يدي . .

كان هذا إما في المرة الأولى ، أو الثانية لسقوطي في السجن . لم يكن لي قريب أو صديق يزورني كنت أكتب استدعاءات لبعض المساجين من أجل كسب ثمن سجائري . وكنت قد كتبت في يوم سابق استدعاء لأحد مهربي الهيروين ليقدمه في العدلية . يومئذ قال لي المهرب إن محاميه يريد أن يلتقي بي . ذهبت . التقينا في غرفة مدير السجن . كان شاباً في تلك الأيام ، ولكنه مثل جني . . كان قد قرأ عدة استدعاءات كتبتها لمساجين آخرين إضافة إلى الاستدعاء الذي كتبته للمهرب . أعجب بها كثيراً . قال إنها مؤثرة .

دهش كثيراً عندما قلت له إنني أكتب الاستدعاءات بعد قراءة قانون العقوبات ، وضرورات كل مادة من مواده . في النهاية اقترح علي اقتراحاً . هو شيء من الشراكة بشكل من أشكاله . أي أننا سنعمل معاً . تسألني كيف ؟ أنا من داخل السجن ، وهو من خارجه . . سأجد له زبائناً من داخل السجن . وبالتأكيد كلما كان الزبون الذي أجده أغنى ، فهذا سيكون أفضل بالنسبة إلي . . لأنني سآخذ حصة من أجرة المحامي التي يقبضها . خاصة كنت سأقبض نقوداً كثيرة جداً ، إذا وجدت له زبائناً من الأعيان الذين ارتكبوا جرائم قتل ، أو المهربين . .

من الواضح أنه محتال ، ويريد أن يستخدمني كسمسار . كان شاباً يريد كسب الشهرة بقضايا جرائم القتل الكبيرة ، ويريد أن يغتني من خلال

هذه الشهرة . ولم يكن من الصعب علي فهم هذا من خلال كلامه .

قلت له إنني لا أقبل اقتراحه هذا . غضب كثيرا ، وكأنني أهنته . وقال إنه سيتولى دعاويّ إذا اشتغلنا سوية ، وساعدته ، ولن يأخذ مني أتعاباً . أتقول دعاوى ؟ وستكون محاميّ ؟ ولكنني محكوم .

لا أنسى تصرفه ذاك أبداً . أنزل جفنيه إلى حد بقاء مقدار خط من كل عين ، ولم تعد تُرى حدقتا عينيه داخل هذا الخط ، وقال :

ـ ولكن كثيراً جداً من البليات ستقع على رأسك . . كيفما كان ، فأنت بحاجة إلى محام...

ماذا يقصد بهذا ؟ هل يقصد ما يعنيه المثل الشعبي : « إذا كنت مسافراً ، فأنا صاحب فندق... » ؟ أو المثل القائل : « مهما دار الثعلب وتجول ، فإن المكان الذي سيذهب إليه في النهاية هو دكان الفراء » ؟ مع أنني كنت قد اتخذت قراري بحزم على ألا أعود إلى السجن ، وألا أنحرف عن طريق الصواب ، وأن أكسب معاشي من عملي . وكأنني فيما سبق فكرت بعكس هذا . . وكأن عدم الانحراف عن طريق الصواب بيدي... وكأنني سقطت في هذه الأوضاع بإرادتي...

رفضت اقتراح المحامي بوضوح ، وبشيء من القسوة . فضحك بمكر وقال :

ـ إيه . . أنت تعرف مصلحتك . أنا أردت أن أقدم لك خدمة . ولكنك لم تفهم . . كيفما كان فإن كثيراً من البليات ستقع على رأسك...

والآن وهو ماسك معصمي في مكتبه يبتسم بمكر كما كان يبتسم في ذاك الزمان . ترك معصمي وتناول الفاتورة التي ملأها ووقعها رجائي ، ودقق فيها . ثم هز رأسه عدة مرات هزات ذات معنى ، وأخرج صوت : « هم م م م ، هم م م ، ، » ثم قال لنا :

ـ تفضلا ، ارتاحا!

ولكن عندما كان يقول « ارتاحا » كأنه يقول : « اقعد ولاه » .

قبض علينا بالجرم المشهود ، وصرنا بين يدي الرجل .
جلسنا .
قال لي :
ـ شهرتك تتوسع مع الأيام!
لم أنبس بشيء ، فقال :
ـ أتذكر . أنا قلت لك هذا . .
مرة أخرى سكت .

قال إنه بإمكاننا العمل سوية من جديد . هدفه مساعدتي وإدخالي إلى الطريق الصحيح . أنا أعرف هدفه الحقيقي . ولكن ماذا أستطيع أن أفعل ، لايوجد أمامي مخرج . . ها أنتم ترون كيف تغلق كافة الطرق في وجهي ، ولا يبقى إلا طريق واحد مفتوح . . سأقبل ما قاله شئت أم أبيت . وكيفما كان فكاتب المحامي إنسان عامل ، وبالتأكيد أفضل بكثير من الاحتيال على الناس بادعاء : « فرقة التعقيم للخدمات الصحية في محافظة أنقرة » . وسقاية هواتفهم بالمرش . .

قال لي رجائي المتذبذب :
ـ ستفوح رائحة هذا العمل . .
وذهب .

لا أعرف إلى أين ذهب . ولكنه لضرورات السفالة ، لم يعطني شيئاً من تلك النقود التي كسبناها . وأنا ما طلبت منه شيئاً . لم يتصرف هكذا بُخلاً ، أو حباً بالنقود ، بل من أجل الإساءة فقط . كيف أنه لضرورة الطبيعة فرض زقزقة العصافير ، ومواء القطط ، ولسع النحل ، ضرورة طبيعة رجائي تفرض الإساءة للآخرين...

كان العمل ككاتب محام كأنه تدريب حقوقي . ووهبت نفسي للعمل بشكل كامل . بعد عدة أشهر صرت أُتابع كافة أعمال المحامي في العدلية والمحكمة . ولكي أنجح في عملي كنت أقرأ ، وأبحث في كافة ملفات الدعاوى . .

في البداية كنت أحمل حقيبة المحامي ، وأنظف مكتبه ، وأذهب لقضاء بعض حاجاته ، ولكن بعد مدة صرت كاتب محامٍ حقيقياً . عندما يذهب المحامي إلى المحاكمات ، أو إلى أعمال اخرى كنت أدير المكتب وحدي . كان موكلاً للمحامي الكثيرُ من الدعاوى ، وهو وكيل قانوني للعديد من رجال الأعمال ويتسلق سلّم الشهرة . كان مسروراً مني كثيراً . وكان يستخدمني وسيطاً في كثير من الأمور المعقدة ، وخاصة الأمور المالية .

في أحد الأيام كنت أتحدث إلى أحد موكلينا من المهربين الكبار . فُتح الباب . دخل شخصان رمقاني بنظرات جامدة ، وابتسما . قلت لهما :

ـ تفضلا . .

قال أحدهما :

ـ ألست أنت باشازادة ؟

كأن ماءً مغلياً صُبَّ على رأسي . لأن «باشازادة» هو اسمي في الاحتيال . قلت لهما :

ـ من انتما ؟ أنا لا أعرفكما . .

ـ تعال معنا سنتعارف .

وياالله ، إلى... مديرية الأمن . الشعبة الثانية . . كنت أسير بينهما ، قال أحدهما لرئيسه :

ـ جلبناه يا سيدي .

كنت أقول لهم إن ثمة خطأ في هذا الأمر ، وإنني لم أرتكب أي ذنب ، وأسألهم عن التهمة التي جلبوني من أجلها . ولكن لمن ؟ لم تكن الأجوبة التي أتلقاها سوى : «اسكت ولاه!» . أحدهم أجابني بلكمة على ذقني . وكنت أعرف من تجاربي السابقة أنني لو تماديت سيكون الأمر بالنسبة لي أسوأ . سكت ، وانتظرت ما سيجري .

في اليوم التالي أرسلوني إلى اسطنبول مع شرطيين آخرين . لا أعرف سبب اعتقالي . إذ كان ثمة شيء فسيأخذونني للتحقيق بقضية جمع النقود

باسم فرقة التعقيم للخدمات الصحية في محافظة أنقرة . ولكن هذا لا يقتضي منهم إرسالي إلى اسطنبول . نحن عملنا هذا في أنقرة . فوق هذا ، وحسب ما قال رجائي ، فإن ما قمنا به ليس احتيالاً . لم نستخدم اسم دائرة حكومية . ولم نزوّر . فنحن مقابل النقود عقمنا الهواتف بالماء الممزوج بالبرمنغنات ، وهذا تم بإرادة أصحاب الهواتف ، وحتى رجائهم .

رموني في ذلك المكان القذر الذي يدعى «الحجز» في مديرية أمن اسطنبول . في اليوم التالي أخرجوني إلى غرفة من غرف الشعبة الثانية . كان في الغرفة عدد من رجال الشرطة المدنيين ، ومخلوق يشبه الإنسان قليلاً ، ولكن لو قلت امرأة ، فهو لا يشبه المرأة ، وإذا قلت رجلاً ، فهو لا يشبه الرجل .

أشار إليّ الرجل الذي أظنه أحد مفتشي تلك الشعبة ، وسأل المخلوق الجالس على الكرسي :

ـ انظري ، هل هو هذا يا آنسة ؟

فهمت من كلمة المفتش «آنسة» أن المخلوق الذي يجلس على الكرسي هو امرأة . كأنهم نفخوا رأس الضفدع كثيراً ، ووضعوه على رقبة هذه المرأة . لايمكن أن يكون الإنسان قبيحاً ، ومقرفاً إلى هذا الحد . . يبدو من خلال انتفاخ واحمرار عينيها أنها بكت كثيراً . . مازالت عيناها تدمعان . كانت المرأة التي نظرت إليها بخوف وفضول ، تعضّ على طرف المنديل الذي تمسح به عينيها بشكل متكرر . قالت :

ـ نعم يا سيدي ، إنه هو! هو بالذات...

قال المفتش :

ـ ولا كنت تقول : لابد أن هناك خطأ ، وإنك لم ترتكب ذنباً ؟ . .

ولأن عقلي متعلق بقضية تعقيم الهواتف ، أقسمت بالله وقلت :

ـ أنا مارشثت هاتف هذه المرأة بالدواء...

قال :

ـ أي هاتف ؟ وأي دواء ولاه ؟

فهمت من سؤاله أنه لايعرف لعبة الهواتف التي لعبناها . مانبست بصوت . وحسن أنه تصرف بفطنة ، ولم يقف عند قضية الهاتف هذه . قال :

ـ هل تعرف هذه الآنسة ؟

نظرت بإمعان حقيقي إلى المخلوق المتكون من مزيج القرد والإنسان ، والذي يسميه امرأة وقلت :

ـ لا ، لا أعرفها .

عندئذ صارت المرأة تبكي مصوتة ، وقالت :

ـ هذا يعني أنك الآن ماعدت تعرفني ؟

نظرت إليها بدقة أكبر . إنني لا أعرفها . سألتها :

ـ من أين نحن متعارفان يا آنستي ؟

صارت المرأة (تشهشه) قائلة :

ـ يا خائن! . . أية كلمات معسولة قلتها لي... هذا يعني أن كل ما قلته من أجل أن تخدعني فقط . .

ـ من ؟

ـ ويسأل دون خجل . . عندما غافلتني . .

سألتها بشكل ساذج لأنني لم أدرك البلاء الذي حل بي :

ـ أرجوك يا آنستي . . أنا لا علم لي بالموضوع نهائياً . أنا متى غافلتك ؟

قال المرأة ، أو المخلوق الذي يسمونه هناك امرأة :

ـ أنت تعرف متى أكثر مني . . لأنني لم أكن في وعيي .

عندما فهمت أنني سأوقع نفسي في البلاء ، بدأت أتوسل إليها :

ـ أُقبِّل رجليك . . انظري إليَّ جيداً . . لست أنا هذا الذي تحكين عنه . يجب أن تكوني قد شبّهتني بأحدهم .

هنا قال المفتش :ـ ولاه ، هي لم تُشبِّهكَ بأحد ، ولكن أنا الذي سأشبِّهك .

قالت المرأة :

ـ يكذب وعيني بعينه .

مددت وجهي نحو المرأة وأنا أقول لها :

ـ الإنسان يشبه الإنسان . . ألا يقال : « يُخلق من الشبه أربعون » . . انظري إليّ جيداً...

قاطعني المفتش ، وقال للمرأة ، أي للمخلوق الذي يحمل شيئاً من الشبه بالمرأة :

ـ هيا يا بنتي ، اذهبي إلى بيتك . . لا تقلقي ، سنأخذ كل ما أخذه منك هذا المحتال... وسنجعله يرجع من أنفه ما أرضعته إياه أمه...

فجأة وقفت تلك المرأة ، وقفزت نحوي . في البداية ظننت أنها ستضربني لكنها احتضنتني وصارت تقول :

ـ عاكف . . عاااكف! لماذا حطّمت آمالي ، وخرّبت خيالاتي الحلوة . . كيف عملت لي هذا يا عديم الوجدان!

وكادت أن تقبلني . .

ليبعث الله لك ألف بلاء يا إمرأة .

عندما وقفت على قدميها زاد قبحها لأنها مجعلكة ، ومخربطة ، غير أن وجهها يشبه وجه الضفدع .

دفعت المرأة عني ، وقلت للشرطي المدني الجالس خلف الطاولة ، وأظنه مفتشاً . .

ـ وأنتم أيضاً سمعتم يا سيدي ، إنها تناديني عاكف . إنها تشبهني بشخص يدعى عاكف .

غضب المفتش لهذا الكلام ، كأن صوابه قد طار ، وقفز نحوي ، وبينما كان سيضربني ، دخل ذلك المخلوق الذي يسمونه امرأة بيني وبين المفتش ، وحماني ، وجعلني خلف جسمه المخربط . . وقالت للمفتش متوسلة :

ـ لا تقتلوه يا سيدي المفتش ، لا تقتلوه . . اضربوني ، ولا تضربوه!

قال المفتش :

ـ ولاه ، سنغضب منك كثيراً ، هل ستغافل المرأة ، وستأخذ مجوهراتها وحليّها أيضاً .

مازالت المرأة تحكي مع نفسها :

ـ يا عاكف ، لماذا فعلت هذا ؟ . . أما كنا سنؤسس عش زوجيتنا معاً ؟ أما كنا سننجب أولاداً . . كثيراً من الأولاد . . سنشكل منهم فريق كرة قدم . . آه منك يا ظالم ، ألم تتألم عليّ . . يا ظالم . . يا عاكف . . .

لم أفهم البلاء الذي حلّ بي بعد . .

وتحت تأثير قلبي قلت :

ـ أرجوكِ ، لاتبكي ، قلبي ينفطر لبكائك يا آنستي . .

أنا إنسان صاحب قلب رقيق . وفي الحقيقة كنت أتألم على المرأة . ثم إنني كدت أن أبكي على ما وقعت فيه . .

قلت لها ، وأنا أئن :

ـ كفى!

وقالت لي هي :

ـ كفاك أنت يا عاكف الخائن...

قلت :

ـ والله إنك تشبهيني بأحدهم . .

قال المفتش :

ـ سأشبهك الآن ، جيداً... ـ وللواقفين ـ خذوه . ليراه الصحفيون! . .

أخذني رجال الشرطة إلى المكان المسمى غرفة الصحافة . كان الصحفيون ، والمصورون الصحفيون ينتظرونني مثل عنكبوت نصب شباكه ينتظر بعوضة . وفور دخولي تلامعت (الفلاشات) ، وبدأوا يصورونني . لم يكتفوا بهذا كان الشرطيان الواقفان إلى جانبي يقولان :

ـ انظر إلى هذه الجهة .

ـ ارفع رأسك . . أرفعه أكثر . .
ـ التفتْ إلى اليمين!
ـ التفتْ إلى اليسار!

وهذا لكي يصورني الصحفيون بشكل أفضل . كان أحد الشرطيين يرفع ذقني إلى الأعلى ليبدو وجهي أمام عدسة التصوير أوضح ، والآخر يضربني على رقبتي لكي لا أغلق عيني أمام تلامع الفلاشات .

كلا الشرطيين يتأبطان ذراعي ، ويريدان التقاط صورة لهما معي . ستنشر هذه الصورة في الجرائد ، وسيظهران فيها ، وهكذا سيشتهران كبطلين ألقيا القبض على محتال متمرس .

وكان الصحافيون أيضاً يديرون وجهي إلى هذه الجهة ، وإلى تلك ، وهم يقولون : «لنلتقط صورة من هذه الجهة...» ، «وواحدة من هنا أيضاً . .» . وصلت روحي إلى أنفي . لم أحتمل المصور الذي أدار وجهي إلى هذه الجهة ، وإلى تلك ، وماعدت أستحي من شيء ، فقلت له :

ـ سأعمل لك (سترب تيز)* إذا أردت ، وصورني .

بعد انتهاء عملية التصوير ، بدأ الصحفيون يسألونني : ماذا فعلت بالأساور والخواتم والأقراط والعقود التي أخذتها من الفتاة التي احتلت عليها ؟ أين هذه الحلي ؟ لمن أعطيتها ، أو بعتها ؟

قلت لهم لا علم لي بأي شيء من هذا ، وإنني لم أر كومة القبح التي يدعونها فتاة في حياتي . عندئذ قال الشرطي الواقف على يميني للصحفيين :

ـ قال لنا المفتش شبهوه ، . . والآن سنشبهه جيداً . . عندئذ سيصير مثل البلبل ويحكي عن كل هذا .

أدخلوني مكاناً آخر . .

إذا كنت قد قلت : «ياسيدي . . أرجوكم دقيقة واحدة... اسمعوني . .

(*) عملية خلع المرأة ألبستها على أنغام الموسيقى ، حتى تصبح عارية تماماً... م .

أرجوكم . . لطفاً . . » ولكن لمن أحكي هذا ؟ لم يستمع إليّ أحد . وقد شبّهوني تشبيهاً جعلوني لا أصحو في غرفة الحجز مدة أربع وعشرين ساعة . عندما صحوت كنت مثل رجل كسرت كل عظمة من عظامه أربعة أو خمسة كسور . جلب الذين كانوا في غرفة الحجز الجرائد من الخارج ، وأعطونيها لأقرأ الأخبار المنشورة عني . نشرت الجرائد صوري بمختلف القياسات ، ومختلف المواقف . في إحداها أصابع الشرطي تدير ذقني نحو عدسة التصوير بالقوة . . شرطيان على جانبي يتأبطان ذراعي بأيديهما مثل المخالب . . ومواقف أخرى عديدة .

مر زمن على الحادثة ، نسيت ما كتبت الجرائد عني . ولكن إحد هذه العناوين مازال في عقلي : « الدون جوان عاكف أخذ قياس الفتاة بوعده لها بالزواج » .

شيء لا يصدق . . فجأة ، وبما هو خارج عن إرادتي صرت الدون جوان عاكف . أما قياس الفتاة فماذا يعني ؟ إن تلك الفتاة المجعلكة التي رمت بلاءها علي قائلة : « ياخائن . . ياعاكف . . » ، عرفتها بنفسي أنني ضابط ووعدتها بالزواج وقد انخدعت النُعَيْجة البريئة . وقبل الزواج قلت لها : « سأهديك عدة قطع من الحلي على الأقل . ولكن في البداية يجب أخذ مقاسك . أعطني الأسوارة التي في معصمك ، والخاتم الذي في أصبعك ، والعقد الذي في رقبتك لكي آخذها إلى الصائغ ، وأشتري لك مجوهرات ذات قيمة كبيرة على قياسها » . والنعيجة البريئة تلك متعلقة بي كالمجانين ياه ، خلعت كل ما لديها من حلي وأعطتني إياها دون أن تفكر بهذا الأمر . انتظرت ، ومرت أيام ، ولا أحد عاد ، ولا خبر أتى... عندما رأت النعيجة تلك أن حبيبها لم يأت ، لم تفهم أنه احتيل عليها ، ظنت أنني ضعت ، وراجعت مديرية الأمن على هذا الأساس ، وقالت : « خطيبي عاكف ذهب ليشتري لي مجوهرات ولم يعد منذ أسبوع . ضاع » . وطلبت إيجادي . وعندما قالت للشرطة إنه أخذ قياسها ، فهم أنها أغفلت من جهة ، واحتيل عليها من جهة أخرى . من هو عاكف ؟ كان

ملازماً... من هم الذين يحتالون على النساء بانتحال شخصية ملازم ؟ لي أنا سابقة في هذا الموضوع ياه . . وفي دفتر سوابقي صوري وبصماتي ياه . . وضعوا دفتر السوابق أمام الفتاة ، وهاهي صور منتحلي شخصية الضابط... استعرضت صور منتحلي شخصية الضابط واحدة ، واحدة ، ثم أشارت إلى صورتي في النهاية ، وقالت :

ـ هذا هو عاكف!

إيه . . يد الشرطة طويلة . مدتها ، وقبضت علي في أنقرة ، وجلبتني إلى هنا .

كل هذا ليس مهماً ، ولكن الذي لم أفهمه بأي شكل هو لماذا اختارني ذلك المخلوق الذي يشبه الإنسان قليلاً ، ولايشبهه كثيراً من بين كل صيادي النساء أصحاب السوابق ؟

جميل لو انتهى عذابي عند هذا الحد . . يوجد عذابات كثيرة سأعاني منها .

نادوني مرة أخرى إلى غرفة المفتش . هذه المرة كان يجلس على المقعد نفسه إمرأة أخرى . على الأقل كانت هذه امرأة حقيقية . ليست جميلة ولكنها امرأة على الأقل . .

أشار المفتش إلى المرأة وقال ساخراً :

ـ وهذه المرأة لا تعرفها ، أليس كذلك ؟

قلت :

ـ لا أعرفها .

إثر هذا ، ألا تقول المرأة :

ـ تفوووو . . يا أسفي عليك... على الأقل اخجل من شرفك المهني!

أي شرف مهني ؟ أنا كل ما هنالك عملت ستة أشهر كاتب محامٍ...

كانت هذه المرأة تقول لي ، وتعيد « يا مظلوم » . .

ـ يا مظلوم ، ما كان يجب أن تعمل معي هذا ، يا مظلوم...

هذه المرأة أيضاً احتال عليها منتحل شخصية ضابط .

لم أقل للمفتش : «أنا لا أعرف هذه المرأة . .» لو قلت هذا ، سيضربونني كما فعلوا بالأمس حتى يكسّروا عظامي . طأطأت رأسي إلى الأمام ، ولم أنبس...

واجهوني بخمس نساء خلال أسبوع . بينهن واحدة فقط قالت إنني لست الذي احتال عليها منتحلا شخصية ضابط . يبدو أنهم بذلوا جهداً كبيراً لإقناع المرأة بأنني الذي احتلت عليها قبل دخولي إلى غرفة المفتش . فقالت عندما رأتني :

ـ الله موجود . . أنا لا أكذب ، هذا الرجل ليس هو...

إحدى النساء اللواتي ادعين أنني احتلت عليهن منتحلاً شخصية ضابط كذبت إلى حد أنها قالت : تعرفتُ إليها أثناء وجودي في أنقرة .

كانت الجرائد كل يوم تنشر حولي شيئاً ما . جعلوا من الواحد ألفاً : احتال وأغفل أكثر من عشرين فتاة بوعده لهن بالزواج منتحلاً شخصية ضابط... وكل يوم يزداد عدد النساء اللواتي احتال عليهن باشازادة صياد النساء الشهير . .

يتهيأ لي أن بعض النساء المسكينات اللواتي يقرأن ما يُنشر حولي في الجرائد يظنّني باشازادة حقيقي ، وبأمل الزواج مني ، أو بأمل الحصول على الأموال التي تكتب الجرائد أنني حصلت عليها ، يراجعن مديرية الأمن قائلات «يا سيدي ، وأنا أيضاً احتال عليّ بوعده لي بالزواج . .» . لأن الجرائد لا تستطيع بأي شكل إنهاء إحصاء الأموال التي أخذتُها من النساء اللواتي احتلت عليهن منتحلاً شخصية ضابط : حلي تاريخية تحمل قيمة أثرية لا تقدر بثمن ، أحجار ماسية ، لؤلؤ حقيقي ، أحزمة ذهبية ، خواتم ذات أحجار ماسية ، عقود بلاتينية ، أساور مرصعة بالياقوت... وماذا ، وماذا... أحياناً يكتب عن تنازل بعض النساء عن مزارعهن ، وأراضيهن الكبيرة وبعضهن عن أبنيتهن لي . كل هذه الأشياء تفتح شهية النساء . لعل بعض النساء مريضات نفسياً . نعم

بعضهن مريضات نفسياً ، لأن إحدى النساء اللواتي ادعين احتيالي عليهن بوعد الزواج كانت عجوزاً وظهر فيما بعد أنها متزوجة .

أوصلت الجرائد عدد النساء اللواتي احتلت عليهن إلى عشرين ، ولكن في الحقيقة كان عدد المدعيات أربعاً . إحداهن إدعت من أنقرة أنني احتلت عليها .

لم يكن بين هذه النسوة واحدة ذات وجه طبيعي أو يدين طبيعيتين أو واحدة جميلة ، حتى لايوجد بينهن امرأة تتكلم بشكل منطقي .

عندما كنت أواجه بهن لم أعد أنكر كما كنت أفعل في البداية . لأنه كيفما كان فلن أستطيع اقناع الشرطة . فوق هذا سأنال المزيد من الضرب دون فائدة .

عندما قلت : إنني لا أعرفها ، عن امرأة تدّعي أنني غافلتها ، قال الشرطي الذي يأخذ إفادتي ، ساخراً :

ـ ولاه ، أما عرفناك بها قبل قليل . . مازلت حتى الآن تكذب وتقول لا أعرفها دون خجل...

قلت للقاضي في المحكمة :

ـ أنا لا أعرف أية واحدة من هذه النسوة . وفي حياتي لم أر وجه واحدة منهن . ثمة خطأ في هذا الأمر يا سيدي . إن تلك النسوة على الأغلب تشبهنني بواحد آخر .

قال القاضي ساخراً :

ـ كل هؤلاء الآنسات يشبهنك بواحد آخر ؟ . .

لو كنت مكان القاضي فسأفكر بالطريقة نفسها . الرجل على حق .

طلب المدعي العام سجلي العدلي . وورد في سجلي المجلوب من العدلية بأنه قُبض عليّ متلبساً في حالة ممارسة الزنى مع امرأة ، منتحلاً شخصية ضابط . ظهرت سابقتي .

كانت أكثر مرة ارتحت في السجن فيها . لأن اثنتين من النسوة اللواتي

ادعين بأنني احتلت عليهن ، كانتا تزورانني في السجن مرة في الأسبوع ، وتجلبان لي طعاماً ولباساً ، وكل ما أحتاج . إحدى هاتين الامرأتين هي ذاك المخلوق المجعلك ، والتي كانت ترتمي وتحتضنني كل برهة في غرفة المفتش في مديرية الأمن ، وتقول : «آه يا عاكف . . حرقتني . . يا ظالم يا عاكف» . والثانية تلك القائلة : «لماذا عملت فيّ هذا يا مظلوم . .» .

ومنذ زيارتهما الثانية ، فهمت سبب هذه الزيارات . الاثنتان تفكران بالزواج مني . ولأن سجني بسبب شكايتهن الشخصية ، فيمكن لي التخلص من السجن في حالة سحبهن لشكايتهن . ولكن هذا ليس صحيحاً . . لأنني حكمتُ ليس بسببهن فقط ، بل لأنني احتلت منتحلاً شخصية ضابط على أربع نساء . ويجب أن تسحب كل هؤلاء النسوة شكاياتهن لأتخلص من السجن . وبما أنني لا أستطيع الزواج من كل هذه النسوة فلا خلاص لي .

مع هذا لم أقطع أمل هاتين اللتين كانتا تأتيان إلى زيارتي ، ولكن في الوقت نفسه لم أعدهما . كان هدفي معرفة سبب فعلتهما هذه .

سألت المرأة التي ادعت أنني احتلت عليها منتحلاً شخصية الضابط مظلوم عندما أتت إلى زيارتي في يوم ما . قلت لها ، إذا كانت تريد الزواج مني فعليها أن تحكي الحقيقة! لم تحك بشكل واضح ، ولكنني فهمت من كلامها شيئاً ما... في الحقيقة إن شخصاً قال عن نفسه إنه ضابط قد احتال عليها ، واحتال كثيراً . فهي لا تستطيع أن تنسى ألم خسارة حليها الغالية جداً التي فقدتها . عندما علمتْ من الجرائد عن إلقاء القبض على صياد نساء شهير ، احتال على العديد من النساء ، فقد دبت الحياة بآمالها مجدداً . ولعلها تستطيع ادعاء أن بعض الحلي التي بحوزتي لها ، وهكذا تسترد شيئاً مما أضاعت .

ووعدتها الشرطة قائلة : «كل النساء سيسترددن أشياءهن» ، وبالتالي أثارت آمالها من جديد . ولأنني لم آخذ من أية واحدة منهن أية قطعة حلي ، فما وُجد عندي شيء منها . هذه المرة فكرتْ بأن حليها طارت ، فعلى الأقل

يجب ألا تُفلت الرجل الذي من الممكن أن يكون زوجاً لها ، فبدأت بزيارته في السجن .

ولأنني أَعِدُ كل امرأة منهما في وقت مختلف عن الآخر فلم تلتقيا . كانت إحداهما تأتي قبل الظهر ، والثانية بعد الظهر من يوم الزيارة . في يوم ما ، التقتا أمام باب السجن ، وتبادلتا الحديث حتى حان موعد فتح الباب . وعندما فهمتا أنهما تزوران الرجل نفسه ، فما استطاعتا اقتسامي . كل واحدة منهما قالت إنني خطيبها . في البداية تبادلتا الكلمات البذيئة ، وفيما بعد دخل العراك مرحلة الشعر بالشعر ، والرأس بالرأس . وقد أنقذوا واحدة من بين يدي الأخرى ، وهي مغطوطة بالعرق والدم ، وقد تمزق كل ماعليها . كان من الطبيعي جداً أن تتغلب المرأة المجعلكة المخربطة على الأخرى . لأنها عرفت الرجل العاري مرة واحدة في حياتها ، لذلك فقد قاتلت خصمها بروحها وأسنانها لكي لا يفلت من بين يديها الرجل الذي سيحل محل ذاك . حاولت تجميع ما كانت تقوله لي في كل زيارة من زياراتها ففهمت سبب افترائها عليّ . هذه المسكينة تعمل خادمة منذ وعيها على الحياة . وهي قبيحة إلى حد لم يدخل حياتها رجل حتى عمرها ذاك . أقول عمرها ذاك ، ولكن لا أعرف ذلك العمر . يستحيل فهم عمرها من وجهها الشبيه بوجه الضفدع . لعلها عبرت الأربعين من عمرها . وقد اشترت بكل ما كسبته في حياتها من الخدمة ذهباً وفضة ، كانت تشتري هذه الأشياء أملاً منها بأنها ستجد زوجاً بسهولة أكبر عندما تكون غنية . وقد خدع المسكينة محتال انتحل شخصية ضابط ، ووضع عينه على هذه الحلي . والضابط كان مرشح زواج ، أبعد بكثير مما في خيالها . لهذا السبب فقد أعطت كل مالها وماعليها للضابط المزور . وقد أخذها خطيبها من أجل أن يأخذ الصائغ مقاسها . وكان سيشتري لها حلياً حسب مقاسها ، قيمتها أكبر من قيمة هذه . وعندما مر زمن طويل ، وخطيبها لم يعد . فقد راجعت مديرية الأمن ليس من أجل الاحتيال بل لخوفها من أن شيئاً قد وقع على رأسه . وبالتأكيد فهمت مديرية الأمن أنه احتيل عليها

فوضعوا أمامها الملف الذي يحتوي على صور المتهمين بانتحال شخصية الضابط ، وسألوها :

ـ انظري إلى هذه الصور ، كي نرى أياً منهم ؟

نظرت إلى الصور فلم تجد صورة الذي احتال عليها . وإما أن هذا الضابط المزور قام بعمله الأول ، وليس له صورة لأنه ليس من أصحاب السوابق ، أو أنها عندما رأت صورتي أعجبت بي أكثر .

كأنهم عندما وضعوا الصور أمامها لم يسألوها : «أي منهم ؟» بل قالوا لها : «اختاري واحداً منهم!» وهي اختارتني على عقلها . . وهي لا تتألم على فَقْد حليها ، بل تتألم على فَقْد زوج من يديها . فإذا لم يتم الأمر معه ، فأنا أصير معها . لهذا السبب كانت تشهشه بالبكاء وتحتضنني وهي تقول : «آه ياعاكف . . ياظالم ياعاكف!» .

ولا أعرف سبب كذب الأخريات بإدعائهن أنني احتلت عليهن . من الممكن أن يكون رجال الشرطة عندما وقع بيدهم صاحب سابقة بانتحال شخصية ضابط ، عرضوا صورتي على المرأة التي ادعت احتيال ضابط عليها ، وقالوا لها : «انظري جيداً يا آنسة ، يجب أن يكون هذا...» وهكذا أثروا عليها . .

ومن الممكن أن تكون الامرأتان مريضتين نفسياً . على الرغم من عدم وقوع شيء من هذا لهما قالتا : «هذا الضابط المزور أغفلنا ، واحتال علينا . .» . من الممكن أن يكون الأمر على هذا النحو ، لأن إحدى هاتين الامرأتين ، عندما كان المصورون الصحفيون يصورونني ، توسلت إليهم لكي يصوروها ، ووضعت (مكياجاً) على وجهها لتبدو في الصورة أجمل ، ووقفت أمام (الكاميرا) مبرزة خديها .

في إحدى زيارات تلك الملخبطة الخدامة ، قلت لها ممازحاً :

ـ من لايخاف الله ، لا يخجل من عبده . لماذا اخترت صورتي من بين كل صور أصحاب السوابق ؟

يبدو لدهشتها ، وتحت تأثير المفاجأة قدمت لي هذا الاعتراف :

ـ ماذا أفعل ياحلو ، كنت الأجمل بينهم ، والأكثر شبهاً بالرجال . أعجبت بك . .

في ذلك اليوم طردتها قائلاً :

ـ ليبعث الله لك البلاء! اغربي عن وجهي ، لا تجعلي عيني تقع عليك مرة أخرى . .

ولكنها صارت تتوسل قائلة :

ـ لاترد عشقي! لدي المزيد من النقود مما وفرته ، سأجعلك تعيش مثل الوردة في السجن . .

ـ اغربي! .

ألا تقول عندئذ :

ـ أنا أخبئ خزينة حياتي من أجلك . . أنا بنت باكر . .

هنا قفز الدم إلى رأسي ، فصرخت بها :

ـ إن شاء الله تعيشين حتى سن الألف ، وتبقين بنتاً باكراً حتى ذاك العمر!

عندما ذهبت باكية شعرت بألم لا يمكن وصفه .

كانت هذه قصة دخولي إلى السجن للمرة الثانية بتهمة انتحال شخصية الضابط . بعد هذا لا أعرف بالضبط عدد المرات التي سجنت فيها بتهمة انتحال شخصية الضابط ، وبتهمة الاحتيال بانتحال شخصية الضابط ، من الممكن أن تكون عشرين مرة ، ومن الممكن أن تكون ثلاثين ، . . وممكن أن تكون أكثر... صرت صياد نساء شهير . .

في يوم ما جاءني صحفي طلب مني أن أحكي له عن ذكرياتي حول صيد النساء . أنا سأحكي له وهو سيدونها . وقال إن القراء يتوقون لمعرفة مغامراتي . فإذا نشر ذكرياتي سترتفع مبيعات الجريدة . ومقابل هذا سيدفعون لي نقوداً .

عندما قلت للصحفي الشاب إنني لم أصدْ امرأة واحدة في حياتي ، ضحك ساخراً ، وقال :

ـ لا تقل هذا ، على الأقل لنا يا باشازادة .

كانت كلمته هذه أثقل عليّ من إهانات الشرطة بكثير .

ولكنني لا أجد هذا الصحفي الشاب غير محق في موقفه هذا . شخص وقع في السجن عشرين أو ثلاثين مرة بتهمة صيد النساء ، إذا قال هذا ، فمن سيصدقه ؟

في النهاية وصلنا إلى الاتفاق التالي : أنا أحكي له بعض الحقائق عن حياتي ، وهو سيكتب عن مغامراتي حول صيد النساء ، أي أنه سيلفق بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى . .

هذه الحادثة عرفتني كم كان الناس مهووسين بالكذب . كان ذلك الصحفي يلفق ، وينشر هذا التلفيق في الجريدة . والجريدة تُخطف من الباعة خطفاً ، وشهرتي تتوسع . نعم نحن البشر نهتم بما هو غير حقيقي ، أكثر مما هو حقيقي . حتى إننا لا نعجب بالحقائق . . كم هو جذَّاب الكذب .

لفق لي هذا الصحفي اسم أب ، ثم إن هذا الأب الملفق كان باشا . وكنت شاباً جميلاً أمشي بخيلاء ، وكانت الأميرات اللواتي يترددن على القصر في حي (كاغتهانة) يتجاذبنني . في يوم جمعة وقفت الأميرتان ناجية ، وأمينة أمام قبر السلطان أيوب . فتحت الأميرتان صنبور ماء سبيل القسمة والنصيب الموجود في الباحة . هذا يعني أن كلاً منهما تبحث عن زوج مناسب لها . وأنا اغتنمت الفرصة ، حسب ادعائه ، واقتربت منهما ، وحكيت معهما ، وعرفتهما بنفسي قائلاً :

ـ أنا حفيد يوسف عز الدين . .

وبعد هذا التعارف ، صرت أدخل إلى القصر وأخرج منه .

لا يفكر الناس فيما إذا أمكن حدوث هذه الأمور أم لا . في الحقيقة كان الناس على استعداد لتصديق الكذب الكبير . .

بينما كنت أتردد على القصر ، أُعجب بي كثيراً رئيس المشرفين عليه وتبناني . .

وفي أحد الأيام بينما كنت أتجول على عربة يجرها حصانان ، تعرفت على (روحصار) بنت عارف باشا كبير أطباء مشفى (غومش صويو) . والد روحصار عارف ، وأبي... مسكينة روحصار . تعيسة روحصار! لم تستطع التخلص من عشقي على مدى خمس عشرة سنة ، حتى ماتت بالسل .

كثيرات النساء اللواتي وقعن في شباكي ، وجميعهن فتيات عائلات أصيلة : معزز بنت بهجت باشا ، تعرفت إليها أثناء تجوالي بالقارب في (كوتشك صو) . سهر خانم ابنة فؤاد بيك مدير برق (صوغوق تشتشمة)... ما كتبه الصحفي الشاب عن زواجي من سهر خانم بإسهاب وتشويق ومبالغة جعل القراء في حالة من الشوق ، يبدؤون فيها بقراءة ذكرياتي فور أخذهم الجريدة .

قال إنني ذهبت إلى بيت فؤاد بيك وأنا في ثياب قبطان سفينة ، مشغّلة بخيوط الذهب ، ولها كتافيتان مذهبتان . وعرَفت بنفسي أنني قبطان السفينة (غول جمال) . وقلت إنني أطلب الزواج من سهر خانم ، حسب فريضة الله وسنة رسوله . . لماذا ارتديت ألبسة قبطان السفينة ؟ لأن سهر خانم متعلقة كثيراً بالبحارة ، والقباطنة . ولأنها أجمل جميلات العالم ، فقد تآكلت عتبة بيتهم من ذهاب ومجيء الخاطبات ، لكن سهر خانم تقول أريد بحاراً ، ولا تغيّر رأيها . .

ولأنه في تلك الأيام كان الزواج يتم عند الشيخ ، فكنت أتزوج الكثير من النساء . فتزوجت معزز بعد روحصار ، وسهر بعد معزز . . وأكلتُ ، وشربتُ ، وبذّرت حتى إنني خسفت ثروات هذه العائلات ، وبعت قصورهم ، وفيلاتهم ، ومصايفهم ، وبذرتها . .

أنا لم أحك شيئاً من هذا ، ولم أكذب أية كذبة منها . ولا أستطيع تلفيقها حتى لو أردت ذلك . قبل كل شيء إن ما كتبه الصحفي متناقض من الناحية

التاريخية ، فعمري لا يمتد إلى ذلك التاريخ . ولكن لأن الجميع يتراكضون من أجل تصديق كذبة ، فلا أحد يسأل إذا ما كان عمري يوافق هذه القصص أم لا .

استمرت هذه المسلسلة الصحفية في الجريدة مدة أشهر . وكلما وجد الاهتمام مستمراً يستمر الصحفي الشاب بالكتابة ، وبين ما نشره على أنه ذكرياتي ، توجد قصة أنا حكيتها له . وهذه القصة أيضاً ليست صحيحة . نظرت ، وإذ بالكذب يجد اهتماماً كبيراً ، فقلت لنفسي لألفق أنا أيضاً كذبة .

هل تريدون الاستماع إلى هذه الكذبة ؟

كانت أيام ضيقي . . أفكر بما يمكن لي أن أفعل . . إن أمثالنا يكونون مبحلقي العيون ، ومشنفي الآذان . ... ثمة دكان منجد صغير في حي (قاليون جوقللو) . بينما كنت أسير ببطء أمام الدكان سمعت حواراً تم بين شخص يبدو على هيئته أنه بواب ، وبين المنجد . كان البواب ينادي المنجد ليذهب إلى بناء مجاور من أجل تنجيد بعض الفرشات . وقال المنجد إنه لا يستطيع الذهاب حتى اليوم التالي بسبب انشغاله .

أصغيت إلى هذا الحديث . ليس هذا فقط ، ولكن لضرورة عملنا في الاحتيال نصغي إلى كل الأحاديث . المحتال الماهر يستطيع الإصغاء إلى حديث أي شخص ، والاحتيال على أي شخص يستمع حديثه . .

لم أفكر في البداية أنه من الممكن أن ينتج عملاً دسماً من حديث المنجد مع البواب . لكنني صحوت عندما قال البواب إن (المدام) مستعجلة على عمل الفرشات . امرأة . . في بناء . . ربما أنه قال عنها مدام فهذا يعني أنها أجنبية . . وبما أن الوقت وقت عمل ، فلابد أن زوج المرأة في عمله ، ومن الممكن أن تكون وحيدة في البيت .

في تلك الأيام كان قمع الشرطة للأجانب كبيراً . ليس الأجانب فقط ، بل كانت ترتعد فرائص كل منسوبي الأقليات أمام الشرطة . دع الأقليات جانباً ، حتى لو كنت من الغالبية ، فبماذا ستختلف ؟ ... كان قمع الشرطة ثقيلاً على

الجميع ، ولكن على الأقليات أثقل . .

قال المنجد إنه سيذهب في الصباح التالي باكراً . وبعد أن ذكر البواب عنوان البيت للمنجد ، دله عليه بشكل جيد . يجب أن تكون ذاكرة المحتال قوية . انسللت من هناك ، ومباشرة إلى البناء... رأيت على الباب اسماً غريباً . هذا هو المكان . رننت الجرس . لم يفتح الباب . سمعت من الداخل صوت امرأة ذات لكنة أجنبية :

ـ من ؟

ـ المنجد يا مدام . . أنتم طلبتم منجداً .

فتح الباب . ومع فتح الباب انتهيت . الله ، الله! . . نعم توجد نساء جميلات ، ولكن أتوجد نساء يقطع جمالهن أنفاس الآخرين ؟ . . نعم . ظننت أن أمامي لهباً يقطع الأنفاس . وكان هذا اللهب يتلفع بثوب صباح أزرق حريري ، مفتوح من الأمام على رقبة بجعة ، وتمتد الفتحة إلى مابين الثديين... وقدميها ضمن (شحاطة) رقيقة من الحرير الأزرق . . قلت :

ـ أنا المنجد .

وهل يأتي المنجد فارغ اليدين ؟ كيف سيندف القطن أو الصوف ؟ المرأة مثل الجن . سألت :

ـ أين ادواتك ؟

ـ سأرى الفرش ، واللحف التي تحتاج إلى تنجيد ، ونتفق على السعر ، ثم أذهب إلى الدكان وأجلب الأدوات .

عندئذ ادخلتني . أغلقت الباب .

قبل أن أرى المرأة ، كانت نيتي أن أقول لها إنني من الأمن السياسي ، وإنني سأفتش البيت ـ هذا إذا كانت وحدها ـ . أعرف أنني إذا قلت لها أنا من الشرطة ، سترتجف رجلاها ، ويداها حتى لو لم ترتكب أي ذنب . وأنا كنت سأبحث في الخزانة ، والدروج ، و(البوفيه) ، و (الكوميدينة) بشكل دقيق ، وسأجمع ما يؤولني إليه الله مماخف وزنه وغلا ثمنه ، وأذهب . ليس

من المناسب أخذ حلي هذه المرأة وتركها . ولكن كيف سأفعل من أجل جعل المرأة لا تصرخ ، وأقوم بعمل ما أنوي عمله ، وهي راضية .

كانت المرأة يهودية ، وفي الخامسة والعشرين من عمرها . ويبدو من خلال أغراض البيت أنها غنية جداً .

سألتها :

ـ أين الفرش ، واللحف التي ستنجدينها ؟

مشت المرأة أمامي . يا سيدي لم تكن تمشي . كانت تسيل كالماء ، وتتماوج إلى الجانبين . وكلما كنت أنظر إليها أذوب . سأذوب إلى حد أنني سأسيل على الأرض .

دخلنا إلى غرفة النوم . كدت أدوخ من غرفة النوم تلك . لا يمكن أن يكون لمكان هذه الرائحة إلا الجنة . . مددت يدي إلى جيبي ، وأخرجت قطعة مقوى ، ومددتها نحو المرأة .

ـ أَمن! دخلت بيتكم كمنجد ، وسأفتش البيت...

هذه المرأة جاء دور الدوخة على المرأة . فجأة ، ابيض الوجه المشمشي اللون الأنمش . ولولا أنها اتكأت على الخزانة ، كانت ستسقط على الأرض . آه لو أنها لم تتماسك ، ومسكتها عندما ستسقط .

قطعة المقوى التي مددتها نحو المرأة ، ولا أدري كيف وصلت إلى يدي ، هي بطاقة مواعيد القطار الكهربائي . ولكن المرأة اليهودية لم يبق لديها قوة ، لتنظر إلى ما مددته نحوها ، بعد أن قلت لها إنني من الأمن .

قلت لها :

ـ سأفتش .

قالة بلهجة يهودية :

ـ فتشوا!

ـ قبل كل شيء سأفتشك . . ارفعي يديك!

عندما رفعت يديها إلى الأعلى ، كأن ستارة باب الجنة قد ارتفعت ،

فعندما فُتح صدر ثوب الصباح الأزرق . ياهوه ، ماذا يمكن لشرطي أن يفتشه لدى امرأة بهذا اللباس ؟ ولكن قصدي معرفة فيما إذا كانت هذه المرأة ستقاومني أم لا ، ستصرخ أم لا . فهمت أن المرأة مهما خافت لن تحني رأسها... مددت يدي إلى تحت إبطيها ، كأنني أمد يدي إلى النار ، وسحبتهما...

لم يعد لي أمل سوى التوسل والترجي والاسترحام . وهذا مافعلته . قلت إنها ستنال ثواباً من هذا الأمر . ولكن عليها أن تفرح المسكين . ولكن قلبها المتحجر لم يلن على الرغم مما قلت لها ، حتى إنها مدت يدها إلى الهاتف عندما اقتربتُ منها ببطء . فهمت أنني إذا هرعت لمنعها ستصرخ . فقلت :

ـ حسن ، حسن ، اتركي الهاتف...

لا أحد يستطيع مساعدة الإنسان في ظروف كهذه إلا الله . فليس لأحد قوة تكفي لمساعدة الإنسان في ظروف كهذه ، سوى الله . وأنا أعانني الله . على الرغم من قولي للمرأة إنني من الأمن ، ولست منجداً ، ولكي أحكي فقط ، رفعت اللحاف عن السرير وقلت لها :

ـ أهذا هو الفراش الذي سينجّد ؟

قالت :

ـ نعم .

هنا رفعت الفراش ، كان تحته فراش آخر . وماذا وجدت بين الفراشين ؟ . . إيه يا الله ، أنا فداؤك ، من يهرع إلى عون الفقير سواك ؟ رأيت علماً بين الفراشين . عبست بوجهي ، وقطبت حاجبي وصرخت قائلاً :

ـ ماهذا ؟

صارت المرأة ترتجف مثل أوراق البلوط البيضاء في الريح ، وقالت بلهجتها اليهودية :

ـ علم!

ـ علم آآآ ؟ علم ماذا هذا ؟

قالت متمتمة :

علمنا . .

- ماذا يعني علمنا . . احكي! علم ماذا ؟

- العلم التركي . .

- نعم ، إنه العلم التركي . لماذا وضعتِ العلم التركي تحت الفراش ؟

- نحن نرفع العلم التركي في عيد الجمهورية ، وفي عيد الاستقلال ، وفي كافة الأعياد . ولكي يبقى العلم مكوياً ، وضعته هنا . .

كدت أضحك على لهجة المرأة اليهودية . وإذا ضحكت فستخرب جدية الموقف ، ولن تخاف المرأة ، كانت تغير لفظ بعض الأحرف من الكلمات...

- هل لك زوج ؟

ظننت أنني سأشفق عليها عندما يكون لديها زوج ، فصرخت بفرح :

- نعم!

- هل تنامين مع زوجك على هذا السرير ؟

- هذا يعني أنك تنامين مع زوجك كل ليلة فوق العلم التركي ، أليس كذلك ؟ احكي بسرعة...

- نعم .

- العلم التركي تحتكم ؟ وتنامان فوق علمنا ؟!!! ؟

لم تنبس بصوت . كانت ترتجف :

- ماذا تفعلين مع زوجك في الليل على هذا السرير ؟

- ننام .

- فهمنا أنكما تنامان . عندما تضطجعان ، ماذا تفعلان ؟

- ننام .

- وهل تنامان مباشرة ؟ غير النوم ، ماذا تفعلان ؟!!! ؟ ماذا تفعلان فوق العلم التركي ؟

- لاشيء . . لا نفعل شيئاً .

ـ ولاه ، كيف لا تفعلان شيئاً . . هل تنامين مع زوجك حتى الصباح كل ليلة مثل أخين ؟

سكتت .

ـ ولاه ، ألا تفعلان تلك الشغلة على السرير أنت وزوجك ؟

طأطأت برأسها . .

ـ يااااه . . هذا يعني إنكما تفعلان تلك الشغلة على العلم التركي هااا ؟ هم م م . .

اتجهت فوراً إلى الهاتف . رفعت السماعة .

ـ ولاه ، احكي ماذا سأفعل الآن ؟ وفوق العلم التركي أيضاً ؟ احكي بسرعة ، ماذا سأفعل لك أنا الآن ؟

طأطأت برأسها مرة أخرى ، وقالت :

ـ افعل ماتريد...

ـ احكي! احكي ، ماذا سأفعل لكِ أنا الآن ؟

ـ افعل ماتريد!

تمام ، رضخت . فوق هذا بإرادتها . لم تعد تستطيع الصراخ . وطالما أن المرأة من تلقاء نفسها ، تقول افعل ماتريد ، فرفض امرأة كهذه لا يناسب الرجولة أبداً .

عندما نهضنا عن السرير قالت :

ـ كان العلم تحتنا . .

انزعجت ، وقلت لها :

ـ هذا ممكن ، لأنني تركي .

ولكن لا تظنوا أنني أهملت مهمتي الأمنية . بحثت في كل فجوات البيت . دسست في جيبي كل ماوجدته صغيراً وثميناً ، وخرجت من البيت . آه من هذا العقل... لو أنني لم أفتش ، ولم آخذ شيئاً من البيت فمن الممكن أن أغدو ضيفها في الوقت الذي أريد ـ طبيعي عندما يكون زوجها غير موجود ـ .

كان هذا الفصل من ذكرياتي ، أكثر الفصول التي لاقت إعجاباً . حتى إن ذلك الصحفي قال لي :

ـ أرجوك يا باشازادة ، حسن أنك لست صحفياً ، لو كنت صحفياً لسبقتنا جميعاً...

وأنا أجبته قائلاً :

ـ أنا محتال صاحب سوابق . لهذا السبب عندما أحتال فأخدع شخصاً واحداً . ولكنك عندما تكتب في الجريدة فإنك تحتال على كل قراء الجريدة ، أنت تحتال على الآلاف ، وعشرات الآلاف . لهذا السبب فكلانا إبنا مهنة واحدة ، ولكنك صاحب وزن أكبر في هذه المهنة . .

المسلم الألماني المُنْتَحل

هذه قضية مختلفة . . غضب المسكين كثيراً . اسمعوا كيف حدثت . بعد خروجي من السجن ، لم أكن قد فقدت آمالي بعد يومئذ ، ولكنني أخاف من السكنى في المدن الكبيرة . ومن الممكن وقوعي في مأزق ما لأنني من أصحاب السوابق . لهذا السبب ذهبت من اسطنبول إلى أماكن بعيدة . تجولت في كثير من المناطق ، ولكن حيثما أذهب يعمل الناس على إدخالي في ذلك الطريق الوحيد الذي بقي مفتوحاً أمامي . . تجولت في كثير من مناطق الأناضول . وأينما ذهبت لم أستطع فتح طريق غير ذاك الوحيد المفتوح أمامي . بدأت آمالي تتحطم تدريجياً . . دفعت ما في جيبي من نقود ثمن تذكرة قطار ، وبعد سفر دام ليلة ، نزلت في محطة ما . البلدة تبعد عن المحطة مسير خمسة وأربعين دقيقة تقريباً . لم يكن لدي أية نقود . ذهبت إلى البلدة سيراً على الأقدام . البلدة تستيقظ لتوها ، والدكاكين تُفتح . وصلت أمام جامع . دخلت صحنه . بعد أن غسلت وجهي من ماء الصنبور ، جلست مسنداً ظهري إلى أحد الجدران . بدأت أفكر فيما سأعمله . لا أدري كم قضيت من الوقت وأنا جالس . كنت شبه مخدّر أو نائم .

استيقظت على صوت شخص بجانبي يقول :

ـ السلام عليكم . .

التفتُ فوجدتُ رجلاً ملتحياً ، لكنه شاب في الأربعين أو الخامسة

والأربعين من عمره . كنت متضايقاً ولأنني لا أريد الدخول في الحديث ، لم أردَّ السلام . قال من جديد :

ـ السلام عليكم .

لم أهتم به مرة أخرى .

ولكن بعد أن قال :

ـ ألا تسمع ؟ أنا أسلّم عليك! السلام لله .

صرخ بصوت أعلى :

ـ السلام عليكم!

لم أعره انتباهاً مرة أخرى . أتى رجل آخر الى جانب الملتحي ، وسأله :

ـ من هذا ؟

ـ لا أعرف ، لكنه يبدو أجنبياً . . لايتكلم أبداً . .

ـ أخشى أن يكون أصم ، اسألهُ .

ـ يبدو بوضوح أنه أصم .

كنتُ صامتاً لأنني لا أملك قوة تمكنني من الحديث مع هؤلاء ، بسبب شدة جوعي وعطشي وتعبي .

وضع القادم الثاني يديه على فمه مثل البوق ، وصرخ في أذني :

ـ ألا تسمع ؟ هل سمعك ثقيل ؟

قلت لهما بقصد دفعهما عني :

ـ يا . .

ـ من أين أنت قادم ؟

قلتُ مرة أخرى :

ـ يا . .

اجتمع حولي عدد من الأشخاص ، قال آخر القادمين متسائلاً :

ـ من هذا ياترى ؟

قال الملتحي :

ـ لا أدري . . إنه لا يتكلم . . يقول : « يا . . يا » ولا يلفظ كلمة أخرى .

ـ أيقول : « يا . . يا . . » ؟ يبدو أنه ألماني . . حسنٌ ، إنه ألماني . . الشعب الألماني دائما يقول : « يا » أليس كذلك يا جاويش حسين ؟ أنت أعرف مني بهذا .

قال رجل عجوز :

ـ نعم ، إذا كان هذا يقول : « يا ، يا » فهو كافر ألماني . . والكافر الألماني أفضل الكفار جميعاً .

قال آخر :

ـ نعم هذا الرجل ألماني صاف . . وهذا واضح من ألبسته .

سررت لحديثهم . شعرت بأنني سأضحك ، ولأنني لم أتكلم في البداية ، لم أستطع التكلم فيما بعد . أردت أن أعمل نفسي أصمَ أو أجنبياً . شبهوني بالأجانب بسبب قبعة (الكولونيل) على رأسي ، ورقعتي بنطالي المخملي القديم عند الركبتين .

ـ ثقوا تماماً بأن هذا الرجل ألماني . . هاهي ألبسته ، إنها تنبئنا عنه .

سألني أحدهم :

ـ هل أنت ألماني ؟

ـ يا . . يا . .

التفت إلى من حوله :

ـ الرجل ألماني ياناس . . لهذا لا يتكلم ، ونحن ظننا أن الرجل أصم . . حسنٌ ، ألا يوجد من يتكلم الألمانية هنا ؟ ياعم حسين ، أنت تقول إنك خضت الحرب مع الألمان ، تحدث إليه ، اسأل عن سبب مجيء هذا الألماني المسكين إلى هذه الأماكن ؟

قال الرجل الذي ينادونه العم حسين :

ـ مرت على هذا الأمر سنوات طويلة ، ونسيت الألمانية التي كنت

أعرفها .

ـ ياناس... وهل تُنسى اللغة ؟

ـ ألا تنسى ؟ ثم إنني أعرف اللغة الألمانية العسكرية . المدنيون الألمان يصطحبون مترجمين معهم عندما يريدون أن يتكلموا مع الألمان العسكريين .

ـ دعوا عنكم هذا ، وذاك . هل سنترك هذا الألماني المسكين في زاوية الجامع ؟

في هذه الأثناء أتى رجل من الدكاكين المقابلة للجامع راكضاً ، ووصل وهو يلهث :

ـ يا أخوان ، هل هذا الرجل ألماني ؟

ـ نعم ألماني .

سأل القادم راكضاً أحد المجتمعين ، قائلاً :

ـ ماذا حدث يا عمر أفندي ؟

ـ أيُسأل عما يحدث يا أبناء البلد ؟ أتيت إلى الدكان في الصباح الباكر ، قلت « بسم الله » وفتحت الدكان . لحظتئذ نظرت إلى الطرف المقابل ، فوجدت هذا الألماني يتوضأ من صنبور الجامع ، ولأنني لا أعرف أنه ألماني ، قلت لنفسي : « من أين يا ترى هذا الغريب المتدين ؟ » .

أما غسلت وجهي من ماء أحد صنابير الجامع ؟ صار هذا وضوءاً .

سأل أحد المجتمعين عمر أفندي :

ـ وهل صلى ؟

أما أجابه :

ـ نعم ، صلّى! لأن الوقت مبكر ، وباب المصلى مغلق ، فقد صلى هنا على العشب .

ـ وهل صلاته حقيقية يا عمر افندي ؟

ـ لا ليست تماماً . . لم تكن صلاة بكل معنى الكلمة . حاول تقليد المصلي .

قال رجل آخر :

ـ أخشى أن يكون هذا المسكين الألماني قد أتى إلى هنا من أجل أن يصبح مسلماً . .

ـ نعم ، وهو كذلك .

ـ لا تشكوا في هذا الأمر مطلقاً .

ـ وإلا فماذا يعمل في هذا الصباح الباكر في جامعنا ؟ هذا يعني أنه قادم ليُسلم .

سألني عمر أفندي ، وهو يساعد كلماته بحركات رأسه ، ويديه ، وكأنه يتحدث إلى ألماني :

ـ أنت . . أنت . . أنت مسلم... مسلم أنت ؟... ستصبح مسلماً . . نعم ؟

وقعت في مأزق لم أعد أستطيع أن أقول فيه :

ـ ياناس...... أنا مسلم ، واسمي كذا . .

في البداية لم أتكلم معهم . وأجبتهم على كل ما سألوه بـ : « يا . . يا » . إذا تكلمت معهم الآن بالتركية سيظنون أنني سخرت منهم . . ثم إنني لن أرتاح ، وأسحب نفسي من هنا ذاهباً ؟ جلس أمامي الرجل الذي عرفت اسمه عمر أفندي ، صاحب اللحية المدوّرة ، وقال :

ـ أنت . . أنت مسلم!

قلت له :

ـ يا . .

سألني مرة أخرى :

ـ أنت . . ستصبح مسلماً ؟

ـ يا . .

فور قولي هذا ، فتح ذراعيه في البداية عمر أفندي ، ثم الآخرون ، واحتضنوني ، وقبلوني . اضطررت لفتح ذراعيَّ ، وقبلتهم أنا أيضاً .

تكاثر المجتمعون من حولي ، قال أحدهم :

ـ يجب أن نستضيف أخانا في الدين .

تأبط عمر أفندي ذراعي ، وانهضني من فوق العشب حيث كنت جالساً . وقال لي ، وكأن الألماني يفهم مايقول :

ـ تفضل لنذهب إلى بيتنا المتواضع . .

ثم قال مخاطباً الجمع :

ـ يكفيني أن أنال ثواب هذا العمل . مساهمتي في إسلام مسيحي ، واستضافته بعد أن يسلم تساوي سبع حجات .

سرنا سوية . قال عدد من المجتمعين :

ـ يا عمر أفندي! غداً أنتما ضيفانا .

ـ يا عمر أفندي! لنتناول طعام العشاء عندنا .

أثناء مرورنا أمام الدكان ، نادى عمر أفندي أحدهم داخل الدكان قائلاً :

ـ يا بني ، أنا ذاهب إلى البيت . إذا سأل أحد عني ، قل له لديه ضيف محترم جداً ، اصطَحِبَهُ إلى البيت .

بعد أن التفتنا يميناً ويساراً في أزقة ضيقة صاعدة ونازلة ، وصعدنا ونزلنا فوق أحجار أرصفة ضخمة ، بدأنا نصعد . كدت أسقط جوعاً . في الطريق أدركت أن عمر أفندي يريد أن يتحدث بأمور ما ، لكنه لم يفعل . في النهاية سألني :

ـ ما اسمك أنت ؟ اسمك ؟

ولأنني لم أستطع تلفيق اسم ألماني ، تظاهرت بعدم الفهم . ولأن عمر أفندي شعر بالضيق بسبب عدم تفاهمنا ، أخذ سبحته ، وبدأ يقول : «لاحول ولاقوة إلا بالله . .» ، ثم تمتم قائلاً لنفسه :

ـ سنعلّمه التركية هنا .

بعد صعود طويل ، وصلنا إلى بيت محاط ببستان في القمة . بعد أن طرق عمر أفندي الباب الخشبي بمطرقة حديدية على شكل يد امرأة ، انبعث صوت من عمق بعيد داخل الجدار :

ـ من هذا ؟

صاح عمر أفندي :

ـ آسية! . . افتحي يا بنتي!

فُتِحَ الباب . وبسبب عدم وجود أحد خلفه ، فهمت أنه فُتح بواسطة خيط . قال عمر أفندي : « بسم الله » ، ودخل من الباب . عبرنا الحديقة . عندما دخلنا بناء البيت البارد الواسع ، صرخ عمر أفندي :

ـ بالإذن . . لدينا ضيف . هل يوجد أحد ؟

دخلنا إلى غرفة واسعة من الطابق الثاني . على طول الجدران الثلاثة يوجد مقاعد طويلة مغطاة بالسجاد . جلسنا ، ثم خرج عمر أفندي ، وعاد بعد قليل . وبعد برهة من الزمن ، دخل شاب حاملاً صينية نحاسية مبيّضة بالقصدير ، مملوءة بأطباق الطعام . رائحة الحليب الذي ينبعث منه البخار مثل العطر . وضعا الصينية على منضدة خفيفة لها أربع قوائم تفتح وتغلق . قال عمر أفندي :

ـ أنت قادم من بعيد . لابد أنك جائع . تفضل .

بعد ذلك ، ومن أجل إفهامي ، جَمَعَ رؤوس أصابعه ، وقربها من فمه ثم أبعدها عدة مرات ، مصدراً صوت مضغ ، مشيراً إليّ لأبدأ بالأكل .

قال لي :

ـ أنت لست غريباً . نحن أخوة . أخوة في الدين . لا تخجل .

ووضع يده على كتفي ، وتركني في الغرفة وحيداً لكي آكل براحتي .

بعد أن ملأت معدتي ، صحوت ، وبدأت أفكر : « كيف سأوضح لهؤلاء أنني تركي ؟ لا ، أصبح هذا مستحيلاً . . لقد خرب هذا تلقائياً منذ البداية ، وظنوا أنني ألماني . أفضل عمل هو الخروج من هذه البلدة في أسرع وقت ممكن . كنت مضطراً للذهاب سيراً على الأقدام ، لأنه ليس معي نقود » .

أثناء تفكيري في هذا ، دخل عمر أفندي بصحبة رجل ملتح آخر . قال الآخر :

ـ السلام عليكم . .

كدت أقول : « وعليكم السلام . . » ويخرب كل شيء . ولكن صحوت عندما قلت :

ـ عليـ . .

فرح عمر أفندي ، وقال :

ـ سيقولها ، سيقولها . . سيتكلم . . آه لو وُجد من يتكلم الألمانية في هذه البلدة . . سنعلمه التركية . . قال الآخر :

ـ سنعلمه بإذن الله . .

جلسا متربعين على المقعد . تحدثا وهما ينظران إليّ ، سأل عمر أفندي الآخر :

ـ ماهي مهنة هذا الألماني يا ترى ؟

ـ الألمان ، إما عسكريون ، أو علماء . إذا نظرنا إلى وجه هذا الرجل ، فلا يبدو عليه هيئة العسكريين . . من الواضح أنه عالم ألماني . . ولو أخذنا بعين الاعتبار رغبته بالإسلام ، فهذا يؤكد أنه عالم . . ولكن علمهم لا يشبه علمنا نحن المسلمين أبداً .

ـ نعم . لا يشبهه . . علم هؤلاء الألمان دائماً في موضوع الآلات والهندسة .

ـ نعم ، صحيح . . إذا نظرنا إلى وجه هذا الألماني نجد أنه مهندس بالتأكيد .

ـ مهندس في ماذا يا ترى ؟

ـ هذا ما لا نعرفه . . إذا لم يقل هو ، فلا نعرف ، ولكنه يشبه مهندسي الطائرات والكهرباء .

كدت أنفلت ضاحكاً . كنت أدرك أنني إذا لم أذهب من هذه البلدة ستكون نهاية هذه اللعبة سيئة .

قال الضيف الملتحي لعمر أفندي صاحب البيت :

ـ إذا كان يريد أن يسلم ، وأتى إلى هنا لهذا الشأن علينا ألا نتماهل . . ماقولك ياعمر أفندي ؟ لنخبر المفتي بسرعة . علينا أن نقول للمفتي : « أتى عالم ألماني في الهندسة ، وسيتشرف بالدين المبين » .

قال عمر أفندي ، وكأنه يدرك ما لا يدركه الآخر :

ـ انتظر ، هؤلاء الألمان مَهَرة في كل شيء . خاصة علماء الهندسة منهم .

قاطعه الضيف قائلا :

ـ نعم ، فهمت . . ستُبعث بلدتنا يا أخي . .

سنُعْلِمُ كافة الأمصار بمجيء هذا الألماني إلى بلدتنا ليسلم . وستكتب عن هذا جرائد اسطنبول .

قال الضيف الملتحي :

ـ إحذر يا هذا ، ماذا تقول ؟ هل فقدت صوابك ياعمر أفندي . . إذا سمعوا بمجيء عالم هندسة ألماني كهذا إلى بلدتنا لكي يسلم ، لايتركونه عندنا ، بل يأخذونهُ إلى الجامعة في اسطنبول ، والى مدرسة الهندسة ، ويعملونه معلماً هناك . الأفضل ألا نُعلم أحداً غريباً بوجود هذا الألماني هنا . ستسهل الأمور لو علّمنا هذا الرجل التركية . . سنستطيع بشكل ما خداع هذا الرجل ليبقى هنا . في الحالة العكسية ، سيأتون من اسطنبول ، حيث هناك كثير ممن يعرف الألمانية ، ويأخذون الألماني من يدنا . .

ـ حسن انك قلت هذا يا شريف أفندي . . يا لعقلك ما أرجحه . . كدنا أن نطيّر من يدنا هذا الحظ الهابط علينا .

من مصلحتي هذه الفكرة التي عرضها العجوز المدعو شريف أفندي . لو نشرت صحف اسطنبول صورتي ، وتحتها : « هذا هو الألماني الذي سيسلم » ستقوم القيامة فوق رأسي مرة أخرى . كنت أريد أن أضيّع أثري عن الشرطة . في هذه الأثناء ، نُقر على باب الغرفة ودخل رجل آخر .

قدَم لي عمر أفندي السجائر .

فجأة خرج على لساني : « قل » كأول مقطع من أسم السيجارة التي أدخنها ، وصحوت ، ولكن بما أنه خرج على لساني هذا المقطع ، صرت أكرره :

ـ قل . . قل . . قل . .

هاج الرجل المدعو شريف أفندي فرحاً ، وقال :

ـ تمام ، يا ناس ياهوه ، توصل إلى الهداية . . أما سمعتموه ؟ إنه يقول : « قُلْ » . .

قال عمر أفندي"

ـ نعم سمعناه .

ـ حسنٌ ، ماذا تعني : « قُلْ » ؟ إنه يريد أن يقول « قل هو الله أحد » ، ولأن المسكين لا يعرفها فلا يستطيع . لا إله إلا الله ، يُنْطِق الألماني بالإسلام .

حاول الرجل الآخر إقناع شريف أفندي بأن الألماني لا يستطيع قراءة « قل هو الله أحد . . » لعدم معرفته اللغة ، ولعلني أريد قول أمر آخر ، لكنه أصرَّ قائلاً :

ـ يا هذا ، هل يعرف الطفل اللغة عندما يولد ؟ لا يعرف . . لكنه فيما بعد يغرِّد بها كالبلبل . كيف يحدث هذا ؟ جناب المولى يُنطق الطفل الذي لا يعرف اللغة .

الآخر ، لا يريد الاقتناع فيقول :

ـ حسنٌ ، ولكن يا شريف أفندي الطفل لا يتكلم فجأة . . كم سنة يقضي وهو يتعلم اللغة رويداً رويداً . .

ـ يا غافل! أقول لك : « هذا الألماني اهتدى » ماذا يعني هذا ؟ المولود لايعرف أية لغة . هذا الألماني يعرف لغته أليس ذلك ؟ انك تقارن ألمانياً هذا القدر قدره بطفل صغير . إنه على كل شيء قدير ، ويعمل ما يشاء .

ـ آمنا ، هذا صحيح ، ولكن . .

بعد أن تحدثا مطولاً حول هذا الأمر ، قال عمر أفندي :

ـ هذا الرجل متعب من الطريق . إنه قادم من ألمانيا يا أخي . . أين ألمانيا ، وأين نحن . لنتركه وحده لكي ينام . .

شرح لي بإشارات اليد أن أنام ، وأرتاح . أطبق كفيه بعضهما على بعض ، وجعلهما مثل المخدة تحت خده الأيمن ، وأغلق عينيه . ثم أشار إلى الفراش الممدود على المقعد المطاول . أشرت بهز رأسي بمعنى فهمت . وكنت قد سمعت أن : « دانكي شون » تعني أشكرك ، فقلت :

ـ (دانكي شون) .

قال عمر أفندي بصوت مرتفع ، وكأن الألماني يفهم إذا علا الصوت ، بلغة تركية مكسرة ، كأنه ألماني يتكلم التركية :

ـ شيء لازم من أجلك . . ستصرخ من الباب . . فهمت ؟

هززت برأسي . خرجوا من الغرفة . ولأنني في الحقيقة متعب ، ونَعسان ، تمددت في الفراش . لو كنت أعرف بعض الجمل الألمانية لما وقعت في هذا المأزق . كان خوفي الأكبر أن يجدوا من يعرف الألمانية ، ويحضروه ليحادثني .

كنت أنوي قضاء الليل هنا ، والاستيقاظ باكراً ، والذهاب من هنا .

غصتُ في الخيالات مرة أخرى . لم أكن كما كنت في السابق ألهث وراء خيالات كبيرة . لم أعد أفكر في أن أصبح مليونيراً . هدفي الوحيد أن أعيش مثل أي مواطن شريف بحالي ، وأعيد حياتي التي انحرفت خارج إرادتي إلى طريقها الصحيح . أية بلاءات نزلت على رأسي . نمت وأنا أفكر بما وقع لي في الماضي ، وبما سأفعله في المستقبل . لا أدري كم قضيت نائماً . ولكن بما أنني شعرت بالراحة والقوة عندما استيقظت أدركت أنني نمت مطولاً . استيقظت على صوت صرير الباب . نهضت ، فرأيت شاباً قروياً يضع المائدة على الأرض . كان داخلاً إلى الغرفة على رؤوس أصابعه لكي لا يقلقني . مد الغطاء ، ثم وضع المائدة ، ومختلف أصناف الطعام .

هل أنا أحلم أم ماذا ؟ لم أفهم بأي شكل سبب هذا الاحترام الكبير لمسيحي واحد أسلم ، بينما كل هذا العدد من المسلمين يتلوون فقراً ، وجوعاً .

ملأت معدتي جيداً . بعد قليل جاء الشاب ، ونقل المائدة .

أردت الذهاب إلى المرحاض ، ولكن كيف سأسأل عن مكانه . خرجت من الغرفة . رأيت فتاة تعبر من الصالة عبور حزمة الضوء . ولم أستطع متابعتها بنظري خشية أن يراني أحد ما ، وأنا أنظر إليها . مجرد خيال جميل عبر أمام ناظري للحظة مثل البرق ، وضاع .

ثمة أبواب تفتح على الصالة . وبما أنه هنالك منشفة معلقة على مقبض أحد هذه الأبواب ، لابد أنه باب المرحاض . لابد أنهم وضعوا هذه المنشفة على مقبض الباب لكي يفهم هذا الكافر الألماني . .

عدت إلى الغرفة . ملأت معدتي ، ونمت ، وارتحت . نظرت من النافذة فرأيت سهلاً أخضر . هنالك أشجار تفصل بين السهل وبيوت البلدة . يقع بيت عمر أفندي وسط بستان مليء بأشجار الفاكهة .

آه لو أن هؤلاء يقبلونني باعتباري تركياً يريد أن يعمل بشرفه ، ويكسب لقمته ، ويؤمنون لي عملاً صغيراً في هذه البلدة ، بدلاً من احترامي باعتباري ألمانياً يريد أن يسلم . فكرتُ لحظتئذ : «ماذا يحدث لو قلت لهؤلاء إنني لست المانياً ، بل أنا تركي ؟ لابد أن ما سيحدث ليس جيداً . من الممكن أن يطردوني وهم ينهالون عليّ بالضرب . أو يسلموني إلى الجندرمة . مع أنني لم أعرفهم بنفسي باعتباري ألمانيا» .

أعجبت بالبستان الذي كنت أشوفه من النافذة إلى حد أنني أحببت النزول إليه . ضقت ذرعاً بالغرفة . النافذة التي أنظر منها إلى البستان ، مجاورة للباب . فور فتحي الباب . . يا إلهي ، آه لو أنني لم أفتحه . . الفتاة التي رأيتها في الصالة قبل قليل محنية أمام الباب . لابد أنها تنظر من شقوق أخشاب الباب لتوقها لرؤية الألماني . ولأن النافذة قريبة جداً من الباب ، لم

تستطع الهرب عندما رأتني . عندما فتحتُ الباب عبرتْ مثل النسيم هاربة . شعرب بالحرارة في وجهي لخجلي . . عدت عن رأيي بالخروج إلى الحديقة ، وأغلقت على نفسي في الغرفة مرة أخرى .

فرحت عندما سمعت مساءً صوت عمر أفندي وهو يصرخ :

ـ بالإذن يا حاضرين .

وبما أنه يقول : « بالإذن » فهو ليس وحيداً . وقع أقدام كثيرة . فتح باب الغرفة ، وأدخل عمر أفندي الرجل الأكبر سناً بينهم ، قائلاً :

ـ تفضل يا حضرة المفتي .

بعد هذا ، دخل خمسة أشخاص ، بينهم شريف أفندي الذي رأيته صباحاً .

قال المفتي :

ـ السلام عليكم .

لم أعرف ما سأفعل ، أو أقول . هل أصافح المفتي ، أم أقبّل يده ؟ يا الله ، ما هذا البلاء الذي سقط عليّ . كيفما كان سأهرب من هنا في الصباح الباكر . ممكن لي أن أسكت حتى الصباح . مسكت يد المفتي وقبلتها . قال المفتي :

ـ جعل الله الهداية من نصيبك .

جلس الجميع . كانوا يتحدثون فيما بينهم ، وينظرون إليّ .

قال شريف أفندي :

ـ وجه منور . منذ زمن طويل يتضح أنه سيسلم . . وهل هذا الوجه وجه كافر ؟

نظر الجميع إلى وجهي مبتسمين .

قال المفتي :

ـ عندما تنزل الهداية على قلب أحدهم ، يتجلى النور على وجهه . .

في هذه الأثناء قرروا الاحتفال في اليوم التالي ، في دار الفتوى بمناسبة

قبولي دين الإسلام .

قال أحد الضيوف :

ـ قبل كل شيء يجب أن نعلمه التركية ، الشعب الألماني كله ذكي ، متفتح الذهن ، يتعلم بسرعة .

ـ بعد ذلك علينا أن نجد له عملاً هنا .

ـ بالتأكيد هذا واجبنا . . إنه أخونا في الدين .

ـ كسبنا أخاً جديداً في الدين .

قلت بيني وبين نفسي : « كان القدر ناقصاً باذنجانة . . » ألا يرى هؤلاء الرجال أخوتهم في الدين الذين يتمرمرون في الحياة ؟ لا أدري . .

قال المفتي :

ـ نعم ، علينا أن نجعله صاحب عمل ، ونقدم له رأسمالاً . . بعد ذلك نؤمن له بيتاً ومأوى ، ونزوجه .

عندما قال المفتي كلمته الأخيرة ، نظر الآخرون كلهم إلى عمر أفندي .

فُتِحَ الباب ، وجاءت مائدة العشاء . جلس الجميع متربعين حول المائدة ، وأفسحوا لي مكاناً إلى يسار المفتي . قال المفتي :

ـ لم يعتد هؤلاء الألمان على الأكل جميعاً من طبق واحد مثلنا . هؤلاء ، كل منهم يأكل من طبق خاص به .

قال عمر أفندي :

ـ الله ، الله . . إذا كان سيقبل بالدين الحق ، فعليه أن يتعلم عاداتنا .

قال الآخرون :

ـ صحيح ، صحيح .

شمَّر المفتي عن ذراعيه ، وتناول الملعقة ، وقال : « بسم الله » ونزل بالملعقة الخشبية في الوعاء الأوسط ، بادئاً بالحساء .

قدموا لي ملعقة خشبية ، وكأنني أفهم مايقولون لي :

ـ تفضل ، تفضل .

بدأنا بالحساء . بعده اللحم . . سُرّوا كثيراً لتناولي الطعام مثلهم بالملعقة من الوعاء الأوسط .

بعد الطعام قرروا كل شيء بشأني . في الصباح التالي أدخل في دين الحق ، وبعد عدة أيام يختنونني .

شعرت بأنني سأضحك ، ولكن مسكت نفسي بالقوة . حسنٌ أنهم لم يجلسوا طويلاً بعد الطعام . انطلاقاً من فكرة أن الضيف مُتعب ، قالوا :

ـ أعطاك الله العافية .

وذهبوا . .

من الصعب عليّ أن أجلس وسطهم دون أن أتكلم ، وكأنني لا أعرف التركية .

نمت بسرعة . نويت أن أستيقظ في الصباح الباكر جداً ، وأهرب من هناك . ولكن لم أستطع أن أنام لحظة طوال الليل . ثم ألا أنام مع الفجر ؟ عندما فتحت عيني كانت الشمس قد أشرقت منذ زمن طويل . نهضت بسرعة ، وارتديت ملابسي . خرجت وأنا أسير على رؤوس أصابعي . عندما فتحت الباب ، أما رأيت الفتاة مرة أخرى ؟ هربت الفتاة راكضة . لم أعد أستطيع العودة ، عندما كنت أهبط الدرج ، سمعت الفتاة تنادي :

ـ بابا ، بابا ، ذهب الألماني .

أحسست بالخوف من وقوع بلاء جديد على رأسي . سرّعت خطواتي . كان ثمة أناس قلائل في الأزقة . كان عليّ إما الخروج من البلدة والهرب راكضاً ، أو الاختفاء خلف دغلة أشجار . بعد قليل وقع لي ما خفت منه . عمر أفندي ينادي من خلفي :

ـ هيه ، هيه ، ياهو . .

لابد أنه يركض ، لأنني أسمع صوته يرتفع تدريجياً . لا أستطيع الهرب ركضاً ياه . . اقترب صوت عمر افندي أكثر . كان يناديني : « إلى هنا يا هذا . . قف يا رجل . . إلى أين أنت ذاهب في هذا الوقت من الصباح ؟ قف ،

تمهل يا هذا . . ضاقَ نَفَسي ، ستقتلني . . قف ولاه ألماني . .

احترت في وقوفي أو عدمه . . إذا توقفت سيفهم أنني أعرف التركية . عندما انتهيت من نزول المنحدر ، ووصلت إلى ساحة السوق ، ورأيت الجامع ، فجأة خطرت ببالي فكرة ماكرة . دخلت إلى الجامع ، ووقفت عند الصنابير كما فعلت قبل يوم . وصل عمر أفندي ، فقال ضاحكاً ، وكأنه قد فهم ما أريد :

ـ قل يا أخانا في الدين إنك تريد الذهاب إلى الجامع . . خوفتنا يا أخ . يا الله ، لقد أنزلت الهداية على قلب هذا الألماني ، فأصبح أفضل إسلاماً منا ، يركض إلى الجامع منذ الصباح الباكر .

حاول إفهامي بحركات اليد ، والعين ، والفم ، وبالصوت بأنه لا يمكن الدخول إلى الجامع والعبادة دون الدخول في دين الإسلام ، وأنا تصرفت كأنني فهمت ما قال .

عدنا معاً إلى البيت ، فهمت أنه ليس من السهل الهروب من هناك . فتركت الأمور تسير على هواها .

ذهبنا بعد ظهيرة ذلك اليوم إلى دار الفتوى . أمام المفتي وجمع غفير من الناس نطقت بالشهادة خلف المفتي . حاولت ما بوسعي النطق بها كما يلفظ الألمان . قرأ المفتي بعض الأدعية . صرت مسلماً للمرة الثانية . . جاء الدور على إيجاد اسم إسلامي لي . سألوني :

ـ ما اسمك ؟

تظاهرت بعد الفهم . عندما لم يستطيعوا التعبير عما يريدون ، قال المفتي :

ـ نادوا معلم اللغة الفرنسية ، لعل أخانا في الدين هذا يعرف الفرنسية .

بعد قليل أتى معلم الفرنسية . كان قد سمع بما جرى . فسأل قائلاً :

ـ أهذا هو أخونا في الاسلام ؟

قالوا :

ـ نعم ، تكلم معه بالأفرنجية .
عندما قال معلم اللغة الفرنسية :
ـ وهل يفهم فرنسيتنا يا ترى ؟
أدركت أنه يعرف قليلاً من الفرنسية . قال :
ـ (برلاڤو فرانسي) ؟
فهمت أنني أستطيع التغلب على هذا الرجل ، بما تعلمته في المدرسة من اللغة الفرنسية ، فقلت :
ـ (وي)
ـ ما اسمكم ؟
كنت قد جهَّزتُ لنفسي اسماً ألمانياً :
ـ كارل . .
حسنٌ انه لم يكن في تلك البلدة معلم لغة ألمانية ، أو من يعرف اللغة الألمانية . التفت معلم اللغة الفرنسية إلى الجمع قائلاً :
ـ يا سادة ، يا أبناء البلد . . هذا الرجل كما قلتم عنه تماماً . . إنه عالم شهير دولياً . لا يوجد من لم يسمع باسمه . إذا ذهبتم إلى أي مكان في أوربا ، أو أمريكا وسألتم الطفل عن اسم هذا الرجل فسيعرفه .
لم نتبادل ـ معلم اللغة الفرنسية وأنا ـ سوى جملتين قصيرتين ، لكنه تحدث وكأننا تكلمنا ساعات :
ـ يا أبناء بلدي! يقول (الهر كارل) لا تنظروا إلى كونه شاباً . . ويقول لقد بحث في كافة الأديان . . ويقول بعد أن قضى كل هذه السنين وهو يبحث في الأديان وصل إلى هذه النتيجة . . يقول دين الحق هو الإسلام . . ويقول قررت أن أصبح مسلماً . .
ارتفعت من حولي أصوات تقول : «أهكذا قال ؟» استمر معلم اللغة الفرنسية :
ـ نعم أنا أترجم حرفياً . يقول : حلمت في ليلة أن شيخاً مسلماً لحيته

البيضاء تصل إلى زناره ، والنور يطفح على وجهه . .

أحياناً كان معلم اللغة الفرنسية يوجه إليّ كلمة أو كلمتين فرنسيتين . لأنني لا أفهمهما كنت إما أقول : « وي » ، أو لا أقول شيئاً ، وأؤدي حركات يمكن تفسيرها بأي معنى ، وأحاول تمرير الأمر عبر ابتسامة .

سمعت أحد الهامسين بين الجمع يقول :

ـ ما أشطر معلم اللغة الفرنسية بهذه اللغة! . . أمر رائع . .

المعلم مستمر :

ـ قال لي صاحب الوجه المنور بالألمانية في حلمي : يا كارل ، أنا إسرافيل عليّ السلام . لقد نزلت الهداية على قلبك . أذهب إلى البلد المدعو تركيا ، والبلدة الفلانية ، واشرب من مائها ، وكل من خبزها وملحها ، وهناك ستجد مبتغاك وتصبح مسلماً . وقال لاسرافيل عليه السلام بالألمانية : « أين تقع البلدة الفلانية ؟ أنا لا أعرفها ، فأشار إلى موقعها على الخريطة ، وكتب له عنوانها على ورقة ، ثم غاب . ويقول عندما فتحت عيني كانت الشمس تشرق . أخذت الورقة التي كتب عليها اسرافيل عليه السلام العنوان ، وانطلقت في الطريق دون أن أقول لأحد من جماعتي : (أوديو) ـ هؤلاء يقولون أوديو بدلاً من مع السلامة ـ . . وبعد بحث وسؤال دام أربع سنوات وجدت بلدتكم . إنها في مكان صعب جداً الوصول إليه .

قال رجل متوسط العمر لمعلم اللغة الفرنسية :

ـ يا هذا ، كل هذا الكلام قاله هذا الرجل ؟

ـ نعم قاله هذا الرجل .

ـ متى قاله ؟ أنت قلت له مرة واحدة (فان) وهو قال لك (فين) لم تقولا سوى مرة واحدة (فان) مرة واحدة (فين) . . وأنت منذ ساعة تقول لنا ، قال كذا ، وقال كذا . كيف حمّلت (فان فين) كيساً من الكلام ؟

بالرغم من تغيّر وضع المعلم ، لكنه استجمع نفسه قائلاً :

ـ إذا لم أعجبكم ، هاتوا واحداً آخر يتكلم معه .

وذهب دون إرادة ، وهو يشعر بضيق الإحراج ، فمسكوه من ذراعيه قائلين :

ـ أرجوك يا أستاذ ، لا تهتم لكلام هذا التافه . إحكِ لنا عما قاله هذا الرجل .

قطب المعلم وجهه ، وقال :

ـ لم يتكلم . لم يقل شيئاً آخر ، هذا كل شيء .

(عندما قصَّ لي باشا زاده هذه القصة التي وقعت له ، قال إن جميع الموجودين هناك يعرفون أن معلم اللغة الفرنسية يكذب ، ويعرفون أن هذا الكلام من تلفيق المعلم ، لكنهم يريدون أن يؤمنوا بهذا التلفيق . لأنهم يتمنون أن تكون الأحداث على النحو الذي يحكي عنه معلم اللغة الفرنسية . إنهم بحاجة إلى الاعتقاد بكذبة كهذه . سألت باشا زادة عن سبب هذا ، ماقاله لي على وجه التقريب هو : الجميع يقبل أن أي ألماني أفضل منهم . عندما يقبل ألماني متفوق عليهم بدينهم ، سيشعرون بأنهم متفوقون حتى على الألماني المتفوق . لديهم شعور كهذا لا يظهرونه) .

بعد ذلك بدأ المعلم يضرب لسانه على سقف حلقه ، ويجقجق قائلاً :

ـ يا لصعوبة إفهام الجهلة الكلام . اللغة الفرنسية ، لغة في غاية الاختزال . مثل الصابون . . إذا أخذنا قطعة صابون ، ورغينا بها ، ورغينا ، تكثر الرغوة ، وتكثر ، وتكثر . . هكذا اللغة الفرنسية . في كلمتين فقط يمكن لك أن توسعها كل معاني الحياة هذا إن كنت تفهم . . واشرح إن كنت تستطيع . يتوقف الأمر على نباهتك . لايمكن لك أن تنهي معنى هاتين الكلمتين مهما شرحت .

قطع المفتي هذا الحديث قائلاً :

ـ المهم ، ليكن هذا خيراً . . الآن كيف سنطلق على هذا الرجل اسماً إسلامياً ؟

ـ ما اسم الكفر لهذا الرجل ؟

ـ كارل .

ـ إذا كان اسمه كارل ، فمن المناسب أن نسميه كامل . .

أطلقوا عليّ اسم كامل . وحملوني على الراحات لأنني أسلمت .

مرت عليّ الأيام في هذه البلدة بسعادة عظيمة . كأن أهلها دخلوا سباقاً من أجل استضافتي ، وبعث السرور في نفسي . لكن عمر أفندي لا يريد التفريط بي . إذا دعاني أحد أغنياء البلدة إلى بيته ، فيصحبني ويتناول الطعام معي ، وبعد أن أنام قليلاً ، يعيدني إلى البيت مثل طفل مشاكس يريد الهرب .

وبدوري عودت نفسي على هذه الحياة . لم أعد أفكر في المستقبل كما كنت سابقاً . أقول لنفسي ليحدث ما يحدث . في تلك الأيام فهمت أن كون المرء مسلماً بالولادة لا ينفع في شيء ، وما أنفع تغيير الدين ، والدخول في الإسلام . لو أتى المسيحيون الفقراء في أوربا وأمريكا أو أي مكان آخر إلى بلدنا ، وقالوا : «نحن قبلنا الإسلام ديناً» سيخلع فقراؤنا سراويلهم المرقعة التي لايمتلكون غيرها ، ويقدمونها لهم ، ويصومون عن الطعام ، ويطعمونهم . أنا أدهش لعدم تفكير مسيحيي العالم بهذا من أجل تركنا حفاة عراة .

هنالك سبب آخر لعيشي اللامبالي هذا . كنت قد طوّرت علاقتي مع آسية بنت عمر أفندي . أرجو ألا تفهموا هذا بشكل خاطئ . كانت تلك علاقة بريئة ، ورومانتيكية ، وسرية جداً . لا نستطيع أن نتكلم إلا بعض العبارات في أمكنة من البيت ، وأزمنة لا يرانا فيها أحد . ولكن كلانا يبذل جهداً من أجل خلق فرص كهذه . ويبدو من تصرفات عمر أفندي أنه يريد جعلي صهراً له . وبالرغم من عدم قوله هذا صراحة ، كان يستعجل ختاني من أجل عمل العرس في أقرب فرصة ممكنة . وقعت في مأزق الختان الثاني . وقضية الختان جعلتني أفكر كثيراً يومئذ .

تركت فيّ آسية تأثيراً لا أنساه أبداً . إنها فتاة جميلة وذكية جداً ، وذات طبيعة تجعلها لا تذبل ضمن حدود تلك البلدة الضيقة . يوم حكت لي عن أمها

البالغة ثلاثة وأربعين عاماً من عمرها ولم تخرج خارج حدود البلدة ، أغرورقت عيناها الكبيرتان البرّاقتان بالدموع .

كنتُ أُظهر لهم أنني أتعلم التركية بالتدريج ، حتى إنهم دهشوا لسرعة تعلمي ، لذلك طالما قالوا :

ـ ما شاء الله . . ما شاء الله . . ما أذكاه . .

آسية هي الوحيدة التي لم تنطلِ عليها لعبتي هذه . في أحد الأيام التي كنا نتهامس فيها ، وكنت أقلِّدُ الألمان فأكسِّرُ جُملي ، وأخرب لفظ كلماتي ، وآسية لا تتوقف عن الضحك . اعتقدت أنها تضحك نتيجة سرورها لحديثي بالتركية على طريقة الأجانب ، لكنها فجأة قالت :

ـ عندما تهذي تتكلم مثل الأتراك تماماً .

وهربت من الصالة حيث كنا .

عندئذ فهمتُ أن آسية تتنصت لي وأنا أهذي أثناء النوم . اللعنة على الشيطان . لا أستطيع تقليد الألمان وأنا أهذي ليلاً . بماذا هذيت يا ترى ؟ سألتها عدة مرات عن هذا ، قالت إنني هذيت بكلمات غير مفهومة مثل : « المعلل » ، « أكله الباشا » ، « لا ذنب لي » . كنت أحلم بالمدرسة العسكرية أثناء نومي .

لولا آسية لتركت البلدة منذ زمن طويل . لكنني شعرت مع الأيام بالارتباط أكثر فأكثر بهذه الفتاة . تلك الأيام كنت متعلقاً بحبال الله أكثر من أي وقت مضى ، حتى إنني بكيت أحياناً وأنا متمدد في الفراش أدعو ، وأتضرع إلى الله . أردت قطع كل علاقاتي بماضيي الملوّث بغير إرادتي . ممكن لي أن أعمل في هذه البلدة بشرفي ، وأكسب لقمة عيشي ، وأتزوج آسية ، وننجب أطفالاً . وبعد عدة سنوات ، عندما أُنسى أنني من أصحاب السوابق ، آخذ أسرتي ، وأذهب من هنا ، وأسكن في اسطنبول . يا لجمال الأحلام التي كنت أحلمها!

قضيتُ شهراً هناك .

أُعلِنَ زواجي من آسية . لم يبق سوى ختاني من أجل عقد القران . ولشعوري بأن أمر الختان سيجلب على رأسي مزيداً من المتاعب ، عملت على تأجيله . يا لما فكرتُ به . . فكرتُ أن أحكي كل شيء لآسية . أردت أن أحكي لها كل ما جرى لي . إن قبلتني بما أنا عليه حسنٌ ، وإن لم تقبل ، سأسحب نفسي وأذهب من هناك . آسية فتاة طيبة إلى حد يجعلني لم أعد أستطيع الكذب عليها بأنني ألماني . لأنه لابد أن ينكشف هذا الأمر يوماً ما . منذ البداية وآسية تريد أن أصطحبها إلى بلدي ، وأعرِّفها بأبي وأمي بعد الزواج . بما أنني لم أخرج من جحر حجري ، فقد لفقت بعض الكذب حول عائلتي في ألمانيا . قلت إن أبي المليونير طردني من البيت ، وهددني بحرماني من الميراث عندما عرف أنني سأدخل في دين الإسلام ، وأنني إنسان رفس الملايين في سبيل دين الحق .

قضيت الأيام والليالي مفكراً ، ولكن لم أجرؤ بأي شكل على قول الحقيقة لآسيا .

هناك حل . وهو الاتفاق مع الخَتّان . فكرت بأن أقول له الحقيقة ، وأتوسل إليه...

ولكن لا يبدو أن في قلب الختَّان رحمة على إنسان . هذا الرجل حلاق ، وكوّاء إنسان ، وطبيب أسنان ، وختان ، ومعالج شعبي بالأعشاب ، ولايوجد غيره ختّان في البلدة . دائماً يحمل السكين ، أو الموسى أو الكماشة ، عاش يقطع أجزاء من الناس حتى لم يبق في قلبه أية رحمة . رجل ضخم ، لحيته سوداء كثّة ، عريض ومفتول الحاجبين . لايمكن خداع هذا الرجل إلا بالنقود . ولكنني لا أملك نقوداً . عمر أفندي رجل متفهم جداً . كان يقول : «أنت الآن تُعد مثل أبني» ، ويعطيني نقوداً في بعض الأحيان . لايعطينيها في يدي ، بل يتركها على حافة المقعد الطويل ، ويذهب .

ولأن كافة احتياجاتي تلبى ، فلم أصرف أية نقود . صار معي خمسون ليرة . كانت تُعد الخمسون ليرة في تلك الأيام مبلغاً ضخماً يصلح لرأسمال صغير .

كان قد خاط لي عمر أفندي بدليّ ألبسة عند خياط البلدة .

قررت إعطاء الخمسين ليرة رشوة للختّان . وهذا من أجل أن يبقى سراً بيننا أمر أنني مختون قبل هذه المرة ، وبالتالي إنني مسلم من قبل .

لم أستطع بأي شكل قول الحقيقة للختّان . ولم يعد الوضع يحتمل تأجيلاً أكثر . سأمثل تحت مبضعه . وإما أن ينتبه إلى الأمر ويفضحني ، أو يختنني مرة أخرى .

إذا انتبه الختّان إلى حقيقة الأمر ، سأرمي نفسي على قدميه ، وأتوسل إليه ، وأشرح له كل شيء . عندئذ إذا كان قد بقي في قلبه ذرة من إنسانية ، فسيرحمني .

تقرر يوم الختان . يسمي المفتي الموعد : « جَمْعَةُ الختان » ، وحمي عمر أفندي يقول عنه : « حفل الختان » ، ويقول يجب أن يكون ذا طنّة ورَنّة ، وأن تقام وليمة كبرى ، ويصر على عدم الاكتفاء بدعوة أشراف البلدة ، بل سيدعو أشراف المحافظة .

ولخوفي من وقوع بلاء على رأسي وسط كل هذا التطبيل والتزمير ، قلت لحمي عدة مرات أن لا ضرورة لعمل حفل كبير ، كما يقول ، ورجوته أن تجري عملية ختاني بصمت ، لكن حمي لم يلب توسلاتي ،وقال لي : «ليس عندي من الأولاد سوى هذه البنت ، وأنت لست صهراً فحسب ، بل ولد . كل أموالي وأملاكي ستؤول إليك من بعدي . ونحن نعيش في مكان صغير يكثر فيه القيل والقال . إذا زوجتك ابنتي دون ختان مطنطن ، سيشيع الناس أنني زوجتها من رجل غير مختون . أثناء حياتي لا يستطيعون عمل شيء معك ، ولكن عندما يحل بي أمر الحق لا يدعونك براحتك . لهذا يجب أن يكون حفل الختان بطنة ،ونة ، ويشهد الجميع على ختانك» عندئذ فهمت أنني وقعت . ما فهمته من حمي هو أنني سأختن بحضور المدعوين .

فكرت كثيراً في إمكانية تحملي ، أو عدم تحملي فضيحة كهذه . وبما أنني لا أستطيع ترك آسية ، قررتُ يائساً الرضوخ لكل أنواع القباحات .

بعد ظهيرة أحد أيام قبيل ختاني بحوالي أسبوع ، قال لي حمي :

ـ أتى رجل يريد رؤيتك .

سألته :

ـ من هو ؟

ـ لا أعرفه . جاء من المحافظة...

عندما قال هذا ، شعرت بحرقة في قلبي ، وكدت أسقط . مَنْ يعرفني في المحافظة ليأتي ويسأل عني ؟ هنالك بلاء جديد يحوم حول رأسي . قال لي :

ـ ماذا حدث لك فجأة ؟ شحب لونك .

قلت :

ـ لاشيء .

ولكن لأنني لم أعد أستطيع الوقوف ، سقطتُ على المقعد .

لم أعد أستطيع الهرب .

وقع ما وقع . لعلي أستطيع تجاهل الرجل بواسطة تظاهري بأنني أتحدث الألمانية ، ولا أفهم ما يقول . عندئذ كان لابد من قولي :

ـ لنر من هو ، ليتفضل! . .

دخل إلى الغرفة رجل كهل ، يبدو من ربطة عنقه أنه متعلم . تبدد شيء من مخاوفي عندما رأيت وجهه باسماً . صافحني . فهمت أنه ليس شرطياً . كأن ماء بارداً رُشَّ على قلبي . لكنه لم يتحدث . انتظرت حديثه . قال :

ـ أنا صحفي .

إنه يعمل في جريدة المحافظة ، وهو مراسل لجريدتين أو ثلاث من جرائد اسطنبول الكبيرة . وأنا أخاف من الصحفيين أكثر مما أخاف من الشرطة . وقع على رأسي كثير من البلاءات بسبب الصحفيين .

كنت أبتسم ببرود فقط ، ولا أتكلم .

قال الصحفي :

ـ إنه لشرف كبير لنا دخول عالم ألماني شاب مثلكم في دين الإسلام .

لقد علمنا بالخبر متأخراً . لولا هذا ، لأتينا لزيارتكم من زمن طويل . لا تؤاخذونا على اهتمامنا المتأخر بكم .

قلت له في نفسي : «ليبعث الله لك البلاء »

لولا أن حمي معنا ، لتصرفت كأنني لا أعرف التركية . قال الرجل بالتركية ، ولكن كالألمان :

ـ ألمانية تعرفون أنتم . .

ثم أضاف ، وكأنه ألماني ، ومن أجل أن أفهم بسهولة أكبر :

ـ لا أعرف أنا . . ولكن انتم... تركية تعلمتم . . جيداً . .

قلت :

ـ قليلاً قليلاً . . رويداً رويداً . .

قال :

ـ حسنٌ ، حسنٌ نشرنا الخبر في جريدتنا ، وأبلغت جرائد اسطنبول بالخبر هاتفياً . قالوا لي اذهب وحاوره ، يقال إنكم اكتشفتم شيئاً ما ، ماهو ؟

يجب أن يكون جواب هذا السؤال كالتالي :

« اكتشفت غباء انساننا في عدم اهتمامه بالعائلات المسلمة منذ مائة جيل ، وإعطائه القيمة الكبرى لمن دخل في دين الإسلام حديثاً » .

ولايمكنني قول : «لم أخترع شيئاً » . لقد نُشِرَ اسمي باعتباري مخترعاً ألمانياً شاباً . .

ـ مخترعات كثيرة... أنا عَمِلَ . . عَمِلَ محرك بدون صوت . . من أجل طائرة . . المحرك لا يعمل طررررر... أنا عَمِلَ اختراعاً كبيراً جداً جداً... سفينة بدون دخان . . بدون مازوت . . بدون فحم . . بدون كهرباء . . .

وبعد أن تكلمت عن أشياء كثيرة من هذا القبيل ، توسلت إليه ما استطعت من أجل عدم نشر هذا في الجريدة ، وعدم إبلاغ جرائد اسطنبول بهذا . لأن نشر هذه الأمور يتعارض مع تواضعي . الإسلام يعني التواضع . التكبر ليس صحيحاً . لكن الصحفي يقول إذا نُشِرَتْ هذه الأقوال بالخط

العريض ، سيسمع العلماء الألمان الاخرون ، ويدخلون في دين الإسلام .

حلّ يوم الختان . لا أذكر أنني عشت في حياتي هيجاناً كهذا . يُعد الاحتفال كبيراً جداً . الخراف تُذبح ، والأرز يُطبخ ، والمأكولات تُحضّر . امتلأ البيت وحديقتهُ بالرجال . لا أستطيع رؤية آسية في هذه الظروف لكي أشرح لها كل شيء . ولكن أسوأ ما حدث هو حضور الصحفيين . وصل عدد كبير من صحفيي أنقرة واسطنبول . جميعهم يحملون آلات تصوير . لم أستطع المقاومة . عندما رأيتهم هربت من البيت . لكنني لم أستطع الابتعاد أكثر من مائة خطوة . كأنهم كانوا يضعونني تحت أنظارهم ، فسرعان ما أمسكو بي . في طليعة الهارعين نحوي ، حميّي وإلى جانبه الختّان ذو اللحية السوداء . فهمت من وجوههم أنهم سيطرحونني هناك خلف الأشجار ، ويختنونني فوراً .

قال حميّي :

ـ إلى أين ؟

قلت :

ـ أردت أن أتمشى قليلاً .

لعل لون وجهي أصبح في حالة لا أعرفها ، وهذا مادفع حميي لقول :

ـ لا تخف! ليس هنالك مايخيف .

قال الآخرون :

ـ يد ختّاننا خفيفة ، لن تشعروا بشيء .

قال الختّان الضخم ذو اللحية السوداء :

ـ لن أشعرك بشيء أبداً .

عدنا . . قال أحد الصحفيين الذين اعترضوا طريقنا :

ـ بماذا شعرتم عندما دخلتم في دين الإسلام ؟

قلتُ بالتركية ، وكأن المتحدث ألماني :

ـ أنا لايوجد تركية . . لا يفهم . .

ومشيت .

البلاء الحقيقي وقع عندما أدخلوني إلى الغرفة التي سأختن فيها . جُهِّز السرير الذي سأنام عليه ، وزُيِّن . اعتقدت أنني سأبقى وحدي مع الختّان . ولكن يوجد في الغرفة مجموعة من الرجال . وجهَّز الصحفيون آلات تصويرهم .

صرخت قائلاً :

ـ مستحيل . ليخرج الجميع!

حميي . يريدهم أن يبقوا . خرجوا بصعوبة ، وبقي شخصان . قال الختّان :

ـ ليبق هذان . سيمسكان يديك ورجليك .

لم أقنعهم بترك الغرفة بالرغم من قولي :

ـ ما الضرورة لهذا ؟ . . لست بحاجة . .

كلما فكرتُ بأنني سأُفضح بعد قليل ، يغمى عليّ ، وترتجف أطرافي .

هم يظنون أنني أرتجف خوفاً من الختان ، فيقولون :

لا تخف ، لا تخف!

من أجل منحي جرأة ، حكى لي الختّان ذو اللحية السوداء ، عن ختان المسنين :

ـ قديماً كان يوجد في البلدة بعض الأرمن ، وختنتُ بعضهم ممن أسلم . يدي خفيفة جداً . . أقول (هه) وآخذها ، هل تعرف ماذا تعني (هه) ؟ . . لا تشعر أبداً . كان يوجد شخص يدعى كيفورك . ختن الرجل وهو في التاسعة والخمسين من عمره . هو أيضاً سمي مثلك : كامل . أنا ختنت ذاك الأرمني ، وهو في هذا العمر . وبعدما جمعتُ الموسى والشاش والأدوات الأخرى ، قال لي وأنا أغسل يدي ، وكيفورك أفندي متمدد على ظهره : «هيا ، متى ستختنني ؟ » . . رجل مسنٌ إلى هذا الحد لم يشعر . هل فهمت ؟ قلتُ له ، «ختنت يا كيفورك أفندي! » فقال : «لا تسخروا مني ، اختني جيداً ، وإلا لن أقبل بختانك» هذا يعني أن يدي خفيفة جداً . أقول : (هه) وينتهي كل شيء .

هل فهمت ماذا تعني (هه) ؟ . . هيا . .

اتخذت وضع الختان . أغمضت عيني لكي لا أرى وجوههم وعليها علائم الدهشة . لم تحدث أية حركة . بعد ذلك ، صرخ الثلاثة معاً :

ـ سبحان الله ، سبحان الله . .

وخرجوا من الغرفة . لم أستطع الركض خلفهم والإمساك بهم . سمعت أصواتاً تنبعث من الخارج . مازالوا يقولون : « سبحان الله » . أصغيت من خلف الباب ، فسمعت الخَتّان يقول :

ـ حكمة الله! ياناس! ... هذا الرجل مبارك .

سمعت صوت حميي وهو يقول :

ـ هل انتهى ؟ هل ختن ؟ ماشاء الله . . ما أسرعك ؟ . . هذا يعني أنه خُتن .

قال الختّان :

ـ ماذا تقول يا عمر أفندي ، لم يضطر الأمر عمل ختان . صهرك مختون منذ الولادة . . ألا يحكي الناس عن ختان القمر ، أو ختان الولادة ؟ كنت أسمع بهذا لكنني لم أصدقه . . لكننا رأينا هذا أيضاً .

ـ رحماك ، ماذا تقول ؟

ـ نعم ، وهذان أيضاً يشهدان . . هما أيضاً رأوه .

ثم تكلم السيد المفتي :

ـ سبحان الله ، هذا يعني أن بحثه عن دين الحق ليس مصادفة . لقد دخلت الهداية قلبه من يومها...

سأل حميي :

ـ والآن ، ألن يختن ؟

ـ يتطلب الأمر قطع جزء صغير ، أي نصف ختان .

عندما قال هذا ، سمعت صوت رجل يقول :

ـ احذروا أن يكون هذا يهودياً . . اليهود عادة يختنون نصف ختان .

فتحوا الباب ودخلوا . . أنا كنت قد استجمعت نفسي . قلت للختّان وكأنني لا أعلم شيئاً :

ـ متى سنعمل ختان ؟ أم انتهى ؟ يدك خفيفة . . (هه) وينتهي . .

قال :

ـ الآن سنعمله . .

هذه المرة أصرّيت على عدم وجود أحد في الغرفة . كيفما كان ، فإن اللذين يُراد منهما أن يشهدا ، رأيا كل شيء . بقينا الختّان وأنا وحدنا في الغرفة . فهمتُ سبب قول هذا الرجل : « إنه يتطلب نصف ختان » إذا قال إنني مختون بشكل كامل ، فلن يقوم بأي عمل ، وهذا يعني أنه لن يقبض أجراً .

نظرتُ إلى وجه ذي اللحية السوداء . كان يجهِّز نفسه . قلت له :

ـ يبدو أنك من أجل قبض الأجرة ، ستختنني للمرة الثانية .

مددت يدي بالخمسين ليرة :

ـ ختاني كامل ، وليس ناقصاً .

نظر إلى وجهي باستغراب . قلت له :

ـ لسنا بحاجة إلى ختان ، أو غيره . أنت قل لمن في الخارج ، ختنته وينتهي الأمر .

قال : « بسم الله » وهو يأخذ الخمسين ليرة ويدسها في جيبه ، ثم أضاف :

ـ ممكن . . ولكن اصرخ أنت لكي يعتقد من في الخارج أنك خُتنت .

لو خُتنت بجد لكان من العيب أن أصرخ ، أو حتى أنبس . .

قال الختّان :

ـ اصرخ أكثر . . أكثر . .

ـ أكثر من هذا ؟ وهل هناك رجل يُذبح ؟

تمددت في السرير . امتلأت الغرفة بالمصورين الصحفيين ، وبدأت تتلامع الفلاشات وتلتقط الصور . قال صحفي :

ـ بماذا شعرتم بعد الختان ؟

قلت :

ـ بخفة كبيرة .

غادر المدعوون مساءً . لو كان الأمر لحميي ، لعمل الختان ليلاً لكي يرى أكبر عدد ممكن جرأة صهره ، وبالتالي تكون الفضيحة مجلجلة .

غطست في بحر عميق من الأفكار ليلاً . عندما ستنشر هذه الصور في جرائد اسطنبول وأنقرة ، ستزلزل الأرض . بدأتُ أفكر فيما إذا قد ارتكبت ذنباً أم لا . في الحقيقة لم أكن مذنباً ، لأنني لم أوقع الضرر بأحد .

بدأت التحضيرات لعقد القران والعرس . سيعقد قراننا بعد شهر .

تصل الجرائد إلى هناك بعد ثلاثة أيام من صدورها . مرت الأيام الثلاثة هذه بنفاد صبر . لا أظن أنه بيعت جرائد بهذا العدد في تلك البلدة مثل ذلك اليوم . بيعت فور وصولها بالقطار ، وأبرق الباعة طالبين مئات الأعداد منها . حتى من لا يعرف القراءة والكتابة اشترى الجريدة ليرى صورتي .

نشرت صوري في الصفحات الأولى :

« شاب ألماني دخل الإسلام »

« عالم الماني شهير دولياً دخل دين الحق ، وخُتن »

« حفل ختان عظيم للبروفسور كارل تينبرغن صاحب العديد من الاختراعات والمكتشفات »

« قبول البروفسور كارل صاحب أكثر من مائة اختراع واكتشاف ، الاسلام ديناً ، وختنه أدى إلى احتجاجات كبيرة في عالم الغرب »

بالطبع لم تكن هذه عناوين الجرائد بحرفيتها ، ولكن بهذا المعنى . أبدو في إحدى الصور متمدداً في السرير وسط ملتحيين ، أحدهما حميي ، والثاني الختّان .

مساء يوم وصول الجرائد الى البلدة ، كنت متمدداً في السرير ، مدعياً أنني ختنت . سمعت أصواتاً مرتفعة تنبعث من الصالة . فُتح باب غرفة النوم

فجأة . قفز نحوي ثلاثة رجال شرطة ، وكأنني طير سيفر هارباً . .

ـ انهض!

ـ بسرعة!

ـ البس ثيابك!

لم تكن هذه مصيبة غير متوقعة . كنت أتوقع ما سيحل بي .

وضعوا القيود في معصميّ . أُخرجت وسط رجال الشرطة أمام أعين سكان البيت الجامدة . التقت عيناي لحظة بعيني آسية . كانت تبكي ، وتمسح دموعها بمنديلها المطرز الذي تربط به رأسها .

لم أسمع سوى همسات أهل البلدة الذين تجمعوا على طرفي الطريق ، وهم ينظرون دهشين :

ـ هل هو جاسوس ؟

ـ لاتقل هذا ؟

ـ إنه جاسوس ، أليس كذلك ؟

ـ أنا كنت أعرف هذا .

ـ يُقال إنه جاسوس .

ـ هذا واضح يا أخي . ألا يجد الكافر مكاناً يدخل فيه الإسلام سوى بلدتنا ؟ هذا يعني أنه جاسوس . .

ـ إذا كان الأمر هكذا ، فهو ليس ألمانياً بالتأكيد ، الجاسوس لابد أن يكون إنكليزياً .

رموني في قبو المخفر دون أي تحقيق .

في اليوم التالي ، عندما قلت لرئيس المخفر :

ـ ماهو ذنبي ؟

صفعني على وجهي صفعتين ، وقال :

ـ ولاه ، أتظن أنك ستحتال علينا ، وتدعي أنك ألماني .

لم أنبس ، لم أستطع أن أنبس .

ياترى هل هنالك عقوبة لمن يُعَرِّفُ نفسه بأنه ألماني ؟ إن وجدت ، فهذا حسب القوانين الألمانية .

في اليوم التالي وصل بواسطة القطار خبران هامان بالنسبة لأهالي البلدة . أحدهما خبر الشرطة القادمة من اسطنبول خصيصاً لأجلي ، والثاني الجرائد التي نشرت نبأ احتيالي .

نشرت الصحف نبأ احتيالي بشكل أكبر بكثير من نبأ ختاني .

« قُبِضَ على الألماني المزور »

« احتال على كافة سكان البلدة مدعياً أنه عالم ألماني جاء ليدخل في دين الإسلام »

« تم التعرّف على العالم الألماني الشهير الذي نشرنا خبر ختانه البارحة إنه محتال شهير ، انتحل هذه الشخصية من أجل التغرير بفتاة شابة »

« نجحت دورية للشرطة بإلقاء القبض على المحتال الشهير باشازادة منتحلاً شخصية مخترع ألماني » .

بدأ رجال الشرطة المدنية القادمون من اسطنبول بالتحقيق معي . جاء معهم سبعة صحفيين . التقطوا لي العديد من الصور بمختلف المواقف . عندما كنت أعمل على إخفاء وجهي عن عدسات المصورين ، يهرع إليَ عدد من رجال الشرطة دفعة واحدة ، ويمسكون رأسي ، ويديرونه نحو العدسات .

حكيت كل شيء كما حدث تماماً . ما الذي يتطلب إخفاءه ؟ قلت لهم إنني أجبت بـ « يا . . يا » عن أسئلة الناس نتيجة التعب والإرهاق ، ظن بعض الذين حاربوا في الحرب العالمية الأولى من أهالي البلدة أنني ألماني ، فبدأ رجال الشرطة يضحكون .

بعد التحقيق معي ، قلت لهم :

ـ كما ترون . لا ذنب لي أبداً . لم أسيء لأحد .

ـ ماذا ؟ . . ليس لك ذنب ؟ إذا لم ترتكب ذنباً ، فلماذا أوقفناك ؟ ما الذي يدفعنا للمجيء من اسطنبول إلى هذه الأمكنة ؟ . . ألست من أصحاب

السوابق ولاه ؟ . . ألا تعتبر اقامتك في بيتِ أحد الأشراف قائلاً : «أنا عالم ألماني سأدخل في دين الإسلام» وأكلك لطعامه ، وشربك لشرابه ، ذنباً ؟ والتغرير بفتاة بكر ، مدعياً أنك ستختن ، ألا يعتبر ذنباً ؟

قضيت تلك الليلة في المخفر . في اليوم التالي اجتمع أمام المخفر ما يقارب الخمسة آلاف شخص .

قبل كل شيء قابلوني بحميي . سألوه عما إذا كان مدعياً عليَّ أم لا . ادعى عليَّ عمر أفندي :

ـ احتال عليَّ يا سيدي . . تفوه ، تفوه (بصق في وجهي) اللهم جازه لاحتياله عليَّ . لقد سَحَب مني ثلاثة آلاف ليرة بالتمام والكمال . غير هذا صرفت خمسمائة ليرة على احتفال الختان . أريد نقودي كاملة . . غير هذا أطالب بتعويض مقابل خداعه عائلتي ، ولعبه بشرفها . .

حماتي أيضاً ادعت عليَّ . بعد ذلك قابلوني بآسية . كانت عيناها منتفختين وحمراوين حمرةً قانية لشدة البكاء . لم تستطع فتح فمها لتتكلم .

سألها رئيس المخفر :

ـ يابنتي . من المؤكد أنك مدعية ، أليس كذلك ؟

قالت آسية :

ـ لا . .

ـ ألست مدعية ؟

ـ ما الذي فعله لكي أدعي عليه ؟ لم يعمل لنا شيئاً . لا ذنبَ له . .

ـ ألم يقل لك إنه ألماني ؟

ـ هو لم يقل لنا إنه ألماني ، نحن الذين قلنا له إنك ألماني .

ـ ولكن ، أمك قالت إنه أخذ أساورك ، وخاتمك ، وقرطك . .

ـ لم يأخذها . . كل هذا كذب . . لم يأخذ شيئاً . . ولم يطلبني . .

التفتُ إلى الجدار لكي لا ترى عيني تطفحان بالدموع . لم ينفعهم ضغطهم على آسية لتدعي عليَّ .

خرجت آسية . بعد ذلك دخل المدعون الأخرون عليّ ، ولم ينته بأي شكل توافدهم . أتى إلى المخفر كل من سمع من سكان البلدة بإلقاء القبض عليّ . بعضهم يدعي أنني احتلت عليه وأخذت مائة ليرة ، وبعضهم يدعي ألف ليرة . بعض الذين لا أعرفهم ، ولم أر وجوههم ادعوا أنني احتلت عليهم . حتى إن الختّان ادعى أنني استدنت منه مائة ليرة .

النهاية معروفة . حكم عليّ بذنب الإحتيال والتزوير . .

سألتموني عما إذا كانت قد زارتني امرأة في السجن ؟ نعم آسية فقط . . كنت يومئذ في سجن المحافظة . أتت في أحد أيام الزيارة . ولأنني خجلت منها طلبت نقلي إلى سجن اسطنبول .

تاجر الرحمة المُنْتَحل

لم يحك لي باشازادة عما جرى له حسب التسلسل التاريخي من البداية إلى النهاية . يحكي لي قضية حين يذكرها عن طريق التداعي من خلال ما أفتحه من مواضيع وأسئلة . كنت أجلس ليلاً وأدون ما حكاه حسب ما علق بذاكرتي لكي أعيد كتابته فيما بعد بطريقة أوسع . حتى إنني عندما قلبتُ هذه الصفحات بعد سنوات طويلة لم أتذكر بعضها .

لم أجد من الصحة بشيء ترتيب ما دونته في ليالي السجن مما يمكن لنا أن نسميه قصة حياة باشازادة حسب تسلسل زمني معين . وجدت من المناسب تدوينها حسب الترتيب الذي يرويه باشازادة ، لهذا السبب لم أُخضع ما حكاه لي إلى ترتيب مصطنع إجباري . وهذا هو سبب سرد الأحداث مقلوبة رأساً على عقب ، أي قص قصة وقعت له في الخامسة والأربعين من عمره ، وبعدها قصة جرت له وهو في الخامسة والعشرين .

كان فكرت الملخبط ينادي باشازادة في الأيام الأولى : « سيدي الباشا » ، لكن كلما باع مزيداً من الأغراض يغير أسلوب الخطاب ، فأصبح يناديه : « باشا » ، « ولاه باشا » حتى إنه صار يناديه : « ولاه باشا البقر » . وبعد أن أعطى باشازاده حقيبته للملخبط لكي يبيعها له ، فهم الملخبط أنه لم يبق إلا القليل جداً لدى باشازادة كي يبيعه ، فبدأ يناديه : « عجوز » ، « ولاه عجوز » . أما في الأيام الأخيرة فقد وجد حتى هذا اللقب كثيراً عليه ، فصار

يناديه : « بقرة » ، أو « عجوز البقر » .

في أحد الأيام ، كنت أذهب وأعود في الممر ، رأيت فكرت الملخبط قادماً يسحب قدميه مصدراً صوتاً متناغماً مع وقع قبقابه على أحجار الممر . دخل إلى جناحنا . كان باشازادة في الداخل . اقتربت من الباب ووقفت كي أسمع حديثهما .

قال فكرت الملخبط :

ـ لم يدفعوا أكثر من عشرين ليرة ولاه عجوز البقر . . منذ يومين وأنا أجول على المهاجع . . لايوجد من يدفع أكثر . . أأبيعه بعشرين ليرة ؟ . . بعد ذلك لا تميّع الأمور ، حذاؤك من حقي . .

سمعتُ باشازادة يقول :

ـ عدلتُ عن بيعه . أحضر المعطف .

قال فكرة الملخبط :

ـ ولاه ، أنت عجوز بقر تأكل عشر أكياس من تبن ، وتعطي مئتي غرام من الحليب ، وهذا أيضاً تقلبه بحافرك .

دخلت فجأة إلى الجناح . لماذا دخلت فجأة لحظتئذ ؟ أردت الحيلولة دون تمادي السافل فكرت الملخبط في تحقير باشازادة . كان لا ينطق بكلمات نابية أمامي . لكن دخولي المفاجئ أعطى نتيجة عكسية بالنسبة إلى ما نويت . اعتاد باشازادة على تحقير كهذا كلما دخل السجن على مدى كل هذه السنين وأصبح بدون نقود . لكنه لايريد أن يهان أمامي . لقد تحطمت كرامته لأنني سمعت تحقير الملخبط له .

هل دخلتُ إلى الجناح فجأة لسبب آخر ؟ علني أشعر بشيء من الغضب نحو باشازادة فيما وراء وعيي . أو أنني أريد فضح احتياله في تصرفه أمامي باعتباره رجلاً محترماً .

انزعج عندما دخلت إلى الجناح .

قال للملخبط :

ـ فيما بعد نتكلم ، فيما بعد . .

ودفعه بقفا يده مشيراً له بالخروج .

كأن فكرت الملخبط لم يتلق الإشارة . وقف عند الباب .

مسك باشازادة عود الكبريت وصار ينظف به أسنانه ، كأنه قد تناول طعامه للتو . مع أنني أعلم بشكل أكيد أنه لم يتناول الطعام ، وقال :

ـ من غير الممكن أن يبقوا عليّ في قسم المحجر أكثر من هذه المدة . سيرسلونني إلى قسم آخر . وضعي في قسم جيد يتطلب نقوداً .

ما أراد قوله لي من وراء هذه الكلمات هو : عليه أن يدفع رشوة من أجل ذهابه من هنا إلى مهجع جيد . وهو مضطر لبيع معطفه من أجل دفع الرشوة .

هذا هو الجانب الذي يجعلني أحترم هذا المحتال صاحب السوابق . بالرغم من تعرضه لكل هذه الإهانات على مدى سنوات السجن الطويلة ، لم يفقد إحساسه بالخجل ، لديه احترام لنفسه . وتألمه من عملية مسك الشرطة لرأسه ، ولفته إلى مواجهة عدسات آلات التصوير ، وتحدثه عن هذا الأمر عدة مرات ، دليل على إحساسه بالخجل ، وعدم فقدانه احترامه لشخصيته . قال :

ـ تفضل لنشرب الشاي . .

لورفضت دعوته سأكسر بخاطره . إذا حاولت دفع ثمن الشاي سأخجله .

جلست على حافة السرير .

قال للملخبط الذي كان يقف عند الباب ، بالرغم من طلبه له الذهاب ، وبنبرة كنبرة مدير عام يخاطب مستخدمه :

ـ اطلب لنا قدحين من الشاي .

اثناء خروج الملخبط من الجناح قال له :

ـ أنت أيضاً اشرب واحداً على حسابي . لتكن الشاي ثقيلة . قل لعامل الندوة هذه الشاي لباشازادة .

قدّم لي سيجارة (سركلدوريان) وهو كعادته ، أخرج سيجارة ريف من علبة (سركلدوريان) . قسم السيجارة إلى نصفين ، ووضع نصفها الآخر في

العلبة . ثَبَّتَ نصف السيجارة في مشرب مصنوع من الورق . أشعل بالثقاب سيجارتي أولاً ، ثم سيجارته .

لم تعد ترى سبحته المصنوعة من حبات (الكهريبار) التي كانت لا تسقط من يده ، كذلك مشرب السجائر المصنوع من الكهريبار أيضاً بعد دخوله السجن بعدة أيام . لعل الملخبط باعها... وجد شيئاً آخر يلهي نفسه به بعد أن اعتادت أصابعه على حبات السبحة . يسميها (فرّارة) . يصنعها من ورق علب السجائر المربع . تثنى الورقة من هذا الجانب الى منتصفها ، ثم يثني الطرف الآخر نحو الجهة المعاكسة . وتُثنى زواياها في جهة واحدة . لم تسقط هذه الفرارة التي تشبه إسطوانتين ملتصقتين من يده أبداً . يستخدم هذه اللعبة الورقية بالشكل الذي يستخدم فيه السبحة أثناء التحدث أو الاستماع ، أو الجلوس ، أو المسير . يقول عنها أداة تسلية عن الشعور بالضيق . وبما أن اسطوانتي الفرارة تدوران فوق بعضهما بعضاً ، فهي لعبة دائمة الدوران مثل محرك (جون أحمد) الدائم الدوران .

ومثلما صنع الفرارة لتحل محل سبحة (الكهريبار) ، صنع المشارب الورقية بدلاً من المشرب الذي باعه . عندما لا يكون لديه عمل يلهي به نفسه يصنع من ورق الجرائد مشاربَ . بعد شربه سيجارتين أو ثلاث يرمي المشرب الورقي إذ تتكاثف على داخله طبقة من القطران .

قال إن استخدام المشارب الورقية أسلم من الناحية الصحية . لأن الورق يمتص الدخان ، وعندما يغطى داخله بالقطران يرميه . لكن استخدامه للمشارب الورقية أمر آخر غير الضرورة الصحية ، وهو التوفير في استخدام السجائر . ومنذ تدخينه لأنصافها ، لم يعد يرغب بإطفائها قبل انتهائها . وإذا حاول تدخينها دون مشرب ستحترق أصبعاه الممسكتان للسيجارة . أما بواسطة المشارب الورقية فيستطيع تدخينها حتى تبقى عقباً صغيراً جداً .

خاتمه ذو المرآة أيضاً لم يعد يُرى في إصبعه بعد بيعه السبحة والمشرب بفترة قصيرة .

في أحد الأيام قال لي إن الحياة في السجن لذوي السوابق عمل يماثل تماماً الجندية والطب والهندسة والأكثر من هذا أنه عمل أصعب من تلك الأعمال . وهذا العمل اسمه : « المسجونية » . كان يريد أن يشرح لي طريقة البقاء فترة طويلة في السجن دون أن يخرج الإنسان عن طوره ، ويفقد أعصابه . لهذا يجب أن يعوّد نفسه على ظروف السجن . وإلا فإنك ـ حسب قوله ـ « ستفقد ماعزك . . » إذا اضطررت لبيع سبحتك الكهريبار ، تعمل بدلاً عنها فرارة لكي لا تشعر بفقدان السبحة . إذا بعت مشربك الكهريبار ، تعمل بدلاً عنه مشارب ورقية .

نفض الرماد المتراكم في رأس سيجارته على علبة كونسروة يستخدمها منفضة سجائر ، وقال :

ـ لنر متى سينقلونني إلى مهجع آخر ؟

كنت أعتقد أن مدير السجن سيفي بوعده ولا ينقل باشازادة من مهاجع المحجر الصحي ، كما سيبقيني أنا أيضاً . ولكن حدث ما قاله باشازادة السجين المعتّق . مساء ذلك اليوم ، أدخلو سجينين من القادمين الجدد إلى جناحنا . أُقلقت راحاتنا . مؤكد أنه من غير الصحيح أن نبقى في جناحنا شخصين فقط بينما كافة الأجنحة ممتلئة . بعد يومين آخرين أدخلوا إلى جناحنا أربعة أشخاص آخرين ، وهكذا أصبح في جناحنا ثمانية أشخاص كبقية الأجنحة .

لم نعد نستطيع التحدث كما كنا في السابق . كان باشازادة لايريد أن يحكي عن حياته أمام الآخرين . صار يحكي لي أكثر الأحيان أثناء مسيرنا في الساحة أو الممر متجاورين .

بيع معطف باشازادة . لا أدري إن قال الملخبط أو باشازادة بكم بيع المعطف . بعد عدة أيام من بيعه للمعطف يجب أن يكون قد باع حذاءه ، لأنني لم أعد أراه يلبسه ، أو تحت السرير . لم يخرج في ذلك اليوم من الجناح . عندما خرج مساءً إلى الممر كان يلبس قبقاب فكرت الملخبط .

الأسوأ من هذا أنه باع ألبسته . بقي في منامته فقط . منامته حريرية خمرية اللون ، مخططة بأقلام بنية ، وهي جميلة ، وتبدو جديدة جداً . لم يبق لديه إلا هذه المنامة فقط . كنا في فصل الشتاء ، والجو بارد . ولأنه ينكمش برداً شعرت أنه قد صغر .

في صباح أحد الأيام باكراً أخذوا باشازادة من المهجع . عندما أخذه السجان كنت أغسل وجهي من صنبور في مدخل دورة المياه .

سمعت أحدهم ينادي :

ـ ولا عجوز ، ألن تأخذ فراشك ولحافك ؟

أجاب عن هذا السؤال فكرت الملخبط بصوته المخنوق بدلاً من باشازادة :

ـ أي فراش ولحاف ؟ لم يعد لعجوز البقر هذا فراش أولحاف ، مضى على بيعه لهما أسبوع .

كنت أستعجل بغسل وجهي وتجفيفه من أجل وداع باشازادة . لكنني عندما سمعت هذا ، شعرت بأن رؤيتي له بهذا الشكل ستهين كرامته ، أو أعتقد هذا . رأيت ظهر باشازادة أثناء خروجه من باب مهجع المحجر الصحي لابساً تلك المنامة الحريرية الخمرية اللون . . ويسير ببطء حتى إنه لا يصدر صوتاً ذاك القبقاب الرقيق عند احتكاكه بالأرض . لم يكن في يده صرة أو طرد . . منكمش ، ومحني الظهر .

أرسلو باشازادة إلى المهجع المدعو : « أبونا آدم » وهو مهجع الفقراء والذين لا أحد لهم . أو حسب لغة المساجين : « المقطوعين » . لقد سقط باشازادة في الفقر إلى حد لم يستطع فيه إيواءه أي مهجع آخر .

لم أعد أراه لكي لا أجرح كرامته . لكنني انزعجت كثيراً لخروجه دون أن يقول لي وداعاً ، أو يريني نفسه . لأن باشازادة أثناء خروجه من باب مهجع المحجر الصحي كان ثمة من يضع يده على فمه ويخرج أصواتاً غريبة ، ويسخر منه ، ويصيح فيه ، ويشتمه ، ويهينه ، ويناديه « عجوز البقر » . لعله

ظن أنني لن أراه مرة أخرى ، ولن نلتقي ، وإذا التقينا خارج السجن سأتجاهله مثل كثير من الناس ، وإذا لم أتجاهله ، سألقي عليه تحية وأمشي في طريقي . لكن مدير السجن أعطاني حرية التجول على كافة مهاجع السجن . أستطيع الذهاب إلى مهجع «أبينا آدم» ، ورؤيته . لم أذهب إلى مهجعه لكي لا أراه وهو في هذه الحالة . ولأنني كنت أعيش في داخلي إحساساً إنه خدعني أيضاً بما حكاه لي من قصص على أنها جرت له ، وعاشها . لكنني أُعتبر من زاوية ما أنني شاركته في هذا الكذب عبر اعتكافي على كتابته ليلاً . حتى إنه لو كان كل ما حكاه لي صحيحاً ، أكتب ما حكاه لي فيما بعد ، لم أكتبه كما خرج على لسانه تماماً . كنت اضطر لتغيير الكلمات والجمل . أي أنني أكتب مايقول بكلماتي الخاصة ، وبالتالي ألا أكتب عن نفسي بنسبة ما ؟ قبل كل شيء لم أكتب ما حكاه لي بكلماته وأسلوبه بل بكلماتي وأسلوبي . وهكذا ، هل ما كتبته هو ما حكاه لي ؟ أم ما حكاه لي بأسلوبي ؟ أيهما كان الحقيقي ؟ هل ما حكاه لي ، أم ماكتبته أنا ؟ أم أن كليهما ملفق ؟ كم كذبة تقاطعت مع غيرها ؟

ما حكاه إن كان كذباً أم لا ، فقد شاركت فيه شئت أم أبيت . إذا لم تكن الحادثة المروية صحيحة فلماذا نزيد فيها عندما نكتبها للمرة الثانية ؟ تحت تأثير كل هذه المشاعر ذهبت إلى مهجع «أبينا آدم» لرؤية باشازادة . كنت أقضي أيامي في قراءة الكتب . في مكتبة السجن عدد كبير من الكتب . لو نظرنا إلى دفتر أساس الكتب لوجدنا أن كثيراً منها قد اختفى . من الواضح أنها سرقت . لكن المسروقة بالنسبة إلى الباقية لاقيمة لها . يبدو أنهم لم يعجبوا بالكتب القيمة فلم يسرقوها . المكتبة مغلقة في وجوه المساجين ، ويبدو أن هذا الإجراء للحيلولة دون سرقة الكتب . لقد أعطوني تمايزاً فدخلت . ولأنهم لا يدخلون السجناء إلى المكتبة فمن الصعب معرفة سارق الكتب .

لفت نظري أمر في موضوع باشازادة بعد ذهابه إلى مهجع «أبينا آدم» .

أصحاب السوابق الذين في السجن ، والذين يعرفونه منذ سنوات طويلة ، والذين عاش معهم مدة طويلة في السجن كلهم أعداء باشازادة . حتى إن هذا الهيروئيني المصاب بالزهري ، فكرت الملخبط يعاديه بالرغم من بيعه لأغراضه التي يصفها الآخرون قائلين عندما يأتي إلى السجن ، يأتي محملاً بالحقائب مثل السياح ، ويكسب منه النقود . وأخيراً شهدت كيف باع سبحة باشازادة الكهريبار ، ومشربه ، وساعته ، وكافة الأغراض التي في حقيبته ، وحقيبته ومعطفه ، والألبسة التي يرتديها ، وحذاءه . كما رأيت كرم باشازادة المدهش وتقديمه الشاي والسجائر لأعدائه هؤلاء وهو جائع . إذا كان على هذا النحو ، فلماذا هم أعداؤه ؟ فكرت بهذا كثيراً . في النهاية وصلت إلى نتيجة مفادها أنهم يشعرون بباشازادة منهم ، وليس منهم ، لأن باشازادة يتفوق عليهم جميعاً بجانب من جوانبه فيحملون عداوة سرية له في دواخلهم ، ولايعلنون هذه العداوة عندما يكون الوضع المالي لباشازادة جيداً ، ولكن عندما يفقر يعلنون عداوتهم له ليحققوا انتقامهم .

بعد ذهاب باشا زادة من مهجع المحجر الصحي بدأ كل معارفه يتحدثون ضده ، وينفثون سم عداوتهم له . حتى الذين في المهاجع الأخرى وقفوا ضده .

حدث ماهو أكثر إدهاشاً . بعد ذهاب باشازادة من المهجع الذي نقيم فيه ، تأججت العداوة التي يكنها المساجين له ، ولكن بعد فترة من الزمن خمدت هذه العداوة . بعد مدة أخرى تحول هذا الشعور إلى شفقة . وبعد مدة أخرى ، بدأوا يرفعون من شأنه ، كما كانوا يتحدثون عنه قبل مجيئه إلى السجن ، ويحكون عن مغامراته اللامعقولة . كان باشازادة يتحول إلى أسطورة .

أدهشني كثيراً هذا التغيير خلال خمسة عشر يوماً إلى عشرين يوماً . فسّرتُ حسب قناعتي سبب عداوتهم له . ولكن من الصعب أن أفسر عودتهم إلى احترامه واسطرته . هل انسحق باشازادة كثيراً حتى إنهم صاروا يشفقون عليه ؟ لا أظن هذا . إنهم لا يشفقون على المسحوق ، بل على العكس ،

عندما يرونه يشعرون بتفوقهم ، يعتبرون أنفسهم تخلصوا من الانسحاق لمدة من الزمن .

يريدون رؤية باشازادة باعتباره واحداً منهم وهم بجانبه أو بالقرب منه ، ولكن بشخصيته المتفوقة عليهم جميعاً ، ولأنه ليس واحداً منهم ، يخلق عند المقربين منه ، والذين يعيشون معه شيئاً من الغيرة المتحولة تدريجياً إلى عداوة .

عندما يبتعد عنهم باشازادة تتغير مشاعرهم . كما يحدث تماماً عندما يُحترم الشخص الميت ، ويبتعد عن الحياة مهاجراً إلى مكان لا تنافس فيه . عندما يبتعد عنهم باشازادة ، فيرفعون من شأنه إلى حيث يريدون هم أن يكونوا ، وبما يتخيلون ذلك من أجل أنفسهم .

أعتقد أن باشازادة ابتعد عنهم زمانياً ومكانياً إثر ذهابه إلى مهجع « أبينا آدم » وعدم ظهوره . قبل دخوله السجن أيضاً كان بعيداً عنهم زمانياً ومكانياً . عندما يدخل بينهم هذا الفرق ، يبدأ البعد والغربة بين الطرفين . لهذا السبب تتغير مقاييس التقييم . من جهة أخرى يحتاج المحتالون ، والمزورون ، والمخادعون ، واللصوص إلى بطل من بينهم يحمل خصوصيتهم . وكلما رفعوا من شأن هذا البطل ، رفعوا من شأن أنفسهم . وبطلهم هذا هو باشازادة .

عادوا إلى مديح باشازادة ، ورواية الحكايات التي ترفع من شأنه ، وتؤسطره . إحدى هذه القصص التي رووها عنه غريبة جداً . حدثت مع باشازادة في السجن قبل خمس أو ست سنوات ، وأنا أنقلها عن لسان رواتها لي :

* * *

كان هناك شاب وسيم جداً ، حتى إنه أكثر من وسيم ، إذ هو مثل ملكة جمال . خداه وردیان كاشفان ، شفتاه حمراوان دمويتان ، رموشه كحيلة طبيعية . في الخامسة والعشرين من عمره ، لكنه يبدو أصغر مما هو عليه .

لايعرف المساجين منذ متى بدأ هذا الشاب البكاء ، ولكن عندما وطأ

بقدمه السجن كان يبكي ، وعندما لا يبكي تكون عيناه مغرورقتين ، ووجهه باكياً .

أطلق النار على خطيبته بسبب الغيرة ، فتركت الرصاصة أثراً في وجه الفتاة ، وخرب جمالها . أقسم الشاب الايمان على أن الحادث قضاء وقدر . ولأنه ولد لعائلة غنية حوكم دون توقيف بعد تدخل قوي للمحامين . ولكن في النهاية حكم بثلاث سنوات سجن .

هو ليس جميلاً فقط ، لكنه يبدو من النوع الذي لا يحتمل . والخواف غير المتحمل للمصاعب طعام مناسب جداً لأصحاب السوابق المشاهير في السجن .

منذ أن خطا هذا الشاب خطوته الأولى داخل السجن غدا من أكثر المواضيع المطروحة حرارة في كافة المهاجع .

بعد أن قضى الشاب خمسة عشر يوماً في مهجع المحجر الصحي ، نقلوه إلى المهجع الذي يقيم فيه باشازادة . منذ لحظة دخول هذا الشاب الى المهجع بدأ يهتم به باشازادة كثيراً . كانت علاقتهما غير عادية . أخذ الولد إلى سريره ذي الطابقين . الولد ينام في الأسفل ، وهو في الأعلى . كانا معاً دائماً . يتهامسان أثناء مسيرهما البطيء في الممر أوالباحة .

الشائعات دارت في كل أرجاء السجن حول باشازادة . مشيعو هذه الشائعات هم المنحرفون الراغبون بإبعاد الشاب عن باشازادة ، ادعى المساجين القدامى الذين يعرفون باشازادة أنه غيّر مزاجه بعد كل هذه السنوات .

ـ ولاه ، إن غيّر هذا المحلول عادته أم لم يغيرها ، ماذا سيحدث ؟ ألم تروا هذا العجوز أبداً في دورة المياه ؟ . . هذا القواد عندما يريد التبول يُدخل يده داخل بنطاله ، ويبحث ، ويبحث ، وبعد عشر دقائق من البحث ، وبألف صعوبة وصعوبة يجد آلته ليستطيع التبول . . سيأتيه يوم يفقد فيه آلته نهائياً ، ويموت بحصر البول .

ـ لا تقل هذا يابني ، الشبق بعد هذا العمر سيء جداً ، لأنه لاعلاج له . . يقال عن أمثال هذا : « عشاق عذريون » وغيرتهم أسوأ من « عشق العرب »

ـ إنه من نوع عشق الخالق .

ـ نعم ، ماذا يعني عشق الخالق ؟ عندما لاتمكّن الرجل قوته من عشق الإنسان ، يعشق الرب .

مساء أحد الأيام ، عندما وُزِّعَ المساجين الذين قضوا فترتهم في مهجع المحجر الصحي ، أدخلوا أحد الشباب إلى المهجع الذي يقيم فيه باشازادة . هذا الشاب بائع متجول ضبطته دورية للبلدية . عقوبته قصيرة جداً . لأنه لم يفلح في الدفاع عن نفسه لم يؤجل القاضي حكمه . أتى إلى اسطنبول من قريتة لكسب العيش ، وسكن مع بعض أبناء قريته ، وبمساعدتهم بدأ يعمل بائعاً متجولاً . بقي له مدة خمسة عشر يوماً من مدة سجنه . الشاب غبي أقرب إلى العته .

بدأ باشازادة الاهتمام بهذا الشاب أيضاً ، وعندما بدأ يهتم به ، قطع علاقاته نهائياً بالشاب الآخر . كان يستخدم الشاب القروي في قضاء كل حاجاته . يرتب الشاب سرير باشازادة ، ويغسل له غسيله ويجلب له طعامه ، ولا يقطع عنه الشاي والقهوة . وباشازادة يحرص عليه ، ولايترك له فرصة ليتكلم مع الآخرين .

في الأسبوع الذي قَدِمَ فيه الشاب القروي الغبي الأقرب إلى العته مرض ، عندئذ زاد باشازادة من اهتمامه به . لم يدع الشاب يطلب الذهاب إلى الطبيب بحجة أنهم لا يعتنون به في عيادة السجن .

ذاب الثلج . صار الثلج الذائب في باحة السجن طيناً بني اللون . لم يكن هنالك أحد في الباحة . أحياناً كان يتردد البعض بين موقع خلف الباب ، وبقية الأقسام .

تكثفت رطوبة الجو . النوافذ ذات القضبان الحديدية تنقل صياح النساء

السجينات من قسمهن .

كان السجن ينهض من نومه للتو . تُشعل المواقد المصنوعة من الصفيح ، والمدافئ ، وتسخن المياه ، ويُعد الشاي .

بدأ يتردد صوت صيّاح السجن الذي يهز النوافذ ، ويبعث الضجيج في كل مكان :

ـ القائمة . . إخلاء السبيل ، إخلاء السبيل ، إخلاء السبيل . .

كان الصيّاح يقرأ أسماء من سيخلى سبيلهم وهو يقف على الدرجة العلوية لسلّم في قسم خلف الباب . قرأ حوالي خمسة عشر إلى عشرين اسماً .

كان الذين سيطلق سراحهم ، قد حزموا امتعتهم منذ المساء ، وينتظرون حاملين صررهم وحقائبهم بعد أن عبروا الباحة متوجهين نحو منطقة خلف الباب . الأغنياء يحمّلون حزمة أمتعتهم لغيرهم . نزلاء مهجع « أبونا آدم » حملوا هذه الأغراض من أجل الحصول على البقشيش .

بعد وداع المخلى سبيلهم ، هبط صمت ثقيل على الباقين كما يحدث عادة في ظروف كهذه .

لم يكن ثمة ماهو غير عادي في الأيام المارة . مساء يوم شتوي قارص . هدأ السجن منذ وقت مبكر . وانسحب المساجين إلى مهاجعهم . والحراس يتجولون على المهاجع من أجل التفقد .

دخل الحارس المناوب مع رئيس الحرس إلى المهجع الذي يقيم فيه باشازادة . نادراً ما كان يأتي رئيس الحرس إلى التفقد . لماذا أتى في ذاك المساء ؟

وقف المحكومون صفاً واحداً في المهجع ، وأخذ عددهم . ثمة واحد ناقص . أعيد عدّهم . مرة أخرى ينقصون واحداً . هذه المرة بدأ رئيس الحرس بعملية التفقد قارئاً الأسماء من دفتر في يده . عُرِفَ الناقص . هو الشاب الذي جرح خطيبته ، وحكم بالسجن لمدة ثلاث سنوات . . إلى أين يمكن له أن يذهب ؟ بدأوا البحث في كل مكان . بحثوا في دورات المياه . قام صيّاح

المهجع مع أثنين من المحكومين بفتح أبواب المراحيض في دورة المياه ، وهم يلكمونها ، ويركلونها بأرجلهم . أحد الأبواب لم ينفتح ، مقفل بالمزلاج من الداخل .

ضربوا الباب بقبضاتهم ، وصرخوا :

ـ من في الداخل ؟

لم ينبعث من الداخل سوى صوت أنين

ـ اخرج ولاه!

سُمع صوت الرجل الذي يئن في الداخل :

ـ عندي اسهال يا سيدي . أكاد أُخرج أحشائي . . لا أستطيع الخروج . .

ـ اخرج ولاه ، رئيس الحرس يطلبك . .

الشاب الذي أُخرج من المرحاض بعد كسر بابه لم يكن ذاك الشاب الجميل ، بل الشاب القروي الأقرب إلى المعتوه ، وهذا كان من المفروض أن يُخلى سبيله في الصباح .

دخل الشاب القروي الأهبل الى المهجع وهو يرفع سرواله . المحكومون يضحكون .

عندما صرخ في وجهه رئيس الحرس :

ـ أين كنت ولاه ؟

أمسك القروي سرواله ، والتفت ذاهباً نحو دورة المياه . ولعل هذا بسبب خوفه ، أو بسبب مرضه الحقيقي ، قال :

ـ أرجوكم . .

لكنهم مسكوه من ذراعه

ـ أين كنت يا بني ؟ احك!

وضع الشاب يديه على بطنه ، وانحنى ، وتلوى .

ـ عندي إسهال يا سيدي ، عندي إسهال . أكاد أُخرج أحشائي . .

قال الحارس المناوب :

ـ لماذا لم يطلق سراحك اليوم ؟ اليوم يوم اخلاء سبيلك . .

لم يستطع الشاب الإجابة لشدة تلويه . يريد أن يهرب ويذهب إلى دورة المياه .

سأله رئيس الحرس مرة أخرى :

ـ لماذا لم يطلق سراحك ؟

ـ لم أستطع الخروج من المرحاض يا سيدي . كنت هناك منذ الصباح . لا علم لي بالإخلاء أو غيره . .

لم ير أحد الشاب طوال اليوم . هذا يعني أنه قضى يومه كاملاً في دورة المياه . ولأنه هناك ، فلم يسمع اسمه عندما قرأت أسماء الذين سيخلى سبيلهم . وهذا يعني أنه لا يعرف سابقاً تاريخ إخلاء سبيله . إنه أكثر من أهبل ، بل معتوه . . حسنٌ ولكن تم إخلاء سبيل كافة الأشخاص الذين وردت أسماؤهم في القائمة يومئذ . ماذا حدث لذاك الشاب الجميل ؟ حُلَّ اللغز بسهولة . أخذ ذاك الشاب المحكوم ثلاث سنوات مكان القروي بين المخلي سبيلهم . كيف لم يتعرفوا عليه ؟ لأن حكم القروي قليل فلم ينتبهوا إليه . والإثنان جديدان لم يعرفاهما جيداً بعد .

بعد تحقيق قصير تم التوصل إلى عدم وجود أية مسؤولية أو ذنب للشاب القروي في عملية هرب الآخر ، وأطلق سراحه في اليوم التالي بصعوبة بالغة لأنه لم يشف من الإسهال ، وبذلوا جهداً كبيراً في عملية إخراجه من دورة المياه ، ولو كان الأمر له لما خرج منها نهائياً . في النهاية دُفع الشاب خارج الباب وهو ممسك بحزام بنطاله ويتلوى ، ولولا مساعدة الجندرمة لما نجحوا في هذا .

وبما أنه لا يبقى سر في السجن ، بعد مدة قصيرة عُرفت الحقيقة ، وبدأت تدور على الألسن القصة الحقيقية . باشازادة هو المخطط لخروج الشاب المحكوم ثلاث سنوات بدلاً من الشاب القروي صاحب الحكم القصير .

لقد عمل هذا الملعوب من أجل إنقاذ الشاب الجميل من أحد الشاذين جنسياً . ومقابل بعض النقود جعل الشاب القروي يدعي المرض . بعد ذلك أعطى الشاب كمية كبيرة من الملح الانكليزي وزيت الخروع على أنه علاج . وهكذا أصبح الشاب المسكين لا يستطيع الخروج من دورة المياه في اليوم الأخير . دخل هذا الشاب السجن وهو لايمتلك قرشاً واحداً ، ولكن ما أدهش الجميع أنه عندما أُخرج من الباب دفعاً ، دفع قطعة خمسين ليرة لكل من اصطف من نزلاء مهجع «أبونا آدم» ليقولوا له : «فتح الله عليك يا صديقي . .» وهكذا عُرف سبب معالجة باشازادة الشاب القروي بملح الانكليز وزيت الخروع .

أحد العاملين في الندوة من السجناء حكى هذا بعد إخلاء سبيل باشازادة ، لأنه هو الذي سرق الملح الإنكليزي وزيت الخروع من الندوة ، وباعه لباشازادة مقابل مبلغ كبير . وفهم أن القروي لم يكن غبياً كما بدا عليه . يقال إنه مقابل كل بلعة من الملح الإنكليزي وزيت الخروع ساوم باشازادة بعنف . وسمع أن الشاب الجميل الذي تسلل بين المخلى سبيلهم سلَّم نفسه للنيابة وأرسل إلى سجن آخر .

* * *

أنا أيضاً نقلوني من قسم الحجر الصحي إلى مهجع آخر .

بعد مدة فهمت أنني اعتدت على باشازادة ، وحتى أنني اشتقت إليه . لوكان في السجن ثمة من أستعيض عنه به لما بحثت عنه . لكنه الوحيد الذي أستطيع التحدث إليه أو الاستماع منه حتى ولو كان مايرويه كذباً . تقت لمعرفة ما يفعله في مهجع «أبينا آدم» . لم يكن لديه ما يمكنه بيعه سوى المنامة الحريرية التي كان يلبسها . إذا باعها سيبقى عارياً . كان لايظهر في الباحة . هذا يعني أنه لم يخرج من المهجع .

لم أذهب حتى ذاك اليوم إلى مهجع «أبينا آدم» .

كان في الطابق الثاني من مهجع «أبينا آدم» . أثناء دخولي من الباب

الخارجي ، سمعت صوت فكرت الملخبط وهو ينزل الدرج وينادي بتلك العبارات التي أدخلها في قالب من السجع :

ـ اخوتي الحرامية المنحوسين! أصدقائي النشالين! رفاقي المحتالين! أعواني قطّاع الطرق ومزوري العملة ، وحملة المنشتر ، ولعيبة الثلاث ورقات الرصيفيين! يا من لا تخشى أعينهم المخراز ، فتاحي الخزائن المحترمين . يامزورين . . (هيييه) . . الحاضر يعلم الغائب . جاء فكرت الملخبط يا أعزائي الليليين . من يريد فراء كهذا ؟ انظروا إلى هذه المنامة يا أخوتي . . منامة عرسان من حرير بورصة الصافي . ناعمة ، لماعة . ملساء مثل فخذ فتاة عذراء . عندما تلبسون هذه المنامة لا تحتاجون إلى عروس يا أخوتي . . من يلبس هذه المنامة يعمل دخلة بنفسه مع نفسه دون عروس... انظروا إلى هذه المنامة . . كم يكلفكم النوم فوق امرأة ؟ . . عليكم أن تلبسوا منامة كهذه ، وتحتضنوا أنفسكم في ليالي الشتاء ، وتستمتعوا يا أخوتي! هل هنالك من يريد منامة كهذه ؟ . . بعد ذلك لا تقولوا ما سمعنا! . . ما فات مات . . جاء فكرت الملخبط . .

أثناء مروري بجانب فكرت الملخبط عرفت المنامة الحريرية ذات الأقلام البنية . إنها منامة المسكين باشازادة .

لا ضرورة لكلامي معه ، ولكن لكي أقول شيئاً ، سألته :

ـ يا ملخبط ، باشازادة في المهجع ؟

أجابني بصوته المخنوق المفتعل :

ـ أين يمكن له أن يكون ؟ خلع المنامة أيضاً . أصبح عجوز البقر «ابن آدم» بحق . . إنه يرتجف كما ولدته أمه في سريره مثل كلب صيد .

دخلت إلى مهجع «أبينا آدم» . هواؤه ، ورائحته ، ولونه ، وشكله قذر ومقلِّب للمعدة ، ومكان مقرف بكل منظره . المهجع بارد . أكثر مما يلفت النظر مما يرتديه من هناك هو أكياس من القنب وماشابهها .

كان باشازادة على السرير السفلي في الجانب الأيسر من داخل المهجع

يلتف ببطانية ممزقة ، قذرة ، استنفدت مدة استخدامها خمس أو ست مرات ، يجلس متربعاً على كيس محشو بأعشاب يابسة ، ومنحنياً طاقين . منكباً على كتاب يقرأه . أدهشني وضع نظارته على عينيه . لأن النظارة هي البضاعة الوحيدة التي يمتلكها ولم يبعها . يبدو من خلال البطانية التي يلتف فيها قميص وسروال داخليين ضاع لونهما من القذر ، وتظهر ركبتاه من مزق السروال . مع خلعه لتلك المنامة ، كأن احترامه قد ذهب معها . كأنه إنسان آخر أمامي .

حييته . رفع رأسه . نظر من فوق زجاجتي النظارة . عندما رآني ، احتار فيما يقوله أو يفعله ، وكأنه ضبط بالجرم المشهود في وضع مخجل . قال :

ـ مرحباً يا سيدي .

عرف كيف يكسب الاحترام باستخدامه كلمة «سيدي» . كان يعطي انطباعاً من خلال كلمته «ياسيدي» أنه شخص سقط خطأ في مهجع «أبينا آدم» .

أراد أن يقف . ولكنه خشية ظهور جسمه العريان من خلال مزق القميص والسروال الداخليين . اكتفى بالتحرك قليلاً ، وأشار إلى مكان على السرير من أجل أن أجلس قائلاً :

ـ تفضل .

فراشه دون غطاء . أحسستْ يدي عندما جلستُ ، بالعشب اليابس حشوة الفراش .

خلع نظارته . وضع الكتاب جانباً . قلت :

ـ كيف حالكم ؟

هاهو المحتال صاحب السوابق في أسوأ حالاته ، يقول : «كيف حالكم ؟» لايفسح مجالاً لخطاب المفرد .

حرّك خطوط وجهه تلك التي لايمكن للمرء أن يحدد فيما إذا كان يضحك أو يبكي . كأنه يريد أن يشرح وضعه بكافة تفاصيله عندما أجاب :

ـ كما ترون!

من أجل بدء الكلام سألته :

ـ ماذا تقرؤون ؟

ـ رواية سيئة جداً نُزعت صفحات البداية والنهاية منها ، وبعض صفحات وسطها . . أقرؤها للمرة الرابعة .

ـ للمرة الرابعة ؟

ـ حالياً للمرة الرابعة . . من يعلم كم مرّة سأقرأ هذه الرواية التعيسة ؟ . . كلما قرأتها أفكر بما كُتب أو ما يجب أن يكتب في صفحات البداية والنهاية والوسط المنزوعة . كلما قرأتها مرة أخرى أغوص أكثر فيما يحكى عنه ، كأنني أقرأ الصفحات المنزوعة ، أو أشعر أنني قد قرأتها سابقاً . إذا قرأتها عدة مرات أخرى أستطيع كتابة الصفحات الناقصة من الكتاب ، بالشكل الذي كتبه الكاتب على وجه التقريب . . أليست تسلية جيدة ؟

من ضرورات السجين الجيد معرفته طرائق التسلية ، وقتل الوقت .

ثم بدأ يشرح لي قائلاً :

ـ هذا ليس أمراً مهماً ، لأنه كيفما كان فيوجد من الرواية أربعون أو خمسون صفحة . .

قال إنهم رموه في نظارة مخفر للشرطة قبل سنوات طويلة . حسب قوانين تلك الأيام ، كانوا يستطيعون اعتقال المتهم المدة التي يريدون . بقي هناك أياماً عديدة . المكان قبو المخفر . يتسرب من مكان بحجم الكف يسمى نافذة ، ضوء منكسر عن البناء فلا ينير المكان . كان يطلب شراء الزيتون من عند السمان . فكانت ورقات الجرائد التي يلف بها السمان الزيتون تسليته الكبرى . بواسطة قصاصات الجرائد هذه استطاع تمرير أيامه دون أن يفقد صوابه . في إحدى القصاصات فصل من رواية . قرأ هذه القصاصة في يوم واحد أكثر من خمس عشرة ، أو عشرين مرة مفكراً ببداية الرواية ، ونهايتها ، وكيف يجب أن تكون ؟ استمر هذا أياماً . في النهاية انتبه إلى أنه

حفظ عن ظهر قلب ذلك الجزء من الرواية .

قال بالرغم من مرور كل هذه السنوات ، مازال يحفظ ذاك الجزء من الرواية ، ثم بدأ يقرؤها بسرعة مثل تلميذ كلفه أستاذه بوظيفة حفظ . عندما بدأ يقرأ جزء الرواية ذاك شعرتُ بسوء حالتي ، كدت أفقد صوابي كأنني أنا الذي كنت في غرفة القبو تلك ، وأقرأ قطعة الجريدة . بعد أن قرأ ما يزيد عن صفحة كتاب غيباً ، قلت :

ـ كفى ، كدت أجن . .

أردت كتابة هذا الجزء من الرواية التي قرأها لي باشازادة ، ولكن هذا غير ممكن . بقي في ذاكرتي من تلك المقطوعة التي قرأها باشازادة أمران . الأول : « ... به لا احتمل الانتظار » وهذه بداية المقطوعة . وهذا ما لا استطيع أن أنساه . لقد قطعت الجريدة من مكان جعل المقطوعة تبدأ بـ « ... به » وهكذا حفظها باشازادة . وهذه ليست إلا نهاية عبارة مثل « حتى حبه » أو « حتى ذهابه » أو ماشابه ذلك . الأمر الثاني الذي لا أنساه من تلك المقطوعة التي قرأها باشازادة غيباً أنها تصف مشهداً غرامياً فاضحاً .

ـ كيف حالكم ماذا تفعلون ؟

قلت له إنني أقرأ الكتب أيضاً ، وإنني أقرأ في مكتبة السجن ، لأن المهجع الذي نقلوني إليه مزدحم وصاخب ، وإن الكتب السخيفة مسروقة ، وبقيت الكتب القيمة .

ـ لماذا تقرؤون كتاباً لا يعجبكم ، وليست له نهاية وبداية ؟ أنا أجلب لكم من المكتبة كتباً لتقرؤوها إن أردتم .

ارتسمت على وجهه تلك الخطوط التي تجعل وجهه لايُعرف إن كان ضاحكاً أو باكياً ، فسألته :

ـ لماذا ضحكتم ؟

ـ لم أضحك . أنا قرأت كل الكتب التي هناك . . حتى إنني قرأت بعضها مرتين . . هذا ليس سهلاً . . كثيراً مادخلت إلى هذا السجن . . قضيت

عمري هنا . .

ـ إذا كان الأمر هكذا ، يمكن لي جلب الكتب لكم من البيت . . ماهي نوعية الكتب التي تريدونها ؟

بعد أن سألته هذا السؤال ، صفعته فجأة بعبارتي غير المناسبة هذه :

ـ هل تريدون روايات دستويفسكي ؟ «الجريمة والعقاب» أو «ذكريات من بيت الموتى» مثلاً ؟

عندما ذكرت هاتين الروايتين لم أفكر مطلقاً بعلاقة شخصية باشازادة بهاتين الروايتين . لعلني ذكرتهما بشكل مفاجىء بدافع من اللاوعي .

غيرت تلك الخطوط الحزينة وجهه ، فغدا كأنه يضع قناعاً لا مرئياً ، وقال :

ـ أشكركم ، لكنني قرأتهما . . ليكن هذا ، لتجلبوهما . . كما أرجو أن تحضروا لي روايات أخرى أيضاً .

قام باشازادة بتصرف سيترك أثره طيلة حياتي . دس يده تحت الفراش المحشو بالأعشاب اليابسة ، وأخرج علبة (السركلدوريان) . سحقت العلبة تحت ضغط الفراش بقوة ، ولطول المدة التي بقيت فيها هناك فقد تمزقت ، وبصعوبة استطاع باشازادة فتح غطائها .

مد نحوي العلبة .

اغرورقت عيناي . لم أستطع التكلم لمدة . .

بحثت بأصبعي عن سيجارة داخلها . وجدتُ واحدة . وممكن أنه لايوجد غيرها في العلبة . السيجارة التي أخذتها تفلطحت ، حتى إن قسماً من تبغها قد تساقط .

لعل هذه الحادثة ليست مؤثرة إلى هذا الحد بالنسبة إلى الآخرين . ولكن للسجن جو آخر يجعل الإنسان حساساً أكثر من اللازم ، ويضعفه من كل الجوانب . ومن الممكن أنني شعرت بهذا الإحساس ، والحزن لأنني أعيش في هذا الجو .

وضع نصف سيجارة في مشرب ورقي . لم أستطع التأكد من أية علبة أخذ نصف السيجارة تلك . بحث عن كبريت لإشعال سيجارتينا ، بحث بشكل جعله يبدو أنه يبحث بالرغم من عدم وجود كبريت لديه ، وينتظر إخراجي قداحتي . أشعلت سيجارتينا بقداحتي .

من أجل خلق وسط طبيعي للحديث عدت إلى موضوع الكتاب السابق . تحدثت عن الروايات . أتذكر جيداً أنه سألني :

ـ هل ما يحكى عنه في الروايات حقيقة ؟ أي هل هي أحداث جرت في الحياة ؟

عندما سألني هذا السؤال شعرت أنه يدرك شكي بصحة القصص التي قصها لي .

ـ هنالك منها ما جرى في الحقيقة ، ومنها ما لم يجر . .

مثلاً «ذكريات من بيت الموتى» أحد الكتابين اللذين قلت له عن إمكانية جلبهما يعبر عن انطباعات حقيقية معيشة ، ولكن «الجريمة والعقاب» لايحكي عن قصة جرت في الواقع . .

قال باشازادة :

ـ نحن عندما نقرأ الرواية لا نفكرر أبداً فيما إذا كان الذي تتحدث عنه هو حقيقة معيشة أم لا . . ؟

ـ نعم . .

ـ أي أنه من غير المهم أن تكون هذه الكتابات كذباً . فنقرأ الروايات بالرغم من معرفتنا أن ما نقرؤه تلفيقاً وكذباً . فوق كل هذا ، بالرغم من معرفتنا أن ما نحكي عنه غير حقيقي ، وكذب ، لكننا نتأثر بهذه التلفيقات ، وننفعل ، ونحزن ونبكي ، أو نفرح . كيف يحدث هذا ؟

كان وراء سؤاله هذا ، هو استفساره عن عدم تصديقي لما يحكيه . هذا يعني أنه يشك في تصديقي لما حكاه قلت :

ـ لا أعرف .

ـ أنتم تعرفون بشكل أفضل أن المهم هو ليس حقيقة ما حكي عنه ، بل مدى إقناعه . ليكن ما يحكى عنه حقيقة أم لا ، الأهم هو أن يعكس ما نحكي عنه جانباً من حقيقة الحياة .

كنت أريد كتابة الحديث الذي دار بيننا حول هذا الموضوع حرفياً ، ولكن مع الأسف لا أذكر كل ما حكاه بالتفصيل . كان هذا الحوار هو أكثر حوار جادٍ مما دار بيني وبين باشازادة حتى ذلك اليوم ، وأستطيع القول إنني أدركت من خلال حديث ذلك اليوم فقط سر ثقافة هذا المحتال صاحب السوابق الذي قضى معظم حياته في السجن . باشازادة لبس لبوس الطبيب والقاضي والمعلم والضابط ، أي لبوس كثير من الشخصيات المثقفة أو المتعلمة . من المؤكد أنه صاحب معرفة ، وقد عرفت من هم دونه بكثير من المعلمين والضباط والأطباء . هذا يعني أن خصوصية مظهره هذه لاتنبع من كونه محتالاً فقط ، فقد قرأ كثيراً وكثيراً جداً من الكتب . وأعتقد أن هذا هو مصدر ثقافته . من الممكن ألا يشعر الإنسان بغرابة باشازادة خارج السجن ، ولكن بنية شخصيته المتناقضة داخل السجن وجوِّه تشعرني أنه غريب وملفت للانتباه .

قال لي في لحظة ما :

ـ قبل عدة جرائم احتيال ارتكبتها في السنوات الأخيرة ، لم أحتل على أحد بقصد وتصميم . وهكذا احتال على الناس بغير قصد ودون إرادة . وانتم على حق بدهشتكم لهذا . . ما يدهش في الحقيقة هو سقوط كل الأمور غير العادية في رأسي . . وهذا لا يعرف معناه من لايقع له مثل هذا . انتبهوا! إن المصادفات تقع لصالح من هم في وضع جيد ، ومن يقول : « الإنسان يصنع حياته » ، وهم محقون غالباً . لأن هنالك من يصنع حياته . لكن الناجح فقط من يقول هذا . ماهي نسبة الذين صنعوا حياتهم بأيديهم في هذا المجتمع ؟ الناجحون محبوبون . كلامهم مسموع في المجتمع ، ونافذ . والآن هل تصدقونني إذا قلت : « بقدر ما هذا المجتمع فوضوي ، تحكمه الأقدار ، وإنسانه لعبة بأيدي هذه الأقدار » ؟ هل تصدقونني أنتم ؟ هل ما وقع لي ، وما

عشته إلى هذا العمر هو من صنعي ؟ إنني دائماً أردت ، وعملت على تحقيق عكس ما وقع لي . طردت من المدرسة بسبب مزاح صغير قمت به مع أصدقائي . ولكن ماذا عن انتحال شخصية الضابط ؟ ماذا عن صيد النساء ؟ هل أنا من أراد هذا ؟ ماذا فعلت لأغدو هكذا ؟ . . حتى إنني لم أخطط لانتحال شخصية المسلم الألماني ، أو الشيخ . إذا أغلقت كل الطرقات والأبواب وتُرك ذاك الطريق المؤدي إلى السوء فقط مفتوحاً ، وإذا دُفع الإنسان إلى ذاك الطريق الوحيد بالقوة ، وركلك مثل كرة القدم أولئك الناس الذين طلبت مساعدتهم ، ومددت يدك إليهم من أجل عدم دخولك في ذلك الطريق الوحيد ، لإدخالك فيه عنوة . . أي إذا صرتم عديمي الحيلة تماماً ، ماذا يمكنكم أن تفعلوا ؟ ماذا بإمكاننا أن نفعل ؟ ماذا أستطيع أن أفعل ؟

الطريق الوحيد هو مبرر اخترعه لإعطاء نفسه الحق ، حتى إنه مبرر الاحتيال والانتحال الذي قام به ، قلت :

ـ أنتم تخترعون مبرراً لنفسكم .

كان مهجع « أبونا آدم » صاخباً إلى حد لم يستطع فيه فهم ما قلت . فسألني قائلاً :

ـ ماذا ؟

قلت صارخاً :

ـ مبرر ، إنكم تخترعون مبرراً . .

قال :

ـ إنني أعرف أنكم لم تصدقوني منذ البداية .

قلت كاذباً :

ـ لا ، ليس هكذا . . لِمَ لا أصدق ما حكيتموه لي ؟ أنا أصدق . .

ـ إنكم تجاملونني . إنني أدرك من نظراتكم أنكم لا تصدقونني . لكنني سأريكم كيف يُدفع الإنسان إلى ذلك الطريق الوحيد معتبراً هذا المكان مختبراً .

هكذا كان يحكي باشازادة عن المحكومين في السجن وحياتهم التي أعرفها أيضاً عن قرب . الإنسان الذي يدخل السجن تجوع زوجته ، ويشقى أولاده . المجرم المسجون يقضي عقوبته . ولكن ماهي جريمة أولاده الذين في البيت ؟ لِمَ يجوع أولئك ويشقون ؟ هل هنالك من يرعى النساء والأطفال والشيوخ الذين يخلفهم وراءه السجين ؟ إذا لم يسمَّ هذا طريقاً وحيداً ، فما هو إذن ؟ الطريق الوحيد المفتوح أمام الزوجة التي لا عمل لها هو بيع نفسها من أجل رعاية أطفالها . . والطريق الوحيد المفتوح أمام صبية البيت هو العهر . . والطريق الوحيد المفتوح أمام الصغار هو اللصوصية ، والطريق الوحيد أمام المسنين هو التسول .

قلت له إنه لم يترك وراءه عائلة .

حكى لي عن حياة السجن ، وأنه لا يقدم للسجين سوى (التعيين الجاف) أي الخبز ، ولمرة واحدة في اليوم . وعندما يخرج الإنسان من السجن يطالب بمجموع ما قُدم له من هذا التعيين الجاف . قال باشازادة : «أنا لم أدفع في أي وقت قيمة هذا التعيين» . الماء في السجن مجاناً إذا لم يكن مقطوعاً . لكن الإنسان لا يستطيع العيش في السجن لسنوات بواسطة الماء المتدفق أحياناً من الصنابير ، والهواء القذر ، والتعيين الجاف . فلا يبقى أمام ذاك الإنسان الذي زُج في السجن من أجل تحسنه وإصلاح حاله سوى طريق وحيد مفتوح ، وهو بيع الهيروئين ، أو الاحتيال ، أو القمار .

قاوم باشازادة لكي لا يدخل في ذلك الطريق الوحيد . أكل الخبز ، وشرب الماء فقط . . (هذا ما قاله حرفياً) . ولنفترض أنه ترك السيجارة التي يدخنها منذ ما ينوف عن ثلاثين عاماً بسبب عدم وجود النقود . ولكن من أين يأتي بنقود الحلاقة والحمام . . بفرض أنه استغنى عن هذه أيضاً ، لكن باشازادة مصاب بالقرحة ، وهذا يتطلب حمية معينة ، وأدوية .

ـ ذكرنا المسجونية ، أليس كذلك ؟ وقلنا إن المسجونية أيضاً خبرة . ولكل خبرة مرضها . ماهو مرض المسجونية ؟ القرحة . لايمكن للمسجونين

مدة طويلة ألا يصابوا بالقرحة . لأن الإنسان في السجن لايستطيع تفريغ غضبه ، والتعبير عن مشاعره . . وإذا أمسك بنفسه مدة طويلة ، وخبأ مشاعره في داخله ، فإن أعصابه ستتخرب . . وعندما تتخرب الأعصاب ، يصاب بالقرحة . أهم أمراض السجين هي القرحة . . ـ بعد صمت قصير ـ كما ترون أغلقت كافة الأبواب في وجهي ، ولم يبق أمامي سوى ذاك الطريق مفتوحاً . إنهم يدفعونني بالقوة إلى الاحتيال . لم يعد أمامي حلٌ آخر . سأريكم هنا عرضاً كأنه بهلوانية ، وأريكم كيف يمكن للإنسان كسب النقود ، وحتى الغنى .

باشازادة يمدح نفسه كاذباً . لا يمكن له في السجن أن يحتال أو ينتحل ، أو يكسب نقوداً . لو كان يستطيع لعمل هذا قبل سقوطه في مهجع « أبينا آدم » . أظن أنه يمدح نفسه نوعاً من مجابهة انسحاقه لوجوده في مهجع « أبينا آدم » . هذا يعني أنه يريد ، وإذا أراد يستطيع عمل انتحال أو احتيال لكسب النقود . لكنه لم يُرِدْ هذا . إنهم هم الذين يدفعونه إلى الاحتيال .

لم أقل إنني لا أصدق . ولكن كأنه فهمني ، فقال :

ـ سترون!

قلت بسخرية غير مقصودة :

ـ لنر . .

فقال :

ـ مثلما يشرح لاعب الخفة سر لعبته المدهشة بعد تنفيذها ، سأشرح لك سر لعبتي فيما بعد . يمكن أن يتهيأ لنا أن لعبة لاعب خفة ما معجزة . ولكن بعد أن يفسرها لنا ، تبدو بسيطة جداً . والاحتيال هكذا . .

سقط بنظري باشازادة بعد مديح نفسه غير المهم هذا . لم أعد أرغب بمتابعة الحديث معه . بعد صمت دام فترة طويلة تركته . من أجل احترام الضيف حاول الوقوف لكنه لم يقف . لو نهض لبدا لابساً تلك الألبسة الداخلية

القذرة الممزقة .

مرت فترة طويلة لم أذهب إليه فيها بعد حديثنا هذا . أحضر أحد زواري الكتب التي طلبتها له . لم أرغب في الذهاب إليه لإعطائه الكتب .

في يوم تحسن فيه الطقس ، كان ينادي فكرت الملخبط في الباحة بأسلوب مناداته الخاص :

ـ أخوتي الحرامية المنحوسين! أصدقائي النشالين! رفاقي المحتالين! أتاكم فكرت الملخبط . . الحاضر يعلم الغائب . . هل من راغب بسروال داخلي طويل كهذا ؟ ليس هنالك أفضل من هذا السروال للروماتيزم ، وعرق النسا ، ووجع الركب . . إنه مغسول ياأخوتي... من يضع هذه النظارة لا يختلف عن مدير دائرة حكومية . . لا تظنوا أن النظارة توضع للمظهر فقط . . هذه النظارة ترينا الميكروب غير المرئي بالعين المجردة بقدر جمل... الميكروسكوب لايساوي شيئاً إلى جانب هذه النظارة . . يا أخوتي إذا أردتم ألا تقولوا ، « خراء على حياة لم أعتدها » فعليك أن تضع نظارة كهذه . لأن هذه النظارة ترينا الحياة السافلة جداً كالجنة . إنظر الى الميكروبات التي على رأس أنفك إن أردت ، أو إلى النجوم في المساء . . إذا كان لديك نظارة كهذه فما فائدة التلسكوب ؟ ضعها على عينيك واغطس في البحر ، وانظر إلى مافوقه من الأعماق . هذه ما يدعونها الباريسكوب! لاترينا المظهر الخارجي للإنسان فقط ، بل ترينا قلبه ورئتيه . إنها ليست نظارة ، بل جهاز أشعة . .

يا لما قاله فكرت الملخبط عن النظارة . كان يمدحها ، ويمسك بها من ذراعها ملوحاً . إنها تشبه تماماً نظارة باشازادة . . أخشى أن تكون هي . . لكن النظارات تتشابه .

ناديته :

ـ يا ملخبط!

بالرغم من أنه يكبرني بعشرين أو خمسة وعشرين عاماً ، ولأنه ينادي الجميع يا أخي الكبير ، قال لي :

ـ تفضل يا أخي الكبير!

وأتى .

ـ لمن هذه النظارة ؟

ـ هذه النظارة ترينا الدنيا وردية ، وردية فاتحة يا أخي الكبير .

ـ دع السخرية! سألتك عن صاحب النظارة .

ـ إنها لباشازادة . لم يبق لديه ما يبيعه غيرها . لوباع عينه لما التفت إليه أحد بعد هذا العمر .

ذهبت إلى مهجعي بسرعة ، وأخذت الكتب التي جلبتها من أجله ، واتجهت نحو مهجع «أبينا آدم» كأنني انتظرت بقاءه دون نظارة لاحضار الكتب لكي لا يستطيع قراءتها . لقد سقط في نظري نتيجة كذبه وكلامه الفارغ ، وامتداحه نفسه . ولعل هذا ما جعلني أحضر له الروايات وأنا أدرك عدم استطاعته القراءة بدون نظارة .

كان على سريره في تلك الزاوية . تمدد على ظهره ، وهو مغطى بتلك البطانية القذرة المثقبة . وضع كلتا يديه تحت رأسه ، وركّز بصره على مكان ما من السقف . ولا أقصد بالسقف ، سقف المهجع ، بل سقفه هو ، أي أخشاب السرير الذي فوقه . . كان كالميت . ولكن الميت لا يضع يديه تحت رأسه ،أو لايموت الإنسان وهو يضع يديه تحت رأسه .

وصلت إلى جانبه تماماً ، ووقفت . لم يتحرك . هل هو ميت بجد ؟ تهدل خداه أكثر ، وعرضت عظام ذقنه أكثر مما هي عليه ، قلت :

ـ مرحباً .

قال دون أن ينظر إلي ، ودون إكتراث :

ـ مرحباً .

بعد قليل ، التفت . عندما رآني نهض . لفّ ظهره بتلك البطانية القديمة ، وقال كعادته :

ـ تفضلوا!

قلت :

ـ جلبت لك كتباً .

لم أتوقف بمكري عند كون هذا الرجل مسناً لا يستطيع القراءة دون نظارة ، وأرسل نظارته للبيع ، فقلت :

ـ انظروا هل تناسبكم هذه الكتب ؟ هل تعجبكم ؟

أريد إظهاره بمظهر عدم امتلاكه نظارة .

بعد أن أخذ الكتب من يدي قال :

ـ سأنظر إليها فيما بعد .

ولكي أُعلمه بمعرفتي أن نظارته نزلت إلى البيع ، قلت :

ـ فكرت الملخبط ينادي بكل قوته في الباحة .

لا أدري إن كان قد فهم مرمى كلامي أم لا ، لكنه لم ينبس .

لا أستطيع تذكر ماتحدثنا به في ذلك اليوم . ولكنني عندما أصررت على الحديث حول الملخبط ، سألني عن عدم ذكر الملخبط للمختلسين والمرتشين بالرغم من ذكره كافة أنواع اللصوص . من الواضح أنه يريد تغيير الحديث ، وشد انتباهي بعيداً عن موضوع النظارة .

قلت له إنني لا أعرف الاجابة عن هذا السؤال .

قال ، حتى فكرت الملخبط لا يضع آكلي أموال الدولة المختلسين ، والمرتشين موضع الرجال . لهذا السبب لا يأتي على ذكرهم . إنهم يقيمون في مهجع السادة ، وهذا أفضل المهاجع ، وهم يعيشون براحة أكبر ، ولكن لا أحد في السجن يضعهم موضع الرجال .

مهما قال ثمة شعور ينتابني ، يدفعني لإزعاجه ، لهذا السبب قلت له :

ـ والقتلة ؟

الملخبط عندما ينادي ، لايذكر القتلة .

حسب قول باشازادة إن القتلة هم الأكثر احتراماً في السجن . ليس من السهل الحديث عنهم ، حتى أن ذكرهم خطر . في إحدى المرات أثناء مناداة

فكرت الملخبط ، وبعد أن قال : « أخوتي الحرمية المنحوسين! أصدقائي النشالين! رفاقي المحتالين! . . » أضاف بعد ذلك : « سادتي القتالين » وكانت هذه العبارة سبباً في أكله علقة شديدة جداً من أحد المجرمين .

الآخرون ، أي الذين يعدهم الملخبط نزلاء السجن الدائمين . وهؤلاء جميعاً خياليون جداً . ولكن أكثرهم خيالاً المحتالون . لهذا يجب أن يُعد المحتالون شعراء . إنهم لا يكتبون أو يلقون الشعر بل يعيشونه .

هذا ما تبقى في ذاكرتي من حديث ذلك اليوم . .

خطر ببالي أن أقول له : « حتى هنا كنت ستحتال وتغنى! ماذا جرى! » ولكن لم أرد أن أكون أكثر قسوة .

لم أذهب إليه على مدى شهر تقريباً . ولولا تلك الحادثة الأخيرة لما ذهبت .

حل الربيع . أصبح داخل المهاجع أكثر برودة من خارجها . لهذا يريد السجناء قضاء معظم أوقاتهم في الباحة . حتى شمس السجن باردة لا تدفئ الإنسان .

بعد ظهرأحد الأيام ، رأيت باشازادة أثناء تجوالي داخل الزحام . لكن ، لم أصدِّق عينيَ ، لأن مظهره يجعل الإنسان لا يصدق عينيه . إن باشازادة الذي رأيته قبل شهر متمدداً على ظهره في السرير ، صار نشطاً وحيوياً ، وشب عشر سنوات على الأقل . فوق كل هذا يلبس بزة . حذاؤه متلامع . كان يتحدث مع عدة أشخاص بجانبه . لسبب ما لم أرغب بالذهاب إليه . لأنني لو ذهبت إليه سأضطر لسؤاله عن سبب هذا التغيير . فكرت أنه من الممكن أن يكون لديه محاكمة ، لهذا السبب فهو يلبس هذا اللباس . لأن أفقر نزلاء مهجع « أبينا آدم » عندما يكون لديه محاكمة ، يجد من يعطيه بزة لكي يكون في هيئة جيدة عند خروجه إلى المحاكمة . يتعاون السجناء في موضوع كهذا . لا يريد أصحاب السوابق خروج أصدقائهم إلى أمام القاضي في وضع مهلهل . أحدهم يقدم حذاء ، والآخر قميصاً ، والآخر بنطالاً ، ومن أحد ما

يحصل السجين على سترة ، ويلبس جيداً قبل خروجه إلى المحكمة . لابد أن باشازادة قد لبس هذه الألبسة من أجل الخروج إلى المحكمة . ولكن حسب معرفتي ليس عند باشازادة محاكمة ، ثم إنه لا يوجد عند أحد في مهجع « أبينا آدم » ألبسة جميلة كهذه ليعطيها له .

بعد ظهيرة اليوم التالي رأيت باشازادة في الحديقة . هذه المرة يلبس طقم ألبسة آخر ، وهو يلبس حذاء بنياً بدلاً من الأسود الذي كان يلبسه قبل يوم .

لم أستطع الذهاب إليه مرة أخرى . لكنني تشوقت كثيراً لزيارته . ذهبت إلى قسم إدارة السجن . نيتي أن أسأل الحراس عن سبب التغيير الذي طرأ على باشازادة . سبب كل هذا الفضول هو عدم وجود أي قريب له حسب إدعائه . إذا لم يكن له قريب ، فمن أين له كل هذه الألبسة التي يغيرها ؟ ومن يجلبها له . إذا كان قد خدعني بادعائه أن لا أقرباء له ، فهذا يعني أن ما حكاه لي كله أيضاً كذب .

بعد أن تحدثنا من هنا وهناك مع رئيس الحرس ، سألته عما إذا كان قد أتى لباشازادة أي زائر . قال إنه لم يزره أحد منذ سنوات طويلة .

وماذا عن التغيير في هندامه ؟ هل أرسل له أحدهم نقوداً ؟

حسب قول رئيس الحرس ، أنه سمع كاتب السجن الذي يعمل في الوقت نفسه معتمداً للسجن ـ أي يجلب الرسائل والطرود والحوالات للسجناء ـ وهو يتحدث إلى مدير السجن ، فقال إنه يصل باشازادة كل يومين أو ثلاثة طردٌ كبيرٌ مليء بالأحذية والألبسة ، وهذه الطرود كبيرة إلى حد يصعب معه جلبها إلى السجن . ليس باشازادة السجين الوحيد الذي تصله الطرود ، بل يصل بعضها إلى سجناء آخرين ، لكن طرود باشازادة أكثر بكثير . يا ترى ، هل يسمح المدير باستخدام سيارة السجن من أجل جلب الطرود في الأسبوع مرتين على الأقل .

صدر الإذن عن المدير .

هذا يعني أن أحد أصدقاء باشازادة ، أو أقربائه ، أو صديقه المدعو رجائي المتذبذب يرسل له هذه الألبسة الداخلية والخارجية . دهشت لكل هذا الكذب الذي كذبه عليّ . ليس له أي مصلحة بكذبه هذا عليّ . لماذا خدعني إذن ؟ أمن أجل الخداع فقط ؟ أي أن هذا احتيال معنوي . .

صرت أرى باشازادة من بعيد كل يوم تقريباً في الباحة . لا أدري إن كان يراني أيضاً . كان يرتدي ألبسة مختلفة .

كنت أمرر الوقت بصعوبة حتى يحين موعد الزيارة ، ويأتيني أحد الزوار . سابقاً لم أدر كيف يمر الوقت باستماعي لحكايات باشازادة .

ومن أجل تمرير وقت الزيارة ذهبت إلى غرفة الكاتب . لدي حق حرية التجول في السجن الذي منحني إياه المدير . لكنني لم أذهب إلى قسم المديرية خارج أيام الزيارة .

قلَّب الكاتب دليل الهاتف الذي أمامه عدة مرات وهو يقول لنفسه :

ـ الله ، الله ، كيف حدث هذا ؟

لم أستطع قول شيء لعدم فهمي ما حدث

بدأ الكاتب يعد حروف الأبجدية بصوت عال :

ـ ا ، ب ، ت ، ث ، ج ، ح ، خ ، د ، ذ ، ر ، ز ، س ، ش ، ص ، ض ، ط ، ظ ، ع ، غ ، ف ، ق ، ك ،

كان يعد الحروف ، ويقلب صفحات الدليل ، عندما سألني بدهشة :

ـ ا ، ب ، ت ، ث ، ج ، ح ، خ ، د ، ذ ، ر ، ز ، س ، ش ، ص ، ض ، ط ، ظ ، ع ، غ ، ف ، ق ، ك ، ل ، م ، ن . . يا الله! ل ، م ، ن . . أين النون ؟ بعد الميم تأتي النون . ألا تأتي النون بعد الميم ؟

بدأ يعد الحروف من البداية :

ـ ا ، ب ، ت ، ث ، ج ، ح ، خ ، د ، ذ ، ر ، ز ، س ، ش ، ص ، ض ، ط ، ظ ، ع ، غ ، ف ، ق ، ك ، ل ، م ، ن . . نعم نون . . يجب أن تكون هنا النون . أليس كذلك ؟ أم أن النون تأتي فيما بعد ؟ ن ، هـ ، و ، ي . . أم

أن النون تأتي بعد ذلك ؟

كاد الكاتب يجن .

ولكن فجأة بعد أن أصدر صوت دهشة « آآآ... » صرخ قائلاً :

ـ أي عديم شرف نزع هذا من الدليل ؟ بماذا ينفع هذا ؟

سألته قائلاً :

ـ ماذا حدث ؟

دفع نحوي دليل الهاتف الملقى على المنضدة ، وقال :

ـ انظروا ، لقد نزعوا قسم حرف النون بكل صفحاته . أي عمل مناف للأخلاق هذا ؟ . . ثم إنه لا ينفع في شيء . .

أراد الكاتب أن يتصل بشخص تبدأ كنيته بحرف « ن » فقلّب دليل الهاتف من أجل معرفة رقمه ، لكنه لم يجد قسم حرف النون .

بعد هذه الحادثة بعدة أيام رأيت ما أدهشني بشدة . باشازادة يلبس أحد معاطفي . أمر غير ممكن . كان في الباحة إلى جانب الندوة مع عدة أشخاص . من غير الممكن أن يكون المعطف الذي يلبسه هو معطفي . لأنني تركت ذاك المعطف في البيت . كيف يمكن لباشازادة أن يلبس معطفي الذي تركته في البيت ؟ ولكنه يشبه معطفي إلى حد كبير . . من المؤكد أن المعاطف تتشابه . لكن معطفي ليس جاهزاً . لقد خطته بشكل خاص . فوق هذا فإن قماشه ليس من النوع الموجود في أي وقت ، أو أي مكان . قماشه جلبه لي أحد الأصدقاء من دولة أخرى . قماش ناعم ذو وبر كحلي ، وعليه نقاط رمادية . لايمكن أن يصل التشابه إلى هذا الحد . خاصة أزراره . . أمر لا يمكن أن يحدث! لأنني طلبت من أحد صانعي الأزرار أن يصنعها بشكل خاص من الجلد . وليس هذا كل شيء . طلبت من الخياط أن يخيطه لي قصيراً ، إذ يصل حتى ركبتي . . وبما أن باشازادة أطول مني ، فكان بالنسبة إليه مثل السترة ، ثم إن باشازادة أعرض مني ، لذلك كان ضيقاً عليه . لايمكن لي أن أقترب منه لأتأكد من المعطف إذا كان لي أم لا ، ولايمكنني أن

أسأله أيضاً . معطفي هذا قديم جداً . لهذا السبب تركته في البيت ، ومنذ فترة طويلة لم ألبسه . ثم لأنه معطف محبب إلي فما أعطيته لأحد . من غير الممكن توصيل هذا المعطف من بيتي إلى السجن . وكيف يمكن لباشازادة بالذات إيجاد معطفي والحصول عليه ؟ إذن فالمعطف الذي يلبسه ـ بالرغم من الاحتمال كثيراًـ هو معطف يشبه كثيراً معطفي .

في موعد الزيارة التالية ، قال لي أخي في نهاية زمنها بعض الكلمات لم أفهمها جيداً . لأنه كان يتكلم من وراء شبكين متباعدين حيث يقف الزوار . والحارس المناوب يضرب صفارته بشكل متكرر معلناً عن وقت انتهاء الزيارة ، والزوار يصرخون بالكلمات التي نسوا قولها خلال وقت الزيارة . لهذا السبب لا أحد يستطيع سماع شيء سوى الضجيج . من وسط هذا الضجيج سمعت أخي يصرخ بكلمات مثل : «المعطف . . معطفك القديم . . أرسلناه بالبريد... مسكين» ، وهذه الكلمات بالنسبة لي لغز . .

بعد أن غادر أخي مكان الزوار ، تعاظم شكيّ ، ذهبت إلى مهجع «أبينا آدم» من أجل رؤية باشازادة . دخلت إلى المهجع ، وألقيت نظرة . المهجع مزدحم كما هو عادة ، ولكن هناك شخص آخر على ذلك السرير الذي في الزاوية . سألت عن مكان باشازادة قال لي أحد الجالسين على ذاك السرير :

ـ هو هوووه . . ذهب باشازادة من زماااان .

ـ إلى أين ؟

ـ أما علمت ياسيدي ؟ ذهب إلى مهجع السادة . . أما أصلح وضعه ؟ . . فهل يقف هنا بعد ذلك ؟

كان عليّ أن أعرف بترك باشازادة لمهجع «أبينا آدم» . لأنه منذ أسبوع أو أسبوعين وهو يلبس جيداً ، ولا يمكن أن يبقى بهذا الهندام في مهجع «أبينا آدم» . ولكن ذهابه إلى مهجع السادة أيضاً مدهش . لأنه لا يمكن لأحد دخول مهجع السادة سوى عملاء السوق السوداء ، رؤساء عصابات التهريب الكبرى ، الموظفون الكبار الداخلون بجريمة الاختلاس والرشوة .

من الأمور غير الممكنة دخول محتال صاحب سوابق ، أو مزور إلى مهجع السادة .

ذهبت إلى مهجع السادة . كان باشازادة جالساً إلى جانب الطاولة الطويلة التي تتوسط المهجع ، ويشرب القهوة مع بعضهم . مهجع السادة مثل مهجع نوم إحدى المدارس الخاصة ، نظيف ومرتب . ثلاثة من الأشخاص الأربعة الجالسون مع باشازادة يرتدون ألبستهم ، ويربطون ربطات عنق كأنهم في محلات عملهم ، اثنان آخران جانباً يرتديان المنامة ، وفوقها (روب ديشمبر) ويحتسون القهوة . باشازادة أيضاً يلبس الروب ديشمبر . قلبة عنق الروب ، وقلبات جيوبه مخملية . تحته منامة حريرية . يلبس في قدميه (شحاطة) ذات أرضية سميكة ، مصنوعة من الجلد اللماع .

عندما رآني نهض قائلاً :

ـ تفضل يا سيدي .

صافحته . فقال :

ـ منذ زمن طويل لم نتقابل ، وكأننا بعيدان عن بعضنا بعضاً فلا نتقابل .

قلت :

ـ لكنكم أنتم أيضاً لا تأتون .

ـ أنتم تعلمون أنني لا أستطيع الذهاب إلى مهجع الحجر الصحي ، ولكنكم أنتم تستطيعون الذهاب إلى أي مكان .

قلت له إنني نُقلت من مهجع الحجر الصحي إلى مكان آخر . فعرض مظهر الدهشة كأنه لا يعلم بهذا ، وقال :

ـ يااااه . .

استأذن ممن كان معه حول الطاولة ، واتجه نحو سريره ، وتأبط ذراعي مصطحبني . سريره مرتفع كأنه منفوخ . وفوق اللحاف ذي الوجه (الساتاني) الأزرق ثمة بطانية ذات وبر طويل .

أخرج علبة سجائر (سركلدوريان) من جيب روبه ، وأخذ لنفسه من

العلبة ذاتها سيجارة بعد أن قدم لي واحدة . أشعل قداحته . إنها قداحة جميلة لها محفظة جلدية غامقة اللون .

قال للشاب الذي يلبي طلبات نزلاء مهجع السادة :

ـ يا بني ، أجلب لنا قدحين من الشاي ، ثم اذهب ، وناد لي الملخبط .

قلت :

ـ يا باشازادة! قلتم لي في يوم ما إن من في مهجع السادة من مختلسين ، ومرتشين لايوضعون موضع الرجال في السجن .

قال :

ـ نعم ، ماذا حدث ؟

ـ أنتم أيضاً جئتم إلى هذا المهجع .

صفعته بعبارته السابقة من أجل إقلاقه ، وازعاجه ، فقال :

ـ صحيح ، لا أحد يضع موضع الرجال من يقيم في مهجع السادة . النشالون ، واللصوص الذين تعرفونهم أكثر احتراماً ممن هنا . لابد أنكم تقتم لمعرفة كيفية مجيئي إلى هذا المهجع فتسمعونني هذا الكلام . . . هل نسيتم أنني قلت لكم سأعمل لكم احتيالاً يبدو لكم مثل معجزة ؟ لم تصدقوا هذا أنتم . وللطفكم لم تقولوا إنكم لم تصدقوا ، ولكن بدا على وجهكم هذا . أغلقت في وجهي كافة الأبواب . لم يبق مفتوحاً سوى طريق واحد . أنتم تشهدون كم قاومت من أجل عدم الانحراف إلى ذلك الطريق . انتظرت كثيراً إمكانية فتح طريق آخر أمامي ، ثم انحرفت إلى الطريق الذي أُدفع إليه . انظروا ، وضعي جيد . . أشكر الله أنني لا أعاني من ضيق . أما عن مجيئي إلى مهجع السادة الذين لا يعتبرهم أحد ، فإن ما قلته حول عدم اعتبار أحد لهؤلاء ، هذا صحيح ولكن في دواخلهم ، لكن الجميع يظهرون لهم الاحترام والتقدير ، وهذا مايلزمني . . ليعتبروني ، ويحترموني في حضوري ، وليقولوا مايقولون من وراء ظهري ، هذا لايهمني . . ماذا يمكن أن يقال من أجل محتال سابق ؟ أي احترام سيحترم ؟ . . حتى من في الإدارة يبدون الاحترام

لهؤلاء المختلسين والمرتشين ، ولكنهم في دواخلهم لا يعتبرونهم نهائياً . أما بالنسبة إلي ، فلا قيمة حقيقية لي . .

شربنا الشاي . دخل فكرت الملخبط الى المهجع . دخل وهو ينادي كما ينادي في الممرات والمهاجع الأخرى بصوت يرجِّف الأرض والسقف في مهجع السادة . على ذراعيه معطف أو اثنان ، وعدد من البزات والأحذية محمّلٌ بها جيداً . وقف أمام باشازادة ، وقال له بجد واحترام :

ـ أمرك يا سيدي باشازادة .

كأنه ليس ذاك الذي كان يخاطب باشازادة قبل أيام : « عجوز » ، « عجوز البقر » .

قال له باشازادة بقسوة :

ـ لم تأتني بالحساب ، ألم تبع شيئاً ؟

قال الملخبط :

ـ بعت البزة البنية ، والكنزة الصوفية . . نعم ، وبعت اللفحة الزرقاء . هل نتحاسب أم نؤجل الحساب إلى المساء يا سيدي باشازادة .

سأله باشازادة :

ـ بكم بعت البزة ؟

ـ بخمس وسبعين ليرة . . والكنزة بأربعين ، واللفحة بعشرين .

قال :

ـ حسنٌ ، تعال في المساء .

فهمت أنه نادى فكرت الملخبط من أجل القيام باستعراض أمامي .

عندما قال لي :

ـ عفوكم ، استندوا هكذا . .

وحمل المخدة لأستند إليها ، رأيت الصفحات المنزوعة من دليل الهاتف تحت المخدة . أخذتها ونظرت إليها ، وجدت أنها الصفحات التي تبدأ بحرف النون . فهمت أين ذهبت الصفحات المنتزعة من دليل هاتف الكاتب .

تناولت تلك الصفحات ولكي أخجّل باشازادة ، قلت :

ـ أم أن هذه أيضاً رواية نزعت صفحاتها الأولى والأخيرة ؟ من يعلم كم مرة قرأت هذا القسم المنزوع من دليل الهاتف . هل فكرت في البداية والنهاية ، واستنتجت كافة الأرقام ؟

ترك الخجل جانباً ، بل قال متباهياً وهو يبتسم :

ـ قلت لكم كم تبدو سهلة لعبة لاعب الخفة بعد أن يشرح سرّها . . هذه الصفحات المنزوعة من الدليل هي جزء بسيط من مكونات اللعبة الخارقة . .

أثناء قوله هذا ، تناول المعطف المقلوب على بطانته بشكل عشوائي من الحقيبة الموضوعة تحت السرير ، وألقاه عليه . ظهر وجه المعطف . إنه المعطف الذي اعتقدت أنه لي . رفعت بيدي طرف يمين المعطف . لأن بطانة معطفي صبغت بحبر قلم جاف جراء فتحه في جيبي . عندما رأيت بقعة الحبر على بطانة المعطف لم يبق لدي شك بأن هذا المعطف لي . أظن أنني قلت بشيء من العصبية ، وبصوت مرتفع :

ـ هذا معطفي . .

قال ببرود :

ـ كان معطفكم . والآن هو معطفي . بعد أن يُباع لاندري لمن سيكون . .

ـ كيف صار معطفي عندكم الآن ؟

ـ هذا يعني أنكم لم تدركوا هذا حتى الآن . . أنا وعدتكم بشرح سر هذه المعجزة . . لأشرحها إذن . .

انحنى . فتح حقيبته الموضوعة على الأرض ، وأخرج عدداً من الرسائل الموضوعة في ظروف . قدمها إلي . نظرت إلى وجه الظروف في البداية ، فوجدت أن كافة الأسماء المدونة عليها تبدأ كنياتها بحرف النون ، ودونت عليها العناوين . فهمت سبب نزع حرف النون من دليل الهاتف . بعض الظروف ملصقة ، وبعضها لم يلصق بعد . فتحت أحدها ، وبدأت بقراءة إحدى

هذه الرسائل :

«السيدة المحسنة........ المحترمة الموقرة .

أنا ألجأ لعلو وجدانكم وقلبكم العادلين في رسالتي هذه . لأسباب خارجة عن إرادتي عوقبت بالسجن لمدة ستة وثلاثين عاماً . بقيت زوجتي ، وابني الذي في الثانية من عمره في حالة هي غاية في السوء . لم يبق لي في الحياة من أستند إليه . ولم يبق عندي أيضاً أية ألبسة خارجية أو داخلية ، أو حذاء . لا أرتدي سوى المنامة المرقعة الوحيدة الباقية لدي . أنا بحاجة إلى الألبسة التي لا تلبسونها محسنتي الموقرة . أشهد الله أنني لن أنسى هذا المعروف أبداً ، حتى أموت .

أتمنى لكم حياة ملؤها السعادة ، وأستودعكم الله» .

الرسالة مذيلة بالاسم الحقيقي لباشازادة .

قرأت الرسالة الثانية ، فوجدت أنها كتبت بلغة أسوأ من تلك . قلت له :

ـ هذه الرسائل موقعة باسمكم ، ولكنني أعتقد أنكم لم تكتبوها أنتم .

لأن لغتها سيئة من جهة ، وخطها رديء .

وَضَحَ على وجهه تلك الخطوط الحزينة ، التي تجعل الغرباء عنه لا يعرفون إن كان يبكي أو يضحك ، وقال :

ـ أنا كتبتها . من يستطيع أن يكتب باسمي سواي ؟ . . لماذا كل هذه الأخطاء ، وسوء الخط ؟ لأن هذا الجهل يُظهر الغباء والبلاهة . وهذا ما يجعل الرسالة مقنعة . الناس يشفقون على الأغبياء ، والبلهاء أكثر . . عملي هنا . جذب رحمة الناس . أي أنني أعمل تاجر رحمة مُنتحل . لو أنني أعمل مثل رجل أعمال ناجح لاحتفظت بمسودات الرسائل التي أرسلها ، وبالتالي كنت سأريكم نسخة الرسالة التي أرسلتها إلى بيتكم .أُرسل إلي من بيتكم بزتين شتويتين ، مع ألبستهما الداخلية الجديدة ، وهذا المعطف .

ولأن الألبسة التي يلبسها جديدة ، سألته :

ـ وهل الألبسة التي تلبسونها من تلك التي تُرسل من الخارج ؟

ـ لا ، ليس من المناسب أن ألبس ثياباً قديمة بعد عملي محتال رحمة ، أليس كذلك ؟ أنا أبيع الألبسة المستعملة التي يرسلونها لي شفقة . أستطيع إن أردت تحويل هذا السجن إلى مستودع ضخم للألبسة القديمة بواسطة هذه الرسائل . لكنني تاجر رحمة عادل . أنا أحتال بحيث أعيش هنا دون حاجة إلى أحد . أليس هذا مؤشراً على طيبة قلبي ؟

أخذت عدداً من الظروف الملقية على السرير وفتحتها وقرأتها . يكتب اسمه دائماً بشكل صحيح ، ولكن في كل واحدة يعرف نفسه بشكل مختلف عن الأخرى . في إحداها يقول إنه عجوز ومريض ، وفي أخرى يقول عن نفسه إنه شاب قروي خطف الفتاة التي يحبها لأنه لم يستطع دفع (مئكالها) ، وفي ثالثة يقول إنه أجرى جراحة خطيرة .

سألته عن سبب التغيير في كل رسالة من هذه الرسائل .

إنه يتخيل الأشخاص الذين يكتب إليهم من خلال عملهم ، وعناوينهم المدونة في دليل الهاتف . ويفكر بكل شخصية على حدة ، ويتوقع بأي الشخصيات تتأثر وتتألم . نعم بعض الناس يكرهون جداً القتلة ، ولكن بعضهم يعتبر القاتل من أجل الشرف بطلاً ، ويشفق عليه ، والبعض الآخر يعتبر مساعده من سقط في السجن لأنه خطف الفتاة التي عشقها وعجز عن دفع مئكالها ، ديناً في رقبته .

أعطى للشخص الذي جاء من أجل أخذ كأسي الشاي ليرتين ونصف بقشيشاً . كان ثمن الشاي في تلك الأيام داخل السجن خمسة وعشرين قرشاً . من المستحيل أن يدفع أحد ليرتين ونصف بقشيشاً .

وضع النظارة على عينيه . كان يضع الرسائل التي أعطانيها لأقرأها في ظرف أصفر كبير . النظارة هي تلك النظارة التي أعطاها لفكرت الملخبط من أجل أن يبيعها . وهذا يمدح نفسه من خلال نداءاته قائلاً : «أجد زبوناً لأحلاكم ، وأبيعها له» ، لا يسمي نفسه بائعاً ، بل دعائياً . يعتبر نفسه دعائياً إلى حد أنه إذا لم يجد ما يبيعه ، فيبيع الأحلام ، والآمال ، والكذب .

في كثير من الأحيان يدرك باشازادة ما أريد أن أسأل ، فيجيبني قبل أن أسأل . وهذا ماحدث من أجل النظارة .

ـ لا أستطيع الاستغناء عن نظارتي القديمة هذه . اعتدت عليها كثيراً . باعها الملخبط . حسنٌ أنني استطعت استعادتها قبل إطلاق سراح مشتريها . لكنني دفعت قيمتها وكأنها من ذهب . . دفعت عشرين ضعف ثمن بيعي لها من أجل استعادتها .

عندما بدأ تجارة الرحمة أخذ العناوين التي سيرسل إليها الرسائل من الجريدة . وهكذا وجد رأسماله الأول . بعد ذلك ، جلب قسم « النون » من دليل الهاتف ، وكتب الرسائل إلى العناوين المدونة فيه .

سألته عن سبب عدم انتباه إدارة السجن إلى إرسال كل هذه الكميات من الألبسة . أجابني وهل يمكن لها ألا تنتبه ؟! بالتأكيد انتبهت . . ولكن ما فَعَلَهُ ليس بيع الهيروئين ، ولا التهريب أو سواه . . إنه لايخالف القوانين . فوق هذا ، إنه يكسب من هذا العمل ما يجعله يساعد بعض الذين يلاقون صعوبات بالعيش برواتبهم ، وقال عن هذا :

ـ الآخرون يتألمون علينا . ألا نتألم نحن على الآخرين .

هذا يعني أنه يوزّع نقوداً على من في إدارة السجن . قال :

ـ نحن المزورين والمحتالين أكرم البشر جميعاً .

أنا أعرف أن باشازادة كريم جداً . هذا واضح من الليرتين ونصف التي أعطاها بقشيشاً للرجل الذي أتى قبل قليل لجلب الشاي . وعندما دخل إلى السجن وزّع نقوداً بحيث نفدت الخمسمائة ليرة التي كانت معه ، قبل أن يمر عليه ثلاثة أيام .

ـ لِمَ لا نكون كرماء ؟ مال من سنحرمه لمن ؟ كيفما كان نحن نصرف أموال الغير .

بعد ذلك أضاف قائلاً :

ـ كرمنا لا ينبع من أننا نصرف أموال الغير . نحن نعرف أننا مذنبون عند

الله . لهذا نحن نفعل الحسنة من أجل أن يعفو الله عنا... في الحقيقة لا أريد عمل الخير في سبيل الرب الذي أراني السوء دائماً دون أن أذنب ، وأسقطني في الجريمة دون إرادتي . . إننا نحن المحتالين مضطرون أن نكون كرماء . بقدر ما يشبه لصوص الخزائن القرود بقدر ما نحن كرماء . البقشيشات التي ندفعها هي إلى حد ما جزء من مصروف عملنا . لولا كرمي هذا ، هل أستطيع إيجاد من ينزع صفحات دليل الهاتف من غرفة الكاتب ؟

قدّم لي كثيراً من المعلومات حول تجارة الرحمة . قال إن تأثير هذه الرسائل المزورة المرسلة إلى مختلف مناطق اسطنبول يختلف باختلاف الأشخاص . المخدوعون بهذه الرسائل من سكان الأحياء الغنية أكثر من سكان المناطق الفقيرة . حسب قوله :

ـ الأغنياء يتبرعون بما لن يلبسوه من ألبستهم القديمة لمن يظنون أنه فقير وشريف ومسكين سقط في السجن لإيمانهم أن عملهم هذا يحقق العدالة الاجتماعية ، وبهذا يرتاحون . كما ترون إن ما أفعله لايعد احتيالاً .

سألته قائلاً :

ـ ماذا نسميه إذن يا باشازادة ؟

ـ أنا أبيعهم إمكانية عمل المعروف وتحقيق العدالة الاجتماعية مقابل ألبستهم القديمة وأحذيتهم المستعملة . . وفي هذا البيع أنا المغدور . . أليس كذلك ؟ أنا أربحهم معنوياً . أين يمكن رؤية راحة معنوية بهذا الرخص ؟ . . بدل ألبسة داخلية مقابل راحة ضمير . .

حقيقة إن باشازادة عرض أمامي معجزة احتيال ، وبهلوانية تزوير كالقافز على الحبال الذي يجعل قلوبنا تقفز إلى حلوقنا أثناء متابعتنا له . وقد أدهشني كثيراً بهذا العرض . لم يخطر ببالي أبداً أنه سيخدعني بجعل أخي يرسل معطفي من البيت له . . من الواضح أنه حصل على عنوان بيتي من قسم دليل الهاتف المنزوع .

ثبت أن ما قاله صحيح . اللعبة التي تبدو مستحيلة عندما يلعبها لاعب

الخفة ، كم تبدو سهلة عندما نعرف سرها . . وكم هي سهلة وبسيطة عملية تجارة الرحمة التي قام بها باشازادة ، ولكن بعد معرفة سرها .

حاول باشازادة رد المعطف لي . لم آخذه ، قلت :

ـ صحيح ما قلتموه يا باشازادة ، أصبح معطفكم . .

استمرت علاقتي بباشازادة كما كانت عليه في السابق . كان يومياً يحكي لي واحدة من القصص التي وقعت له .

في يوم من أيام الزيارة . لم أكن في مكان استقبال الزوار . جلست في غرفة الكاتب . قال لي الكاتب أثناء ذلك :

ـ الآن نزعوا قسم حرف « الكاف » .

نظرت إلى وجه الكاتب مبتسماً ، لكنني لم أقل شيئاً . هو الذي يجلب الطرود من البريد ، أي يجلب الألبسة المرسلة إلى باشازادة ، أما باشازادة فهو كريم جداً .

أثناء جلوسي في غرفة الكاتب تناهى إلى سمعي صوت ضجيج قوي . صياح ، وصراخ ، وبكاء امرأة . . صوت صفارة الحارس تغطي كل هذا الضجيج .

عندما نزلت ، كان الحراس ممسكين بيدي ، ورجلي امرأة ، ويخرجونها من صالة الزيارة .

بعد قليل علمت ماحدث . إحدى اللواتي أرسل لهن باشازادة رسالة يثير شفقتهن عليه ، استمرت بمراسلته . في رسالته الأولى عَرَّف بنفسه باشازادة أنه « ضحية قدر » قتل زوجته لأنها خانته ، وادعى أنه شاب ، عندما ضبط زوجته مع عشيقها... لم يعد يذكر ما جرى له بعد ذلك . .

هذا ما سيحدث . المرأة التي أرسل اليها الرسالة انفصلت عن زوجها بسبب خيانته لها . لهذا السبب فقد تأثرت بالقصة التي ألفها كثيراً . فقد خدع هذه المرأة مع خادمتها ، زوجها الشاب الذي تزوجها من أجل مالها ، دون الاكتراث بقبحها . وقد وجدت هذه المرأة خصوصية مشتركة بينها وبينه

باعتبارهما ضحيتي قدر ، فبدأت ترسل إلى باشازادة مزيداً من الألبسة الجديدة ، وترسل إليه رسالتين أو ثلاثاً في الأسبوع ، أخذت المرأة ترسل نقوداً إلى باشازادة ، وقد طورا علاقتهما جيداً ، ولو كان هذا عن طريق الرسائل . طلبت المرأة أن تزور باشازادة ، لكنه رفض زيارتها ، لإدراكه ما سيحل به .فقد عرّف بنفسه أنه «ضحية قدر» شاب . . ولكن في أحد الأيام ، وبواسطة أحد معارفها أصحاب الكلمة المسموعة دخلت إلى السجن في يوم الزيارة . طلبت باشازادة . وبينما تنتظر ضحية قدر في الثلاثين من عمره ، رأت أمامها باشازادة ، فهمت أنها خُدعت ، فانهارت أحلامها ، وهذا سبب صراخها . وألقت بنفسها على الأرض مدعية الإغماء عليها ، فحملها الحراس من يديها ، ورجليها ، وأخرجوها .

لم تؤثر هذه الحادثة على حياة باشازادة نهائياً .

قل اسمك الحقيقي

خرجت من السجن ليس معي نقود . لا أجد مبرراً للكذب ، كنت مستعداً لكافة أنواع الاحتيال ، والتزوير . لايوجد أمامي حل آخر . من الممكن أن يتهيأ لكم أن ما سأقوله غريب . لم أجد طريقاً للاحتيال بالرغم من أنني محتال شهير صاحب سوابق . لدي أصدقاء كثيرون من أصحاب السوابق الذين تعرفت إليهم في السجن ، لكنني لم أرغب في الذهاب إلى أحدهم . ولأن حالة الطوارئ قد أعلنت في اسطنبول . فحينما يقبض على صاحب سوابق ، يُرمى به خارج اسطنبول مذنباً كان أو غير مذنب . إذا ارتُكب ذنب في مكان ما ، يجمعون بسرعة أصحاب السوابق إن قُبض على الفاعل أم لم يقبض عليه ، وينفونهم خارج اسطنبول . إن إخراج المرء خارج اسطنبول ليس بالسهولة التي تبدو في كلامي هذا . كان يجرجر المقبوض عليهم في المخافر ، والسجون العسكرية أياماً طويلة ، بعد ذلك يمنع هؤلاء من مغادرة منفاهم .

ولكي لاتقع لي بلية كهذة ، فضلت الابتعاد عن أصحاب السوابق ، والخروج بإرادتي من اسطنبول ، والذهاب إلى مكان مناسب ، وايجاد عمل يسترني . ولكنني لم أكن أمتلك نقوداً تكفيني أجرة طريق لمغادرة اسطنبول . كما ترون ، عندما يصبح الإنسان بلا مخرج له ، يدفع بالقوة إلى الطريق الذي لايريد الانحراف إليه . لولا أنني بهذه الحالة اليائسة ، فهل أبحث عن رجائي المتذبذب ؟ رجائي لا يشكل لي أية خطورة لأنه ليس من أصحاب السوابق .

على العكس ، أنا خطر عليه . في الحقيقة إن جرائمي لاتساوي شيئاً أمام جرائمه . ولكنني صاحب سوابق شهير ، أما هو فمواطن شريف . كنت أبحث عن رجائي لكي آخذ منه بعض النقود . وعندما آخذها منه ، سأخرج من اسطنبول ، وسأغلق على نفسي في مكان يعجبني .

بحثت في كل مكان كنت أعتقد أنني أستطيع إيجاد رجائي المتذبذب فيه . ترك البنسيونات القديمة ولا أحد يعرف مكانه . قطعت الأمل من إيجاده .

خوفاً من حالة الطوارئ ، والأحكام العرفية كل واحد من أصحاب السوابق وجد جحراً يختبئ فيه . ولكن الذين لايستطيعون تأمين عيشهم ، لايستطيعون الاختفاء بشكل دائم ، وهم مضطرون للظهور . بينما كنت أبحث عن أحد أصدقاء السجن قابلت رجائي .

ـ بينما كنت أبحث عنك في السماء ، وجدتك على الأرض .

هذا ما قاله رجائي المتذبذب . وهذه هي عبارته الأولى . تعانقنا . أعلم أنه في الحقيقة لايبحث عني ، ولكنه هكذا يتصرف دائماً . وكما في كل مرة تصرف وكأننا افترقنا للتو . أردت أن أبلغه عن رغبتي بمغادرة اسطنبول لكنه لم يترك لي مجالاً للحديث ، وتأبط ذراعي ، وبدأ يتكلم . تحدث بموضوعات متباعدة ، وبسرعة إلى حد أنني لم أفهم شيئاً مما قاله . . قال ستأتي هيئة إيطالية . . ثم دخلنا إلى مجمّع تجاري قريب . . وقال إنه سيقوم بعمل مشترك مع الهيئة الإيطالية . . دخلنا المصعد . . قال ان هذا العمل كبير جداً . لأنه سيصدر قانون «تشجيع الرأسمال الأجنبي» ، وعندما يصدر هذا القانون ، ستتدفق أموال من يريد سلب تركيا من الأجانب . . خرجنا من المصعد . دخلنا إلى مكتب فاخر . . قال عندما سيصدر قانون تشجيع الرأسمال الأجنبي ، وتتدفق رؤوس الأموال الأجنبية ، سيبدأ النهب . ولكن عمليات النهب هذه لا تعد جريمة ، لتوافقها مع القوانين . أي أنه في النهاية ليس هنالك دخول إلى السجن .

أثناء حديث رجائي خرجت فتاة جميلة من إحدى الغرف ، وهي تحمل بيدها دفتر ملاحظات ، وقلماً . سأل الفتاة قائلاً :

ـ ما مقدار الفلفل الأحمر الذي اشتريته البارحة ؟

قالت الفتاة :

ـ واحد كيلو غرام .

ـ قليل .

ـ طلبت منهم المزيد ، قالوا إننا أخذنا عشرة كيلوغرامات ، ويريدون ثمنها .

صرف رجائي الفتاة التي أظنها سكرتيرته . تابع حديثه في موضوع الرأسمال الأجنبي... عندما تتدفق الرساميل الأجنبية إلى البلد . . ماذا يحدث ؟ . . كأن كومة نقود كبيرة وسط غرفة . . نوافذ وأبواب هذه الغرفة متقابلة ، ومفتوحة . . والهواء عاصف جداً . . ماذا يحدث ؟ كل قطعة من النقود ، تُرَكِّبُ جناحاً وتطير . وسيتناحر الناس من أجل تخاطف النقود المتطايرة . ماذا سيفعل الذكي ؟ لن يلهث خلف قطع النقود المفردة المتطايرة في الهواء ، بل سينقض على الكومة ، ويحمل ما باستطاعته ، ويهرب . ولهذا السبب ، دعا رجائي هيئة إيطالية من أجل خطف أطنان من النقود في هذه المعمعة . . وقال إنه سيعمل معهم عملاً مشتركاً .

كان ينبعث صوت تغريد طيور .

فتح إحدى الغرف ، وأراني ما بداخلها . مليئة بطيور الكناري .

دخل رجل . ألقى التحية ، ودلف إلى إحدى الغرف . ردّ رجائي التحية ولم يضف شيئاً . لم يتوقف عن الحديث حول قانون تشجيع الرأسمال الأجنبي . بعد قليل خرج الرجل من الغرفة ، وهو يحمل بعض الملفات . أثناء تقديمه الرسائل الموجودة داخل الملفات لكي يوقعها رجائي ، كان يقدم شرحاً حول كل رسالة :

ـ هذه إلى شركة إليسون هووارت .

ـ هذه رسالة جوابية إلى الشركة الألمانية . . أبلغناهم قبولنا عرضهم .
ـ بهذه نطلب قائمة الأسعار من بلجيكا .
وقّع الرسائل . ذهب الرجل إلى غرفته .
قال لي رجائي إن هذا الرجل يهودي ، ويعمل في عشرة أمكنة في آن واحد ، ويجيد أربع لغات إجادته للغته الأم ، ويأتي في الأسبوع نصف يوم إلى المكتب ، يترجم الرسائل ، ويجيب عليها ، ويكسب مكسب عشرة أشخاص ذوي دخل جيد .
خرجنا من المجمّع التجاري . عندما وصلنا إلى الطريق الرئيس توقفنا . كانت السيارات تمر أمامنا . انتظرنا كثيراً . سألته عما ننتظره ، فقال :
ـ سيارتي .
فهمت من كلامه هذا أن لديه سيارة خاصة ، وستمر في ساعة محددة ، وسيركبها . كانت عيناه على السيارات المارة من أمامنا . أوقف سيارة أجرة فخمة منادياً :
ـ (تكسي) .
ركبنا السيارة . سألته قائلاً :
ـ هل تشغّل سيارتك بالأجرة ؟
كأنه نسي كلامه الذي قاله قبل قليل ، فقال :
ـ أية سيارة ؟
ـ أما قلت إنك تنتظر سيارتك ؟
ـ هاااا . . أنت تعلم أنني صاحب شهوات لا تنتهي . أنا أمل طراز السيارة ، ولونها بسرعة . لهذا السبب فإن كافة سيارات الأجرة لي ، وكافة السائقين يعملون عندي . أنا لا أركب سيارة أجرة لا على التعيين ، بل أركب السيارة التي تعجبني يومئذ .
اصطحبني إلى بيته . البنسيون السابق الذي كان يقيم فيه لا يساوي شيئاً أمام هذا البيت . هنالك امرأة في البيت تقوم بأعماله . ليست تركية تلك المرأة

المتوسطة العمر ، لأنها تتكلم تركية مكسرة . تنبعث من بيته أيضاً أصوات طيور . خصص إحدى غرف البيت من أجل الكناري .

قلت له إنني أحب الكناري ، ولكنني لا أستطيع تربيته بسبب عدم استقرار حياتي ، فقال :

ـ أنا يا عزيزي لا أحب الكناري .

قلت له :

ـ هذا يعني أنك تعمل في تجارة الطيور .

ـ لا ، لا ولاهذا . . هذه هواية أعملها من أجل المتعة . . ولكن ليست تلك المتعة التي تعرفها . . هذه مختلفة .

عندما قدمت لنا المرأة القهوة ، سألها :

ـ هل تحمرّ يا سيدة ؟

قالت المرأة :

ـ تحمرّ ببطء . .

كأنهما يتحدثان بالشيفرة . لم أستطع استنتاج معنى من حديثهما .

ـ تقدمين لهن فلفلهن الأحمر ، أليس كذلك ؟

ـ نعم .

ـ هل احمرّ أحدها ؟ أي احمرار كامل . .

ـ ثلاثة منها احمرت تماماً .

كان يمر على مكتبه لفترة قصيرة بعد ظهيرة كل يوم . وأنا في هذا الوقت أذهب معه إلى المكتب . قلت له إنني أريد الخروج من منطقة الأحكام العرفية ، والذهاب إلى الريف ، وتأسيس عمل هناك . لم أطلب منه نقوداً بصراحة ، ولكنني أشعرته بحاجتي هذه . قال إن الهيئة الإيطالية قادمة قريباً ، وإنه ينتظر منها برقية . وبعد أن تأتي هذه الهيئة سيهون كل شيء ، وعلي الانتظار لفترة ليست طويلة ، يوماً أو يومين .

لم أفهم بشكل واضح ماذا يعمل رجائي المتذبذب . سألته عن هذا

الأمر ، قال لي :

ـ وأنت ماذا تعمل ؟

بسؤاله هذا ، كان يحقرني بشكل واضح . قلت بصوت مرتفع :

ـ ماذا تقصد ؟

ـ إهدأ ، لا تغضب . أقصد أنني أعمل العمل الذي تعمله أنت ، ولكن بسوية أعلى . .

سألته من جديد :

ـ ما فهمت . . ما العمل الذي أعمله أنا ؟

لأنني فهمت أنه يريد صفعي باحتيالي ، فأصررت على سؤالي ، فقال :

ـ سأقول لك ماذا أعمل . . كل أنواع التصدير والاستيراد وما استيراد . . الصناعة ، والإنشاء والوساطة وما وساطة . . تجارة داخلية وخارجية وما تجارة . . نقل وما نقل . . هل فهمت الآن ؟

أنا محتال صاحب سوابق بقرارات محاكم لا تحصى ، ومصدقة من النقض ، لم أعمل احتيالاً كالذي يقوم به ، ولم أر من يقوم بمثله ، ولا سمعت في كل السجون التي دخلتها في مختلف مناطق تركيا عمن يقوم باحتيال مثل احتياله .

اسمعوا كيف حدث هذا... كنت معه وكان قد تلقى قبل يوم برقية من الهيئة الإيطالية تعلمه بموعد وصولها . هنالك مكان تؤجر فيه السيارات . اتصل بهم ، وطلب ثلاث سيارات مع سائقيها ، وأوصاهم أن يكون طراز السيارات حديثاً . خدع السيدة التي تعمل لديه في البيت ، واصطحبها معه قائلاً :

ـ الطقس جميل اليوم ياسيدة . . تعالي أنزهك .

أتى ذلك الرجل العارف لأربع لغات إلى المكتب يومئذ... والفتاة السكرتيرة أيضاً . . أصبحنا خمسة أشخاص . قال :

ـ من الأفضل أن نستقبلهم بعدد كبير . .

جلب السائقون السيارات الثلاث التي استأجرها . ركبناها . أنا معه في سيارة واحدة . ذهبنا لاستقبال الإيطاليين في المطار . . في الطريق طلب من السائق التوقف قليلاً . أوقف رجلاً ماراً بجانب السيارة . قال إنه من معارفه . تأبط الرجل من ذراعه ، وأتى به إلى السيارة . قال للسائق :

ـ امش!

قال الرجل إنه مشغول ، لكنه خدعه قائلاً :

ـ نحن ذاهبون للتسلية والمتعة ، وسنعود بسرعة .

وصلنا إلى مطار اسطنبول . السيدة التي تقوم بأعمال المنزل ، والرجل الذي استوقفه ، وجلبه من الطريق لا يعرفان سبب ذهابنا إلى المطار . وصلت الطائرة المنتظرة . ولأنه لا يعرف الإيطاليين ناداهم بأسمائهم بواسطة مكبّر الصوت . وهكذا استقبلنا أربعة إيطاليين . قبل ركوبنا السيارات عرَّف الإيطاليين بنا . رجائي يتكلم التركية ، واليهودي يترجم إلى الإيطالية ، أشار إليّ قائلاً :

ـ المدير العام لشركتنا .

صافحت الرجال ، أشار الى السيدة :

ـ مديرة العلاقات العامة . .

أشار إلى الرجل الذي استوقفه في الطريق ، وأتى به .

ـ كبير مستشاري شركتنا .

أشار إلى الفتاة :

ـ سكرتيرتي .

تعارفنا . ركبنا السيارات . كنا في السيارة أربعة أشخاص ، أحد الإيطاليين ، والمترجم ورجائي ، وأنا . . في الطريق قال له إنه سيريهم مكان عمله ، ثم يأخذهم إلى الفندق ، وإنهم سيتحدثون في العمل مساءً أثناء العشاء . .

نزلنا من السيارات أمام المجمع التجاري الذي يوجد فيه مكتب رجائي .

تأبط رجائي ذراع الرجل الذي أظنه رئيس الهيئة الإيطالية ، وسار في المقدمة يرافقهما المترجم . تبعناهم نحن . السكرتيرة بجانبي . سألتها عن العمل الذي جاء من أجله هؤلاء الإيطاليون ، فاستغربت الفتاة عدم معرفتي ، وقالت إنهم أتوا من أجل انتاج سينمائي . ليس فلماً واحداً ، بل سينتجون عدداً كبيراً من الأفلام بالمشاركة مع رجائي ، وسيستثمرون مبالغ كبيرة في هذا العمل .

لم يتوجه رجائي نحو المصعد ، بل نحو الطرف المعاكس ، حيث الممر . فتح أول باب في الممر ، كان المكان الذي فتح بابه رجائي صالة مطعم للمجمع التجاري ، قال للإيطالي الماشي بجانبه :

ـ هذا مطعم العاملين عندنا . . يتناول مائتان من العاملين لدينا طعامهم يومياً في هذا المطعم .

ـ ترجم المترجم هذه الكلمات إلى الإيطالية .

أغلق باب المطعم . فتح باباً آخر إلى الأمام قليلاً من ذاك . المكان صالة حلاقة ، قسمت من منتصفها . طرف للحلاقة الرجالية ، وطرف للنسائية . بعض النساء يسرحن شعرهن ، وبعضهن يحلقن ، وبعضهن الآخر يعملن (المانيكور) . ضحك رجائي ، ورفع يده اليمنى محيياً من هناك ، ثم قال لهم :

ـ يومكم سعيد! أعطاكم الله العافية . .

دهش قليلاً العاملون هناك ، ولكن بعضهم قال : «(ميرسي)» ، وبعضهم : «شكراً» ، وبعضهم الآخر : «عافاك الله» .

قال رجائي للإيطالي الذي بجانبه :

ـ هذه صالة المكياج لشركتنا .

أغلق الباب ، وفتح الذي يقابله . كان ذلك المكان ، محلاً لتصليح الكراسي والمقاعد . عندما فتح الباب قال المعلم الذي يعمل في المحل :

ـ تفضلوا!

بعد أن قال له رجائي : «أعطاك الله العافية» قال للإيطالي إن هذا المكان

إحدى ورشات الديكور . .

فتح الباب الذي بجانبه . كان من في المحل يعملون إطارات اللوحات والصور والمرايا ، ويخططون الآرمات . بعد أن قال لمن هناك بوجه باسم : « مرحباً يا شباب » ، قال للإيطالي :

ـ هذه أحدى ورشات (الاكسسوار) .

ولأنه قال هذا بصوت خفيض للإيطالي ، فلم يسمع من كان هناك .

هذه المرة كان المكان الذي فتح بابه هو محل خياطة . سلم على العاملين هناك ، وتمنّى لهم العافية ، ثم التفت إلى الإيطالي ، وقال :

ـ هذه ورشة شركتنا للخياطة .

فتح باباً آخر وإذا به ورشة خياطة أخرى . فقال عندئذ إن للشركة تسع أو عشر ورشات خياطة ، وهذا أيضاً مكان لخياطة الأزياء . .

فتح باباً ذا مصراعين . إنه مقهى المجمع التجاري . المكان مزدحم ، وكثيف الدخان ، وصاخب . يلعب من هناك بالورق والطاولة والدومينو . قلت في نفسي : « هاقد وقعت في المأزق » ، ما الذي ستلفقه من أجل هذا المكان ؟ » قال رجائي بواسطة المترجم للإيطالي :

ـ هذه صالة انتظار الكومبارس . . الكومبارس ينتظرون هنا ريثما يحين موعد عملهم .

عندئذ قلت في نفسي : « اعترف له بكل شيء » .

صعدنا بواسطة المصعد إلى الطابق الثاني . في هذا الطابق عدد من مكاتب المحاماة . ولأن على باب كل مكتب تكتب كلمة « المحامي » وهذه الكلمة دخلت إلى التركية من اللغات الأوربية ، لابد أن الإيطاليين فهموا أن هذه مكاتب محامين . فقال لهم رجائي إنه خصص هذا الطابق من أجل محامي الشركة . صعدنا إلى الطابق الثالث . فتح هناك أحد الأبواب . المحل ، مكتب عقاري ، مد يده للرجل الذي كان هناك بحرارة زائدة كأنه صديق حميم ، وقال له :

ـ كيف حالك يا سيدي ؟

رد صاحب المكتب بالحرارة نفسها :

ـ الحمد لله . . كيف حالكم أنتم ؟ طلباتكم ؟

لوح له رجائي بيمناه قائلاً :

ـ أتمنى لكم عملاً جيداً .

وقال للإيطالي إن هذا أحد أفراد السكرتاريا للشركة .

هذه المرة تحرك الإيطالي قبل رجائي ، وفتح الباب المقابل . ومن خلال الرائحة المنبعثة يتضح أن المكان هناك دورة مياه . دخل الإيطالي . قال له رجائي :

ـ وهذه عائدة لشركتنا . .

خرج الإيطالي من هناك مرتاحاً ، بعد أن كان يبدو عليه بوضوح أنه محصور .

فتح عدة أبواب ، وقال للإيطالي أنها محلات لشركته . المجمع التجاري كبير جداً . لايمكن له فتح كل الأبواب . سيتعب الضيوف . أطلع الهيئة على عدد كبير من المحلات والمكاتب دون أن يطلعهم على مكتبه . نزل معهم إلى الأسفل . ركبوا السيارات معاً ، وذهبوا . أنا لم أذهب .

كلما ذهبت إليه يعطيني مبلغاً من النقود ، ولكنها لا تكفيني للذهاب من اسطنبول إلى مكان آخر ، وتأسيس عمل هناك . يعد دفعه النقود لي قليلاً قليلاً ، استمتاعاً بطعم الغنى .

لم أعرف إذا كان قد عقد صفقة عمل مع الإيطاليين أم لا ، وماهو نوع العمل إذا كان قد عمله . ولكنني أعرف جيداً أن هدفه ليس القيام بعمل ما ، بل خوزقة شخص ما ، وليكن من يكون ، من أجل إقناع الآخرين بأنه متفوق في الذكاء .

عندما جئت مرتين في يومين متتاليين إلى المكتب ولم أجده ، سألت خادم الطابق ، فقال إنه لم يأت منذ أكثر من أسبوع ، ثم أضاف :

ـ هل اشتريتم كناري ؟
ومن أجل معرفة حقيقة الأمر ، قلت له :
ـ نعم .
ـ كل يوم يأتي من الصباح إلى المساء أكثر من عشرة أشخاص قائلين إن لون الكناري قد كلح . . ياناس ، هذه فضيحة لم يُر مثلها . . وهل الكناري قماش يكلح لونه . . صبغ الرجل الجحش وباعه لأبيه . تجاوز هؤلاء صباغي الجحاش . إنهم يصبغون العصافير ، ويبيعونها كناري .

لم أفهم منه حقيقة الأمر . ذهبت مساءً إلى بيته . عندما رآني ، قال كما في كل مرة :

ـ هااا . . حسن إنك أتيت . . وفي الوقت المناسب أيضاً . .
وأنا كما في كل مرة ، أعتقد أن هذا الشاب مستقيم ، فسألته :
ـ ماذا يوجد ؟
ـ غداً سنعقد مؤتمراً صحفياً .

فاجأني الضحك ، ولم أستطع مسك نفسي بأي شكل ، واستمررت طويلاً بالضحك . سيعقد رجائي المتذبذب مؤتمراً صحفياً في أفخم فنادق اسطنبول . قال :

ـ لا تسخر! سترى . . عليك أن تأتي أنت أيضاً . أو الأفضل أن تبقى هذه الليلة هنا . غداً نذهب سوية إلى المؤتمر الصحفي . .
ـ ياهذا ، عن أي مؤتمر صحفي تتكلم ؟
ـ شرحت لك .
ـ ماذا شرحت لي ؟
ـ أما شرحت لك قانون تشجيع استثمار الرأسمال الأجنبي . . أتاني ثلاثة رجال أعمال أمريكان ، يريدون أن يستفيدوا من هذا القانون ، ويستثمروا أموالاً كثيرة .
ـ وماذا ستعمل أنت ؟

ـ سأعمل ما أعمله دائماً . . أي الاحتيال . هؤلاء يريدون استثمار أموالهم هنا ، وأنا سأجد لهم أصحاب أموال لكي يشاركوهم هنا .

ـ كيف ستجدهم ؟

ـ إيه . . ألا أعقد مؤتمراً صحفياً ؟ لماذا ؟ عندما ستصدر الجرائد ، وتحمل خبر رغبة هؤلاء استثمار أموال طائلة ، انظر كيف سيتهافت أذكياؤنا . .

لأول مرة في حياتي ذهبت إلى ذلك الفندق الضخم . عقد المؤتمر الصحفي في صالة كبيرة من الفندق . امتلأت الصالة بالصحافيين ، والمصورين . وخشية أن يراني أحد ما يعرفني ، وقفت في مكان خلف الجمع .قُدِّمت للقادمين المشروبات بكثرة . جلس الأمريكيون الثلاثة معاً . بدأ الحديث رجائي المتذبذب . بعد أن شرح للضيوف والصحفيين أهمية قانون تشجيع استثمار الرأسمال الأجنبي ، بين كيفية الاستفادة من هذا الرأسمال بفضل هذا القانون . وأعلن عن رغبة ضيوفه رجال الأعمال الأمريكيين في استثمار أموالهم في تركيا . ثم تحدث الأمريكيون فرادى . اليهودي العارف لأربع لغات يترجم لهم إلى التركية .

بعد انتهاء كلماتهم ، بدأ الصحافيون بتوجيه أسئلتهم . وعن سؤال : في أي المجالات سيستثمرون أموالهم ؟ أجاب أحدهم : في مجالات واسعة ، وعلى نطاق واسع ، وسيؤسسون مصانعَ تستخدم المواد الأولية الموجودة في تركيا بشكل خاص . مصانع ماذا ؟ لم يستطع الأمريكيون بأي شكل تبيين معامل ماذا سيؤسسون ، وستحدد المصانع من خلال مقترحات رجال الأعمال الأتراك .

أحدهم قال إنه يعطي أهمية خاصة للصناعة التي ليس لها دخان أو مداخن . أي سيستثمر أمواله في السياحة .

تلتقط الصور بكثرة لرجال الأعمال .

انتهى المؤتمر الصحفي . ذهب المدعوون والصحفيون . انفرج كربي ،

حيث لم يكن في الجمع من يعرفني .

قال لي رجائي إنه سيبقى هذا المساء مع الأمريكيين ، وسنلتقي هو وأنا في بيته مساء اليوم التالي .

في اليوم التالي نشرت الصحف صور الأمريكيين الثلاثة ، وأقوالهم ، ونادتْ هذه الصحف رجال الأعمال المحليين للعمل معهم . الرأسمال من الأمريكيين ، وهم مستعدون لتلقي كل مقترحات العمل ، وأنهم سيقيمون في الفندق لمدة أسبوع لبحث مقترحات العمل المقدمة إليهم .

مساءً ، ذهبت إلى بيت رجائي . كانت عنده صحافة ذلك اليوم . استعرضتها ، فوجدتها أعطت الأهمية اللازمة للمؤتمر الصحفي ، إلا واحدة منها ، فقد تناولت الأمر بسخرية . كتبت هذه الصحيفة أن الأمريكيين يريدون تأسيس صناعة بدون مداخن ، وصناعة اللوك . سألت رجائي قائلاً :

ـ ماهي صناعة اللوك هذه ؟

فقال :

ـ إنها صناعة العلكة .

عندئذ غضبت من هذه الجريدة التي لفقت الخبر ، وقلت :

ـ يا لقلة شرفهم!

فقال رجائي :

ـ هذه هي الجريدة الوحيدة التي كتبت الحقيقة ، وأنت تقول عنهم قليلو شرف .

ناقشته قائلاً :

ـ ما شكل هذه الحقيقة ؟ ثلاثة رجال أعمال أمريكان يأتون من أمريكا!!!!! . . إلى بلدنا من أجل استثمار أموالهم الضخمة ، فتنشر الصحيفة دون خجل أنهم : « سيؤسسون صناعة لوك » .

قال رجائي :

ـ من أتى من أمريكا ياهذا ؟

ـ رجال الأعمال الثلاثة اولئك .

ـ أي رجال أعمال ؟ أحدهم عريف أمريكي يعمل في هيئة المساعدة الأمريكية هنا ، والثاني عامل على ظهر سفينة ، تعرفت عليه ذات ليلة هنا ، وأرسلته إلى الفندق ، والثالث ليس أمريكياً ، لكنه يجيد الإنكليزية . إنه من مكان ما في أمريكا الجنوبية ، حتى إنني لا أعرفه من أين . . جلب إلى تركيا ثلاث أو أربع عاملات في (السترب تيز) لتشغيلهن في الملاهي الليلية ، أي أنه قواد . .

قلت صارخاً :

ـ تفوه . . لعنة الله عليك! ولاه ، أقنعت كل الناس أن ثلاثة رجال أعمال أمريكيين سيستثمرون أموالهم في تركيا .

ـ هاهي إحدى الصحف لم تنطلِ عليها اللعبة .

ـ حسن لماذا فعلت هذا ؟

ـ ياهذا ، كم مرة شرحت لك . . هل صدر قانون تشجيع استثمار رأس المال الأجنبي أم لم يصدر ؟ . . أموال طائلة دلقت في الوسط . فتحت النوافذ والأبواب . الناس ماكرون . . سيعملون على التقاط النقود المتطايرة . طالما أن لدينا قانوناً ، وأنا شديد الاحترام للقوانين ، فأريد الاستفادة من هذا القانون يا صديقي .

مايخطر ببال الكلب المدعو رجائي المتذبذب لا يخطر ببال الشيطان .

ـ ولاه ، أخشى أن تكون قد مررت مسألة الهيئة الإيطالية بهذا الشكل ، وهم من يهودنا الساكنين في حي (تبة باشي) ؟

ـ لا ، اولئك إيطاليون حقيقيون . وأنت رأيتهم عندما نزلوا من الطائرة .

ـ ماذا فعلت للإيطاليين ؟

ـ انتهى أمرهم ، وصرفتهم إلى إيطاليا . قريباً سأذهب أنا أيضاً إلى هناك . سأوقع الاتفاقية من أجل ربط القضية بوتد قوي .

بعد برهة صمت قال :

ـ أنت د ع عنك هذا ، ولنعد إلى عملنا الأصلي .

قلت :

ـ ماهو ؟

ـ ألم أعمل عمل الكناري ذاك ؟ فاحت رائحته .

ـ لم أفهم!

شرح لي ، وذهلت عندما شرح . عندئذ فهمت حديثه المشابه للشيفرة في المكتب مع سكرتيرته عندما ذهبت إلى مكتبه للمرة الأولى ، وحديثه مع تلك المرأة في البيت . إنه يشتري كنارياً رخيصاً يطعم هذا الكناري فلفلاً أحمرَ . سكرتيرته تلك تشتري كل يوم عدة كيلوغرامات من الفلفل الأحمر . وخشية من وجود مواد إضافية في الفلفل الأحمر المطحون ، فلا يشتري منه . مهمة السكرتيرة شراء الفلفل الأحمر الجاف ، وطحنه ، ثم إطعام الكناري منه . والمرأة التي في البيت أيضاً تطعم الكناري من الفلفل الأحمر نفسه . عندما يأكل الكناري الأصفر الفلفل الأحمر يحمرّ ، ويصبح ريشه أحمرَ . ورجائي يبيع هذا الكناري لمحبيه بأسعار باهظة على أنه نوع نادر من الكناري . من يأخذ الكناري الأحمر إلى بيته ، ينتظر مرور أسبوع أو اثنين ، فيجد أن لونها قد كلح . لايحتمل هذا ، فيهرع إلى مكتب رجائي .

عندئذ قال رجائي :

ـ ليس من الصواب بقاؤك معي في هذه الأيام ، لأنك من أصحاب السوابق .

ـ أصلاً ، أنا لا أريد البقاء معك .

ثمة ما شغل بالي ، وهو أن من يدبر أموراً كبيرة جداً إلى هذا الحد يجب ألا يكون بحاجة إلى عملية تغيير لون ريش الكناري لبيعها بأسعار أغلى . سألته عن هذا ، فقال :

ـ لنذهب إلى مكان ما نتناول فيه الطعام ، وعندئذ أشرح لك .

ذهبنا إلى خمارة ، وبدأنا الشرب .

ـ عندما رأيتُ الكناري في مكتبي ، وفي بيتي ، سألتني عما إذا كنت أربي الكناري . . وأنا قلت لك إن هذا مجرد هواية لي . .

ـ نعم .

ـ أعمال كهذه لا أعملها من أجل كسب المال ، بل من أجل الاستمتاع بهوايتي . . مثلاً ، رجل موظف ، بقي في داخله شيء من رغبة أن يكون رساماً . ليس لديه وقت ليرسم . يجلس في يوم عطلته الأسبوعية الوحيد ويرسم . يسمى هؤلاء رسامي الأحد . . وعملي هذا ، يشبه ذاك . .

ثم إنه لم يدفع ثمن الفلفل الأحمر للبائع ، هذا ماقالته السكرتيرة ، قلت له :

ـ أنا لم أعرفك أبداً أثناء الدراسة .

قال مبتسماً :

ـ لكننا فيما بعد تعرفَ بعضنا على بعض بشكل جيد .

شربنا كثيراً . قلت له :

ـ أنا لم أستطع بأي شكل تخليص نفسي من الشرطة والنيابة ، مع أنني لا أريد عمل شيء سيء . أريد العمل بشرف ، وكسب لقمة العيش . هذا كل شيء . . ولكن مهما فعلت فلا أتخلص من كوني صاحب سوابق في الاحتيال والتزوير .

قاطعني قائلاً :

ـ فهمت . ماتريد أن تقوله هو إنك ترتكب الجرائم ، ولكن ليس عن إرادة ، أي لا تقوم بهذا بخيارك . أما أنا ، فأحتال على الجميع ، وبقصد ، فكيف لا يقبض عليَ ؟ هذا ماتريد معرفته ، أليس كذلك ؟ لأقول لك : هناك أسباب كثيرة . . .

قبل كل شيء هو لايقوم بأعمال متشابهة ، لأنه من المولعين بالتغيير . كل عملية احتيال يقوم بها تختلف عن الأخرى . أما أصحاب السوابق فيقضون حياتهم بتكرار العمل الذي جعلهم أصحاب سوابق . وهكذا يصبح من السهل

جداً القبض عليهم .

كان رجائي المتذبذب يقول لي هذا كأنه يشرح درساً :

ـ اغلب البشر لا يستطيعون التخلص من عاداتهم . لاحظ . إذا ذهب إنسان إلى مطعم ما ليتناول الطعام ، وجلس إلى طاولة معينة ، فيرغب بالجلوس إلى الطاولة نفسها عندما يذهب إلى المطعم لتناول طعامه مرة أخرى . وسينزعج كثيراً إذا جلس ثلاث مرات إلى طاولة معينة ، ثم وجد آخرين يجلسون إليها عندما يريد تناول طعامه مرة أخرى . الأمر ينسحب على الفنادق أيضاً . .

تحدث رجائي عن حقيقة لم أنتبه إليها حتى ذلك اليوم . تعرفت في السجن بلص ليلي من أصحاب السوابق . إنه لص ماهر . عندما يدخل إلى أي بيت ليلاً ، ويسرق مايسرقه ، وقبل خروجه من البيت يدخل إلى المطبخ ، ويأكل من الطعام الموجود ، ويعمل الكبيرة في المرحاض . اعتاد على هذا . كلما ارتكب لصوصية يقع (كلمة يقع من استخدام باشازادة) لو أنه لم يعمل هذا لما قبض عليه . لكنه لا يستطيع إلا أن يعمل هذا .

السبب الثاني لعدم وقوعه هو شَبْكِهِ للأعمال التي يقوم بها إلى حد عدم استطاعة أحد الخروج منها . على الرغم من أنه عندما يعمل لا يتشارك مع أحد ، لكنه يُدخل في عمله المعقد عدداً من الناس حتى يغدو من المستحيل معرفة المذنب من غير المذنب .

والسبب الآخر هو إدخاله أشخاصاً آخرين في أعماله المعقدة ، دون أن يعرفوا شيئاً . وإلا فإنه سيعمل وحيداً . أما غالبية أصحاب السوابق فيعملون بشكل مشترك .

والأهم من كل هذا ، أنه يستمتع بالعمل الذي يقوم به . أي أنه يحب عمله ، وهو متعلق به .

ـ أنا لا أعمل هذا من أجل النقود . لأنني أحب عملي . بالتأكيد إنني أكسب . ولكن النقود ليست الهدف .

يقول إنه يستطيع تأسيس عمل ، وتنظيم حياته . وأنا أصدق هذا . وإنه يستطيع تأسيس عمل وعيش حياة ذات سوية عالية . لكنه يمل من ممارسة العمل نفسه . إنه يريد التغيير المستمر . عندما شرح أسباب عدم شرائه سيارة ، أشار إلى شهوانيته ، واعتبرها السبب الرئيسي لهذا . .

أعطاني ألفي ليرة . ووافقني على خروجي من منطقة حالة الطوارئ بسرعة . خاصة أنه لا يريد أن يظهر معي إثر شكايات مشتري الكناري الأحمر ، وطرقهم باب الشرطة . لا يريد هذا من أجلي ، بل من أجله هو . ظهوره إلى جانب محتال صاحب سوابق يجذب الانتباه إليه ، ويشكك بنفسه .

شربنا كثيراً . ثقل لسانانا ، قال :

ـ أتعرف ؟ أنا دائماً أشعر بالذنب تجاهك .

سألته قائلاً :

ـ لماذا ؟

ـ لأنني لولاك ، ولولا مساعدتك لفصلت من المدرسة قبل فصلي بزمن طويل .

أنا لا أتذكر مساعدتي له في المدرسة . قال إنني غششته في امتحان الرياضيات التحريري مرتين ، وبالتالي أعنته على النجاح في صفه .

سألني قائلاً :

ـ مقابل جميلك هذا ، ما الذي فعلته أنا ، أتعرف ؟

قلت :

ـ ماذا فعلت ؟

ـ سفالة . .

كنت سأقول له : « هذا ماتفعله دائماً لكل الناس » لكنني سكت .

حكى لي :

ـ أما دخلت إلى المهجع بألبسة الباشا المفتش ؟ . . عندما خرجت ، وانت تنقر بالعكاز على بلاط الأرض ، وانعطفت عند أول الممر ، قفزت من

الفراش ، وارتديت ثيابي ، وركضت إلى الضابط المناوب ، من أجل إخباره أن الباشا يتجول على المهاجع . . وهذا من أجل أن أحظى باهتمام الضابط المناوب . لم أعرف أن الداخل إلى المهجع هو أنت . ظننتك باشا حقيقياً ـ بدأ رجائي بالبكاء ـ أعرف أنك لن تصدقني الآن . لو كنت أعرف أنك أنت الذي تتجول على المهاجع بألبسة الباشا ، فلن أخبر عنك لو موتوني . وأنا ظننت أن الضابط المناوب هو بشير الغوغوم ، وإذ به ينشغل تلك الليلة ، ويستلم المناوبة عنه حقي المهدة . عندما طرقت الباب وفتحته ، ووجدت حقي المهدة أمامي ، شعرت أنني سأسقط على الأرض مغمياً علي . عندما قال لي حقي المهدة : « ماذا ؟ » انعقد لساني خوفاً . لم أعد أستطيع العودة . بدأت أتكلم متلعثماً : « باشا . . باشا ياسيدي . . . الباشا . . »

صرخ قائلاً : « ماذا جرى للباشا ولاه ؟ »

قلت له : « الباشا يتجول على المهاجع يا سيدي النقيب » ، وهرعت صاعداً الدرج . وهكذا أتى حقي المهدة من خلفي ، وقبض عليك . . أنا الذي قمت بهذه الإساءة لك . . بقصد أو بدون قصد . . أما عملت هذه الإساءة لك ؟ . . لو لم أذهب من أجل كسب الحظوة عند حقي المهدة لإخباره بأن الباشا يتجول على المهاجع ، لما طردتَ من المدرسة .

أجهش رجائي بالبكاء . وأنا بدأت أبكي معه دون سبب أعرفه .

أنت ساعدتني في الامتحان ، وأنا قابلتك بهذه الإساءة . أنا نجحت في صفي فماذا جرى لي ؟ أنا لايمكنني أن أغدو ضابطاً ، وأدرك هذا جيداً . ولكنك أنت... وا أسفي عليك . . بسببي . . أغفر لي! . .

بكينا . . وكنا ثملين تماماً .

بدأت أعمل على تسلية رجائي .

ـ . . أنت تحزن للاشيء . . أنت لم تفعل هذا عن قصد . .

بعد هذا الاعتراف ، فهمت سبب مساعدة رجائي الذي لم أره ساعد أحداً ، وطلبه بإلحاح أن آتي إليه كلما شعرتُ بالضيق . وإعطائه النقود لي . .

كان يبكي مثل طفل ، مع أنه كان يتهيأ لي أنه لا يعرف البكاء .

ـ جرى ما جرى يا رجائي . . لاتهتم! . .

خرجنا من الخمارة بعد منتصف الليل . تعانقنا . عانقت رجائي هذه المرة من كل قلبي بشعور أخوة ، وافترقنا .

في تلك الليلة عرفت جانباً سرياً لم أكن أعرفه من قبل في رجائي ؟ . . بكيت بعد أن تركته . لقد بكى رجائي كأنه قد غسل ذنوب شخصيته ، وطهّر نفسه . كيف لم ألحظ هذا الجانب الإنساني في رجائي ؟

في اليوم التالي ذهبت إلى محطة القطار لقطع تذكرة ذهاب إلى أبعد محطة . . بيعت كافة البطاقات . انتظرت ساعات طويلة في المحطة لا أدري ماذا أفعل . حسن أن انتظرت ، أحدهم يبيع تذكرته بفرق سعر . دفعت له ما طلبه ، وأخذت منه تذكرة ذهاب إلى مدينة (أرظروم) .

طوال الطريق وأنا أفكر برجائي المتذبذب أكثر مما أفكر في نفسي . لو كنت أعرف جانبه الإنساني هذا لتصرفت معه بتفهم أكبر . فهمت أنني لم أعد أستطيع العيش في المدن الكبيرة . أنا محتال صاحب سوابق . لن تعترف الشرطة لي بحق الحياة . لعلي أجد في محافظة زراعية ، أو بلدة صغيرة وسطاً مناسباً لي . كل ما أريده التخلص من دمغة صاحب السوابق ، والانقطاع عن ماضي ، والبدء بالحياة من جديد . كنت مؤمناً بأنني أستطيع عمل هذا . (أكثر ما لفت انتباهي فيما حكاه باشازادة عما وقع له ، عدم فقدانه ثقته بنفسه بالرغم من كل ماوقع له من بلاء . مثلاً أنا أعرف أن نهاية هذه القصة التي بدأ يحكيها لي فجيعة ، أو أنني أثق بمعرفتي هذه . أثق بما فكرت به ، وبعدم استطاعته تحقيق الحياة التي يريدها لسببين ، الأول : النهاية الفاشلة لكافة تجاربه التي حكى عنها سابقاً . والثاني : لوكان قد نجح في هذه المغامرة التي بدأ يحكيها لي ، لتغير خط حياته ، ولما كان الآن في السجن .

وأنا باعتباري مستمعاً لما جرى له لا أمل لي بنتيجة إيجابية لهذه المغامرة . وهو كان يؤمن بإمكانية التخلص من هذا المستنقع الذي سقط فيه .

ثقته بنفسه غير محدودة) .

لم أكن أعرف إلى أين سأذهب . سأنزل في أي مكان أراه مناسباً ، وأستقر هناك . معي ألفا ليرة . وهذا مبلغ كبير بالنسبة لتلك الأيام .

بعد أن تجاوزنا أنقرة ، وسار بنا القطار كثيراً ، نزلت في محطة وقف فيها القطار . المكان بالنسبة لي كأية محطة . البلدة بعيدة جداً عن المحطة . ذهبت إلى البلدة بواسطة سيارة . لسبب ما لم أعجب بهذه البلدة . من الممكن أن يكون السبب قربها من أنقرة ، أي من مدينة كبيرة . . لو استطعت سأذهب إلى مكان بعيد جداً ، لا أحد يعرفني فيه .

بعد أن ملأت معدتي ذهبت إلى الموقف الأخير لحافلات الرحلات البعيدة . ولأن المكان الذي ستذهب إليه الحافلة غير مهم بالنسبة لي ، سألت عن موعد حركة أول حافلة مهما كانت وجهتها . تنطلق الحافلة الأولى في الساعة الثالثة من الصباح الباكر . قطعت تذكرتي . لو ذهبت إلى فندق فعلي إعطاؤهم هويتي ، لهذا لم أذهب . قضيت تلك الليلة جلوساً في المقاهي ، وتجوالاً في الطرقات . كنت عند الحافلة في الوقت المناسب . لم أكن أفكر في أي أمر حول مستقبلي أثناء سفري الطويل . . أي أنني لم آخذ معي سوى حقيبتي الجميلة . كنت أرتدي بزة جديدة أخذتها من رجائي ، وأظهر من خلال قميصي الأبيض وربطة عنقي بمظهر جيد . تتوقف حافلتنا كلما سارت لمدة ثلاث أو أربع ساعات . توقفت الحافلة مساءً في بلدة أعجبتني إلى حد أنني قررت تجريب نفسي فيها مهما كان . ولأنني شعرت بالجوع ، مددت يدي إلى جيبي من أجل شراء مايشبه المعمول ، كان يبيعه ولد يدور حول الحافلة ، فشعرت بالذهول لعدم إيجاد النقود في جيبي ، مع أنني وضعت كل نقودي في جيب بنطالي الخلفي الأيمن . بحثت في بقية جيوبي فلم أجدها . . لم يبق معي سوى بضعة قروش . لابد أن أحد النشالين صدمني أثناء صعودي إلى الحافلة . بقيت دون نقود . نعم بدون نقود نهائياً . كان لابد لي من الصعود مجدداً إلى الحافلة . تحركت . دب الخوف في داخلي مجدداً . ولأنني

بقيت دون طعام منذ يوم ، شعرت بالجوع كثيراً . أنا بدون طعام منذ أربع وعشرين ساعة لعل الجوع خرب معنوياتي تماماً . هذه المرة أُغلقت كافة طرق الحياة أمامي على يد ذلك اللص ، وفُتح أمامي ذلك الطريق .

حلّ الليل . حافلتنا تتابع طريقها وسط الظلمة . كنا نقترب من منتصف الليل ، توقفت الحافلة أمام مقهى بجانب الطريق . ثمة ساعتا سفر لتصل الحافلة إلى موقفها الأخير . . كنت لاأريد النزول من الحافلة ، ولكنني اضطررت من أجل عمل الصغيرة . وتحسباً لأي طارئ ، أخذت حقيبتي من الحافلة عند نزولي . وفور نزولي التف حولي مجموعة من الناس لم أستطع تمييز وجوههم في الظلام ، وهم يقولون :

ـ يا أستاذ ، يا أستاذ!!

أحدهم أبعد الآخرين وهو يحمل مصباحاً كازياً . رفع المصباح إلى الأعلى ، وقربه من وجهي ، كأنه يريد التعرف إلي وتعريف الآخرين بي :

ـ الحمد لله على سلامتك يا أستاذ!

ـ تفضل من هنا يا أستاذ!

ـ أهلاً وسهلاً بكم يا أستاذ!

كنت متضايقاً إلى حد كدت فيه أن أتبول في ثيابي . لم أكن في وضع يسمح لي بالتحدث مع أحد . دفعت القادمين لقول : «الحمد لله على السلامة يا أستاذ» قائلاً : «عن اذنكم ، أين دورة المياه ؟» وفتحت لنفسي طريقاً بينهم . رجل عجوز فهم قصدي من ارتباكي ، أعطى مصباحه لأحد الشبان ، وقال :

ـ دل الأستاذ على بيت الخلاء ولاه!

قال الشاب الذي يمسك بالمصباح الكازي :

ـ تفضل يا أستاذ .

وسار أمامي . سرنا ، وسرنا ، وفي النهاية لم أحتمل ، فقلت له :

ـ يا أخي أنا سأعمل الصغيرة ، أستطيع عملها هنا في مكان ما .

قال الشاب :

ـ مستحيل يا أستاذ ، هاهو ، هناك ، وصلنا .

لم أكن أميز المكان الذي أطأ فيه ، لكننا نسير في مكان يشبه الحقل أو المزرعة . نتعثر بكتل التراب ، وتغوص أقدامنا في الأرض ، ونعبر من فوق الحواجز ، ونقفز من فوق الخنادق .

قلت :

ـ لم أعد أريد الذهاب يا أخي ، أستطيع عملها هنا . .

لكن الشاب قال :

ـ رحماك ، مستحيل يا أستاذ . سيضربني شيخي بالعصا قائلاً : لم تستطع إيصال أستاذ كبير إلى بيت الخلاء . هاهو هنا . وصلنا . من المعيب ألا نستطيع إيصال أستاذنا إلى المرحاض .

عندما رأى الشاب أن قدمي كثيراً ما تغوصان في التراب ، حاول أخذ حقيبتي لمساعدتي بحملها . ولكن بسبب خوفي بعد فقداني نقودي لم أعطه إياها . ولكن الشاب صاحب عناد يندر وجود مثله . أصر على أخذ الحقيبة من يدي وحملها . قضينا برهة نتدافع ، الشاب وأنا من أجل حمل الحقيبة . هو يشد الحقيبة من طرف وأنا أشدها من طرف . . أثناء تبادلنا الشد ، كدت أعملها في ثيابي .

ـ اترك يا بني!

ـ أنت إترك يا أستاذ!

ـ قلت لك اترك!

ـ والله لا أتركها!

ـ ياهذا هل أنت بلية ؟

ـ اعذرني لن أتركها .

أنا ممكن أن أترك الحقيبة ، ولكن الشاب أوصلني إلى وسط الحقل . وسط ظلمة الليل ،... إذا أخذ الحقيبة واختفى ؟ . . مكان لا أعرفه . ولايوجد

في جيبي أية نقود . سأموت كمداً إذا فقدت حقيبتي . على الأقل يمكنني بيع ما في الحقيبة هنا دون التفكير بغال أو رخيص ، والحصول على ثمن تذكرة العودة إلى اسطنبول . لكن الشاب لا يترك طرف الحقيبة الذي أمسكه ، وهو مثل فرع صنوبر ، ولن أستطيع مصارعته ، فبدأت التوسل إليه :

ـ يا بني ، يا صغيري! كرمى لله اتركها .

ـ جل جلال الله . . لا تقسم يا أستاذ ، والله ، بالله لا أتركها ، هأنذا أقسمت .

غضبت ، وصرخت بكل ما أوتيت من قوة فجأة :

ـ لعنة الله على أستاذك . اتركها ولاه!

وتعلقت بها وشددت ، بقيت الحقيبة مع الشاب ، ومقبضها في يدي ، وأنا وجدت نفسي متمدداً على الأرض فوق ظهري ، والمقبض في يدي . ارتفعت رجلاي في الهواء . أنا لا أسقط بهذا السوء ، ولكن كأن فخاً قد نصب لي ، عندما اهتززت تعثرت بكتلة ترابية . وقد ارتطم ظهري بمكان صلب جعلني أتألم كثيراً . وكنت قد فرغت نصف بولي في سروالي قطرة قطرة خلال الطريق الذي قادني فيه الشاب . وفرغت الباقي عندما سقطت على ظهري لشدة ألمي .

انهضني الشاب من حيث سقطت ، وقال لي :

ـ هاهو يا أستاذ . . تفضل .

كنا قد وصلنا أمام المرحاض . ونحن نتدافع من أجل الحقيبة أمام المرحاض تماماً . وقد سقطت بجانبه ، ولو كنت قد انحرفت قليلاً أثناء السقوط لنزلت في حفرته .

ناولني الشاب المصباح الكازي ، ودفعني نحو مكان هناك . لم أحاول أخذ حقيبتي منه . لأن ظهري آلمني بشكل لم أعد أستطيع معه حمل الحقيبة .

المكان الذي بحثنا عنه في الحقل على أنه مرحاض ، هو عبارة عن حفرة قذرة جداً ، محاطة من جوانبها الثلاثة بالأغصان والأعشاب ، سقفها مفتوح ،

وبابها مغطى بقطعة خيش من كيس قديم .

ابتل سرواليّ الداخلي والخارجي . شعرت أنني قضيت حوالي نصف ساعة حتى وصلت إلى هذا المكان القذر المدعو مرحاضاً . لكننا في الحقيقة لم نمش أكثر من دقيقتين أو ثلاث ، ولكن لأنني كنت محصوراً جداً شعرت بأن الطريق طويل جداً .

خرجت من المرحاض فلم أجد الشاب . لا الشاب ولا الحقيبة يظهران لي . ايه . . يا الله! ماهذا الذي يحصل لي . لو أردت أن أناديه فبماذا سأناديه . أطلقت صوتاً ، وأنا ممسك بحامل المصباح الكازي المصنوع من السلك .

بدأت أنادي في الظلام .

ـ يا بني ، ياشاب! أين أنت ؟

كأنني أنادي الكلاب ، وليس ذاك الشاب . رد عليّ قطيع من الكلاب نباحاً . قدرت عددها من نباحها أربعين أو خمسين كلباً ، وممكن أن تكون مائة . أدركت من اقتراب نباحها أنها قادمة نحوي . لم أعِ ماذا أفعل ، فبدأت الركض . بالتأكيد أنني بدأت أركض عكس الجهة التي يأتي منها نباح الكلاب ، أي أنني أهرب منها . وعندما بدأت أركض ، شعرت بأن ظهري يؤلمني أكثر . بعد أن ركضت فترة ، سمعت صوت «هشت . . هشت» يدفع الكلاب عني ، وينادي وسط الظلام :

ـ يا أستاذ! أنت ذاهب في الجهة المعاكسة .

عرفت صوت الشاب . هرع نحوي ، وأخذ المصباح . أبعد الكلاب عني ، وسار أمامي ، وقال :

ـ خرجتم بسرعة يا أستاذ .

يا الله ، ما هذا البلاء ؟ . . قلت له :

ـ أين كنت ؟

ـ عندما كنتم في المرحاض ، قضيت حاجتي في الخارج .

كان يتكلم دون توقف .

ـ لقد أمر رئيس بلديتنا الجديد بإنشاء هذا المرحاض . ورئيس بلديتنا الجديد ، لانخيره عنكم ، رجل جيد ، ونشيط جداً ، وهو عمي .

وصلنا إلى أمام الاستراحة . ازدحم الناس أمام الاستراحة المنارة بمصابيح الكاز . تحلقوا حولي بسرعة . تسللت من بينهم وخرجت إلى الطريق نظرت وإذا بالحافلة غير موجودة . بدأت أصرخ :

ـ يالطيف ، الحافلة!

قالوا :

ـ الحافلة ذهبت . . ذهبت من زمان...

عندما قلت :

ـ لا ، لا . . أنا أيضاً كنت سأذهب . . بقيت هنا . .

رد عليّ أحدهم :

ـ لا . . من المفروض أن تنزلوا هنا . . مكانكم جاهز . .

وبعد أن قال هذا ، مد يده إليّ مصافحاً ، وقال :

ـ محسوبكم رئيس البلدية .

كان لابد لي من مصافحة اليد الممتدة نحوي . قال :

ـ هيا تفضل يا أستاذ ، لنذهب .

أركبوني عربة خيل ، وجلس بجانبي رئيس البلدية . قال :

ـ ستسرون من بلدتنا إن شاء الله .

أثناء ذهابنا ، بدأ يشرح لي :

ـ المسافة بين بلدتنا والطريق حوالي ربع ساعة . . كان السيد المدير سيأتي لملاقاتكم ، ولكن بسبب تأخر الحافلة ، وعدم معرفتنا بموعد وصولها لم يستطع المجيء . مديرنا رجل طيب جداً . ونحن منذ أيام طويلة ننتظر حضرتكم . عندما تلقينا برقيتكم ، فرحنا كثيراً . وبسرعة خرجنا لاستقبالكم . منذ الظهر ونحن ننتظركم . تأخرت حافلتكم بالوصول .

لم أجب نهائياً ، وكنت أبتسم ابتسامة خفيفة أحياناً . دخلنا البلدة . وقفت العربة أمام أحد البيوت .

قال :

ـ تفضل .

نزلنا من السيارة ، ودخلنا إلى البيت .

ـ لأن الفنادق هنا ليست جيدة سنستضيفكم في بيتنا المتواضع حالياً ، لاتؤاخذونا .

ـ أستغفر الله .

ـ غرفتكم جاهزة . لابد أنكم متعبون ، ناموا إن كنتم تشاؤون .

قال لي :

ـ اترككم بعافية . .

ودخلت إلى الغرفة التي جهزوها لي . خلعت ألبستي الداخلية المبتلة . أمضيت الليلة متمدداً في الفراش ، وأنا أفكر . ما الذي سأعمله في هذه البلدة ؟ لايوجد في جيبي أية نقود لكي أغادر . ماذا سيحدث لو بقيت ؟ هؤلاء الناس لا يخاطبونني إلا بيا أستاذ! . . من الواضح أن هنالك خطأ في الموضوع . إما أنهم كانوا ينتظرون معلماً ، أو أنهم شبهوني بشخص آخر . شعرت أنني دخلت في مأزق جديد .

صباحاً ، استيقظت على أصوات وقع أقدام في الخارج . خرجت . قال لي رئيس البلدية :

ـ صباحكم الشريف خير يا أستاذ . .

سألني عما إذا كنت قد ارتحت ليلاً ، ونمت جيداً . ثم قال لي إن مدير المدرسة قد أتى وهو ينتظرني ، وإننا سنتناول الإفطار سوية .

دخلنا إلى غرفة في الطابق السفلي . قابلني المدير بحرارة كبيرة . وهو رجل لطيف ، أشيب الشعر ، صغير الحجم ، يكبرني بعشر ، أو خمس عشرة سنة . يتكلم باستمرار ، ولايدع لي فرصة للكلام . في هذه الأثناء جلب ابن

رئيس البلدية أطباق طعام الإفطار إلى الطاولة . قلت في داخلي لأملأ معدتي أولاً ، ثم أحكي لهم عما جرى لي ، وعن سرقة نقودي ، وحقيقة أنني لست معلماً .

ما استطعت فهمه من كلام المدير ، أن مدرسة البلدة المتوسطة قد افتتحت حديثاً . والمدير أتى قبلي بخمسة عشر يوماً ، وهو محتار فيما سيفعله . لايوجد في المدرسة المتوسطة المؤلفة من ثلاث غرف خفيضة السقف ، والمبنية من (البلوك) سواه ، والخاتم الرسمي المدور المدون عليه : (الجمهورية التركية ـ وزارة المعارف) . وأراني الخاتم بعد أن أخرجه من جيبه . ضحك وهو يريني إياه ، وقال :

ـ هاهي المدرسة . . هذه هي المدرسة . .

إنه رجل متفائل ، وواثق أن شخصين ، هو وأنا ، يديران المدرسة . لايوجد في المدرسة أمينٌ للسر . نحن الإثنين كل شيء . وبما أنه سمع باسم الأستاذ أورهان ، هذا يعني أنه يظنني شخصاً يدعى أورهان . الأهم من هذا أن أورهان قد أبرق لهم أنه سيأتي في اليوم الذي وصلت فيه . . ماذا سيحدث لونزل بعد قليل من إحدى الحافلات الأستاذ أورهان ؟ فضيحة . .

قال المدير المثالي جداً :

ـ سيضع كل منا يديه بيديَ الآخر ، وننهض لنحمل حمل هذا العمل بإذن الله .

حسب تفكيره ، أن القائمقام ، ومسؤول المعارف في الناحية ، وطبيب البلدية ، ومعلمي المدرسة الابتدائية يستطيعون المساعدة في التدريس .

سبب اهتمامهم بي إلى هذا الحد ، وتقديرهم لي هذا التقدير هو خشيتهم من عدم إعجابي بالبلدة وذهابي . لأن أهالي الناحية يبذلون جهودهم منذ خمس سنوات من أجل فتح مدرسة متوسطة في الناحية . بناء المدرسة نفذه الأهالي . عندئذ لم يستطع وزير التربية معارضة كل هذه المطالبات المستمرة ، والاستدعاءات المذيلة بآلاف التواقيع ، والبرقيات ، والهيئات . .

في النهاية قال : « فتحتُ لكم مدرسة متوسطة » وأرسل مديراً ، وخاتماً ، وأنا أتيت مكان مدرس الرياضيات الأستاذ أورهان .

بعد الإفطار ، قال المدير :

ـ تفضل لنذهب إلى المدرسة .

كنت أفكر باستمرار أنني سأحكي أصل الحكاية للمدير عندما نبقى وحدنا . حسن ، إذا حكيت له فماذا سيحدث ؟ لابد أنهم سيقولون : « هااا . . إذن أنت لست مدرساً . . هيا مع السلامة » وأنا لايوجد في جيبي خمسة قروش . . ما الذي يمكنني عمله ؟ وإلى أين يمكنني أن أذهب ؟ في الطريق عرّفاني برجل قالا إنه محام :

ـ الأستاذ أورهان ، مدرس الرياضيات في مدرستنا .

قال المحامي :

ـ أبلغتمونا في برقيتكم أنكم ستأتون مع زوجتكم وأولادكم . هل أتيتم وحدكم ؟

هذا يعني أن خبر مجيء الأستاذ أورهان انتشر في كل البلدة ، قلت للمحامي :

ـ فيما بعد سأجلب أسرتي . لنستأجر بيتاً في البداية . .

قال المحامي :

ـ صحيح . . لنؤمن أمر سكناكم في البداية . . وآمل أن تعجبكم بلدتنا . . البيوت الخالية كثيرة . .

عرفاني بخمسة أو ستة أشخاص قابلناهم أثناء ذهابنا إلى المدرسة . .

بعد ذلك ذهبنا إلى المدرسة . يحتاج المكان إلى ألف شاهد يشهد أنه مدرسة . جمع الناس النقود ، وصنعوا حوالي خمسة عشر مقعداً ملوية ، ومائلة ، وملؤوا بها غرفتين كبيرتين . تم تخصيص إحدى غرف المدرسة للمدير والمعلمين والإداريين .

قال رئيس البلدية :

ـ ها أنتم جئتم . . وبمساعدة الأهالي نستطيع إنشاء غرفة أو اثنتين وتوسيع المدرسة .

وقال المدير :

ـ نجتمع كلنا في غرفة واحدة مؤقتاً . كيفما كان لايوجد أحد سوانا الآن .

بعد أن تجولنا في المدرسة ، ذهبنا إلى البلدية ، واحتسينا القهوة .

قال رئيس البلدية :

ـ أرجو أن تبقوا في ضيافتي حتى وصول أغراضكم . سنستأجر لكم بيتاً مناسباً . وعندما تصل أغراضكم ننقلها إلى بيتكم .

شكرته . ماذا يمكنني أن أفعل ؟ كنت أعيش هلعاً قوياً من وصول الأستاذ أورهان الحقيقي . تناولنا طعام الغداء في المطعم مع وجوه ومثقفي البلدة . هكذا مرّ اليوم الأول . مساء ، عدت مع رئيس البلدية إلى بيته . لأول مرة في حياتي فكرت أن أحتال على رجل . نعم ، أنا باشازادة المحتال الطافح ملفه بالسوابق ، أفكر في تلك الليلة بالاحتيال لأول مرة . كنت سأقول لرئيس البلدية : « مع الأسف لم يبق معي أية نقود . ولم أقبض إذن السفر بعد . ووضعنا نحن الموظفين واضح . أرجو أن تعطوني خمسين ليرة ، سأدفعها لكم عندما أقبض راتبي... » .

بالتأكيد سيدفع لي . وأنا عندئذ سأركب الحافلة ، وأهرب من هناك دون أن أري نفسي لأحد . وليبحثوا عني ويجدوني إن استطاعوا . . كم حاولت عمل هذا ، لكنني لم أستطع بأي شكل قول هذا لرئيس البلدية .

في اليوم التالي ذهبت إلى المدرسة . كان المدير المتفاني يبذل جهوداً بالمشاركة مع اثنين من أهالي البلدة . قلت له :

ـ يا أستاذ نا المدير ، سأقول لكم شيئاً .

ـ نعم أعرف ماذا ستقولون .

خفت . . كيف عرفوا ؟ أم أنهم عرفوا ماضيَ القذر ؟

وضع المدير يده على كتفي ، وقال :

ـ لامكان لدينا لليأس . لايمكن النهوض بالبلد إلا بواسطة جيش المعلمين . . ليقل ما يقال ، كله كلام فارغ . . هذا ماحدث في أوربا كلها . .

وحكى عن أمور مختلفة تماماً . لابد أنه يعتقد أنني لم أعجب بالمكان . كنت مصمماً جداً . . علي أن أقول هذا بالتأكيد ، قلت :

ـ لا يا أستاذنا المدير . . أنا سأحكي لكم عن أمر مختلف . .

إنه رجل ثرثار ، ويعتقد أنه يعرف كل شيء ، كما يعتقد أنه يعرف ما يفكر به الآخرون ، لم يترك لي فرصة للكلام :

ـ أعرف . . أعرف . .

ثم يتكلم عن أشياء غريبة جداً .

ـ يا أستاذنا المدير . . ما سأقوله أمر آخر . .

ـ أعرف . . أعرف يا سيدي . .

صرخت :

ـ لاتعرفون ياسيد . .

فجأة هدأ ، نظر إليّ بحدة . دهش لصراحتي . بمعنى آخر شعر بالحزن ، وقال :

ـ تفضل . . أنا أصغي لك .

ـ لطفاً أرجو أن ندخل إلى الغرفة .

دخلنا إلى غرفة المدير التي لاتحوي سوى طاولة ، وكرسيين من الحطب . وعلى الطاولة خاتم المدرسة المدور .

جلسنا على الكرسيين . قال لي مرة أخرى :

ـ تفضل . . أنا أصغي لك . .

لا أعرف كيف سأبدأ ، وماذا سأقول .

ـ أستاذنا المدير . .

ـ نعم ؟

ـ من قال لكم إنني معلم ؟
دهش . . بعد توقف قصير ، قال :
ـ أنتم . .
ـ من ؟ أنا!! متى وأين ؟ أنا لم أقل لكم شيئاً من هذا القبيل . هذا يعني أننا لوذهبنا إلى المحكمة ستشهدون بأنني قلت عن نفسي إنني معلم .
ـ بالطبع . .
ـ حسن . . لماذا ؟ أنا لم أقل لكم ، ولا لسواكم إنني معلم .
قال بصوت خفيض جداً ، وكأنه يهمس :
ـ أي أنكم . . الآن . . لكنكم أبرقتم لنا . .
ـ لا لم أبرق . .
ـ تلقينا برقيتكم يا سيد أورهان . .
ـ أولاً ، أنا لست أورهاناً ، ثانياً ، لم أرسل برقية لأحد . .
غاص في تفكير عميق ، وهو ينقر بخاتم المدرسة الرسمي على الطاولة ، بعد ذلك قال :
ـ حسنٌ ، من أنتم إذن ؟
طأطأت رأسي ، وسكت .
ـ وإلا... إنكم من الشرطة السرية ؟ أتيتم من أجل ملاحقة معينة ؟ نعم . . وأنا أيضاً سمعت أن البعض يقومون بعمليات تهريب الحشيش والأفيون في هذه البلدة . . فهمت . أنتم قادمون إلى هنا من أجل هؤلاء .
المدير يريد أن يفهم كل شيء كما يفكِّر هو . خطر ببالي للحظة أن أقول له : «نعم ، كما تعتقدون . أنا شرطي سري ، وجئت إلى هنا من أجل ملاحقة معينة . . » وأتخلص من هذه اللخبطة . خطر ببالي هذا لمدة ثانية ، أو ثانيتين ، ثم أدركت أنني سأخرب كل شيء ، فقلت :
ـ هل يهمكم كثيراً معرفة من أكون ؟
قال :

ـ لماذا لم تقولوا هذا من قبل ؟

ـ لم تفسحوا لي مجالاً لقوله . .

إثر هذا حكيت للمدير عما جرى لي ، وكيف تحلقوا حولي عندما نزلت من الحافلة من أجل الذهاب إلى دورة المياه ، وقولهم لي : «الحمد لله على السلامة يا أستاذ» ، وكيف كنت محصوراً ، بحيث لا وقت لدي لأشرح لهم الموقف ، وكيف ذهبت الحافلة بعد ذلك ، ودهشتي لمناداة الناس لي يا أورهان ، وفي اليوم التالي عندما عرفت الحقيقة لم أستطع قول شيء ، لأنني بقيت دون نقود نهائياً بسبب تعرضي للنشل أثناء الطريق ، ولعدم إمكانية مغادرتي من هنا إلى مكان آخر . . بعد أن استمع إليَّ المدير قال بدهشة كبيرة :

ـ الله ، الله . . كيف يستطيع نشال سرقة نقود شرطي سري مثلكم ؟

ـ يا أستاذنا المدير ، أنا لستُ شرطياً ولا سواه . .

ـ فهمت ، فهمت . . بالتأكيد لن تقولو إنكم من الشرطة المدنية . . أمر طبيعي . . لكن السر لايخرج عني ، ثقوا بي . . من الأفضل أن أجعل نفسي لا أعرف نهائياً أنكم أحد مفتشي مديرية الأمن . . نعم ، نعم . . لم أسمع بشيء من هذا القبيل . . لاعلم لي بهذا أبداً . .

ـ يا أستاذنا المدير . . أرجوكم . . أرجوكم جداً . . بالتأكيد إنني لست شرطياً . .

ـ لستم كذلك يا سيدي . . لستم كذلك . .

إنه مدير يجنن . ماكنت أخشاه ، أن أتخلص من بلاء ، ليسقط على رأسي بلاء آخر .

ـ لست كذلك يا استاذنا المدير . .

ـ لستم كذلك . . بالطبع . من المستحيل فضح مهمتكم . . يجب ألا يعرف بهذا حتى مخفر وشرطة البلدة . . لعلهم يتعاونون مع المهربين ، أليس كذلك ياسيدي ؟

ـ من أين لي معرفة ذلك يا أستاذنا المدير . . ولكن ، من المؤكد أنني . .

ـ فهمت ياسيدي ، فهمت . .

لم أقنع المدير بأنني لست شرطياً بالرغم من كل ما قلته . سألني قائلاً :

ـ كم ستبقون هنا ؟

فكرت بعدم وجود النقود في جيبي ، وبالعمل ، وبكيفية حصولي على نقود أجرة الطريق ، فقلت :

ـ هذا غير معروف ، ولكنني سأذهب من هنا في أقرب فرصة .

ـ عندما ينتهي عملكم . .

ـ أي عمل يا سيدي المدير ؟ أي عمل ؟

ـ اعذرني يا سيدي ، فجأة زل لساني . . إلى متى ستبقون هنا تقريباً ؟

ـ لا أعرف ، من الممكن أن أبقى ستة أشهر أو سنة . .

ـ أوف ، أوف . . حسن جداً . . أنا مسرور جداً لهذا . . الآن لي عندكم رجاء . .

ـ أستغفر الله . .

ـ إنه عمل وطني . .

ـ ماهو ؟

ـ أن نتعاون خلال الفترة التي ستبقون فيها لضرورة عملكم . .

ـ نتعاون ؟! كيف ؟

ـ أن تدرسوا في المدرسة . . إنني وحيد كما ترون . وعلى كل حال ، الناس هنا يعتقدون أنكم مدرس الرياضيات . ليبقوا على اعتقادهم هذا . وهذا من مصلحتكم . . ابقوا هنا ، ودرسوا . .

توسل الرجل إليّ . . قلت . .

ـ ولكن يا أستاذنا المدير ، أنا سأذهب من هنا في أقرب فرصة ، لأنهم يعتقدون أنني أورهان . كيف يمكنني قول إنني لست أورهاناً ، ولستُ

معلماً ؟ انظروا . . إنني لا أستطيع إقناعكم أنتم بهذا .

ـ أنا أعرف . . أعرف . . ولكن أليست معرفتهم أنكم أورهان من مصلحتكم ؟ ليعتقدوا أنكم أورهان مدرس الرياضيات . . ساعدونا ولنفتتح هذه المدرسة . .

ـ سأذهب يا سيدي . .

ـ حتى يحين موعد ذهابكم . . لوبقيتم شهراً واحداً فهذا مكسب لنا . . تقبلوا مني هذا الرجاء . . احذروا أن تقولوا : لا أستطيع عمل هذا . . على كل حال نحن مضطرون لتأسيس هيئة تدريسية من مدرسين يسيرون الأمور . وهاهو الوضع كما ترون . . لاتتركوني وحيداً . .

ـ ولكن يا أستاذنا المدير . . يعتقدون هنا أنني المدرس أورهان . . ما الذي سيحصل إذا أتى أورهان الحقيقي ؟ من الممكن أن يأتي اليوم . .

ـ ليأتِ يا سيدي . ليس هنالك أورهاناً واحداً في هذه الدنيا . . أنت أورهان ، وهو أورهان آخر . .

هذه الحادثة التي أحكيها لك ، جرت أيام عدم استخدام الكنيات في بلدنا . .

المدير يتكلم بشكل مقنع من جهة ، وأشفقت عليه من جهة أخرى . . ولأنه ليس بيدي ما أفعله اضطررت لقبول اقتراحه . صار هنالك سر بيني وبين المدير . . هو يعرف أن اسمي الحقيقي ليس أورهاناً ، وأنني لست معلماً ، ولن يبوح لأحد بهذا السر . . وهنالك سر آخر لا أصل له من الصحة ، ولن يخبر به أحداً ، وهو أنني مفتش شرطة أتيت من أجل ملاحقة عملية تهريب . . لم أستطع قول الحقيقة للمدير في أي وقت . .

بسرعة شمرت عن ساعديَ مباشراً بالعمل . ومع استمراري أحببت التعليم ، وبدأت أشعر بالفرح . .

سأقول لكم شيئاً . يكذب الإنسان كذبة ما ، إذا استمر في هذه الكذبة ، سيصدق كذبته مع الزمن . نحن أصحاب السوابق الذين قضينا عمرنا

في السجن نعرف هذا جيداً . . هنالك الكثير جداً من أصدقائنا كذبوا كذبة قبل عشرين عاماً أو ثلاثين عاماً ، ولكثرة ما حكوها آمنوا بها تماماً . هذا الشعور موجود لدى الناس المسحوقين الذين ما وجدوا طريقاً للخلاص .

(شعرت من خلال هذه الكلمات أن باشازادة يسلمني نفسه . لأنه ، حسب قوله دُفع إلى ذاك الطريق الوحيد دائماً عبر المصادفات ، وأصبح لا مبالياً ، وهو مسحوق أيضاً . ومن زاوية باشازادة يبرز هنا أمامنا وضع جديد ، وهو أنه يكذب دون أن يدري . لأنه آمن بصدق ما لفقه ، وهذا حسب قوله . هذا يعني أن باشازادة رجل صدق كذبه . هل هو هكذا في الحقيقة . أنا أدهش لنفسي أكثر مما أدهش له . لأنني لا أصدّق أية قصة حكاها لي ، ولكنني أستمع إليه باهتمام وإعجاب كبيرين أكبر ما أستمع لقصة حقيقية) .

أنا أيضاً تحت تأثير هذا الشعور ، ولانهماكي بالعمل ، وإعطائي نفسي للعمل بانفعال ، صدقت أنني الأستاذ أورهان مدرس الرياضيات . اعتقدت دون إرادتي ، ودون أن أشعر أنني الأستاذ أورهان مدرس الرياضيات ، خاصة بعد مرور كثير من الأيام وعدم مجيئه .

حسنٌ ، ماذا جرى للأستاذ أورهان الحقيقي ، مدرس الرياضيات الذي أبرق معْلِماً أنه سيأتي في اليوم الفلاني ؟ تمر الأيام والأستاذ أورهان لا يأتي . . إذا أتى ، سأكون ، حسب فكرة المدير ، أورهاناً آخر . كان الاسم الثاني أي أسم الأب للأستاذ أورهان حسب وثيقة التعيين هو رشاد . أي أنه أورهان رشاد ، وأنا أورهان آخر ، أي مثلاً ، أورهان تحسين .

كنت أخشى من مجيء الأستاذ أورهان الحقيقي من جهة ، واشعر بفضول لمعرفة سبب عدم مجيئه . عندما حكيت للمدير عن فضولي هذا ، قال لي :

ـ أنت لاتعرف سيرورة أمور وزارتنا . الأمور في التربية متداخلة ، وملخبطة . ممكن أن يكون قد صدر تعيين الأستاذ أورهان في محافظة أخرى ، يوم إرساله البرقية إلينا ليعلمنا بموعد وصوله .

بالنسبة للمدير إن الأمور غير العادية المشابهة لهذه الأمور ، طبيعية

جداً . وبالنسبة له أيضاً ، ممكن أن يكون قد حدث الأمر على النحو التالي : هذه البلدة غير مرغوب بها بالنسبة للموظفين والمعلمين . تعد منطقة فقيرة . لهذا السبب هم لا يريدون المجيء إلى مدرسة فتحت حديثاً . لابد أن الأستاذ أورهان قد تضايق كثيراً عندما صدر قرار تعيينه هنا ، وطرق أبواب معارفه من المسؤولين في الوزارة من أجل تغيير مكان التعيين . ولأنه لم يحصل على نتيجة ، إضطر لإعطاء قراره بالمجيء إلى هنا . وفي اليوم الذي أبرق فيه أنه سيأتي ، مشت واسطته ، وأمّن له أحد المسؤولين تعييناً في إحدى المدن الكبيرة . وقال لي :

ـ لا تفكر كثيراً في هذا الموضوع . لن يأتي بعد الآن . لابد أنه بدأ يدرس في مدرسة أخرى .

حكى لي المدير أحداثاً جرت له مضحكة ومشابهة . مثلاً ، صدرت قرارات تعيينه في ثلاث مدارس ، في ثلاث محافظات مختلفة ، وعُين في إحداها مدرساً للغة الإنكليزية ، وقال :

ـ مع أنني لا أعرف الإنكليزية .

وفي مرة أخرى صدر قراران بتعيينه في مدرسة واحدة للمادة نفسها . لكن الأكثر إضحاكاً بين هذه القصص ، قصة تعيينه في مدرسة ينقصها أحد عشر مدرساً ، وعين فيها ثلاثة مدرسين للتربية الرياضية وهو أحدهم ، وقال :

ـ ممكن حدوث أمور كهذه .

في الحقيقة هنالك لخبطة ما ، كما يقول المدير ، وأنا لم أعد أعرف ماذا سأفعل .

المدرسة مفتوحة حديثاً . بعد صدور قرار تعيين المدير ، وصل مدير آخر . شيء يستحيل حدوثه . تم تعيين مدرس واحد ، ولم يصل إلى المدرسة ، بينما يوجد مديران للمدرسة . . مع وصول المدير الجديد بدأت الصعوبات . واشتعلت الحرب من أجل الحصول على خاتم المدرسة ، وكأنه خاتم الصدر الأعظم . المدير الجديد يعد نفسه المدير الحقيقي لأنه تعين فيما

بعد ، ويعتبر أن المدير السابق إما معاوناً للمدير أو مدرساً ، ومن الطبيعي أن يحارب من أجل الحصول على الخاتم . لأنه لايوجد ما يثبت أن هذه مدرسة سوى الخاتم . ودون انتظار توضيح الوزارة ترك المدير القديم للجديد خاتم المدرسة ، وغرفة الإدارة ذات الطاولة والكرسيين . وبعد فترة صدر قرار تعيين المدير السابق في مدرسة أخرى ، فغادر البلدة .

ماوقع ، وقع لي . لأن المدير السابق وعدني بقبولي أميناً للسر ، أو مدرساً مساعداً لمادة الرياضيات . للمدير صلاحية اختيار أمين السر للمدرسة في تلك الأيام . وبالتالي سأتقاضى راتب أمين السر . وليس في هذا جرم . كنت فرحاً جداً لأنني سأعمل عملاً قانونياً ، وأقبض منه أجراً . ولكن أملي هذا قد تبخر مع وصول المدير الثاني الى المدرسة . لأن المدير الثاني أدرج أسمي في جدول الرواتب باسم أورهان مدرس الرياضيات لأنه يظنني هو . أي أنني سأتقاضى من الدولة راتب الأستاذ أورهان مدرس الرياضيات ، ولا يمكنني فضح شخصيتي الحقيقية للمدير الجديد .

بالرغم من كل سوابقي ، شعرت عندما كنت أقبض راتبي الأول من التعليم أنه سيقبض عليّ متلبساً . . كنت أستطيع ركوب إحدى الحافلات ، والهرب من هناك عندما كان في جيبي نقود . لكن هذا ليس خلاصاً . لأن غياب مدرس بشكل مفاجئ يقلب الوضع ، ولعل هذا ما ستكتب عنه الصحافة ، ويؤدي إلى تدخل الشرطة والجندرمة في القضية . من الممكن نشر صوري في الجرائد مع الكتابة تحتها أن معلماً خُطف أو قتل ، أو انتحر . عندئذ سينكشف أمري ، ويقال انتحل باشازادة شخصية مدرس . لهذا السبب لم أستطع الهرب من البلدة... اضطررت للقيام بمهنة التدريس .

تركت نفسي لتدفق الحياة . استأجرت الطابق الثاني لبيت مؤلف من طابقين . بدأت شراء فرش البيت تدريجياً . . . والاستقرار . مع مرور الأيام ، بدأت أعتاد على الناس هناك ، وعلى عملي ، وتلاميذي ، إلى حد أنني صرت أعتقد أنني معلم حقيقي . أحياناً كنت أشعر بالخوف من انفضاح انتحالي

شخصية المعلم . وعملت كل ما باستطاعتي لأكون معلماً جيداً خشية انفضاح أمري . قضيت النهار والليل في العمل مع تلاميذي ومدرستي . لم يكن لدي ما أعيشه غير مدرستي وتلاميذي . جلبت الكتب من اسطنبول ، وعملت على تلافي النقص الذي أعاني منه ، وطورت نفسي . ولكي لا ينفضح أمر انتحالي بذلت كل مابوسعي لأكون مدرساً أفضل من المدرسين الحقيقيين .

بالتدريج بدأ المعلمون الذين تحتاجهم المدرسة بالوصول . لأن سكان البلدة يمطرون الوزارة بالطلبات وباستمرار . لم يمض نصف العام الدراسي حتى اكتمل الجهاز التدريسي للمدرسة . كان يوجد بيننا مدرِّستان . عندما كثر عدد المعلمين ، وبرز المدير في عمله فارضاً رأيه ، أُسسَ تنظيمٌ للمعلمين ، وأستأجر مكانٌ لهم . . وجدوا مكاناً مناسباً ، علقوا عليه لوحة كتب عليها : « جمعية المعلمين » . لاقى المكان اهتماماً كبيراً . كان عدد معلمي المرحلة الابتدائية كبيراً ، حتى إن المكان ضاق بجميع المعلمين . .

شيء مدهش جداً . بعد تأسيس جمعية المعلمين مباشرة انقسم مدرسو مدرستنا في البداية إلى قسمين ، ثم إلى ثلاثة أقسام . فيما بعد تفتتوا حتى صاروا خمسة أو ستة أقسام . لم يكف عددنا للانقسام أكثر . كل معلمين ، أو ثلاثة صاروا فصيلاً . بعض المتواجدين في مجموعات معينة ، يخرجون من مجموعاتهم أحياناً ، وينضمون في مجموعات أخرى . على ما أذكر أن جمعية المعلمين انقسمت إلى تسعة أقسام ولكن هنالك مدرسين يخرجون من هذه المجموعة ، وينضمون إلى اخرى ، وبهذا يحققون حيوية بين الأقسام .

قبل تأسيس جمعية المعلمين لم يكن بيننا انقسامات كهذه ، لأننا لم نجتمع من أجل أن نتقسم . تأسيس الجمعية أفاد في عملية الانقسام والتجزئة . أسباب الانقسامات كثيرة ، فهي تحدث أحياناً بسبب النقاشات السياسية ، أو بسبب فرق كرة القدم ، أو بسبب القيل والقال في البيوت . . أو بسبب لعب الورق . .

قبل تأسيس جمعية المعلمين ، كان نادي التجار هو المكان الوحيد الذي

يلعب فيه مسؤولو البلدة القمار براحة . بعد تأسيس جمعية المعلمين بدأ الموظفون والمتعلمون بالمجيء إلى الجمعية . كان من غير الممكن إيجاد كافة المدرسين معاً في وقت واحد ، حتى داخل أوقات الدوام في المدرسة . ولكن من الممكن إيجادهم بنقص مدرس أو اثنين في جمعية المعلمين حتى في أيام العطل الأسبوعية ، والعطل المختلفة . في بعض الأحيان تبقى الجمعية مفتوحة إلى الصباح . ولأن هذا المكان تلتقي فيه نخبة البلدة صار يأتي القائمقام ، والنائب العام والقاضي ، ورئيس البلدية وطبيبها ، وتجار البلدة ، والمتنفذون ، ويلعب هؤلاء القمار . ويشارك هؤلاء في التجزئة القائمة في جمعية المعلمين .

أما أنا ، لخوفي من انفضاح انتحالي ، وهبت نفسي لعملي بشكل تام . نادراً ما كنت أعرّج على جمعية المعلمين . لا أريد الانضمام إلى الانقسامات في الجمعية خشية أن يعاديني أحد ، وينكشف ماضيّ . لم أكن آخذ إذناً ، أو تقارير مرضية لأقضي وقتي في الجمعية . لا أتخلف عن دروسي حتى لو مرضت . وأعمل دروساً إضافية خارج الحصص الدرسية لتقوية تلاميذي المتخلفين عن زملائهم . نمارس الرياضة مع التلاميذ . أسسنا فرقاً للكرة الطائرة ، وكرة القدم . . وأسسنا ساحة للرياضة بالتعاون مع التلاميذ . بناء المدرسة لايلبي الحاجة . لهذا السبب أسسنا رابطة تطوير المدرسة . تلقينا مساعدة من البلدية . بدأنا بتوسيع المدرسة بمساعدة تجار البلدة ، وأولياء أمور الطلاب الأغنياء . ألحقنا بالمدرسة صفين جديدين ، ومكتبة ، وقاعة مطالعة .

لم يحدث في حياتي أن عملت بهذا الهيجان والحب .

لأنني أعرف أنني سأكسب كره أصدقائي إذا لم أذهب إلى جمعية المعلمين نهائياً ، فكنت أعرج إلى هناك أحياناً . وخشية من سؤالي عن الأمكنة التي درّست فيها سابقاً ، وعن ماضيَ فلم أقم علاقات حميمة مع أحد منهم . تهربت من الدخول في الأحاديث معهم . ومع الوقت ، انقطع القيل

والقال حولي لأنني قلت في البداية إنني سأجلب زوجتي وأولادي ، ولم أجلبهم .

خلال هذه الكثافة من العمل ، كنت أسهر حتى ساعات متأخرة من الليل . . لكي أبني نفسي كمدرس ناجح للرياضيات . كأنني أشعر في داخلي أن هذا لايكشف انتحالي شخصية المدرس .

لم يعلمونا مسبقاً أن مفتشين سيأتيان إلى مدرستنا . عندما وصل المفتشان لم يكن في المدرسة سواي ، لأنهما وصلا في وقت الانصراف . أنا كنت أعمل التدريبات مع تلاميذي على مسرحية سنعرضها في المدرسة . شعرت بأن قلبي سيتوقف عندما علمت أن الشخصين الواقفين أمامي مفتشان . لأنني ظننت أن انتحالي قد انكشف ، وأن المفتشين أتيا من أجلي ، ماعدت أعرف كيف سأتصرف .

هنا أيضاً ، بينما كنت أظن أن نهايتي حلّت ، ظهر أن مخاوفي لاسبب لها .

فهمت فيما بعد سبب مجيء المفتشين .

بعد تأسيس الجمعية ، وانقسام المعلمين ، وعداء بعضهم لبعض ، لم يتوقفوا عن إبلاغ الوزارة بالتقارير والشكايات . . كل منهم يكتب في الآخر حتى إنه شارك بإرسال هذه التقارير بقية الموظفين ، وأولياء الأمور ، ووجهاء البلدة . وأنا المدرس الوحيد الذي لم يشتك ، أو يُشتك عليه . أحدهما سألني ضاحكاً عن سبب عدم شكايتي أحداً . . كيف يمكن لمدرس منتحل أن يشتكي على مدرس حقيقي ؟ . لكن المفتش الذي سأل هذا السؤال ، أصر على سؤاله ، قائلاً :

ـ لماذا لم تشتكِ على أحد كبقية المدرسين ؟

كان يسألني محملاً سؤاله بالشك ، ومحدقاً في عيني ، ومقرباً وجهه من وجهي ، كأنه يتهمني لأنني لم أشتكِ على زملائي . ويصوّب سبابته نحو وجهي ، ويقول :

ـ كافة المعلمين أبلغوا عن بعضهم بعضاً إلا أنت . .

سألني هذا السؤال ، وكأنني في وضع المتهم الذي لم يؤد أحدى مهامه . شعرت بالخوف مجدداً لأنني لم أتصرف كمدرس عادي ، وأشتكي على زملائي ، وبالتالي سيفتضح أمري . قلت في نفسي : «آه . . لو أنني اخترعت شكاية أو اثنتين ، وأرسلتهما إلى الوزارة ، لكي تسير الأمور بشكل اعتيادي . .» .

عندما وجد المفتش الآخر أنني ساكت ، سألني قائلاً :

ـ أم أن تلك الشكايات غير المذيلة بتوقيع هي شكاياتكم . .

بينما يتوجب عليّ قول : «نعم» ، رفعت صوتي قائلاً :

ـ لا . . لم أشتك على أحد . .

دخل المفتشان ثلاث مرات على دروسي . . وجها الأسئلة إلى تلاميذي . وشكراني كلما خرجا من الصف .

ذهب المفتشان . كنت أكثر الجميع سروراً لذهابهما ، بسبب أنني كنت في أزمة نتيجة وجودهما . بعد ذهاب المفتشين عادت الحياة إلى البلدة كما كانت عليه . وبالشكل الذي كانت تعاني منه المدرسة أيام نقص المدرسين عانت المدرسة عندما اكتمل العدد... إحدى المدرستين حصلت على إجازة أمومة ، أما المدرّسة الأخرى فكانت الأيام التي تكون فيها معافاة أقل من أيام مرضها . . اثنان على الأقل من المدرسين يحصلان على إجازة مرضية من طبيب البلدية باستمرار ، ويقضيان فترة الإجازة في جمعية المعلمين ، أو يذهبان إلى نادي التجار للمشاركة في القيل والقال حول عدم دوام بعض المدرسين ، وللعب القمار . . بعضهم كان يذهب إلى مشفى المحافظة . وهنالك من يحصل على إجازة اعتراضية . أحد المدرسين حصل على تقرير بضرورة تغيير الجو الذي يعيش فيه ، وقضى وقته في جمعية المعلمين مدعياً أنه لايوجد أفضل من ماء وهواء هذه البلدة .

هل حدث أن معلماً منتحلاً حصل على وثيقة تقدير من الوزارة ؟ نعم ،

أنا . . بعد ذهاب المفتشين بشهرين تقريباً ، جاء من الوزارة كتاب يثني على عملي غير العادي ، ونجاحاتي . . هذا الكتاب هو الوثيقة التي تثبت أنني مدرس . ولأنني لم أحصل على شهادة أفخر بها كما يفعل الآخرون ، أطّرت هذا الكتاب وعلقته على جدار غرفتي . من المؤكد أن كتاب التقدير هذا أصدرته الوزارة اعتماداً على التقرير الذي قدمه المفتشان حولي .

بعد أن حصلت على التقرير بدأت أعمل باندفاع أكبر . لم أعد أخاف من القبض عليّ . . نسيت أنني معلم منتحل . عادت ثقتي بنفسي . أصبحت أذهب إلى جمعية المعلمين بشكل أكبر... حتى حدث ماهو غير متوقع : وصل من الوزارة كتاب نقلي إلى إحدى ثانويات المدن الكبرى . . أورهان ، مدرس الرياضيات صار مدرساً في إحدى ثانويات المدن الكبرى . أعتقد أن هذا التعيين صدر بناء على تقرير المفتشين . . سأذهب إلى وظيفتي الجديدة باسم أورهان أيضاً . .

اقتربت نهاية العام الدراسي ، وكادت أن تبدأ الامتحانات العامة . اعتدت على سكان تلك البلدة ، وخاصة طلابها بعد أن قضيت فيها شهوراً .

من أجل تحريك الحياة الجامدة في البلدة ، كثيراً ما يخترع الموظفون بعض المناسبات من أجل عمل الولائم . كانت تقام وليمة بمناسبة مجيء موظف إلى البلدة باسم « وليمة أهلاً وسهلاً » ، أو بمناسبة الانتقال باسم « وليمة مع السلامة » . وولائم الوداع تغدو معتبرة جداً بشكل خاص .

حضّر زملائي المدرسون ، وموظفو البلدة ، ووجهاؤها وليمة من أجلي . وفهمت من تلك الوليمة كم أنا محبوب هناك . لأن المعلمين أرادوا عملها في جمعيتنا ، لكن وجهاء البلدة طلبوا عملها في نادي التجار بسبب ضيق المكان عند المعلمين . أما صديقي رئيس البلدية فيقول إن المكان الأنسب لعمل الوليمة هو المطعم الكبير الوحيد في البلدة . من الممكن ألا يأتي الموظفون والمعلمون الذين يقاطع كل منهم الآخر إلى جمعية المعلمين ونادي التجار ، ولكن الجميع يأتي إلى المطعم . في النهاية اتفق الجميع على اقتراح رئيس البلدية .

بالرغم من مرور كل هذه السنوات على تلك الحادثة لكنني لا أنسى مجراها باليوم . . مساء الجمعة ستقام الوليمة لوداعي ، وصباح يوم الاثنين سأغادر البلدة . كنت قد أرسلت أغراضي إلى المحافظة التي نقلت إليها ، لأستلمها عندما أصل إلى هناك .

صباح يوم الجمعه ذاك ، دخلت آخر حصة درسية في المدرسة . حزن تلاميذي كثيراً لأنهم يعرفون أنني سأرحل . لم أستطع أن أقول إلا القليل من أجل الوداع ، لأنني لو استمررت أكثر بالكلام لن أستطيع إمساك نفسي عن البكاء مثلهم . عندما قلت لهم إنني سأنتظر رسائلهم بكوا جميعاً . . قدموا لي الهدية التي اشتروها من أجلي . . أنها بساط صغير من صنع تلك البلدة... غالبية طلابي أبناء عائلات فقيرة . لهذا السبب فإن هديتهم هذه تحمل قيمة عظيمة بالنسبة لي . قلت لهم : «تسلمون يا أبنائي . أتمنى لكم جميعاً النجاح والسعادة في عمر طويل . لن أنساكم أبداً . .» ثم خرجت من الصف دون أن أضيف شيئاً . .

عندما أستعرض ماضيّ ، وأفكر فيه الآن ، فلا أجد في حياتي أكثر سعادة من تلك اللحظات .

مساءً ، كانت الوليمة في مطعم البلدة حدثاً لا أنساه . . كانت أولى الكلمات كلمة القائمقام . تحدث عن حب أهل البلدة لي ، ثم توالت كلمات رئيس البلدية ، وقائد الجندرمة ، ومدير المدرسة ، وآخرين . . كل متحدث يطلب رفع الأقداح على شرفي في نهاية حديثه .

شاركت بأربع أو خمس ولائم أقيمت خلال فترة وجودي في تلك البلدة . في الحقيقة إن الكلمات التي تلقى في هذه المناسبات مقولبة ومتشابهة . وأنا حفظتها . ولكن عندما قيلت العبارات نفسها عني ، فجأة اكتسبت تلك الكلمات قيمة كبرى ، وأثارت مشاعري .

أنهى القائمقام كلمته قائلاً :

ـ لنرفع أقداحنا على شرف أخينا الأستاذ أورهان الذي يغادرنا تاركاً

وراءه ذكريات لاننساها!

وقال رئيس البلدية :

ـ لن ننسى الخدمات الجليلة التي قدمها الأستاذ أورهان . أنا أرفع قدحي على شرفه .

شعرت من خلال تلك الكلمات لأول مرة في حياتي بالاعتزاز لأنني إنسان ضروري للمجتمع ، ومفيد للآخرين . لكثرة ما شربت على مايبدو ، أحسست في نفسي أنني سأقف وأصرخ : « هيييه . . خدعتكم جميعاً . . أنا محتال . . أنا معلم منتحل . . استغللت مشاعركم النبيلة ، ، » وأعترف بذنبي ، وأستغفر لنفسي ، وأبكي . تصاعدت هذه الرغبة لحظة ما ، حتى كدت أنهض وأنفذها .

انتبه أحد الحاضرين إلى عدم مجيء المدعي العام إلى وليمة الوداع المعدة من أجلي ، فسألني عما إذا كنت على زعل منه . . لم أنتبه حتى لحظة سؤاله إلى عدم وجود النائب العام . لِمَ سأكون على زعل مع النائب العام ؟ أنا لست على زعل مع أحد .

في ولائم كهذه ، تخصص الكلمة الأخيرة للشخص الذي أقيمت الوليمة على شرفه ، وهذه أيضاً تتشابه :

« أذا كنت قد أبديت أي تقصير ، أو قلة احترام لسادتي ، ومن هم أكبر مني دون إرادة ، وعن غير قصد ، وإذا كنت قد أزعجت زملائي أثناء أداء واجبي دون قصد أيضاً ، فأطلب السماح منهم بحضوركم جميعاً . .

لضرورة التقليد تكون الجملة الأخيرة للكلمة على النحو التالي :

« أيها الأصدقاء الأعزاء . انفعالي يمنعني من الاستمرار في الحديث . أنا لا أغادر هذه البلدة بل أنتزع منها ولكن ثقوا أنني ذاهب ، وقد تركت قلبي هنا » .

أنا أكره هذه الكلمات المفتعلة . وكنت أريد كلمات أخرى . . الأمر المدهش جداً أنني عندما نهضت والقدح بيدي ، قلت تلك الكلمات ، وكأنني أحفظها غيباً . . .

«إذا كنت قد أبديت أي تقصير... وإذا كنت قد أزعجت زملائي أثناء أداء واجبي دون...... أطلب السماح منهم... أنا لا أغادر...... بل أنتزع... وقد تركت قلبي هنا . . » .

شربنا جميعاً مرة أخرى . . صفقوا . . كان في نفسي قلق غريب يدفعني للاعتراف بذنبي . أبكي . . لم أستطع الإمساك بنفسي . . فقلت للمدير حيث كان بجانبي :

ـ أنا أعاني من عذاب الضمير .

سألني قائلاً :

ـ لماذا ؟

قلت :

ـ لأنني لست معلماً حقيقياً .

لكنه فهم عبارتي هذه أنني لم أقم بواجبي كما في نفسي وكما أريد ، فقال :

ـ آه لو أن كل المعلمين مثلكم مجتهدون ومجدون وجيدون

قلت :

ـ ليس الأمر على هذا النحو يا أستاذنا المدير ، ليس الأمر كذلك . أنا محتال!

لم يفهم ما أردت قوله مرة أخرى .

ـ أنتم فقط ؟ . . كلنا كذلك . . نحن المتعلمين نحمل في رقابنا ديناً علينا دفعه لهذا المجتمع . ونُعَدُّ جميعنا محتالين لأننا لم نقم بواجبنا . . أنتم على الأقل مدركون لهذا . . لكن الآخرين غير مدركين . . أنتم بذلتم كل مابوسعكم ، وأنا أشهد على هذا الأمر . .

قلت وأنا أبكي :

ـ أنا أشعر بعذاب الضمير . . أنتم لاتفهمونني . .

لكن الاخرين أكثر سكراً مني ، لايستطيع أحد منهم فهم الآخر . الجميع يتكلم دفعة واحدة ، وعن كل لسان يصدر صوت ، ولا أحد يستمع إلى الآخر . .

لا أذكر كيف ذهبت إلى البيت . لم أستيقظ حتى ظهيرة يوم الأحد ، شاعراً بآلام حادة في رأسي بسبب المشروب الذي شربته قبل يوم .

جمعت ما تبقى من أغراضي يوم الأثنين ، ووضعتها داخل البساط الذي قدمه لي تلاميذي للذكرى . ووضعت كتبي ، وأغراضي المتبقية الأخرى في حقيبتين . . حملهما تلاميذي إلى الساحة التي تتوقف فيها الحافلات . حملتُ البساط المربوط بخيط بيدي . . وضعت الحقائب في الحافلة . كان كافة تلاميذي هناك . قدمت لي بعض التلميذات باقات من الأزهار . أتى كثير من زملائي المدرسين ، ومعارفي من أهل البلدة ، والموظفين لوداعي . عانقتهم فرداً فرداً . . صعدت إلى الحافلة . . الحافلة على وشك المسير . . كنت ألوح بيدي للقادمين من أجل وداعي . . رأيت دركياً صعد من الباب الأمامي . وقف أمامي . . جاءني صوت من الخلف يقول :

ـ السيد النائب العام يطلبك .

التفت ، وإذ بدركي آخر خلفي . هذا يعني أنه صعد من الباب الخلفي للحافلة . .

اعتقدت أنني مدرس حقيقي إلى حد ظني أن القائمقام لم يأت إلى حفل الوداع بسبب عمل ما ، ويطلبني لكي يودعني ، فقلت :

ـ الحافلة على وشك السير . . لن أستطيع وداع السيد المدّعي العام ، قولوا له إنني أهديه قبلاتي . .

كان أحد الدركيين عريفاً . قال العريف :

ـ انهض! تحرك!

عندئذ فهمت أن ثمة خللاً في الموضوع ، فنهضت ، ونزلت من الحافلة . .

البساط الملفوف بشكل أسطواني كان بيدي . . أدركت ما سيحل بي أثناء اقتيادي ، وعبورنا وسط الجمع القادم لوداعي . . يتمتم المجتمعون هناك بكلمات ما ، وينظرون إليّ بفضول كبير . .

دخلنا غرفة النائب العام . قال عريف الدرك :

ـ أحضرناه يا سيدي .

نظرت إلى النائب العام الجالس خلف الطاولة ، كأنه ليس ذاك الصديق الذي يمازحني دائماً . دخلت بيننا غربة باردة . لحظتئذ أدركت سبب عدم مجيئه إلى وليمة وداعي . قال :

ـ ما اسمك الحقيقي ؟

كأن فمه تحول إلى سبطانة ، وخرج كل حرف من حروف هذه العبارة كطلقة : «م .ا .ا .س .م .ك .ا .ل .ح .ق .ي .ق .ي . .» .

فيما بعد ، عرفت ماجرى . ظهر أمر انتحالي شخصية المعلم على النحو التالي :

الأستاذ أورهان ، مدرس الرياضيات الذي درّست مكانه ، ركب الحافلة ، ذاهباً إلى البلدة التي تعين فيها كما أبلغ في برقيته . انتظر أهالي البلدة عند الموقف لاستقباله . لكن الحافلة التي يركب فيها الأستاذ أورهان ، انقلبت في أحد المنعطفات ، وسقطت في واد . قتل الأستاذ أورهان مع عدد من الركاب . لعدم علم أهل البلدة بالحادث ، انتظروا كثيراً . . لم تصل الحافلة ، بالرغم من مرور زمن طويل . . عندئذ وصلت الحافلة التي أستقلها أنا . عندما رأوا رجلاً يحمل حقيبة بيده ، أنيق اللباس ، على رقبته ربطة عنق ، نازلاً من الحافلة . . قالوا هذا هو الأستاذ أورهان ، وأحاطوا بي :

ـ أهلا بكم يا أستاذ .

ـ مرحباً يا أستاذ . .

أنا كما بينت سابقاً ، في وضع لا يسمح لي قول : «أنا لست معلماً» لأنني كنت محصوراً ، وأبحث عن دورة المياه . .

تقدمت زوجة الأستاذ أورهان ، بعد أن تلقت خبر موت زوجها في حادثة الحافلة إلى الوزارة تطالب براتبها وراتب أولادها . دهش الموظفون عندما رأوا طلب المسكينة . لأن مدرسة البلدة أبلغت الوزارة أن الأستاذ أورهان بدأ عمله . . وهو يتقاضى راتبه . كيف لمعلم أن يكون ميتاً ، وهو على رأس عمله ، ويتقاضى راتبه ؟ أجابت الوزارة على طلب المرأة ، لكن المرأة كتبت لهم مرة أخرى . . هكذا استمرت المراسلات . . المرأة تشتكي للوزارة قائلة إن زوجها مات ، والوزارة تقول إنه يعيش . وهل من السهل إثبات موت أو حياة إنسان ما في هذا البلد ؟ . . لم تستطع المرأة بأي شكل إقناع الوزارة أن زوجها قد مات ، كما لم تستطع الوزارة إقناع المرأة أن زوجها لم يمت ، وأنه يتقاضى راتباً . استمرت هذه المكاتبات شهوراً . في هذه الأثناء كنت أتوق لمعرفة مصير الأستاذ أورهان مدرس الرياضيات ، مع أنني كنت أتقاضى راتب الرجل المتوفي . في النهاية فُهم الأمر . . قاموا بعملية تحقيق سرية لا علم لي بها .

من جهة أخرى نقلتني شعبة أخرى من شعب الوزارة إلى ثانوية في مركز محافظة ، كترقية ، بناء على التقرير الإيجابي الذي قدمه المفتشان .

مرة أخرى سقطت ، وصرت على ألسنة الجرائد : « قبض على باشازادة أثناء انتحاله شخصية المعلم » ، « وزارة التربية ترقي المحتال صاحب السوابق باشازادة درجتين دفعة واحدة » ، « تلاميذ باشازادة ودعوه إلى السجن وهم يبكون » . . وامتلأت الجرائد بصوري .

كان البساط الذي قدمه تلاميذي لي هدية في يدي . نقلت هذا البساط من سجن إلى سجن سنوات طويلة . كنت أفتحه فوق سريري في السجن . . أنا معلم مزور ، وهم معلمون حقيقيون...

أتسأل عن ذاك البساط ؟ موظف غير منتحل ، يقوم بجمع مجموعة من البسط . . فهمتم . أليس كذلك ؟ عندما يصبح اسم الرشوة هدية ، فلا تعد جرماً . فوق هذا ، كنت مضطراً لتقديمه . لم أقدم البساط رشوة أو هدية ، بل اضطررت لتقديمه أتاوة .

الانتحال الوحيد الذي لم يعد ذنباً

هو انتحال شخصية الأتاتوركي

حكيت لكم عن انتحالي شخصية الشيخ . . والضرب المبرح الذي تلقيته... أي ضرب مؤلم ضربوني حتى لم أصح بعد شهر من دخولي السجن . سكان المنطقة الشرقية مختلفون . لولا مساعدتهم لمتُّ هناك منذ زمن طويل . لم أستفد من الفترة الطويلة التي قضيتها في المشيخة ، فسقطتُ في السجن دون أية نقود . لا أستطيع شرح الطريقة التي ساعدني بها سكان تلك المنطقة في السجن ، والعناية التي عنوها بي . أكثر الذين ساعدوني جاري في السرير (سيدو) . أصبحنا سيدو وأنا صديقين . هو أصغر مني .

دائماً كان يسألني سيدو :

ـ عزيزي باشو . أنت تنام في السجن بدلاً ممن ؟

كان لايخاطبني باسم باشازادة ، بل باشو .

لم أكن أفهم مايقصده . . كنت أقول :

ـ مكان من سأنام ؟ مكان نفسي . .

لايصدق . . يضحك بخبث . أُسَرُّ كثيراً لضحكته . عندما يضحك يعلو شارباه المدببان المعقوفان كقرني الخاروف إلى أن يصلا إلى عينيه ثم ينزلان . وهكذا كان شارباه أكثر ما يضحك في وجهه . .

بعد مرور عدة ساعات أو يوم على سؤاله هذا ، يسألني مرة أخرى :

ـ باشو ، عزيزي . . أنت تنام بدلاً ممن ؟

ـ ياهذا ، ياأخي سيدو . . قلت لك : مكان من سأنام ؟ مكان نفسي . .

استمرت أسئلته المتكررة هذه أسابيع وأشهراً .

نحن الواقعين أصحاب السوابق ندرك جيداً ، ونعرف أكثر من كل الناس ، أن المجرمين الحقيقيين الكبار يمتازون بحصانة رفيعة ، لهذا فهم يتجولون خارج السجن بحرية . إن الذين يملأون السجون هم في الحقيقة مرتكبو الجرائم الصغيرة ، وسارقو القليل من الأموال ، والمحتالون الصغار ، والنشالون . . أي أن هؤلاء في السجن لا لأنهم ارتكبوا جرائم ، بل لأنهم لم يرتكبوا جرائم كبيرة . ولكن ليس كل إنسان يمتلك الموهبة والمعرفة والامكانية والمظهر الذي يؤهله لارتكاب جرائم كبيرة . . إذا كان في هذا العالم رجال كبار ، فهنالك رجال صغار أيضاً ، كما قال الشاعر ضيا باشا :

صاحب الجاه سارق الملايين طليق   وسارق بعض القروش لص كبير

(باشازادة مثقف مدهش في الأدب القديم . يُضَمِّن حديثه أبيات شعر باللغة العثمانية ، أكثر الأحيان لا أفهم معناها . فهمت معنى هذا البيت بالرغم من عدم فهمي لمفرداته . كتبته بعد أن رجوته ليعيده لي . ومصدر ثقافته هذه ، إما لأنه قرأ الكثير من الكتب ، أو لأنه انتحل شخصيات كثيرة مثل المعلم ، والقاضي ، والنائب العام ، والمحامي ، والضابط . . الخ . لمدة طويلة ، فهو لايشبه أصحاب السوابق الآخرين ، حتى إنه يترفع عنهم . كان باشازادة يعرف لغتين ويتكلمهما . عندما يتحدث إلى أصحاب السوابق يتكلم بلغتهم ، وكأنه واحد منهم . وعندما يتحدث معي فهو يتحدث بلغة قريبة جداً من اللغة التي أكتب فيها مايرويه هنا وحتى بسوية أعلى) .

إذا أردت أن تسرق ، فعليك أن تسرق الملايين ، أو المليارات لتظهر عظمتك . وإذا أردت أن تقتل فعليك ألا تقتل شخصاً ، أو اثنين ، بل عليك أن تُنشب حرباً ، وتقتل الملايين لكي لا تبدو مجرماً ، بل بطلاً ، وتنصب تماثيلك في الساحات العامة... أي أننا نحن المحكومين أصحاب السوابق نؤمن أن المجرمين الكبار يعيشون طلقاء في الخارج ، وأمثالنا ينامون في السجن

بدلاً عنهم . كيف ينوب أعضاء البرلمان عن الشعب ، والمحامون عن المجرمين ؟ نحن أصحاب السوابق ننوب عن المجرمين الحقيقيين في السجون ، والعقوبات .

يمكن لكم أن تقولوا عن كلماتي هذه . إنها مجرد دفاع فارغ عن الذات يقدمه صاحب سوابق . كأننا نريد أن نتخلص من عقدة الذنب... المهم ، كنت هكذا أفسر سؤال سيدو المتكرر : « أنت تنام هنا بدلاً ممن ؟ » أي أنه هنالك أشخاص وهم بشكل عام من الكبار ، يرتكبون جرائم ، ونحن في السجن نتحمل عقوبة ما ارتكبوه . نعم . ولكن لايمكن معرفة المجرمين الحقيقيين فرادى ، وبدلاً من أيهم دخلنا السجن ، ونعاقب .

في يوم ما ، عندما سألني سيدو :

ـ يا عزيزي باشو ، قل الحقيقة ، أنت بدلاً ممن تنام هنا ؟

قلت :

ـ يا أخي سيدو . . بالتأكيد إننا أنت وأنا والآخرون هنا ننام في السجن بدلاً من أناس آخرين ، ولكن كيف لي معرفة الشخص الذي أنام بدلاً عنه ؟ لعلني أنام بدلاً من شخص ، أو ألف شخص .

دهش سيدو كثيراً لكلماتي هذه . لم يضحك كما كان يفعل دائماً . أي لم يحرك رأسي شاربيه . سألني قائلاً :

ـ ممن أخذت البدل إذن ؟

هذه المرة ، أنا الذي دهشت .

ـ أي بدل يا هذا ؟ أي بدل يا أخي سيدو ؟

بدا سيدو أنه تضايق من كلامي هذا فقال :

ـ أنت لاتثق بي يا عزيزي باشو . .

ـ لِمَ لا أثق بك ياعزيزي سيدو ؟ أنت فعلت معي كل هذا المعروف ، وساعدتني ، وآخيتني . . إذا لم أثق بل ، فبمن سأثق ؟ أنا دائماً أثق بك . .

ـ لو كنت تثق بي لحكيت لي الحقيقة .

هنا انقطع حديثنا . بعد هذا الحديث ، لم يعد سيدو يريني القرب السابق ، لكنني بذلت مابوسعي من أجل إزالة هذه البرودة التي لم أعرف سببها . . عادت علاقتنا كما كانت سابقاً . . بدأ يسألني من جديد :

ـ قل الحقيقة يا عزيزي باشو! أنت تنام هنا بدلاً ممن ؟

ـ والله بدلاً عن نفسي يا أخي سيدو ؟

ـ والبدل ممن تأخذه ؟

ـ أي بدل يا عزيزي ؟

ـ ألا تأخذ بدلاً ؟

ـ لا آخذ . .

ـ هل ستأخذ البدل فيما بعد ؟

لم أستطع بأي شكل فهم ما يريد . مر بعد هذا عدة أيام ، قال لي :

ـ أنت لا تثق بي . لوكنت تثق بي لقلت لي بدلاً ممن تنام هنا . .

عندئذ خطر ببالي أن أسأله قائلاً :

ـ حسنٌ ، يا أخي سيدو ، قل ، أنت بدلاً ممن تنام هنا ؟

قال :

ـ أنا أثق بك . أعرف أنك لا تبوح بالسر ، أنا هنا أنام بدلاً من فردو آغا الصغير . .

سألته :

ـ من هو فردو آغا الصغير ؟

دهش كثيراً لعدم معرفتي به ، إلى حد أنه ضحك مع شاربه . .

ـ فردو آغا الصغير هو ابن جند آغا الذي يدفع لي البدل .

أنا أسأله ، وهو يحكي لي . . ماقاله لي حقيقة ، ولكن لاتصدق . .

سيدو دخل السجن بجريمة قتل . تربص برجل وقتله . قبل معرفتي بالحقيقة منه لم أستطع إقناع نفسي بأي شكل بأن سيدو قد قتل . كيف لرجل رقيق ، طيب القلب أن يقتل إنساناً ؟ حسبما حكى لي فإن سيدو لم يقتل

أحداً . القاتل هو طفل في الرابعة عشرة ، أو الخامسة عشرة من عمره يدعى فردو آغا الصغير ، وهو الابن الأصغر لجند آغا . جند آغا رجل غني جداً . لكي لايدخل ابنه السجن ، بحث عن رجل يعترف بالجريمة ، ويدخل السجن . وهنالك الكثير من هؤلاء . لكنه يريد رجلاً يقدم رأسه ، ولا يبوح بسره . فمه مزموم بزمّامة . وهكذا اختير سيدو بين عدد من المتطوعين لحمل تهمة القتل ، وحُكم بدلاً من القاتل الحقيقي . .

سألته عن سبب عمله هذا ، فقال :

ـ آه يا عزيزي باشو . . ليعم اللهُ عيني الفقر!

ـ حسنٌ ، إذا كنت فقيراً لماذا تتحمل جريمة الآخرين ؟

قال :

ـ ألا نفعل هذا من أجل عائلتنا وأبنائنا ياعزيزي باشو ؟

حكى لي : مقابل تبنيه هذه الجريمة يتقاضى البدل من جند آغا ، وهو مبلغ خمسة عشر ألف ليرة مقابل كل سنة سجن .

كان قد مضى على سيدو أربع سنوات في السجن . المبلغ الذي تقاضاه حتى ذلك التاريخ من ٦٠-٧٠ ألفاً . ولو عمل على مدى حياته كلها ، ووفر ما يتقاضاه لما جمع هذا المبلغ . .

عندما بحثت في وضع المساجين ، وجدت أن نصفهم على الأقل ينامون في السجن بدلاً من الآخرين مقابل النقود ، أي بدلاً من المجرمين الحقيقيين .

قال سيدو :

ـ كل الذين تراهم هنا ينامون بدلاً من آغا أو بيك . .

ـ حسن ، يا أخي سيدو ، ألا يعاديك أقرباء القتيل الذي صرحت في المحكمة بقتله ؟ ألا يغدو الأمر قضية ثأر ، ويحاولون قتلك ؟

ـ ماهو ذنبي لكي يقتلوني ؟ أنا مسكين تقاضيت بدلاً . ألا يعرفون هم أن القاتل الحقيقي هو فردو آغا الصغير ؟ ليس في هذا شك ، أليس كذلك ؟ من أنا ؟ . . أعطوني بدلاً ، وتبنيت الجريمة . لستُ أنا عدوهم ، بل هو فردو آغا

الصغير . بالتأكيد سيتقاتلون . ممكن أن يقتلوا فردو آغا . وأولئك أيضاً يجدون فقيراً يعطونه بدلاً لينام مكان المجرم الحقيقي . .

ما فهمته أن تبني الجريمة مقابل البدل ، ودخول السجن مهنة بعض الناس .

ولأن اسم الشخص الذي يُدخل مكانه السجن مقابل البدل سر كبير جداً ، فلا يباح به لأحد . ولا يقال إلا للشخص الموثوق جداً ، والبوح بهذا السر مقياس للثقة . وباح لي سيدو بالسر ليعبر لي عن مقدار ثقته بي . وسبب زعله عندما سألني عن الشخص الذي أنام بدلاً منه ، ولم أجبه ، لاعتقاده أنني لم أبح بالسر إليه . وسؤاله لي هذا السؤال لا ينبع من فضوله فقط ، بل كان يدرك أنني بدون نقود في السجن . وإذا كنت قد دخلت السجن بدلاً من شخص ما ، ولم يدفع لي البدل ، سيعرف من هو ، من أجل أن يساعدني في قبض بدلي .

سألني مرة أخرى :

ـ ياعزيزي باشو ، أنت تنام بدلاً ممن ؟

كان يظن أنني في السجن مثله ، بدلاً من شخص آخر . فجأة خطر ببالي ما قاله ذلك البيك الذي أمر بأخذي من تلك المغارة في جبل كونت ، وجعلني شيخاً . ماذا قال ؟ قال : « هنا يوجد ثلاثي . أحدهم البيك وهو أنا . والثاني الشيخ وهو أنت ، والثالث الحكومة ، وهو قائد الدرك » .

إذا كنت أنام بدلاً من أحد ، فأنا أنام مكان هذا الثلاثي : البيك ، والنائب برهان البوق ، والقائمقام بدري قائد الدرك ، وهو بدري الجربوع .

ـ يا أخي سيدو ، أنا أنام بدلاً من ثلاثة أشخاص ، أحدهم الكلب المدعو بيك ، والثاني كلب الكلاب ، والثالث كلب ابن كلب . .

قال سيدو ، إذا كان الأمر على هذا النحو ، فلا بد أنني أتقاضى بدلاً كبيراً . سألني :

ـ إذا كانوا لايدفعون بدلاً ، فلماذا دخلت السجن ياعزيزي باشو . .

شرحت له ما استطعت شرحه ، وبالقدر الذي يستطيع فهمه . أشفق عليّ كثيراً جداً . قال :

ـ عندما تخرج من هنا سأجد من يدفع لك بدلاً جيداً ، تجمع منه نقوداً ، وتؤسس عملاً يا عزيزي باشو . .

الرجل الذي ينام بدل الآخرين يتقاضى ثلاثين أو أربعين ألف ليرة . وهكذا يصبح هذا العمل جميلاً للجميع . انظروا ، المجرم الحقيقي يتخلص من جريمته . قابض البدل يحصل على مبلغ لا يستطيع الحصول عليه في أي وقت . وهكذا تعيش أسرته وأولاده براحة . والذي يدخل السجن ؟ بيته ليس أكثر راحة من السجن .

يحصل البديل على راحة أثناء السجن لم ولن يراها في حياته . نعم ياه . . الخبز وافر ، والماء وافر . . لاعبودية للآغا ولا ضغطاً للجندرمة ، ولا خوفاً من الحكومة ، ولا ضرائب ولاحسميات . . كيفما كان فالحكومة تقدم التعيين . الجو دافئ شتاءً . . والجيب مليء بالنقود . . دائماً مضطجع ، يعزف على نايه ، وتعال ياكيفي تعال . . ولأن جيبه مملوء بالنقود تصبح كلمته مسموعة في السجن . ماذا يريد أكثر من ذلك ؟ عندما يخرج من السجن يشتري بنقود البدل قطيع أغنام ، وبقر ، وجواميس ، ويمشي مرفوع الرأس .

نحن أصحاب السوابق ندخل السجن بدلاً من الآخرين ، ولكننا لا نعرف بدلاً ممن دخلنا . على الأقل فإن هؤلاء يعرفون الرجل الذي دخلوا السجن مكانه ، ويتقاضون البدل .

مع الزمن اقتنعتُ بقضية الدخول إلى السجن مقابل البدل . كم هو حسن ، لو شرَّعت الحكومة عملية الدخول إلى السجن بدلاً من الآخرين ، مقابل مبلغٍ من المال! هل فكرتم في هذا . . وهكذا سيدخل عشرات الألوف من العاطلين عن العمل إلى السجن ، ويتقاضون بدلاً ، ويحققون مكسباً ، وبالتالي يمكن القضاء على البطالة . .

قضيت في تلك الأيام زمناً طويلاً وأنا أحسب هذا الأمر . لو أن هنالك

بدلاً لكل سنة سجن ، ولو أخذ نصف المبلغ الشخص الذي ينام في السجن ، والنصف الآخر الدولة . . كان يقال يومئذ إنه يوجد في السجون ثلاثمائة أو أربعمائة ألف سجين . . السنة بثلاثين ألف ليرة . . اضرب بثلاثمائة ألف . . وخذ نصفها . .

في أحد الأيام ، بينما كنتُ أَجري هذا الحساب على ورقة جريدة قديمة ، مسلياً نفسي ، فجأة صعقني خبر صغير قرأته في الجريدة ، وجعلني كالمجنون . أتعرف ماهو ذلك الخبر ؟ خبر انتحار رجائي المتذبذب . . مسكين رجائي . لن أدرك أنني أحبه إلى هذا الحد ، لو لم يمت . دع الحب جانباً ، كنت أظن أنني أكرهه . ولكن لم يؤثر عليّ أي موت كتأثير موت رجائي .

لم تنشر الجريدة سبب الانتحار ، لكنني فهمت هذا . لأنه يعتقد أن باستطاعته الاحتيال على العالم بأسره . الاحتيالات التي كان يعملها ، لايقصد منها سوى إثبات تفوقه العقلي لنفسه . كان يعتقد أنه ماكر وذكي إلى حد إنه يقوى على ارتكاب كافة أنواع الجرائم دون أن يقبض عليه . عند أول اعتقال له ، شنق نفسه بحزام بنطاله في قبو المخفر . كان متهماً بجرم صغير جداً . . وهو حيازة دولارات . لم يحتمل حتى هذا فشنق نفسه . مع أنه من الممكن أن يتخلص من هذا الجرم . لكن المهم بالنسبة إليه ليس الاتهام ، والعقاب ، بل القبض عليه . هل قتل نفسه بدافع الكرامة ؟ لا أظن هذا . لقد فقد ثقته بنفسه ، لذلك أقدم على هذا . . على الأصح ، فهمت بعد انتحاره أنه لم يثق بنفسه في أي وقت ، لهذا السبب كان يقدم استعراضات الثقة بالنفس بشكل مبالغ فيه . فوق هذا ، فهو لا يقدم هذه الاستعراضات للآخرين ، بل لنفسه . جمهور هذا البهلوان الجريء هو نفسه .

بكيت كثيراً . قضيت أياماً أفكر فيه . كم كان منغلقاً على نفسه وولداً يحسب حساب المصلحة عندما كان في المدرسة . لهذا السبب لم نحبه . ولعل محاولاته لإثبات جدارته هي ردة فعل على انسحاقه في المدرسة . كان

يحب خداع الناس مثل الطفل الذي يشير إلى السماء قائلاً :

ـ انظر ، انظر!

وعندما لم ير الآخر شيئاً يسأل :

ـ ماذا هنالك ؟

فيقول :

ـ خدعتك . .

دائماً يريد خداع شخص ما من أجل أن يؤمن بتفوقه .

في أحدى الليالي التي قضيتها في بيته ، سرق النقود من جيبي مع أنه هو الذي أعطانيها .

في ليلة ما اصطحبني إلى أحد (البارات) . خرجنا في الفجر . كنا نسير مستمتعين برطوبة الجو . خففتْ السيارة التي تسير أمامنا سرعتها ، ثم توقفت . نزل منها رجل وإمرأة . فجأة تركني رجائي ، وذهب مسرعاً . ذهب إلى الرجل النازل من السيارة ، ولأنني على مبعدة ثلاث أو أربع خطوات فقط ، سمعته يقول للرجل بخجل ، وبصوت مرتجف :

ـ يا سيدي ، أرجو عفوكم . المعذرة لإزعاجي لكم . . سأطلب منكم شيئاً لو سمحتم .

قال الرجل مندهشاً :

ـ تفضل!

ـ نحن طالبان في الجامعة . . كان معي بعض النقود . . إما أنني أسقطتُ محفظتي ، أو سُرقتْ مني .

صوته مازال يرتجف ، بعد أن رقّقه ، ونعّمه :

ـ نحن نسكن في حي (بِنْدِكْ) والسفينة التي تذهب إلى هناك أبحرت منذ زمن طويل . هل تقدمون لنا مساعدة صغيرة لنقضي ليلتنا في الفندق .

أخرج الرجل محفظته وقدم له بعض النقود ، والكلب رجائي أخذها وشكره .

لماذا فعل هذا ؟ كان جيبه ممتلئاً بالنقود . . فعل هذا من أجل فحص قوته وتفوقه ، وإمكانية خداعه الآخرين . . إنه في الحقيقة ضعيف إلى حد شعوره بالحاجة إلى تجريب قوته بشكل دئم . .

قلت له عندما عاد إليَّ :

ـ أما خجلت يارجائي ؟

عندما قلت له هذا ، هرع إلى الرجل الذي كان يدخل إلى أحد الأبنية مع المرأة التي بصحبته :

ـ يا سيدي ، نحن سنرد لك هذا الدين . . أرجو أن تعطونا بطاقتكم الخاصة . .

أخرج الرجل بطاقة وقدمها له .

ابتعدنا عن المكان . سألته قائلاً :

ـ هل أنت محتاج للاحتيال على ذلك الرجل ؟

قال :

ـ أنا لم أحتل على ذلك الرجل .

ـ ماذا فعلتَ إذن ؟

ـ أنا منحت ذلك الرجل إمكانية الشعور بطعم عمل الخير ، أولاً...... وثانياً قدمت له فرصة إثبات أنه فاعل خير أمام تلك المرأة . . وهل مساعدة شابين بقيا في الشارع عمل قليل الأهمية ؟ سينام هذه الليلة وهو يشعر براحة ضمير لأنه فعل خيراً . . غدا سيتكلم عن عمله الخيّر هذا أمام كل من يصادفه . . في الحقيقة ، إن الرجل لم يفعل معنا خيراً ، أنا الذي فعلت معه خيراً إذ منحته فرصة الشعور بمتعة مساعدة الآخرين . .

ـ حسن غير مهم هذا ، لماذا عدتَ إلى الرجل ، وطلبتَ بطاقة مدعياً أننا سنرد الدين ؟

ـ لأنني إذا فعلت خيراً مع أحد يجب أن أكمله . . لكي لا يدخل الشك في نفس الرجل بأننا خدعناه ، وينام براحة . . هل يمكن للإنسان أن يستمتع

بهذا الشعور الجميل لقاء قليل من النقود إلى هذا الحد ؟ أنا مدين للرجل ، مقابل إعطائه فرصة عمل الخير ، والاستمتاع بهذا العمل . . أخذت بطاقة الرجل لكي أنتهزفرصة استرداد بقية ديني منه . .

لابد أنه سيجد طريقة يحوّل فيها بطاقة الرجل إلى نقود .

إنه رجل بهذه السفالة . . لا ، إنه رجل يعمل على إثبات تفوقه لنفسه ، لأنه لا يثق بها . إنه مثل الذين يغنون في الظلام عندما يخافون من أجل أن يسمعوا أصواتهم . .

فيما بعد عرفت سبب كل هذا الحزن الذي شعرت به نتيجة موت رجائي المتذبذب . كان الشخص الوحيد القريب مني . كلما خرجت من السجن أذهب إليه ، وكلما قصدته كان يساعدني . بالنسبة إلي هو مسند ، أو مصدر ثقة . . وبموته أصبحتُ وحيداً تماماً في هذا العالم . . كنت قد سمعت منذ زمن طويل بموت أبي ، وأمي ، ولا أعرف أين أخوتي . .

أحد الذين تعرفت إليهم في سجن المنطقة الشرقية صاحب (بار) . كان في السجن لمدة قصيرة . صرف نقوداً مثل الماء . . يقول إن عمل البار مربح جداً ، وأصبح غنياً . كانت تتردد الشائعات كثيراً عن صاحب البار هذا . الجميع يحترمه بوجوده ، ولكنهم يتكلمون عنه كل شيء في غيابه . . قالوا إنه كان موظفاً في المحافظة التي يفتح فيها البار الآن... زوجته جميلة جداً ، وكان يصطحبها إلى بيت البطل الذي حرر تلك المنطقة من الأعداء ويتركها هناك . . منذ ذلك الوقت شاعت الشائعات حوله . . لم تكن تلك الشائعات عادية ، ولم يخجلوا من إسماعه إياها . . في أحد الأيام ذهب إلى الذين يشيعون تلك الأقاويل حوله ، وصرخ بهم قائلاً :

« سمعت أنكم تتكلمون بحقي وحق زوجتي . . لاتتكلموا كلاماً فارغاً . . نعم هذه الأقاويل صحيحة . أنا آخذ زوجتي بيدي إلى ذلك الرجل . . ما الغريب في الأمر ؟ لو لم يحرر ذلك البطل هذه المنطقة من الأعداء ، كان سيفعل الأعداء هذا بزوجتي ، وهل هذا أفضل مما تفعله ؟ . . » .

المرأةُ قذرٌ على يد الرجل . . بعد أن حمل الرجل حمله ، طلّق زوجته ، أي غسل يديه وتخلص من قذرهما . نقوده موجودة . . أفضل طريقة للربح فتح البار . . بدأ العمل في البار ، وكسبَ أموالاً طائلة .

كنت قد قلت لكم : نحن نبني خيالات كثيرة . . مثل الشعراء تماماً . . لكننا لانكتب الشعر أو نلقيه ، بل نعيشه ، أثناء بنائنا الخيالات . وأنا أيضاً كنت أتخيل . . سأفتح باراً في واحدة من المحافظات الشرقية هذه . . أتسأل عن النقود ؟ أما أخبرني الأخ سيدو كيف تكسب النقود ؟

أنهى سيدو مدة محكوميته ، وخرج من السجن قبلي بعدة أشهر . أعطاني عنوانه لكي أذهب إليه عندما أخرج من السجن .

لم ينسني سيدو بعد خروجه من السجن . . زارني مرتين . . جلب لي سمناً وعسلاً وانواعاً من المأكولات .

كانت قد بقيت مدة قصيرة من محكوميتي . . أطلق سراحي بعد إطلاق سراح سيدو بمدة قصيرة . عندما خرجت من السجن قصدت سيدو فوراً . . سألته إذا كان باستطاعته إيجاد فرصة لي أدخل فيها السجن مقابل البدل كما حكى لي في السجن . . كنت قانعاً بالدخول إلى السجن لمدة عام أو عامين بدلاً من الاخرين ، مقابل الحصول على مبلغ من النقود أستطيع تأسيس عمل من خلاله . .

(إذا كان مايقوله هنا صحيحاً ، وإذا صدقنا بما يقوله الآن بعد استعراض ما قاله سابقاً ، نجد أن باشازادة لايريد ارتكاب أي جرم ، أو الاحتيال على أحد ، أو انتحال شخصية ، ارتكب باشازادة كل ما ارتكبه عن غير إرادته . إنه يسقط في ارتكاب الذنب عن غير قصد ، أو يدفع إلى ارتكابه . إنه ممن يدفعهم مجتمعهم إلى ارتكاب الذنب أو الاحتيال ، أو الإجرام . لأن كل الطرق تغلق في وجهه ، ولايترك سوى طريق واحد مفتوح ، وفي نهاية هذا الطريق المفتوح دائماً ، يفتح له باب السجن . لايوجد أمام باشازادة أي خيار . ليس أمام باشازادة امكانية التفكير في اختيار هذا الطريق أو ذاك . هل تعتبر رغبة

باشازادة بدخول السجن مكان مجرم آخر مقابل النقود لتكوين رأسمال ، وتأسيس عمل ، مؤشراً على عدم إرادته لارتكاب أي جرم احتيال ؟ في البداية هذا مابدا لي . إنه لايريد انتحال شخصية أحد ، بل يريد الاستمرار بحياته من أجل عمل شريف . ومن أجل هذا ، فهو راض بالدخول إلى السجن بالرغم من عدم ارتكابه أي ذنب . . ولكن فيما بعد أوقعته جملة قالها ، وهي : «الآن انتحل شخصية المجرم . . أي مجرم منتحل ، أو محكوم مزور . . » .

صحيح . . اختار انتحالاً آخر من أجل التخلص من الانتحال . . الانتحال قدره . لكنه لايؤمن بالمقدّر والمكتوب . إنه يتهم المجتمع دائماً . . المجتمع هو الذي أجبره على هذه الأفعال ، ودفعه وجرّه . . إنه لا يقول هذا بوضوح ، لكنه يوحي به . منذ أشهر ، وأنا أسأل نفسي : لماذا لم يجرب العمل القانوني ، والكسب المشروع ، وكأنني نسيت ما حكاه لي . يبدو أنه غضب من عدم تفهمي وضعه . أليس هذا ما أراده منذ البداية حتى الآن ؟ لكنهم لايتركونه . .) .

قررت ما سأعمله عندما سأقبض تلك النقود . سأفتح باراً . تعلمت أصول المصلحة من خلال صاحب البار الذي تعرفت إليه في السجن ، ومن خلال مشاهداتي أثناء تجوالي في المحافظات الشرقية . هنالك ناد ليلي يقدم استعراضات غنائية ، ولايوجد بار . . المقصود في البار هو المكان الذي تُفتح فيه صرر النقود . . نعم سأكسب أموالاً كثيرة خلال فترة قصيرة . نعم ، سأكسب مزيداً ، ومزيداً جداً من النقود . في الحقيقة أريد عمل أشياء جميلة ، وهذا لايتحقق إلا بنقود كثيرة .

وعدني سيدو بعمل هذه الجودة لي . سآخذ على عاتقي جريمة ماترتكب هناك . . ولكنني لا أستطيع تبني جريمة حكمها طويل . لا أستطيع تحمل أكثر من سنة أو سنتين . وحسب قول سيدو إن هذا سهل جداً ، وكثيراً ماتقع أحداث إصابات ، وقتل ، وبإمكاني التفاوض على إحداها .

انتظرت ، ولكن لم تسنح لي فرصة كهذه بأي شكل . لهذا السبب قال

لي سيدو إنني منحوس جداً ، لأنه تقع هناك في الشهر أو الأسبوع جريمتا قتل على الأقل ، ولكن منذ أن عزمت على انتحال شخصية المجرم لم تقع أية جريمة . حتى أن سيدو دهش لسوء حظي . فجأة وقعت جريمة . لكنها جريمة كبيرة . لو اعترفت عليها سأتقاضى مبلغاً كبيراً ، لكن هذا يتطلب البقاء في السجن خمس أو ست سنوات . لا أستطيع وضع كل هذه المدة في حسابي . لا أريد وضع رأسي تحت المطرقة مثل معتوه . . وهنالك قضية تهريب ، بإمكاني الاعتراف عليها . ولكن إذا أضيفت إلى سوابقي ، قضية تهريب فلن أتخلص من بين أيدي الشرطة والدرك نهائياً .

فيما بعد فهمت أنني غبي بعدم اعترافي على تلك الجريمة الكبيرة . أنا في الحقيقة كما قال سيدو سيء الحظ . كيف لي معرفة أن عفواً عاماً سيصدر بعد مدة قصيرة ؟ ولكنني كسجين قديم كان يجب أن أدرك أنه في تلك الأيام سيصدر هذا العفو . ساوم شخص آخر على تلك الجريمة ، وتقاضى مبلغ ثلاثمائة ألف ليرة مقابل اعترافه بها . ثلاثمائة ألف ليرة تلك الأيام ، تساوي ثلاثة ملايين هذا الزمان . . فوق هذا فإن البيك المجرم الحقيقي ، وكّلَ في القضية محاميين . ولأن المجرم مقابل البدل ، ظهر أنه يدافع عن نفسه حكم بستة أعوام سجن فقط . بعد هذا ، جاء العفو العام ، فخرج من السجن قبل أن يكمل السنة .

أما بالنسبة إلي ، بعد انتظار طويل ، حدثت قضية إطلاق نار أحدثت جرحاً صغيراً أستطيع الاعتراف بها ولله الشكر . . حكم هذه القضية على الأكثر سنة . بعد مساومة حادة اتفقت معهم على تبنيها مقابل عشرين ألف ليرة . هم في العادة لايدفعون مبلغاً ضخماً كهذا في قضايا صغيرة مشابهة . لكن الأمر يتطلب مجرماً منتحلاً على وجه السرعة . ليس لديهم الوقت لإيجاد مجرم . . لأن الشرطة ستكتب الضبط إثر الحادثة مباشرة . في تلك الأثناء كنت أنتظر أنا باعتباري مجرماً منتحلاً .

جاءني سيدو إلى الفندق الذي كنت أقيم فيه ، وأيقظني وهو يهزني . وقدم لي البشارة قائلاً :

ـ عزيزي باشو ، مبروك . أمرك المنتظر حدث . . الحمد لله أن أحدهم طُعن .

بدأت المساومة مع والد المجرم . في صالة الفندق في الأسفل ينتظر شرطي . كانت تأتي الأخبار من المخفر ويستعجلون الأمر . لاتستطيع الشرطة تأخير الضبط أكثر من ذلك . لأن المصاب أحد أبناء وجوه المنطقة . أي أن الشرطة لم تعد تستطيع التماهل في كتابة الضبط أكثر من ذلك . . وأنا اغتنمت هذه الفرصة من أجل الحصول على مبلغ أكبر من خلال المساومة . في الحقيقة إنه أمر يستحق المتابعة . كل برهة يُقرع الباب ، ويدخل كاتب الفتدق أو أحد الحراس ، ليبلغ ماقاله رئيس المخفر .

ـ ليسرعوا أكثر . لم أعد أستطيع تأجيل الموضوع . . سنأخذ إفادة هذا ، أي مرتكب الجريمة . .

عندئذ أصريت على مبلغ ثلاثين ألفاً ولا أتنازل . من جهة أخرى ، أخشى أن يجدوا محتالاً آخر يأخذ مكاني . عاندت في المساومة إلى حد أن والد المجرم غضب وبدأ يصرخ ، وكاد يمد يده إلى مسدسه . وهناك يمكن أن أذهب ضحية جريمة مجهولة الفاعل ، أو أن الرجل ، بعد أن يقتلني ، يستطيع إيجاد محتال يأخذ تلك الجريمة على عاتقه . عندما مد الرجل يده إلى مسدسه ، انكمشتُ ، ورضيت بعشرين ألف ليرة . .

أعطوني المسدس أداة الجريمة . وعلموني أن أقول : أطلقت النار على ذلك الرجل . بالرغم من عدم معرفتي به نهائياً . . ذهبنا إلى المطعم الذي يقدم المشروبات الروحية حيث جرت الحادثة . علموني بالتفصيل كيف سأدلي بإفادتي . في الحقيقة يجب ألا أغفل دور الشرطة في هذا الأمر ، فقد ساعدوني كثيراً . ذهبنا إلى المخفر . أثناء الإدلاء بإفادتي ، كانت الشرطة تصحح الخطأ ، وتكمل النقص عندما أخطئ أو أُنقص .

قُبض عليّ ، ودخلت السجن .

وكّلَ لي المجرم الحقيقي محامياً . بدأت المحاكمات . قال الشهود إنهم

رأوني وأنا أطلق النار على الرجل المصاب . ولأن اثنين من الشهود لايعرفان التركية ، كان يترجم كلامهما إلى التركية مترجم محلف .

سألني القاضي عن سبب إطلاقي النار على ذاك الرجل .

لم يكن أحدنا يعرف الآخر . . أي ليس بيننا حساب قديم . إذا كان الأمر هكذا ، فلمادا حدث هذا ؟ يا سيدي . . كنا نشرب في الخمارة في تلك الليلة . حدثت ملاسنة كلامية بيني وبين الرجل دون أي سبب . أقدم الرجل على استعراض المرجلة . رفع صوته . . ثم شتمني شتيمة كبيرة . . وأنا سحبت مسدسي ، وأطلقت النار على الرجل . " وهذا ماقاله الشهود أيضاً . .

ما أدهشني أن الرجل الذي قيل إنني جرحته ، قال ما قلته أنا تماماً في المحكمة . دخل المشفى ، وتحسنت حالته ، وقال في المحكمة إنني جرحته ، واسقط حقه لأنه هو ذاته المذنب الحقيقي . ولكن عندما يتنازل عن حقه ، تسير الدعوى ، لأن هنالك الحق العام .

سألت سيدو عن سبب كتمان الرجل حقيقة الأمر ، قال سيدو :

ـ ستعرف هذا فيما بعد يا عزيزي باشو . .

كأننا نحن المتهمين والمجرمين والشهود ، نمثل مسرحية في المحكمة . شعرت أن المدعي العام ، والقضاة في المحكمة يعرفون الوجه الحقيقي للقضية مثل الشرطة في المخفر ، لكنهم لا يستطيعون تخريب هذه اللعبة وأظهار الحقيقة بهذا الكذب المغلّف جيداً ، ومحضر الشرطة ، وإفادة الشهود ، وكلام المصاب .

لم يدفع لي الرجل الذي حملتُ جريمته المبلغ المتفق عليه أثناء المحاكمات . كنت خائفاً من عدم دفع المبلغ والعودة بكلامه بعد الدخول الى السجن . عندما بحت بمخاوفي هذه لسيدو طمأنني ، وطلب مني ألا أقلق ، وقال لي إن هؤلاء الناس شرفاء جداً ، ولاأحد يعود عن كلمته في هذه المنطقة ، لأنهم لو عادوا عن كلمتهم فلن يجدوا من يدخل السجن مقابل البدل في جرائمهم التالية .

لم يطابق السوق حساب الصندوق . أنا السجين المخضرم كنت آمل بخروجي من هذه القضية بسنة . فحكمتُ بستة عشر شهراً ، لكن الآغا الذي دخلت مكانه السجن ، عبر عن آغاويته ، ودفع لي خمسة آلاف ليرة زيادة عن الاتفاق يوم صدور الحكم بشكل قطعي ، أي خمسة وعشرين ألفاً .

وبهذا ظهر أنني لست سيء الطالع إلى الحد الذي قال عنه سيدو ، لأن الشخص الذي اعترفت بجرحه طعن الشاب الذي دخلت بدلاً عنه السجن بسكين في اليوم التالي لدفعه البدل لي ، ومات . لو أنه مات قبل يوم فقط ، لما قبضت البدل ، ولدخلت السجن بجريمة لم أرتكبها . فكرت أنه من الممكن أن يكون الطاعن بالسكين انتظر ذلك الشاب ليدفع لي البدل ، لأنهم شرفاء جداً لم يرد قتل خصمه قبل أن يدفع لي البدل ، أي يدفع لي حقي .(عندما يلفظ باشازادة كلمة شرفاء ، كان يضحك ضحكته الخاصة تلك ، ضحكته ذات الشكل الخاص الذي لا يعرف أنه يضحك من لا يعرفه . إذ يضحك مغيراً خطوط وجهه ، وكأنه يتألم من أحد أسنانه) . وهنا فهمت السبب الذي جعل الرجل يقول إنني جرحته بالرغم من عدم معرفتي به نهائياً . أراد أن يعاقب الشاب الذي أصابه بيديه . لأنه لايجد سجن سنة كافياً . لقد وضع في رأسه أن يقتل ذلك الشاب فلم يجعله يدخل السجن . . سيكون من الصعب جداً عليه قتل خصمه وهو في السجن .

حسب ما تناهى الى سمعي فإن الرجل الذي قتل الشاب دافع البدل لي قد أخذ تدابيره بشكل جيد . قبل ارتكابه الجريمة ، كان يسيّر بجانبه دائماً الرجل الذي سيدفع له البدل . وعندما أدرك الشاب في وضع مناسب ، وطعنه بالسكين ، أعطى السكين المدماة للرجل الذي سيدفع له البدل .

مالم أفهمه هو أنه في بعض مناطق بلدنا يُسْتَخْدَمُ قتلة مأجورون . وايجاد هؤلاء يكاد أن يكون أرخص من إيجارات البيوت . لِمَ هؤلاء لا يستخدمون قتلة مأجورين ، ويلوثون أيديهم بالدم ، وبعد الجريمة يبحثون عن مجرم منتحل يدفعون له بدلاً كبيرا ؟

سألت سيدو عن هذا ، حسب قوله ، فإن الانتقام لايتم بقتل العدو فقط . يجب أن تقتل عدوك بيدك ، وتشعر بحرارة دمه بأصابعك لكي تشبع نفسك . بعضهم لا يكتفي بقتل عدوه بيده ، بل يشرب من دمه براحة كفه ليشعر بانتقامه بشكل كامل . لومات العدو موتاً طبيعياً ، أو قتله شخص آخر فلن يخمد الحقد .

للمرة الثانية ضحك لي الحظ في تلك القضية . بعد عدة شهور من دخولي السجن ، أعلن عفو عام . وخرجت أول مرة في حياتي كان معي مبلغ خمسة وعشرين ألف ليرة دفعة واحدة . بدأت الترتيبات من أجل فتح البار فوراً . قبل كل شيء استعرضت الأمكنة المناسبة لفتح البار في تلك المحافظة الشرقية . يلزمني مكان واسع من جهة وإيجاره رخيص من جهة أخرى . هنالك أمكنة كهذه . لكهنم لايؤجرونني عندما يعرفون أنني سأفتحه باراً . لم أستأجر في المكان المزدحم من المدينة ، بل في منطقة جانبية منها . هدفي كسب المال . حسب ما سمعته في السجن فإن الخمسة والعشرين ألفاً التي بين يدي تصبح في فترة قصيرة مائة ألف ، ومائتين . . بعد هذا يسهل كل شيء .

عملت كثيراً ، وبذلت جهداً ، وتعبت ، ولكنني في النهاية نجحت بفتح البار . بألف صعوبة حصلت على الترخيص . في الحقيقة أردت فتح بار يستطيع موظفو تلك المدينة ، والنواحي المجاورة لها ، وحتى المحافظات القريبة ، قضاء وقت ممتع فيه ، ولكنني لا أستطيع القول إنني نجحت كثيراً في هذا الأمر .

تعاقدت مع فرقة موسيقية تعزف الموسيقى التركية ، وفرقة أخرى بأربعة عازفين . وجلبت ثلاث نسوة مغنيات راقصات من إحدى وكالات الفنانين . كما استأجرت أربع نسوة جليسات ، جلبتهن من النوادي الليلية في المحافظات الجنوبية .

اكتملت كل الترتيبات . في اليوم التالي سأفتح البار . أتى سيدو مع رجل آخر . قال أنه معقب دعاوي وحسب ماقاله سيدو فيما بعد عن الرجل ، إنه

كان كاتب ضبوط في المحكمة قبل أن يعمل معقب دعاوي . وهو مرتش كبير جداً جداً . ولأنه مرتش كبير جداً لم يستطيعوا تسريحه من عمله بتهمة الرشوة ، ونجحوا بتسريحه لفرط تعاطيه المشروب . عندما أصبح مرتشياً كبيراً جداً لم يستطيعوا تسريحه من عمله بتهمة الرشوة ، لو أنهم فعلوا هذا لدخل السجن . كل ليلة يشرب المشروبات الكحولية حتى الصباح ، ويذهب إلى عمله قرابة الظهر ، ويبقى في الوظيفة حتى المساء نائماً . لهذا طردوه من عمله . أفاده هذا الطرد كثيراً . لأنه فتح مكتباً في مركز المدينة ، وعمل في تعقيب الدعاوي . في تلك الأثناء لم يكن في المدينة سوى محامٍ واحدٍ ، وهو مسن جداً . فيما بعد فتح محام أو اثنان مكتبين لهما . ولكن أين عمله من عملهما ؟ لأنه كاتب ضبوط سابق فهو يعرف جيداً مداخل ومخارج كل قضية ، كما يعرف أمور البدل ودفعها . كان لديه أعمال كثيرة ، بحيث أشفق على المحاميين الشابين ، وحوّلَ لهما بعض أعماله التي لم يستطع إكمالها ، لكي يعيش هذان المسكينان .

يكسب نقوداً كثيرة جداً جداً جداً . . إلى حد أنه لم يتمكن من تبديد هذه النقود على المشروب والقمار والنساء . ولأنه ليس ثمة بار في تركيا لم يدخله ، جاء به سيدو إلي لكي يعطيني بعض النصائح في هذا الموضوع . وهو رجل صرف مبالغ ضخمة في كافة بارات المنطقة الجنوب شرقية ، واسطنبول .

تجول معقب الدعاوي في كافة أرجاء البار ، وتفحصه . . أعجب به ، وهنأني عليه قائلاً :

ـ هذا هو البار . . لايمكن أن يكون أفضل مما هو عليه .

ثم فجأة ، كأنه تذكر شيئاً ما ، فتوقف ، وتلفت فيما حوله ، ثم قال لي بقسوة :

ـ لا . . ماصار على مايرام! . . نسيت أهم شيء! . . انه ناقص . . مستحيل .

قلت :

ـ ما الشيء الهام الذي أنقصناه ؟

صرخ قائلاً :

ـ أين أتاتورك ؟

لم أفهم مقصده ، لكنه صرخ بشكل متكرر :

ـ أين أتاتورك ؟ أين أتاتورك ؟

لقد كان قاسياً إلى حد أنني ظننت نفسي مجرماً يقف أمام القاضي . ماذا يقول هذا الرجل ؟ لقد مضى على وفاة أتاتورك أعوام طويلة . ما عمل أتاتورك هنا ؟ أم أنه سكران قليلاً ، وهو يهذي بفعل السكر ؟ قلت له :

ـ لم أفهم!

ـ ما العصي على الفهم في هذا ؟ أنت فتحت باراً هنا . .

ـ نعم .

ـ أم أنك لست أتاتوركياً ؟

الله الله . . ماذا يقول هذا الرجل ؟

سألني بشكل أقسى من السابق :

ـ احكِ! ألست أتاتوركياً ؟ لنعرف هذا أولاً . .

دهشت فقلت بشكل مفاجئ :

ـ ماذا يعني هذا ؟ . . كلنا أتاتوركيون والحمد لله . . والحمد لله أنا كالجميع أتاتوركي . .

ـ تقول إنك أتاتوركي . . أين تمثال أتاتورك إذن ؟ ماهذه الأتاتوركية ؟

بدأت أخاف من الرجل . أيا ترى إنه يخيفني من أجل قبض رشوة مني ؟ قلت له بشيء من الانكسار :

ـ يا سيدي ، هذا المكان ليس ساحة الجمهورية لننصب تمثالاً لأتاتورك فيه ، إنه بار . .

ـ أفضل أفضل . . لو أنك نصبت تمثالاً لأتاتورك . . ليس تمثالاً كاملاً ، بل نصف تمثال . . ويكفي مجرد رأس مقطوع تضعه في مكان مرتفع هنا . .

وهو يحميك ، ويحمي بارك . وكما حرر أتاتورك في زمانه هذه البلاد وحماها ، سيحمي هذا المكان أيضاً .

عندئذ فهمت . يريد مني معقب الدعاوي هذا وضع تمثال نصفي لأتاتورك في البار . . لكنه لا أدري إن كان عن قصد أو غير قصد ، لا يقول تمثال نصفي لأتاتورك ، بل يقول : « رأس مقطوع » ، وعندما يقول هذا ، كأنه يُطعن في قلبه ، ويتطاير الشرر من عينيه . . من الواضح أن الرجل عدو لأتاتورك .

ـ لايكفي تمثال رأس أتاتورك . . علّق هنا وهناك صورة ، لتكن الصور كبيرة . .

لعل معقب الدعاوي على حق ، ولكنني في اليوم التالي سأفتتح البار . دعيتُ المحافظ ، ومدير الأمن وضباط الجيش وكافة المسؤولين والوجهاء لكي يشرفوا ليلة الافتتاح . طبعت بطاقات دعوة مذهبة وأرسلتها لهم جميعاً .

يقول معقب الدعاوي :

ـ أنا قلت لك هذا . . ليس من مصلحتك فتح هذا البار دون تمثال رأس أتاتورك . .

دب الخوف في داخلي . بحثت في كل المدينة فلم أجد تمثالاً نصفياً لأتاتورك للبيع . والذي أراه أن معقب الدعاوي عدوّ لدود لأتاتورك ، ولكنني أخشى أن يقدم على عمل سوأة لي . قال لي أحدهم إنه يوجد في المدينة المجاورة تماثيل نصفية لأتاتورك للبيع . ولكن الذهاب إلى هناك ، وشراء التمثال وجلبه يستغرق ثلاثة أو أربعة أيام . وأنا مضطر لفتح البار في اليوم التالي . المهم بعد بحث دؤوب ، وجدنا في إحدى الخمارات الصغيرة تمثالاً نصفياً لأتاتورك بحجم قبضة اليد ، مدهوناً بماء الذهب . وضع صاحب الخمارة هذا التمثال فوق المذياع . إنه في الحقيقة لا يشبه أتاتورك نهائياً . ولكن من المعروف أنه لا يوضع تمثال لأحد فوق المذياع في الخمارة ، ولأن الجميع يحفظون أنه يجب أن يوجد تمثال لأتاتورك هنا ، فينظرون إلى تلك القطعة

الجصية المدهونة بماء الذهب على أنها تمثال أتاتورك .

قلت لصاحب الخمارة إنني أرسلت رجلين لجلب تمثال نصفي لأتاتورك من المدينة المجاورة ، ولكن هذا الأمر يستغرق ليلتين على الأقل ، ورجوته أن يعيرني هذا التمثال الموضوع فوق المذياع ليلة أو ليلتين ، ولكن صاحب الخمارة قال :

ـ لا أعطيه . .

توسلت إليه ، ولكن دون جدوى . .

قال صاحب الخمارة :

ـ إنك تقول لصاحب سيارة : «اعطني إحدى عجلات سيارتك!» حسنٌ ، ولكن إذا أعطاك العجلة ، فماذا سيفعل بسيارته ؟ كيف سيسيرها ؟

ـ لا تقل هذا يا صديقي اعتبر هذا الأمر مساعدة . السيارة لاتسير بدون عجل ، ولكن خمارتك تشتغل دون رأس أتاتورك .

ضحك صاحب الخمارة ضحكة ساخرة من كلامي هذا ، وقال :

ـ إذاً هذه هي معرفتك . . لماذا يمكن لخمارتي أن تسير دون أتاتورك ، وبارك لايسير بدونه ؟ يالعقلك! من الصعب عليك أن تسيّر بارك بهذه العقلية ـ أشار بأصبعه ـ انظر ماذا يوجد خلف ذاك الباب ؟ ـ أراني ورقة كبيرة تظهر عند فتح الباب ، ملصوقة على الجدار ـ أرأيت ما هذا ؟ إنه دعاء النمل . . ماذا يوجد مقابل دعاء النمل ؟ رأس أتاتوركنا . . ماذا يوجد مقابل رأس أتاتوركنا ؟ دعاء النمل . . لولا هذان الشيئان لما اشتغل الدكان . . السيارة عند الضرورة يمكن لها أن تسير قليلاً دون إحدى العجلات ، ولكن المكان هنا لا يشتغل ليلة واحدة دون أتاتوركنا ، ودعائنا . .

المهم ، في النهاية استطعنا استئجار تمثال أتاتورك من الخمارة بواسطة معارف سيدو . كان من الواضح أن كل هذه الممانعات التي أبداها الرجل من أجل رفع سعر الإيجار . استأجرت رأس أتاتورك ذاك الذي بحجم قبضة اليد ، والمصنوع من الجص ، والملتات قليلاً بماء الذهب لليلة واحدة بمبلغ مائة

ليرة ، ووضعته في أبرز مكان من البار بحيث يُرى فور الدخول من الباب .

مساء اليوم التالي فتحنا البار بمشيئة الله . ليلة فتح البار لم يبق معي أية نقود ، والأكثر من هذا أنني استدنت بعضها . . كانت نفسي مفعمة بالأمل . وكنت واثقاً من أنني سأكسب . . سأكسب واصبح غنياً .

(كان باشازادة يقول بحدة ، وبصورة قطعية : «سأكسب ، وأصبح غنياً» بحيث لايدع مجالاً لعدم الدهشة ، إزاء المقاومة ، وعدم الانهيار . عندما بدأ يحكي لي عما جرى له ، وخاصة في أيامه الأولى التي كان فيها أكثر انهياراً ، عندما فُصل من المدرسة ، قال بهذا التصميم ، وهذه الحدة : «سأكسب وأصبح غنياً . سأكون صاحب هذه الأبنية الضخمة» أنا أدهش لمقاومته هذه . . كان قد قال إنه حصل على تقرير منتحل شخصية مجنون لكي يتخلص من مشفى الأمراض العقلية . أنا أؤمن أنه مصاب بعقدة الغنى . ولكن ماهي الحقيقة ؟ هل هو مجنون أم منتحل شخصية المجنون . عندما يقول هذه الكلمات : «سأكسب ، وأصبح غنياً» يضغط على أسنانه ، وتبرز عظام ذقنه ، وتتوتر عضلات وجهه ويقدح شرراً بؤبؤا عينيه الصغيران بقدر رأس الإبرة ، والدائما الحركة . نعم ليكن من يكن باشازادة ، . . مصاب بعقدة الغنى ، أو مجرم صاحب سوابق ، أو مسكين دفعه المجتمع بشكل مستمر إلى الجريمة ، أو صادق ، أو كاذب . . فهو بالنسبة إلي ليس إنساناً عادياً) .

امتلأ البار منذ الليلة الأولى ، ومنذ الساعات الأولى لتلك الليلة . مع أنه لم يأت أحد من أولئك الموظفين الكبار ، والطبقة الأولى للمدينة الذين أرسلت لهم بطاقات الدعوة الخاصة المذهبة . .

قال معقب الدعاوي :

ـ إنهم لا يأتون ، لا ضرر من هذا ، غير مهم مجيئهم . . لكنك أحسنت بدعوتهم . على الأقل إنهم يفهمون أنك احترمتهم . لابد أنهم سيفيدونك مستقبلاً . يكفي أن يعرفوا اسمك ومكانك .

بعد ثلاثة أيام وصل من البلدة المجاورة بالسيارة تمثالان نصفيان

لأتاتورك . . انهما ضخمان ، لكنهما يشبهان أتاتورك ، بل هما طبق لأصله . أعدت التمثال النصفي الذي بحجم قبضة اليد إلى الخمارة حيث استأجرته . ووضعت أحد التمثالين الجديدين في أبرز مكان من الصالة .

سارت أمور عملي بشكل جيد جداً . طلبت جليستين جديدتين من وكالة الفنانين ، لأن اللواتي جلبتهن لم يفين بالغرض . على هذا النحو سأصبح غنياً بسرعة أكثر مما توقعت . نعم ، سأصبح غنياً لوتركوني... لم يتركوني . . من ؟

في إحدى الليالي . . أظنها الليلة الخامسة أو السادسة من افتتاح البار ، نشب عراك كبير فيه بعد منتصف الليل . لا أعرف سبب العراك . لكن البار قُلِبَ رأساً على عقب . تطايرت الكراسي والصحون والملاعق والشوكات والسكاكين في الهواء ، وبدأت النساء تصرخ . حسنٌ أن الرخصة تفرض وجود الهاتف . أوصلت هاتفاً إلى البار . هرعت إلى الهاتف بسرعة . اتصلت بمديرية الأمن ، والمحافظة ، والمخفر ، والبلدية ، وكل مكان خطر ببالي . .

ـ إلحقوني . . الدم يجرف أمامه الناس . . هدموا البار . . النجدة!

لم يأت أحد . . أهتف بشكل متتالٍ :

ـ انتهيت . . تحول البار إلى ساحة معركة . . المسدسات تطلق . . تخرمت جدران البار . . الحقوني!

يجيبون :

ـ نحن قادمون . . الآن... بسرعة . . بعد قليل سنكون هناك . . حسنٌ . .

وانتظر مجيئهم ، هذا إن كانوا قادمين . .

انفصل المتشاجرون عن بعضهم ، هل انفصلوا من تلقاء أنفسهم ، أم أن أحداً فصل بينهم ، أم أنه هرب من هرب وبقي من بقي ؟ . المهم انتهت المشاجرة التي استمرت قرابة ساعة . نعم انتهت المشاجرة لكن البار تحول إلى ساحة حرب . تكسر كل مايمكن أن ينكسر من زجاج وصحون

وكؤوس . حملوا الجرحى وأخذوهم . أخرجوا المتشاجرين ، ورموا السكارى في الخارج . وبدأ رجالي بلملمة المكان . . وبعد جمع الكراسي المكسرة وإعادة تنظيم الطاولات المقلوبة ، وتنظيف المكان ، أتت الشرطة والحمد لله . .

ـ ماذا حدث ؟ ماذا هنالك ؟

ياناس ، ياهوه . . إنهم يسألون أيضاً . . أنا أعرف الإجابة على هذا السؤال ، ولكن عند ذلك سيرمونني في السجن بتهمة « تحقير قوات الأمن » .

لا أدري إن كانوا قد اعتادوا بعد تلك المشاجرة ، أم أنها فتحت الطريق ، إذ صارت تنشب مشاجرة في البار كل أربعة أيام أو خمسة . . المتشاجرون يكسرون ، ويقلبون ، ويلخبطون كل شيء . وأنا في كل مرة أتصل بالمسؤولين والشرطة ، ويجيبون :

ـ نحن قادمون . . الآن . . بسرعة . . بعد قليل سنكون هناك . . حسنٌ . .

كدت أجن . . كأنهم يسخرون من الإنسان ، إذ لايكفيه ماهو فيه من مشاكل ، فوق هذا يجلسون حتى ساعات الصباح الأولى وهم يأكلون ويشربون . وهات المشروبات والمازاوات . . والأكثر من هذا : ليعزف العازفون ، ولترقص الراقصات . . ويلهون حتى الصباح ثم يذهبون . .

لايمكن احتمال كل هذه الخسائر . . قبل أن اتخذ قراراً بإغلاق البار جلست مطولاً ، وأنا أحسب الخسائر والأرباح . وجدت أنه بالرغم من كل الخسائر والكسر والقلب فالبار يربح . . الله الله . . انظروا إلى هذه البركة التي في البار . . أية بركة ؟ عندما وجدت هذا عدلت عن إغلاقه . أثناء تفكيري في هذا الأمر ، أرشدني معقب الدعاوى إلى فكرة :

ـ أنت يا بني لاتعرف أصول هذه المصلحة . عليك أن تستأجر أحد (القبضايات) المعروفين ، وهذا القبضاي سيأتي برجاله معه إلى البار . وسيمنع الشجار والفوضى . إذا نبس أحدهم ، يمسكه من زيقه ويرميه خارجاً . .

ويمنع حتى صدور صوت : «تك» إذا حاول أحد ما إصدار صوت ما ، سيرميه أمام الباب فوراً . .

فكرة جيدة . سألنا واستفسرنا ، ووجدنا (قبضاياً) ذائع الصيت . تساومنا معه على أجرة سنة واتفقنا . جلب هذا القبضاي رجاله الستة ، وجلسوا في البار . وأنا عندئذ بينما كنت أعتقد أنه لن تحدث مشاجرات في البار ، ولم تعد تكسر الكراسي ، وتقلب الطاولات ، ماذا حدث ؟ بدل أن يحول رجال القبضاي دون نشوب الشجار ، صاروا يشربون ويفرطون ويتسببون في المشاجرات ، وإذا لم يتسببوا فيها ، يتشاجرون فيما بينهم... نادراً ، إذا مرت ليلة دون شجار ، كان رجالنا يسببون شجاراً . أطلب الشرطة للمساعدة ، فيأتون ، ويبقون حتى الصباح وهم يأكلون ويشربون ، ثم يتشاجرون ، ويضربون النساء . بالرغم من كل هذا فالبار يربح... كرهت فكرة العمل في البار بالرغم من ربحه . قررت بيعه ، وترك المدينة . بعد اتخاذي هذا القرار بدأت أبحث عمن أبيعه البار . أثناء هذا وقعت مشاجرة كما يحدث عادة . ومع تكسير المتشاجرين كل مافي البار ، كسروا تمثال أتاتورك النصفي . تحطم التمثال . هل رأيتم قبل هذه المرة تمثالاً يتحطم ؟ تناثرت قطع الوجه في كل الاتجاهات . . الأنف ، العين ، الأذن . . ولأنني رأيت هذا التمثال كثيراً فقد اعتدت عليه ، شعرت أن رأساً حياً سقط على الأرض وتحطم .

بالرغم من معرفتي أن رجال الشرطة سيأتون ويجلسون حتى الصباح ، لكنني طلبتهم بالهاتف ، وأجابوا كما في كل مرة ، إجابة فيها مماهلة :

ـ حسنٌ . . الآن . . الدورية في الطريق . . نحن قادمون بسرعة . .

هدأ المتشاجرون . بعد مدة وصلت الشرطة . . كان رجال الشرطة كثيرين كما في كل مرة : رئيس المخفر ، ومعاونه ، وأربعة عناصر . . وخلفهم حارسان . . وكان العاملون في البار يلملمون المكان . جلست دورية الشرطة إلى الطاولة التي اعتادوا الجلوس إليها . نادى رئيس المخفر النادل .

لحظتئذ رأى أحد رجال الشرطة أثناء توجهه نحو الطاولة حطام التمثال الساقط على الأرض ، فبدأ يضرب بيديه على فخذيه وهو يقول :

ـ ماهذا ؟ . . يالطيف . . هل هذا أتاتورك ؟ . . واخ . . أتاتورك ؟

قلت أنا :

ـ نعم أتاتورك . .

بدأ ذلك الشرطي يصرخ :

ـ ياسيدي ، ياسيدي . . أتاتورك ، أتاتورك . . حطموا أتاتورك!

جاء رئيس المخفر ، وبقية رجال الشرطة ، وعندما رأى رئيس المخفر تمثال أتاتورك على الأرض ، صرخ بعنف :

ـ واخ . . من كسر هذا التمثال ولاه ؟ من حطمه ؟ أي عدو لأتاتورك فعل هذا ؟

قلت :

ـ لم أر من الذي أسقطه أثناء المشاجرة .

لا أكلوا ، ولا شربوا ، ولا جلسوا . . جمعوا العاملين في البار من نادلين ، وراقصات ، وعازفين ، وطباخين ، وجليسات ، وأخذوهم إلى المخفر ، وحققوا معهم . وأنا أيضاً كنت في المخفر . . آه لو رأيت ذاك المخفر عندئذ . . لم يشهد عملاً كهذا منذ تأسيسه . . عملوا عملاً ، وأي عمل . . أحدهم يذهب إلى هنا ، والثاني يركض إلى هناك . . والآلات الكاتبة لا تهدأ ، والهواتف تصدح . . الأخبار تتناقَلُ بينهم وبين المحافظة ، والنيابة العامة . . الحراس يجلبون هذا ، وذاك ليحقق معهم . . من جهة أخرى ، أرسل النائب العام رجال الدرك . . نعم ، عمل يدوّخ حتى من مجرد متابعته . .

في الليلة التي تلت هذه الحادثة ، وضعت تمثال أتاتورك الاحتياطي بدلاً عن المكسور ، ومن جهة اخرى أرسلت بعض الرجال إلى المدينة المجاورة ، وطلبت سبعة أو ثمانية تماثيل إضافية .

عندما رأيت الاهتمام الذي أبداه رجال الشرطة عندما كسر تمثال

أتاتورك ، فهمت ما يتوجب عليَّ عمله . مع بداية العراك ، دفعتُ تمثال أتاتورك باصبعي ، وأسقطته دون أن ينتبه أحد من الموجودين هناك . تحطم التمثال الساقط على الأرض ، وهرعت إلى الهاتف . .

ـ ألو... المخفر ؟ . . هنا بار الجمهورية . . حطموا تمثال أتاتورك . .

هذا كل ما قلته . لم أضف كلمة أخرى . أغلقت الهاتف . لم يمر على المخابرة دقيقة أو دقيقتان . ماهذا ؟ هل يناوب رجال الشرطة عند باب البار ؟ . . شيء مدهش . . قبض رجال الشرطة الذين دخلوا إلى البار على المتشاجرين ، وساقوهم إلى المخفر .

تعلمتُ كيف أستسهلُ الأمور . عندما تحدث مشاجرة في البار حتى ولو كانت صغيرة ، أدفع تمثال أتاتورك بسرعة ، ثم أهتف للمخفر : «هاجموا تمثال أتاتورك ، وكسّروه ، وحطموه . . » .

فجأة تأتي الشرطة . تجر المتشاجرين إلى المخفر ، وتحقق معهم ، لتعمل على معرفة مهاجم تمثال أتاتورك . كانوا لايتحركون سابقاً حتى لو تهدم البار ، وتطاعن الناس بالسكاكين ، وجَرَفَ الدم البشر ، وتزلزلت الأرض ، وبعد فوات الأوان يأتون متراخين ، ويجلسون إلى إحدى االطاولات . أما الآن ، فور قولي على الهاتف : «هاجموا تمثال أتاتوركنا ، وحطمـ... » أجد الشرطة حاضرة ، وتبدأ التحقيق لمعرفة محطم التمثال .

هكذا بدأ أمر انتحالي شخصية الأتاتوركي . جلبت كثيراً من التماثيل النصفية لأتاتورك من المدينة المجاورة . ملأت بها إحدى غرف البار . . كنت أحرص على بقاء باب تلك الغرفة مقفولاً كي لايرى أحد التماثيل .

في تلك الاثناء ، عاد معقب الدعاوي من اسطنبول بعد زيارة لها . أخبرني بافتتاح مصنع أتاتورك في اسطنبول . ولأنني ظننت أن أتاتورك هو اسم المصنع ، فسألته عما ينتجه ، فقال :

ـ ماذا سينتج يا هذا ؟ إنه ينتج أتاتورك . . بني مصنع أتاتورك على الطريق بين اسطنبول وإزميت . . ينتج المصنع مختلف أشكال وأحجام

أتاتورك . أنا رأيته بعيني عند مرورنا من أمامه بالحافلة . إنه ينتج من التماثيل النصفية الصغيرة جداً ، إلى التماثيل الكبيرة التي يبلغ ارتفاعها عشرة أمتار . .

قال لي معقب الدعاوي إنني إذا اشتريت تماثيل أتاتورك النصفية جملة من ذاك المصنع فسأحصل عليها بسعر رخيص . . ثم إنه بإمكاني بيع تماثيل أتاتورك هنا . . اقتنعت بما قاله معقب الدعاوي المخمور .

نظمتُ البار جيداً . لم تعد تنشب مشاجرات كما في السابق . خاف المتشاجرون . طردت ذاك القبضاي الذي استأجرته مع رجاله لحماية البار . . عندما فأفأ القبضاي ، قلت للشرطة إنه هو الذي كان يهاجم تمثال أتاتورك ، فجعلوه يخرج من أنفه الحليب الذي رضعه من أمه . كوى الشرطة له عرق القبضاوية . .

سارت الأمور على ما يرام . كنت أكسب الكثير من النقود . أتى فصل الصيف . لم يعد يشتغل البار في الصيف كما كان عليه . . عندئذ فكرت بجعل الأرض الممتدة خلفه حتى الشارع ، مقهى صيفياً . . هو مقهى ولكن من المفروض تقديم كافة أنواع المشروبات فيه . المكان مزبلة ، نظفته ، رحّلتُ منه القاذورات سيارات سيارات . نظمت المكان هناك جيداً ، ووضعتُ الطاولات والكراسي ، وبدأت العمل . سارت الأمور جيداً . لكن البلدية لم تتركني . جاء موظفو البلدية ، وطلبوا مني رفع الطاولات ، وقالوا إن هذا قرار رئيس البلدية ، ويجب تفريغ الساحة . ياناس ، المكان قبل تنظيفه كان مزبلة . لم أقنعهم بأي شكل . طرقت باب ذلك القرد الذي يفتح كل الأبواب وهو باب الرشوة ، ولكن لم يرفع الحظر . فهمت أنه عليّ زيارة رئيس البلدية . ذهبت إليه ، وحكيت له عن الوضع قائلاً :

ـ يا سيدي ، المكان الذي حولته إلى مقهى لا يقع على طريق عام ، وليس مكان عبور ، ولاطريقاً للسيارات . . كان مزبلة . . لا أحد يستطيع التوقف هناك لكثرة الذباب . أنا نظفت المكان ، وغرستُ أشجاراً على

جوانبه ، وزرعت عشباً وزهوراً . أكسبت المدينة مكاناً جميلاً . أنا مستعد لدفع رسوم البلدية مهما كانت ، مقابل أن تؤجرني هذا المكان .

بالرغم من كل ماقلته ، أصر رئيس البلدية على كلمة مستحيل ، ولايقول غيرها .

تمادى موظفو البلدية عليَ . بدأوا يقلبون الطاولات ، ويكسرون الكراسي التي هناك . ذهبت مرة أخرى الى رئيس البلدية ، لكنه يقول : « لا » ولايقول غيرها . وأنا قلت له في داخلي : « وأنا لا أكون باشازادة إذا لم أجعلك تلقي كلمة الافتتاح . . » صنعت مرتفعاً من الخشب ، ووضعته على مبعدة متر واحد من جدار البار في تلك الأرض الممنوعة عليّ . طليتُ هذا المرتفع بشكل جميل . وضعت فوقها أحد التماثيل النصفية لأتاتورك من تلك التي عندي . جلبت شريطاً من المخمل الأحمر الغامق داخله جنزير ، ووضعتُ أعمدةً من الحديد حول هذا المرتفع ، وسورته بالشريط المجنزر . وضعت على طرفي التمثال وفي ارتفاع أخفض قليلاً أصيصي زهر . وهكذا صار هناك ساحة بمساحة عشرة ، أو خمسة عشر متراً مربعاً محاطة بشريط المخمل يتوسطها تمثال أتاتورك . داخل هذه المساحة ، وضعت أصيصاً من الأزهار كل مسافة نصف متر ، وإلى يمين التمثال ، داخل الشريط وضعت طاولة وكرسياً ، و(سماوري) الصغير فوق الطاولة ، وطلبت من رجالي تحضير نارجيلة لي . وجلست على الكرسي ، واضعاً رِجلاً على رِجل . بدأت أشرب الشاي وأبقبق في النارجيلة . مساءً أتى أربعة من موظفي البلدية . عندما رأوني خلف تمثال أتاتورك لم يقتربوا مني ، وذهبوا .

في اليوم التالي ، وسعتُ الشريط والساحة . دار موظفو البلدية حول الشريط ولم يفعلوا شيئاً . وهكذا كنت كل يوم أوسّع الساحة المحاطة بالشريط قليلاً . بدأت بوضع طاولة وكرسيين ، ثم صارت الطاولة اثنتين ، والكرسيان أربعة . . وهكذا حولت كل قطعة الأرض إلى حديقة ، وغدت مكاناً يستحق الرؤية . . صنعت للحديقة باباً واسعاً ، وكتبت فوقه على لوحة :

«حديقة أتاتورك للشاي» . . صببت من الإسمنت المسلح قاعدة وسط الحديقة ، ووضعت فوقها تمثالاً لأتاتورك . . موظفو البلدية الذين كانوا يقلبون الطاولات والكراسي سابقاً ، صاروا يأتون إلى حديقة أتاتورك ، ويشربون الشاي . طبعت بطاقة دعوة كتبت فيها : «السيد...... أرجو تشريفكم افتتاح حديقة أتاتورك للشاي» وأرسلتها إلى الموظفين والمسؤولين الكبار في المدينة . لم أكتف بهذا . . ذهبت إلى رئيس البلدية . سألته إذا كان سيلقي كلمة افتتاح الحديقة . . وإذا لم يلقها سأكلف منافسه في ذلك الوقت بإلقائها . وهل بلغ به الحد رفض إلقاء كلمة الافتتاح لحديقة أتاتورك ؟ . . لأن منافسه ، سيعلن فوراً أن رئيس البلدية عدو لأتاتورك .

نعم ياسيدي ، لقد أتى رئيس البلدية ذاك . وصعد فوق الطاولة ، وألقى كلمة افتتاح حديقة أتاتورك للشاي .

كل الأمور في نصابها . . لم يعد أحد يمسني بسوء بعد أن فهموا أنني محب عظيم لأتاتورك . . صاروا ينادونني هناك : «الأتاتوركي» . . لايوجد هناك أتاتوركي أكثر مني .

سأقول لك الحقيقة الآن . ألستُ أتاتوركياً ؟ أنا أتاتوركي كبير . . نحن نشأنا في المدرسة أتاتوركيين . احترامي لأتاتورك غير محدود . ولكن ما فعلته هناك هو انتحال الأتاتوركية ، لأنني لا أستطيع حماية نفسي إلا بهذا الشكل .

أسلم الانتحالات وأكثرها فائدة ، وأضمنها ، انتحال الأتاتوركية لأنها لا تعد جرماً . لايمكن إلقاء القبض على الأتاتوركيين المنتحلين ، لأنه يستحيل الفصل بين الأتاتوركيين الحقيقيين والمزورين . ولأن المزورين يصرخون بصوت أعلى من الحقيقيين فيغطون على أصوات الحقيقيين . أفكر على النحو التالي : «إننا نقرأ في الصحافة عن مئات الأطباء المنتحلين ، والمحامين المنتحلين ، وأخبار القبض على ضباط منتحلين ، ومحافظين ، وقضاة مزورين ، ولكن هل قرأتم في جريدة ولو مرة واحدة خبر القبض على أتاتوركي

مزور ؟ مع أن الأتاتوركيين المزورين أكثر من بقية المزورين جميعاً . لكن الأتاتوركي المزور لا يقبض عليه . لأن انتحال الأتاتوركي ليس جرماً ، ومن غير الممكن فصل الحقيقي عن المزور .

أتسأل كيف قُبض عليّ فيما بعد ؟ قبض عليّ ، ولكن ليس بتهمة انتحال شخصية الأتاتوركي .

في تلك الزيام ، أعلنت الأحكام العرفية في مدننا الكبرى . . عندئذ أبرق إلى كافة المدن للقبض علي .

ـ لو لم أفتح البار باسمي الحقيقي لما استطاع أحد القبض عليّ . ولكنني فتحتُ البار باسمي الحقيقي لأنني لا أريد عمل أي انتحال ، ولهذا السبب قُبض عليّ .

عندما قُبض عليّ لم أعرف السبب الذي جعل إدارة الأحكام العرفية تقبض عليّ . اصطحبني دركيان من تلك المحافظة الشرقية إلى اسطنبول ، وسلماني إلى إدارة الأحكام العرفية . استمرت هذه الرحلة حوالي شهر . لأن الدركيين يصطحبانني من محافظة إلى اخرى ، وهناك يسلمانني ، ثم يصطحبني دركيان آخران . . وهكذا لم أصل اسطنبول حتى أمضيت الشهر . طوال الطريق وأنا أفكر بالجرم الذي قبضوا عليّ به لأنه عندما يحقق معي بجرم أعرفه سابقاً أستطيع الدفاع عن نفسي ، وألفق كذباً مناسباً له . لا أدري في أي جرم سابق يعتقلونني الآن . أهو الانتحال ؟ هذا احتيال صغير . .

أكبر المحتالين في تاريخنا هو الصحفي محمود صائم . هو معلمنا جميعاً . أمهر المحتالين الآن لايصب الماء على يديه . لا أعرف شيئاً عن محتالي الدول الأخرى ، ولكن هذا هو محتالنا الأكبر . إنه مصدر إلهامنا ومعلمنا . أنا أعرف أنني تربيت على يدي محمود صائم . كثيراً مانمت معه في السجن . وتعلمت منه الكثير . ولأن أكثر احتيالاته تتم عن طريق الصحافة ، فيسمونه الصحفي محمود صائم . إنه رجل واسع المعرفة . مثل البحر . . تجولت كثيراً ، ورأيت كثيراً ، ولم أر في حياتي رجلاً واسع المعرفة

وغني التجربة مثله .

في فترة ماكنت معه رحمه الله في السجن ، وفي مهجع واحد . كنت قد قرأت خبراً في صحيفة . أحدهم في أمريكا أعلن في الصحافة أنه اكتشف علاجاً يبيّض بشرة الزنوج . هذا العلاج عبارة عن سائل أصفر في زجاجة . وقد بيع من هذا العلاج كميات جعلت من المحتال الأمريكي مليارديراً خلال شهر واحد قبل القبض عليه .

عندما قرأت الخبر في إحدى صحفنا ، قلت له :

ـ أخي الكبير محمود ، أنا هذا ما أسميه احتيالاً . . انظر إلى اللعبة التي لعبها الرجل!

قال :

ـ يابني ، كل شعب يحتال عليه بطريقة . اكتشاف هذا المحتال الأمريكي ظريف جداً ، لكنه ظريف في أمريكا . خمسة عشر بالمائة من سكان أمريكا زنوج . . نصفهم يقدمون أرواحهم ليبيضوا . إذا حاولت بيع هذا العلاج هنا ، فلا يمكنك بيع زجاجتين . عليك أن تستخدم عقلك لتصبح محتالاً جيداً! إذا استخدمت عقلك ، فأي ألاعيب احتيال ستكتشف من أجل بلدنا . .

سألته من أجل أن أستفزه :

ـ مثل ماذا ؟

ـ انظر ماذا فعل المحتال الأمريكي ؟ قال إنه اكتشف علاجاً يبيض البشرة السوداء . لماذا ؟ لأن زنوج أمريكا كثيرون . وأكثرهم يريد أن يكون صاحب بشرة بيضاء . إذا لعبت هذه اللعبة في النرويج فلن تفلح . . ماذا يمكنك أن تفعل في تركيا ؟ فكر! الزنوج يريدون تغيير لون بشرتهم ، ولكننا نحن الأتراك ماذا نريد أن نغيّر ؟

والله إن محمود صائم هذا بروفيسور في الاحتيال . إنه صاحب معرفة لا تتوفر عند أي بروفيسور .

فكرت كثيراً في سؤال محمود صائم ، ولكنني لم أجد مانريد أن نغيّره ،

عندئذ قال محمود صائم :

ـ كم يبلغ طولك ؟

قلت :

ـ مائة وستون سنتيمتراً .

قال :

ـ وطولي ، مائة وتسعة وخمسوين سنتيمتراً .

ثم سأل :

ـ كم تقدر متوسط طول هؤلاء الناس الذين في المهجع تقريباً ؟

فكرت قليلاً ، وقلت :

ـ حوالي مائة وستين .

قال :

ـ هذا تقديري أيضاً . إن متوسط الطول لكافة المساجين مهما بلغ ، لا يتعدى مائة وخمسة وستين سنتيمتراً . . إذا ذهبت إلى الجامعة ، أو أية ثكنة ، ستجد أن هذا متوسط الطول بزيادة أو نقصان أربعة أو خمسة سنتيمترات . لكنك إذا أخذت متوسط طول الأمريكيين في مهجع أحد السجون ، أو إحدى الثكنات ، أو الجامعات ستجد أنه مائة وسبعون ، أو مائة وخمسة وسبعون سنتيمتراً ، وهذا الرقم موجود في أوربا ، وخاصة في شمالها . . هذا يعني أننا بشكل عام قصيرو القامات . لنستعرض أناسنا ، أي طرف منا هو القصير ؟

لم أجبه لأنني لم أفهم السؤال . سألني مرة أخرى :

ـ أي طرف منا هو القصير ؟ الطرف السفلي أي من الخصر إلى الأسفل ، أم العلوي ، من الخصرإلى الأعلى ؟ انظر إلي ، ثم إلى نفسك وافهم .

ـ أرجلنا أقصر .

ـ نعم . . نحن بشكل عام قصار من الخصر إلى الأسفل . حسنٌ ، لماذا نحن قصار من الخصر إلى الأسفل ؟ الزنوج عامة والأمريكيون منهم خاصة

طوال من الخصر إلى الأسفل . لماذا ؟

ـ من أين لي معرفة سبب طول أرجل الزنوج ، وقصر أرجلنا ؟

ـ انظر يا بني ، ألا تلاحظ البحارة الأمريكان ؟ صدورهم بقدر الكف . . انظر إلى صدورنا . . أرجل الأمريكيين ، وسكان شمال أوربا طويلة ورفيعة مثل قوائم اللقلق . . لماذا ؟

كنت سأقول له : «هكذا خلقهم الله» لكنني سكتُ لكي لا أغضب محمود صائم .

ـ لاشيء من هذا صار تلقائياً . انظر إلى قوائم كلب الصيد ، إنها رفيعة ، والخلفية طويلة بالنسبة إلى الأمامية . لماذا ؟ لأنه حيوان راكض . . يتغذى بواسطة الصيد . سيركض ويقفز من أجل أن يصطاد . . عبر عشرات الآلاف من السنين قضاها في الركض والقفز ، طالت قوائمه ، وأصبحت أرفع . . أما الأسد فيضرب طريدته بمخالبه ، ويقتلها بها . . وهكذا يعمل عبر عشرات آلاف السنين ، لذلك طالت قوائم الأسد الأمامية أكثر من الخلفية . . وقصرت قائمتاه الخلفيتان لكي لايسقط أثناء الصراع ، ويقف متوازناً ، وبقوة . . انظر إلى الأسود تجد أن مقدمتها مرتفعة ، ومؤخرتها منخفضة لكنها عريضة . . يصعب قلب القصير والعريض أكثر من قلب الطويل والرفيع . . هل فهمت الآن ؟

لم أفهم شيئاً . سكتُ . تابعَ قائلاً :

ـ لماذا الزنوج دائماً الأوائل في القفز العالي والطويل والجري ؟ لأن أرجلهم طويلة ورفيعة . لماذا هي طويلة ورفيعة ؟ لأنهم منذ عشرات آلاف السنين يركضون ، ويقفزون لالتقاط صيدهم . . حسنٌ ، لماذا أرجلنا قصيرة وغليظة ؟ . . لأننا نحن الأتراك منذ عشرات آلاف السنين نركب الخيول يابني . . منذ كنا في أواسط آسيا أو شرقها . . نحن دائماً على ظهور الخيول . . نرحل من هنا إلى هناك . .

هكذا كان يُعلِّم محمود صائم مثل الأساتذة . ماذا يعني قضاء أيام طويلة

فوق ظهر الحصان ؟ هذا يعني شد الأرجل نحو الأعلى ، والضغط بها على جذع الحصان لكي لايسقط الإنسان أثناء جريه ووثبه . . ويسابق الحصان بشكل أفضل . . ماذا حدث عندئذ ، صارت الأرجل قصيرة وغليظة . . لماذا يبرز منا نحن الأتراك مصارعون جيدون ؟ . . لأن الأتراك مثل الأسود طرفهم السفلي قصير وغليظ وسليم ، وطرفهم العلوي طويل . . وهم هكذا منذ عشرات آلاف السنين . . لهذا السبب فإن الزنوج الأمريكان يضحّون بحياتهم لكي تبيض بشرتهم ، وماذا يفعل الأتراك ؟ يضحون بأرواحهم لكي تطول أرجلهم . .

لم أفهم علاقة ما شرحه لي بالاحتيال . لكنه شرح لي هذا :

ـ والآن باعبتارك محتالاً ، ماذا ستفعل ؟ ماذا فعل الكلب ابن الكلب الأمريكي ؟ استفاد من الرغبة الدفينة لدى الزنوج . . حسنٌ ، ماذا ستفعل أنت ؟ تختلف ظروف كل بلد عن الآخر يا بني . ستبرز قائلاً إنك اكتشفت آلة ، أو علاجاً ، أو أسلوباً يطيل القدمين . . هل فهمت ؟ عندئذ سترى كيف ستمطر عليك النقود مثل المطر الغريز . . ستغرق بالنقود . .

آه يا لك من رجل يامحمود صائم . . إنه يعطي دروساً لبروفيسورات التاريخ . كان يعرف في التاريخ إلى حد كبير . . وهل التاريخ فقط ؟ يعرف في كل شيء .

دارت الأيام . . ومات محمود صائم . . مرت سنوات طويلة . خرجت في إحدى المرات من السجن . لم أجد في أي مكان عملاً أقوم به . سأسير في الطريق الخاطئ شئت أم أبيت . بينما كنت أفكر فيما سأفعله وأنا في غرفة الفندق . لا أدري كيف خطر ببالي ما قاله محمود صائم قبل سنوات طويلة . بسرعة استأجرت صندوق بريد وأعلنت في الجريدة :

أسلوب التطويل الأمريكي

سنرسل إليكم الدليل مجاناً إذا أرسلتم طابعاً بقيمة ليرة واحدة ، وطلبتموه على العنوان التالي : ص .ب : لا أدري رقمه الآن ـ سيركجي ـ اسطنبول .

فعلاً حدث كما قال معلمي محمود صائم . بدأت تمطر الطوابع البريدية . في تلك الأيام كان ثمن الطابع للبريد الداخلي خمسون قرشاً ، وأجرة إرسال الورقة المطبوعة عشرة قروش . أي إذا أرسلت الدليل لهؤلاء سيبقى لدي تسعون قرشاً . لا أستطيع شرح كيف أمطرت طوابع البريد .

والآن عليّ أن أرسل لمرسلي الطوابع دليلاً لكي أسلبهم جيداً . لم يكن الدليل عندئذ جاهزاً . . بسرعة كتبتُ دليلاً . مازلت أذكره . ماكتبته تقريباً :

« هل يمكن للإنسان أن يطول بعد أن يتقدم في السن ؟

نستطيع اليوم الإجابة بنعم بكل بساطة على هذا السؤال . مهما كان عمركم ، شريطة ألا تكونوا قد تجاوزتم الخمسين عاماً من عمركم ، تستطيعون تطبيق هذا الأسلوب من أجل زيادة طولكم . وهذا ممكن عملياً SCIENTIFIQUE ، عبر (أسلوب التطويل الطبيعي الأمريكي) .

أسلوبنا في التطويل الطبيعي طُبِّق بنجاح على كثير من فناني الشاشة والمسرح العالميين .

النساء الطويلات يجذبن الانتباه إليهن دائماً ، ويغدون أكثر أبهة . أما الرجال الطوال فهم أكثر أبهة أيضاً ، كما إنهم محط أنظار النساء ، ومطلبهن دائماً .

لاتنسوا أن « أسلوب التطويل الطبيعي الأمريكي » هو اكتشاف عالمي ، ولاتعطى دروسه إلا عبر ثمانية مؤسسات فقط في العالم .

قبل أن تضيعوا وقتكم ، راجعونا فوراً ، لأنكم تستطيعون تحقيق طول إضافي يبلغ عشرة سنتيمترات وحتى عشرين سنتيمتراً بتطبيقكم أسلوب التطويل الأمريكي ، وهو التقنية الأحدث .

لقد أثبت البروفيسور دكتور هردليكا مدير معهد سميتسون للأنثروبيولوجيا في نيويورك أنه ممكن للإنسان أن يطول حتى سن الخمسين . وفي كثير من دول العالم ينصح الأطباء والعلماء والجراحون التجميليون ، كما تنصح المؤسسات العلمية بتطبيق أسلوبنا . والآن وضع في

بلدنا (أسلوب التطويل الأمريكي) موضع التنفيذ .

عليكم أن تسلكوا أقصر الطرق ، لأن الوقت يمضي . وكل يوم تكبرون أكثر . لا تنسوا أنكم إذا كبرتم تغدو عملية زيادة طولكم صعبة جداً إن لم تكن مستحيلة .

إذا طبقتم هذا النظام ، فلن تتعرضوا إلى أدنى خطورة ، وستجدون أن طولكم قد ازداد في فترة قصيرة دون أن ينتبه أقرب المقربين إليكم .

إذا أردتم أن تكونوا أطول ، وبالتالي أكثر جاذبية ، وأصحاب بنية مرغوبة ، املؤوا البطاقة رقم (٢) ، ووقعوها ، وأرسلوها بالبريد المسجل طالبين الدروس الثلاثة الأولى أو كافة الدروس معاً .

ملاحظة : سنرسل دروسنا ، أو نظامنا كاملاً في ظرف مغلق دون الإشارة بأي شكل عن نظامنا على الظرف . لاتفكروا ، وتضيعوا الوقت . أنتم أيضاً كونوا أكثر طولاً ، وبالتالي أكثر أبهة .

ملاحظة هامة :

١ـ إذا كان هنالك نقط غير مفهومة في الدروس ، أو الحركات ، أو إذا ترددتم في أمرها يمكنكم طلب التفسير مقابل بطاقة بريدية بثمن ٥٠٠ قرش .

٢ـ يجب عليكم ألا تخرجوا عن الحركات الرياضية ، والحمية الغذائية الموضحة في أسلوبنا . أما في الحالة العكسية فإن مؤسستنا غير مسؤولة عن هذا الخروج .

٣ـ املأوا البطاقة المرفقة بخط واضح مقروء ، ووقعوها ، ثم أعيدوها إلينا لتحفظ في ملفاتنا » .

كتبت عن أمور من هذا القبيل . وهذا ليس كل ماكتبت ، بل قليل جداً منه . لا أدري إن كنتم قد لاحظتم أنني استخدمت الكثير من المؤثرات النفسية . الراغبون بزيادة أطوالهم ، لا يريدون معرفة الآخرين بما يفعلون . انتبهت إلى هذا جيداً . استخدمت في النص كلمات فرنسية وعربية ، لأن

هذا له تأثير خاص على هذا النوع من البشر ويمنحهم الثقة .

أي إن ما يسمى «النحت اللغوي» هو أحد وسائل الاحتيال . الناس يحترمون ، ويرتبطون فيما لا يفهمونه ، ويثقون بأولئك الذين يستخدمون أثناء حديثهم كلمات غير مفهومة . ولابد أن هذا هو السبب الذي يجعل أئمة المساجد لايقرؤون الأدعية باللغة التركية... لاتحسبوا أن هذه الأفكار من عندي ، بل هي مما علمني إياه أستاذي محمود صائم .

عندما أرسلت الدليل لم يكن لدي أي شيء عن دروس التطويل ، لم أكتبها بعد . لم أجد فرصة لكتابتها لكثرة ما أجمع من النقود . . كل درس من الدروس الثلاثة الأولى بخمس ليرات . أي أن مجموع الدروس الثلاثة بخمس عشرة ليرة . . وكل درس من الدروس التالية بعشر ليرات . . النقود كأنها المطر . . عندما أدركت أنني لا أستطيع القيام بهذا العمل وحدي ، استأجرت مساعداً . لا أعرف أحداً من خارج السجن . . جئت بمساعد لي من أصحاب السوابق ، لكنه قليل السوابق ، وأثق به . لم يعد يستطاع إدارة الأمور من غرفة الفندق ، استأجرت مكتباً ، وعينتُ سكرتيرة . الأمور تسير في مجراها . ولكي لا تلعب عين مساعدي على النقود ، شاركته بالثلث . ولكن لايمكن الوثوق بهذا المدعو ابن آدم . نعم لم يخوزقني هذا الرجل الذي شاركته من ناحية النقود ، بل أقدم على ماهو أسوأ . الرجل حمار بكل ماتعنيه هذه الكلمة .

لابد أن الكلب ابن الكلب قد غرق في النقود . . ولكلبيته على مايبدو ، صار يكتب لطالبي أسلوب التطويل :

«ياحيوان . . الجمل طويل . . إذا طولت فأي خراء ستأكل ؟ »

«وهل يطول الإنسان بعد الأربعين ياحمار ابن حمار ؟ »

أنا عرفت هذا مصادفة أثناء إلقاء نظرة على الرسائل المنثورة فوق الطاولة . قلت لنفسي ، لأقرأ الرسائل المعدة للإرسال . وما الذي قرأته ؟ قرأت رسائلَ على النحو التالي :

«أيتها السيدة ، إذا أردت أن تطولي فالبسي حذاءً بكعب عال جداً ، وضعي على رأسك قبعات ذات ريش طويل . عرفت مقاسات جسمك من البطاقة التي أرسلتِها . . ياهذه . . أيتها المرأة القبيحة ، ماذا سيتغير فيك ، طولتِ أم لم تطولي ؟ . . » .

« ياهذا ، أليس لك عقل يا سيد . . قبل كل شيء تعال انظر إلى أطوالنا يا غبي . لوكان عند الأقرع دهون لإنبات الشعر لدهن رأسه » .

« عندما قرأت رسالتكم تألمت عليكم كثيراً . أنتم لايمكن لكم أن تطولوا عمودياً ، ولكن يمكن لكم النمو عرضياً بالسُمنة . كلوا باستمرار ، لكي يزداد عرضكم حتى يغدو أكثر من ارتفاعكم . . »

« ياهذا الغبي! بفرض أنك طولت ، حسنٌ ماذا ستفعل بألبستك القديمة ؟ أليس هدرها حراماً عليك . . » .

عندما قرأت الرسائل جننت .

لابد أنه كتب بعض الرسائل من هذا القبيل وأرسلها . لم يشتك أحد ، وهذا خوفاً من انفضاح غبائه ، ولأنه لم يذكر أمام أحد أنه يريد تطويل نفسه . لم يحدث هذا ، ولكن لا يعني أنه لن يحدث نهائياً . . فكرت كثيراً بسبب إقدام هذا السافل الذي شاركته ، على هذا العمل الدنيء . إنه لم يقدم على التلاعب بالنقود ، ولو أراد هذا لفعل . هذا الرجل قصير القامة إلى سوية الأقزام تقريباً . أعتقد أنه يشعر بالانسحاق لقصر قامته .

وجدت أن نهايتنا ستكون سيئة . جمعت الأغراض وأغلقت المكتب . ولكي لاينفضح أمرنا فيما بعد أبلغت البريد برسالة أنني تركت الصندوق .

هذا ما كنت أفكر فيه أثناء اقتيادي إلى اسطنبول وسط دركيين في سفر استمر أياماً . إذا لم نعدَّ انتحالي شخصية المجرم ، والأتاتوركي جرماً ، وهما حقاً لايعدان كذلك ، ولا يعاقب عليهما القانون ـ فلم أعمل أية عملية احتيال سوى عملية زيادة الطول . إذن هنالك من اشتكى لأنه احتيل عليه ، وأخذت نقوده ، وقد نامت تلك الشكايات شهوراً في أدراج المكاتب . ثم عند إعلان

حالة الطوارئ ظهرت تلك الشكايات . ولعل أحد أقرباء مسؤولي حالة الطوارئ أراد تطويل نفسه ، وأجل شكايته إلى مابعد . ولكن كيف عرفوا أنني فاعل عملية الاحتيال هذه ؟ لعل ذلك السافل الذي شاركته باح بكل شيء عندما سطحته الشرطة لضربه العلقة .

طوال الطريق الطويل ، وأنا أفكر بهذا ، وبالإفادة التي سأعطيها من أجل التخلص بعقوبة صغيرة ، أو أتخلص من العقوبة نهائياً . ولكن عندما وصلت إلى اسطنبول ، وسُلِّمت إلى إدارة الأحكام العرفية ، فهمت أنني لست معتقلاً بجريمة الاحتيال لزيادة الطول ، بل بأسوأ منها بكثير ، وهي خلط سمن الطعام المقدم لجنود الجيش بشحم المحركات .

كما ترون ، أنا أشرح لكم كل شيء بصراحة تامة . . ما فعلته أقول فعلته ، وما لم أفعله ، أقول لم أفعله . زيادة الطول ، عملية احتيال أقدمت عليها . أنا لا أتستر على هذا الأمر . ماذا سأفعل ، لا أستطيع العيش بشرفي ، فأضطر للاحتيال . ولكن لا علاقة لي نهائياً بالقضية السافلة هذه ، عملية خلط سمن الطعام بشحم المحركات . ولا علم لي بها . صدِّق أو لا تصدق . .

عندما كنت في السجن ، لا أذكر في أي عام ، والجريمة التي كنت سجيناً بها ، كان في السجن تاجر سمن رومي . كان يومئذ رجلاً متوسط العمر . والحرب دائرة ، وقد صدر قرار يسمي : « منع الاحتكار » يقال إن هذا القرار صدر لمنع السوق السوداء ، والحيلولة دون النهب الكبير . ويقدم بائعو البضائع بأسعار أعلى ، أو خالطو المواد الغذائية بمواد غريبة إلى محاكم خاصة ، وتصدر بحقهم عقوبات خاصة أيضاً . تاجر السمن هذا سقط في السجن لهذا السبب ، أي أضاف مواد غريبة إلى السمن . أدخلوه إلى المهجع الذي أنام فيه ، وينام في سرير مجاور لسريري .

عندما يسقط الأغنياء أو التجار كهذا في السجن ، يصبح عند مجموعة المنحرفين ، وخاصة مدمني المخدرات عيد ، فكان هؤلاء يسحبون من تاجر السمن هذا نقوداً .

في إحدى الليالي . . وعند بزوغ الفجر استيقظت على بعض الأصوات والهمسات . أحد الشبان أيقظ تاجر السمن وهو يحاول إخراجه من المهجع دفعاً .

من أصول المسجونية عدم التدخل فيما لايعنيك . وأنا غطيتُ نفسي باللحاف دون أن أنبس . بعد قليل عاد تاجر السمن ، لكنه يبكي . تمدد في سريره ، وغطى نفسه تماماً باللحاف . لم تمض خمس دقائق ، أتى شخص آخر ، وأيقظ التاجر . أخرجه . ازداد فضولي فتبعتهما . في الممر ثلاثة أشخاص يحاولون إدخاله إلى دورة المياه . أدخلوه . ولكي أسمع كلامهم ، دخلت إلى دورة المياه ثم خرجت . يريدون منه نقوداً . أنا أعرف طالبي النقود الثلاثة . كلهم من مدمني الهيروئين .

بعد عودتي ، عاد تاجر السمن أيضاً إلى المهجع . كان يبكي مخرجاً صوت نواح . سألته عن سبب بكائه . لم يرد أن يتكلم في البداية . ألححت عليه . قال لي إنه لم يعد معه نقود ، ، وقال هذا للذين يطلبون منه النقود ، وطلب منهم أن يمهلوه إلى الصباح ليأخذ نقوده من الإدارة ويعطيهم ، لكنهم لم يمهلوه . لم يبق معه نقود لكثرة ما وزّع . والإدارة لاتترك مع المساجين مبالغ كبيرة من المال لكي لا ينتشر القمار ، وتؤخذ الأتاوة .

أدخله طالبو النقود إلى دورة المياه لكي لا يسمع صوته ، وفتحوا أزرار قميصه من ناحية الرقبة ، وألقوا في صدره حفنة من الفسفس . في تلك الأيام كان الفسفس ينبع نبعاً . لم يكن قد ظهر المبيد الحشري المدعو (د .د .ت) .

لايستطيع الهيروئينيون الانتظار حتى الصباح ، لأنهم دخلوا في النوبة . كنت أعرف أنهم سيعودون مرة أخرى ، ويوقظون تاجر السمن ، ويزيدون الضغط عليه . ليسوا في وضع يجعلهم يفهمون الكلام . وبعد قليل أتى أحدهم ، وهو في سن الطفولة . أنهضَ التاجر الباكي من سريره قائلاً :

ـ انهض ولاه كافر!

قلت للشاب :

ـ هل أنت خرم يا بني ؟

ـ كلنا خرمون يا عمي الباشا ، الشباب في حالة النوبة .

إذا وقع الهيروئيني في الأزمة فلا يعود يعرف أباه ولا أمه . نهضت من السرير ، أيقظت بائع المهجع ، أخذت منه ثلاث لفات . أعطيت اللفات الثلاث للشبان الداخلين حالة النوبة في الممر ، والمتلوين كالدودة ، والمتعرقة جباههم . وتخلص تاجر السمن ليلتئذ من الضغط . خلع ألبسته الداخلية المفسفسة ، وأعطاها لمن في الممر ، بعد أن ارتدى أخرى نظيفة . وفي الصباح أعطاني ثمن اللفات الثلاث .

أثناء فترة السجن كان دائماً يقول لي إنه لن ينسى المعروف الذي فعلته معه ، وإنه سيرد لي الدين . أعطاني عنوانه . أصرّ على رؤيتي له عندما أخرج من السجن . تقاربنا أكثر إثر هذه الحادثة . قلت له إنني أريد التخلص من كوني صاحب سوابق ، ووعدني بإيجاد عمل لي . مرَّ على رأسي الكثير ، ورأيت مالم يره أحد ، وأعرف جيداً أن صداقات السجن تبقى في السجن . ولكن ماذا سأفعل ؟ إنها دنيا الآمال . أمثالي إذا رأوا قوس قزح يأملون بالتعلق به والصعود إلى السماء .

خرجت من السجن . قلت لنفسي إذهب وقابل تاجر السمن هذا . ماذا سأخسر إذا لم يقابلني جيداً ؟ . . ذهبت . الدكان على إحدى الطرقات المتعرجة الضيقة تلك بين دكاكين تجار السمن عند قبان الزيت بجانب رصيف الميناء ، الدكان مليء بعبوات ، وصفائح ، وبراميل السمن . في عمق الدكان قسم زجاجي صغير ، فصّله عاملاً منه مكتباً صغيراً ، وهو يعمل داخله . لم أكن آمل بشيء منه . لكنه عندما رآني فرح كثيراً . . أبدى اهتماماً بي .

أعاد قوله السابق وأخجلني :

ـ أنا لا أنسى المعروف الذي عملته معي .

لو أن ما فعلته معه معروفاً ، لكان الأمر عادياً . . دعاني إلى الطعام ،

وأثناء الطعام ، أمتعني بكلمات جميلة محملة بالأمل . كان يقول :

ـ سنؤسس لك عملاً ، ستعمل في تجارة السمن .

تجارة السمن ؟! عمل لا أعرفه . . ولكن هل هنالك عمل أعرفه . . إذا قلت : لا أعمل . . فما الذي سيحصل ؟

عندما شعر بترددي ، قال :

ـ اعمل في مخزني فترة من الزمن إن شئت ، وتعلم أصول العمل . لاتهتم ، عملنا سهل جداً . أنا لا أتركك وحيداً ، سأساعدك .

الله ، الله ، إذن هنالك في هذا العالم أناس أصحاب مروءة إلى هذا الحد ، قلت :

ـ لم ألق جودة كهذه من أحد . شكراً لك .

كرر هو أنه لن ينسى المعروف الذي فعلته معه في السجن . أعطاني في المطعم مائة ليرة . . مائة ليرة في ذلك الزمن . . وقال :

ـ قبل كل شيء نظّم مظهرك . تنزه يوماً ، أو يومين ، ثم تعال إليّ .

هذا شيء كالحلم .

اشتريت بزة جاهزة ، وبعض الألبسة الداخلية . دخلت إلى الحمام ، واغتسلت . تهيأ لي أثناء تكييس المكيّس لي ، أن السوابق تنزلق عني ، وتذهب .

تجولت مدة يومين . ذهبت إليه في اليوم الثالث . قال :

ـ أنا أبحث عن دكان مناسب لك . من الصعب إيجاد دكان فارغ في هذه الأنحاء . ولكننا سنجد . . في هذه الأثناء تعال إلى مخزننا . .

يوجد في المخزن عاملان ، وحَمّال إضافة إليّ . وهو دائماً داخل القسم المزجج في عمق المخزن ، إما يكتب في الدفاتر ، أو يتحدث بالهاتف ، أو يتبادل الحديث مع شخص ما . لأن السيارات لا تستطيع الدخول إلى ذلك الزقاق الضيق ، فالحمال إما يجلب صفائح السمن إلى المخزن أو يحملها من المخزن إلى السيارات . فتحتُ عيني عشرة على عشرة ، لكي أتعلم الشغل ،

ولكنني لم أر مايمكن تعلمه . استمريت على هذه الحالة عشرة أو خمسة عشر يوماً . بعد هذا قال لي التاجر إنه وجد دكاناً مناسباً لي . ذهبنا سوية . أي مكان عمل ، وأي مخزن هذا ؟! عبارة عن عدة انعطافات تحت أحد المخازن ينزل إليه بأربع درجات ، وهو قبو مظلم ورطب تفوح منه رائحة العفونة بحجم دورة المياه . رأيناه من الداخل بعد أن أشعلنا عدة أعواد ثقاب .

سألته عن كيفية القيام بعمليات البيع والشراء في مكان كهذا . قال إنه مكان من أجل العنوان ، وستوضع فوقه لوحة فقط . إذا كان هو يقول هذا فليكن ، أنا لا أعرف في هذه الأمور . أنا لاأستطيع تعليم تجارة السمن لتاجره ، أليس كذلك ؟ . . هنالك رجل متقن لعمله جيداً يشرف على أعمال تاجر السمن . . هذا الرجل قام بكل عمليات عقد الإيجار والمعاملات الرسمية . أنا وقعت على الأوراق في الأماكن التي أشاروا إليها لكي أوقع . وهكذا صرت تاجر سمن . ولأنه لايوجد مكان لتعليق اللوحة فوق محل عملنا ، علقناها على الجدار الجانبي للمخزن العلوي . اللوحة من تلك اللوحات الصغيرة ذات الأرضية الحمراء ، والمكتوب فوقها بحروف بيضاء : «الاعتماد لتجارة السمن» ، واسمي مكتوب تحت هذه العبارة . مفتاح القبو الحديدي معي . ولأنه لايوجد شيء في المحل فلم أذهب ولو مرة واحدة إلى هناك بعد أن علقنا اللوحة . ولكن شعوري بثقل المفتاح الحديدي الضخم ، جعلني أشعر بثقة لم أشعر بها مطلقاً وكنت أنفخ نفسي كثيراً .

كنت أقضي أياماً في مخزن تاجر السمن . في أحد الأيام سألته متى ، وكيف ، وماذا سأعمل ؟ حسنٌ ، هو يعطيني الكثير من النقود ، ولكنني لا أقوم بأي عمل . قال :

ـ لا تظن نفسك صاحب بقالية في حي . أنت متعهد سمن . أنت تقوم بعمل واحد في عام أو عامين ، عمل تعهد . . يكفيك ويزيد .

ـ من أين سآخذ تعهد السمن هذا ؟

ـ انتظر لا تستعجل . . سأخبرك أنا ، وأقدم لك كل المساعدة .

ـ حسنٌ ، والسمن ؟
ـ موجود في معملنا . سنأخذ السمن من المعمل .
في إحدى الأمسيات قال :
ـ تمام ، غداً ستشارك في المناقصة .
ـ مناقصة ماذا ؟
ـ مناقصة تأمين السمن للجيش . . قرروا عمل المناقصة بالظرف المختوم .
عندما رآني متردداً قال :
ـ سأذهب معك . . أنا سأكون دائماً معك . .
في اليوم التالي ذهبنا إلى دائرة المشتريات العسكرية . المكان مزدحم . هنالك تجار سمن آخرون مثلنا . التاجر الذي يقدم السعر الأرخص سيكسب المناقصة . هذا ما استطعت فهمه . كنت يومئذ أقرأ في الصحف إعلانات تحت عنوان : «مناقصة بالظرف المختوم» لكني لا أعرف ماذا تعني .
تاجر السمن ـ أعطاه الله العافية ـ قام بكل شيء بالنيابة عني ، يركض من هنا إلى هناك ويذهب إلى أعضاء هيئة المشتريات فرداً فرداً من النقيب الطبيب البيطري ، إلى عقيد المهمات ، ومنه إلى الملازم أول الطبيب البشري ، وأنا أركض من خلفه . هنالك لائحة شروط بيد تاجر السمن . يجب أن يكون الكذا طن من السمن الحاجة السنوية للقطعتين العسكريتين الفلانيتين مطابقاً للشروط التالية... لاأعرف أيا من تلك الشروط . حسن أن تاجر السمن يقوم بكل شيء . كما أن الجميع هناك يعرفون التاجر ، فهو يتكلم برفع الكلفة مع العقيد والنقيب .
تاجر السمن إنسان طيب إلى حد أنه ملأ البطاقة التي ستوضع في الظرف بنفسه ، وأشار إلى المكان الذي يجب أن أوقع فيه ، وقال :
ـ وقّع!

أثناء توقيعي رأيت مصادفة أننا سنقدم كيلو السمن بمائتين وعشرة قروش .

الله ، الله ، كيف هذا ؟ حسبما أذكر أننا نبيع كيلو السمن بالجملة في المخزن بأربع ليرات ونصف ، ويباع عند البقاليات ، وفي دكاكين المفرق بست أو سبع ليرات . لم أستطع إمساك نفسي عن عدم سؤاله :

ـ بمائتين وعشرة قروش ، أليس كذلك ؟ كيف هذا ؟ هل هناك خطأ في الكتابة ؟

وكأنه يقول لي : «لاتعمل نفسك عارفاً» ، قال :

ـ أنت وقّع ، وقّع!

أثناء التوقيع قلت :

ـ أخشى أن نخسر . .

بأسئلتي هذه ، أردت تنبيه تاجر السمن الذي عمل معي هذا المعروف .

قال :

ـ أنت وقع ياهذا ، ما الضرورة لما تقول ؟

الجميع سلموا ظروف المناقصة .

قال تاجر السمن متباهياً :

ـ ستكون هذه الصفقة لك . لا يستطيع أحد كسر السعر الذي قدمته .

أنا لم أكسر سعراً أو سواه ، كل شيء قام به تاجر السمن ، ولكن بالرغم من هذا فقد نفخت صدري لأنني وضعت سعراً لا يستطيع كسره أحد .

حدث ما قاله . ظهر أنني قدمت السعر الأرخص . وقعت عليَّ عملية تقديم السمن لقطعتين عسكريتين . قبل البدء في العمل يتوجب علينا دفع مبلغ تأمين . إذا لم نقدم السمن الذي تعهدنا بتقديمه ، أو إذا تأخرنا بتقديمه سنخسر هذا المبلغ . قدَّم التاجر للمسؤول الضمانة المصرفية اللازمة بالنيابة عني . وهكذا صرت متعهد سمن . صرت ، ولكن ـ عفوكم ـ أكلت خراءً .

يا باشازادة الحيوان! من يفعل الخير في هذه الأيام ، وفي هذه الدنيا ،

لكي يقوم تاجر سوق سوداء بعمل الخير معك ؟ يا لعقلي! احترقت ، وأية حرقة ؟

معمل سمن تاجرنا هذا في موقع ضيق على الخليج . اسمه معمل ، ولكن يحتاج إلى ألف شاهد يقولون عنه معملاً لكي نسميه هذا الأسم... يخرج السمن من المعمل في صفائح مغلقة ، وأسلِّمه إلى مستودع المهمات في ثكنة تلك القطعتين .

لاحظوا قلة عقلي! لم أفكر في أية لحظة بمصدر السمن الذي يخرج من المعمل ، وكيف يصنع ؟ نعم . هكذا . إن هذا المسمى سمناً لابد أنهم يصنعونه من أشياء أخرى . وهم لا يصنعونه من ماء الخليج الأسن ياه... تشحن السيارات البطاطا الى المصنع ، ويخرج من المصنع سمنٌ .

نحن نقدم السمن بمائتين وعشرة قروش . . ألا يشتري مستلموالسمن سمناً من البقاليات ، لكي لا يعلموا بسعره . . لو اشتروا السمن بعشرة قروش فقط ، وليس بمائتين وعشرة قروش لما سألوا . .

بالتأكيد إنني فهمت حقيقة الأمر مع مرور الزمن ، يُشترى كمية من السمن ، وتضاف إليها كمية من البطاطا المسحوقة ، وشحوم حيوانية رخيصة ، ولا أدري ما المواد الأخرى . . ويصنع في المصنع سمنة . ولجنة المطابقة تستلم منا على أنها مطابقة للشروط . . من الممكن أنهم يطابقون سمناً آخر ، وليس هذا السمن .

تاجرنا هذا يزيد بنسبة المواد المضافة إلى السمن من يوم إلى يوم . كان قد بدأ بإضافة عشرة بالمائة من المواد الأخرى إلى السمن ، صار يضيف في الأيام الأخيرة تسعين بالمائة من هذه المواد . كان يضيف قليلاً من البطاطا إلى السمن في الأيام الأولى ، صار يضيف قليلاً من السمن إلى البطاطا في الأيام الأخيرة . أي بالتدريج . . لعله فيما بعد سيقدم بطاطا مسحوقة على انها سمنة ، ويقول : هذا هو السمن الصافي . .

نذهب سوية لقبض النقود . أنا أوقع وهو يقبض . أنا لا أطمع بالنقود ،

بالتأكيد سيأخذها هو . . لم أقل شيئاً ، لأنه يعطيني كثيراً من النقود . . ويقول المثل ، اجلس معوجاً ، وتكلم صحيحاً . لعل سبب تجاهلي لما يحدث كثرة النقود التي يعطيني إياها . ليس صحيحاً إلقاء كل اللوم واتهام السفالة على تاجر السمن وحده . أنا لست خروفاً صغيراً لم يفتح عينيه على الدنيا . .

في أحد الأيام ، قال لي تاجرنا بعد أن وضع في يدي ثلاثة آلاف ليرة :

ـ لن أنسى معروفك الذي فعلته معي أبداً . . خذ هذه النقود ، واذهب من اسطنبول . . ولا تنظر خلفك لكي لاتضيع الوقت . .

سألته :

ـ ماذا حدث ؟

قال لي أنهم عرفوا بعدم وجود أية سمنة في تلك السمنة التي نقدمها للشكنتين العسكريتين . بالتأكيد لم يقل لي التاجر هذا بحرفيته . قال إن السمن المسلم فاسد . إنني المسؤول ولو ظاهرياً عن تقديم السمن . فماذا سيفعلون للتاجر ؟

أنتم لاحظوا قلة عقلي ، بسؤالي له :

ـ ومخزني ، ماذا سيحدث له ؟

هذا يعني أنني اعتدتُ على تلك اللوحة ، فصعب عليّ فراقها .

قهقه تاجر السمن وقال :

ـ بأي مخزن تهذي أنت ؟ . . ماذا يوجد فيه سوى الصراصير ؟ . . اخلع اللوحة ، وارمها مع المفتاح في البحر ، واذهب بسرعة . . أين سيبحثون عنك ، ويجدونك ؟

رجل سافل . لم يقل لي إنه خلط السمن المقدم للجنود بشحم المحركات . صدقوني أنا لا أعرف بهذا . البطاطا المهروسة غير مهمة ، والشحوم الحيوانية لاتضر ، ولكن هل يمكن إضافة شحوم المحركات ؟

لقد أقعدني على هذا الخازوق تاجر السمن الذي طالما كان يقول لي : «لن أنسى طوال عمري هذا المعروف الذي عملته معي» .

ولأن مدة طويلة مضت على هذه القضية ، نسيت تجارة السمن . لكن إدارة الأحكام العرفية لم تترك الأمر . يبدو أن أمر إلقاء القبض عليّ نام في أحد أدراج المكاتب . فيما بعد ، علق بيد أحدهم . بعد تحقيق واستفسار عرفوا أن متعهد السمن هو المحتال باشازادة صاحب السوابق ، فأبرقوا إلى كافة تنظيمات أمن المحافظات والنواحي لإلقاء القبض علي . هذا هو سبب اقتياد الدرك لي من هناك إلى اسطنبول . السبب هو تقديم سمن مخلوط وفاسد . لو كنت أعرف ما سيقع لي لفتحت البار باسم آخر . ولكنني لم أعد أريد الاحتيال . فلماذا سأفتح البار باسم آخر وأزوّر ؟ فتحته باسمي ، وهذا ما أوقع البلاء على رأسي .

طوال الطريق الذي استغرق أياماً ، وأنا أفكر بالجريمة التي اعتقلوني بها . لم تخطر ببالي عملية السمن هذه . ظننت أنهم اعتقلوني من أجل عمليتي الأخيرة ، وهي أسلوب زيادة الطول . وطوال الطريق وأنا أفكر بما سأقوله عند التحقيق في قضية التطويل .

لأنني معروف منذ سنوات طويلة في مديرية الأمن ، فقد صرتُ قريباً من الشرطة . قال لي أحد مفتشي الشعبة الثانية في مديرية الأمن :

ـ كيف أقدمت على سفالة من هذا النوع ؟ كيف تستهدف أرواح البشر ؟

أنا ظننت أنه يتحدث عن الحمية ، والحركات الرياضية التي نصحت بها في دليل زيادة الطول ، فقلت :

ـ لم أفعل شيئاً سيئاً . جعلتهم يحمون أنفسهم لكي يطولوا .

غضب المفتش :

ـ ولاه ، ستقتل البشر لكي تطولهم يا سافل . لو أنك طولت نفسك في البداية . . مالك أنت وطول جنودنا ؟

هو يتكلم عن أمر ، وأنا أتكلم عن أمر آخر . .

ـ أنا لا أعرف أنهم جنود . . وهذا لا يتم بالحمية فقط يا سيدي المفتش ، لكي يطولوا يجب عليهم أن يمارسوا الرياضة أيضاً .

ـ وحركات رياضية أيضاً ها . . تطعم الناس شحوم محركات ، ثم تجعلهم يعملون حركات رياضية . وهل هذه الحركات تنفذ باستخدام الآلات ، أم بدونها ؟ هذا يعني أنك ستطولهم . . تمدد هنا لأنفذ لك حركات رياضية باستخدام الآلات قبل كل شيء .

لم أعرف حقيقة الأمر إلا في المحكمة . جاء في تقرير التحليل المخبري أنه تم تقديم خليط من البطاطا المهروسة ، والشحوم الحيوانية ، وشحوم الآلات بدلاً من سمن الطعام . سقطت من جديد على صفحات الجرائد : «انتحل المحتال صاحب السوابق باشازادة شخصية متعهد السمن ، وقدم للجيش أطناناً من شحوم السيارات على أنها سمن طعام» .

لاتظنوا أن عدم إخباري عن تاجر السمن شهامة . كان من الممكن أن اخبر عنه ، ولكن هذا لايفيدني بشيء ، ولايضره بشيء ، لأنني أنا المتعهد رسمياً .

لولا هذه اللعبة التي لعبها علي ذلك السافل تاجر السمن ، لكنت أعيش الآن في تلك المحافظة الشرقية أتاتوركياً مثل السادة والبشوات ، ولن يعرف أحد أنني محتال صاحب سوابق .

الطريق الوحيد

أثناء استماعي إلى ماضي باشازادة عن لسانه كنت أشعر بالدوار . أشعر كأنني أرتفع وأنخفض في البحر أثناء العاصفة ، أو ، أنني أتابع شلالاً ينصب ماؤه من ارتفاع شاهق . إنها حركة دائمة التغيير والحركة ، والتلون ، لكنها مؤلمة ، وبالرغم من ألمها هي مضحكة في أكثر الأحيان . . إذا كان كل هذا تلفيقاً ، فهل يستطيع الإنسان تلفيق كل هذه الأحداث المختلفة ؟ هذا لايهمني ولو كان تلفيقاً . .

قال لي في يوم ما :

ـ هل رغبتم في تغيير نهاية رواية قرأتموهاعند قراءتكم لها للمرة الثانية ؟ أو فيلم ؟ إذا كنتم تشاهدون فيلماً شاهدتموه من قبل ، ألا تقولون في داخلكم : « آه لوتغيرت نهايته » ؟ أتعرفون ماذا يعني هذا ؟ هذا أمل فيما لا أمل منه . على كل الأحوال ، من المعروف أن هذه النتيجة لن تتغير . لكنني بالرغم من هذا أريد أن يتغير ماهو أكيد ، وغير قابل للتغيير . . كثيراً ما حدث لي مثل هذا . فِلْمٌ أُعِدّ عن رواية ما . . أو فِلْمٌ أراه مرة ثانية . . أي ليس هنالك أمل في تغيير نهايته . . كم ألف مرة مُثِّلت مسرحية هاملت ؟ ،كم ألف مرة ستمثل في المستقبل ؟ نتيجتها لا تتغير... ولكنني أقول : آه لو لم تفقد صوابها أوفيليا ، ويقتل نفسه هاملت . أشعر هذا الشعور وأنا أقرأ التاريخ أيضاً . آه لوحدث وتغيَر ولو مرة واحدة ، ولم يقتل عثمان شاباً . . . تمنيت

هذا دائماً : ماذا يحدث لو صار ذلك المستحيل ، أو حدث بطريقة أخرى ؟...

تعلّق نظري بوجه باشازادة ، لأنني شعرت بهذا عدة مرات . . .

قال باشازادة :

ـ عندما كنت أحكي لكم ما جرى لي أشعر بهذا الشعور ، وبقوة . .

لم أفهم . . قلت :

ـ كيف ؟

ـ بداية الأحداث التي وقعت لي في الماضي ، كنهايتها معروفة ومعيشة ، ولم يعد بالإمكان تغيير هذه الأحداث . ولكن عندما أحكي لكم هذه الأحداث أشعر في داخلي برغبة قوية لتغيير نهايتها . كأن هذا ممكن . أو كأنني أستطيع تغييرها . . هل سيطر عليكم شعور كهذا من قبل ؟

قلت له الحقيقة :

ـ شعوري مختلف . . نهاية الفيلم الذي نتابعه... أي في تلك الصور المتحركة على الشاشة ، أو أولئك الممثلون على خشبة المسرح . . أتمنى لهم أن يثوروا ، ويقوموا بفعل مختلف ، ويمثلوا حسب إرادتهم ، ويغيروا النتيجة ، لكي ندهش نحن . . أي لتحدث المفاجأة...

كنا نشعر الشعور نفسه ولكن لهدفين مختلفين . وهو يريد أن يكون قد عاش ما عاشه ، أو يعيشه بشكل آخر ، كما يريد . مثلاً ، لبس بزة الباشا المفتش ، وألقي القبض عليه ، وفصل من المدرسة . عندما حكى لي هذه القصة أراد أن تتغير نهايتها لتغدو على النحو التالي : لبس ألبسة الباشا المفتش ، وقبض عليه متلبساً ، وعوقب عقوبة تأديبية ، لكنه لم يفصل من المدرسة ، وصفح عنه لأنه قام بتصرف طفولي .

إنه يريد تغيير النتائج السيئة لكل الأحداث التي عاشها .

لم يعد بالامكان عدم تصديقه بعد أن صرَّح لي عن شعوره هذا .

بقيتْ فترة قصيرة لموعد إخلاء سبيله ، وأنا سيخلى سبيلي بعده بشهرين .

ترك مهجع السادة منذ فترة طويلة ، وانتقل إلى مهجع آخر . لم يعد يرسل رسائل تثير شفقة هذا وذاك ، ويطلب منهم إرسال الألبسة لمساعدته . جمع بهذه الطريقة مبلغاً كبيراً من المال . هذه النقود تكفيه حتى موعد خروجه من السجن ، لكنه مازال يعطي فكرت الملخبط بعض الأشياء التي يدخرها لكي يبيعها .

سألته عما سيفعله عندما يخرج من السجن . تأوه ، وبعد أن صمت فترة قال :

ـ إن مكنت أريد أن أعيش بشخصيتي ، ولكن بهوية أخرى . . لم يعد بإمكاني أن أبقى باشازادة القديم!

ماذا يقصد بعبارة باشازادة القديم ؟ ضحك مرة أخرى مجعداً وجهه وكأنه يشكو من ألم في ضرسه وقال :

ـ لم أعد أستطيع القبض على العالم بيدي .

ـ ماذا كنتم ستفعلون لوقبضتم على العالم بيدكم ؟

ـ ليس هناك أجمل من هذا . ولكن يوجد ماهو أفضل منه... لم أعد قادراً أنا عجوز . . لعلني أقوم باحتيالات صغيرة جداً ، أو أعمال سافلة . . أو حتى سرقات صغيرة . . من أجل ملء معدتي ، وتدفئة نفسي ، أي من أجل أن أعيش .

اغرورقت عيناه . حاول الابتسام مرة أخرى فبدت كأنها الشمس تبدو في جو ماطر . .

عندما حكى لي عن مغامراته في مرحلة الشباب ، كان يبدأ الحديث دائماً بالتعبير عن رغبته بإرسال النقود إلى أبيه وأمه ، لكنه لم يستطع الإرسال نهائياً . عندما يتحدث عن مغامراته في فترة الكهولة لم يعد يذكر أباه وأمه ، وأنا لم أسأله . لقد علم بموت والديه لكنه لا يعرف شيئاً عن أخوته ، ويمكن أن يكونوا أمواتاً ، أو أنه قطع الأمل من إمكانية مساعدتهم .

لم يتزوج ولم يعش فترة مع إمرأة ولو كان هذا بدون عقد قران . كلما

عزم على تأسيس بيت يظهر أنه صاحب سوابق ولايستطيع إنهاء مابدأه .

لم يؤد خدمته العسكرية ، ولم يدفع للدولة قرشاً واحداً ضريبة .

كلما كان يقترب موعد إخلاء سبيله ، يبدو أنه أقل رغبة في الحديث عن ماضيه ، وأنا لا ألح عليه . لعله لا يوجد مايمكن أن يحكيه من قصص أخرى تحمل أهمية .

كان يوم زيارة . ودعت زائري وعدت . رأيت فكرت الملخبط في باحة السجن يحمل على كتفيه ألبسة قديمة للبيع ، وتتدلى عن ذراعه الأيسر بطانية باشازادة . عرفت البطانية : إنها غالية الثمن ، ذات وبر طويل ، مخططة بخطوط حمراء وصفراء وزرقاء متقاطعة . هذه البطانية من الأشياء التي أرسلت إلى باشازادة عبر رسائل إثارة الشفقة . فكرت الملخبط ينادي بصوته المخنوق وكأنه ينبعث من منفذ تصريف المياه في السفن :

ـ أخوتي الحرمية المنحوسين! أصدقائي النشالين! رفاقي المحتالين! أعواني قطاع الطرق ، ومزوري العملة ، وحملة المنشتر ، ولعيبة ثلاث الورقات الرصيفيين . . جاء فكرت الملخبط يا أعزائي . . يا أعزائي الليليين! يا صبياني المتكبرين . . يامدمنون ، وبائعو الأبيض . . ياحشاشون ومدخنون ، وضاربو أمورهم عرض الحائط . . يامستهترون . . ليسمع الجميع . . لئلا يقولوا فيما بعد ما سمعنا . . أنا عملت ماعلي . . أيها الأولاد والمهووسون بالأولاد . . يامن في كل أصبع من أصابعكم ألف مهارة ، وألف معرفة . . يافئران الفنادق والسيارات . . ياأخوتي الذين يحاولون بعص العالم ، فيظهر في النهاية أنهم المبعوصون .

انفعل فكرت الملخبط في ذلك اليوم . . عندما يجد عملاً مربحاً جداً ، ويحصل على الهيروئين ، ويملأ رأسه يتهيج هكذا . بقي ينادي حتى حرقت أصبعيه السيجارة التي يحملها...

ـ أين أنتم أيها القوادون . . يا من تسحبون النقود من الجيوب ، والكحل من العيون . . يامن تعملون كالنملة ولايُخدشون . . وتسيرون على

الثلج وأثراً لاتتركون . . الحاضر يعلم الغائب . . أتى فكرت الملخبط ولاه . . هل هناك من يريد بطانية كهذه . . بضاعة انكليزية صافية يا أخوان... الإنكليزي يكذب وأنا لا أكذب . . هذه بطانية باشازادة البقر . . من يريد بطانية كهذة ؟

لم يكن فكرت الملخبط يعلن اسم صاحب البضاعة التي يبيعها . لأنه لا أحد يريد فضح نفسه أنه يبيع أغراضه . لكنه الآن يصرخ بكل قوته بأن هذه بطانية باشازادة .

شككت في الأمر ، فسألته :

ـ أين باشازادة ؟

قال الملخبط :

ـ هو هووو . . طار باشازادة وذهب . . خليَّ سبيله .

هذا يعني أنني لم أسمع قائمة المخلى سبيلهم بسبب ضجيج مكان لقاء الزوار . مع أنني كنت أعرف أن باشازادة سيخلى سبيله في ذلك اليوم . قيل لي إنه بحث عني ليودعني . . لم يجدني . لايبقو على المخلي سبيلهم في السجن أبداً ، يطلقونهم بسرعة .

عندما لاحظ الملخبط حزني ، قال :

ـ لاتحزن لأنك لم تودعه . . سترى أن عجوز البقر هذا سيعود إلى هنا قبل خروجك . لعله قام بعملته فور خروجه من باب السجن ، وقبضوا عليه .

بعد شهرين أخلي سبيلي أيضاً . عالم السجن مختلف ، لايلتقي داخله مع خارجه نهائياً . . وكما قال باشازادة : الوعود المعطاة في السجن ، والصداقات التي تنشأ هناك سرعان ما تُنسى عندما يخرج الإنسان . وهذا ما جرى لي . رفعت ما كتبته في السجن في مكان ما من غرفة مكتبي . لم أفتحها ولم أستعرضها ولو لمرة واحدة...

بعد عدة شهور من خروجي ، رأيت باشازادة رئيسَ نادلي ذاك المطعم الساحلي في منطقة (بندك) . وقلّب معدتي بتلك الحكاية التي حكاها متفاخراً

كيف حضّر جوربه القديم طعاماً ، وقدمه للزبونة في الفندق . قرفت من الحادثة التي حكاها لي ، ومنه . غدا رجلاً منحلاً . غضبت من نفسي لقضاء كل هذا الوقت في السجن مع رجل كهذا . كيف أعطيت أيامي لهذا الرجل الذي لم أستطع تحمله الآن ، أثناء السجن ؟ إذ كنت أستمع إليه في النهار ، وأنهض من نومي ليلاً لأدون ماحكاه لي . لماذا ؟ هل لهذا قيمة ؟

هذا هو الفرق بين تقييم الشخص الحر ، وتقييم السجين . عالم السجن مختلف عن عالم الخارج ، وهكذا فالتقييم مختلف بين عالمين مختلفين . صرفت أيامي مع باشازادة من خلال تقييم عالم مختلف . لقاؤنا في ذلك المطعم الساحلي ، وشرحه لي عن إعداده ذلك الطعام المصنوع من جوربه ، جعلني أنفر منه ، ولعل حديثنا في المطعم هو سبب عدم إلقائي نظرة على الكتابات التي كتبتها في السجن .

نسيت باشازادة بسرعة . ولولا أنني قرأت عنوان مقالة في الجريدة لما كنت تذكرته نهائياً . مقالة طويلة . عنوانها : «باشازادة ملك المحتالين» . . بالتأكيد اهتممت بها . قرأت المقالة الطويلة الموقعة باسم :(غوسي أوظان صوي) ، ثم قصصتها من الجريدة . بحثت عن الكتابات التي كتبتها في السجن لكي أضع القصاصة معها ، فلم أجدها إلا بعد بحث طويل . .

* * *

باشازادة ملك المحتالين

ليُغفر عن مساوئهم التافهة ، فقد اقترنت أسماؤهم بالسوء ، ولكنهم في الحقيقة ليسوا كذلك . .

إنهم محمود صائم محتال الصحافة ، وخالد الأيوبلي صياد النساء ، وباشازادة ملك المحتالين... أنا أرى أن ذنبهم يكمن في دخول أسمائهم إلى ملفات الشرطة قبل سنوات طويلة . اشتهروا في وقت لايوجد فيه رجالات

تشتهر . .

محتالو الصحافة اليوم ، لو استطاعوا رؤية محمود صائم لجعلوه يقول استسلمت ، ولايمكن له أن يتخلص منهم قبل أن يدفع عشر ليرات ثمن الاشتراك . لو أراد خالد الأيوبلي بعث ذكرياته ، وعرج على منطقة (بيه أوغلو) ثم تطاول نحو (الشيشلي) ، ودخل عدداً من المقاهي ، ومر في أجواء الطبقة الراقية . . أنا واثق أنه سيخجل من ذيوع اسمه صيّاد نساء عبر كل هذه السنوات .

ماذا عن باشازادة ؟ ذاع صيته ملك المحتالين . . يقال ، لم يظهر محتال يفوقه . ولكن إذا استعرضنا حياة هذه الأيام نجد أنه بحاجة إلى ألف شاهد لكي يثبتوا أنه محتال .

مهما كان ، فالثلاثة رجال ظرفاء . خاصة أن الخدمة (!) التي قدموها لنا كبيرة جداً . في أكثر أيامنا مللاً يظهرون أمامنا بحادثة مسلية ، رحيلهم عن هذه الدنيا خسارة حقيقية لعمود الحوادث في الجرائد . . بدونهم لا طَعْمَ للعمل الصحافي في عمود الحوادث .

(هذه المقالة تظهر بوضوح سبب غضب باشازادة من الصحافيين ، وعدم حبه لهم . حتى إن كاتب هذه المقالة غوسي أوظان صوي ، بالرغم من تناوله لأصحاب السوابق المشاهير الثلاثة هؤلاء بحب ، لكنه يراهم أدوات مسلية لملء فراغ الجريدة عندما لا يكون هنالك مواضيع ، ولايراهم بشراً . هذا هو سبب تلفيق الجرائد للأخبار عن باشازادة ، يريدون نشر مايسلي ويجذب اهتمام القراء...

علمتُ من هذه المقالة أن باشازادة قد مات . لم أقرأ خبر موته قبل ذلك في الجرائد . لم أكن أفكر أبداً أن خبر موت باشازادة سيحزنني ويؤثر عليَ إلى هذا الحد . لم أفهم سبب كل هذا الحزن عليه . لم أحزن إلى هذا الحد حتى عند موت أقربائي) .

كان باشازادة ابن باشا حقيقي ، هو ابن عارف باشا . أو على الأصح

عرفته اسطنبول على مدى سنوات طويلة على أنه ابن باشا . حكى عن أولى مغامراته التي نشرت في مجلة أسبوعية توقفت الآن عن الصدور على النحو التالي :

« كنت شاباً مثل الجمل . كيف أرى الفتيات يترددن على قصر السلاطين في حي(كاغتهانة) ولا أتحرك ؟ . . عمري ثمانية عشر . . أميّل شرّابة طربوشي الأحمر إلى جنب ، ولا أتغابى إلى حد أنني لا أسير في تلك النواحي » .

هل يستطيع باشازادة أن يهدأ ؟ هل يكتفي بالمرأة الأولى والثروة الأولى ؟ كان يستمتع بمعرفة الناس ، ثم خداعهم ، ثم الفرجة عليهم . (لم يحك باشازادة عن نفسه بهذا الشكل . لم يرد في أي وقت ارتكاب جريمة ، أو الاحتيال على أحد . ولكن المجتمع أجبره ، ودفعه إلى الاحتيال) . كان يعرف سر فتح قلوب النساء ، وخداع البشر . لم يبق عمل لم يقم به ولو كان انتحالاً ، فقد عمل قاضياً ، وقائمقاماً ، وضابطاً ، وطبيباً ، ومهندساً ،ومتعهداً . . أثناء انتحاله شخصية القائمقام حبب الناس بنفسه ، وقام بخدمات كبيرة في تلك الناحية حتى إنه عندما حاول الهرب من هناك بحجة أنه انتقل إلى ناحية أخرى ، غضب الناس من الحكومة ، وأرسلو آلاف التوقيعات والرسائل إلى وزارة الداخلية لكي لاينتقل ، وهكذا عرفت الوزارة بوجود قائمقام مزور . عندما جُلِبَ باشازادة إلى اسطنبول موقوفاً بتهم أخرى سألته : طالما إنك وجدتَ عمل قائمقام ، فلماذا عزمت على تركه . قال إنه إضطر لهذا بسبب مجيء أمر تعيين القائمقام الحقيقي . حتى إن جرائد تلك الفترة كتبت : « آه لو أن كل قائمقام مثله ، حتى ولو كانوا منتحلين ، يعملون وينجحون » .

آه ياباشازادة... هل هذا رجل يستحق هذه الميتة ؟ اعتقدت أنه سيعيش في أيام شيخوخته هذه حياة تقاعدية مريحة ، وآمنة . من كان يظن أن جسد باشازادة سيوجد عند ميناء الزبالة مغموراً بالماء إلى وسطه ، ويؤخذ إلى

المشرحة ؟ . . إحدى الجرائد التي نشرت خبر موته قالت إن باشازادة منذ أكثر من نصف قرن هو من أصحاب السوابق ، وقضى أكثر من نصف هذه المدة في السجن ، وفي سجله ما ينوف عن ثمانمائة سابقة . هذه هي الحقيقة . عندما يتحدث باشازادة عن ذكرياته القديمة لا ينتهي من تعداد سوابقة . كل واحدة من هذه السوابق مغامرة مستقلة بذاتها ، وقد نشرت الصحف والمجلات في حينها هذه الذكريات .

أذكر جيداً أنني عندما التقيته للمرة الأولى كان قد قبض عليه بجرم صغير لايليق بشهرته لهذا فقد كان حزيناً جداً . أعلنَ في الجرائد : « مطلوب سائق شاحنة بمرتب ثلاثة آلاف ليرة شهرياً » وعندما وضع العنوان وضَعَ رقماً غير موجود في طابق من طوابق الأسواق التجارية . لنفترض أن أرقام هذا الطابق تنتهي عند الرقم ١٨ ، فكاتب باشازادة في الإعلان : « مراجعة البناء الفلاني ، الطابق الفلاني ، الرقم ١٩ ، ومن الساعة الفلانية حتى الساعة الفلانية »... ساعتان على الأكثر . هل ينتظر باشازادة ؟ باشازادة العظيم أينتظر رجلاً من الصباح إلى المساء ، حتى ولو كان سيحتال على هذا الرجل ؟ يذهب إلى هناك في ذلك الوقت ، وينتظر في ذلك الطابق من البناء . عندما يرى أحدهم ينظر إلى أرقام المكاتب يدرك أن صيده قد أتى . وهل من السهل كسب ثلاثة آلاف ليرة في ذلك الوقت ؟ سيُسلم الشخص شاحنة ضخمة . . من المفروض أن يدفع الشخص ألف ليرة على الأقل لكي يضمن العمل . ومن لايدفع ألف ليرة من أجل مرتب ثلاثة آلاف ليرة شهرياً ؟...

كان حزيناً جداً لنزوله إلى سوية عمل كهذا .

كنا في غرفة الصحفيين في مديرية الأمن . سأله الصحفيون عن سبب تنازله إلى هذا المبلغ من النقود ، بسخرية . حكى باشازادة براحة تامة : كانت الشرطة تلاحقه بجرم احتيال آخر ، وهو مضطر لترك اسطنبول والذهاب إلى مكان آخر . ولكن حظه عاثر ، إذ لم يكن معه نقود ، فلعب هذه اللعبة لكي يضع في جيبه عدة آلاف ليرة ، ويهرب من اسطنبول . كل يوم كان يأخذ

نقود اثنين أو ثلاثة أغبياء . عمل ثلاثة أيام ، وانطلق في طريقه . . كان يعمل مهندساً حيثما ذهب . يذهب إلى المحافظات النائية والمناطق الريفية ، وإذا كان لايوجد كهرباء في تلك المنطقة ، فيغدو مهندس كهرباء ، وإذا كان لايوجد مياه ، فيغدو مهندس مياه ، وإذا لم يوجد طريق ، يصير مهندس طرق ، وإذا كانت ستبنى الأبنية يصير مهندساً مدنياً . . . يقول : «سأجلب لكم النور!» . . «سأشق لكم الطرق . .» ويجمع النقود من أغنياء وتجار المنطقة . ويدعمه المحافظون ، ومديرو المناطق ، ويساعدونه على جمع النقود لكي تحظى مناطقهم بالكهرباء ، والماء ، والطرق . . يقول : لولا المصادفة لما قُبض عليه نهائياً . إعلان طلب السائق مدته ثلاثة أيام . ولكن لسبب لا يعرفه لم يرموا (كليشية) الإعلان ، فاستمر بالصدور كل يوم . عندئذ كان باشازادة يعمل مهندساً ، ولا علم له باستمرار صدور هذا الإعلان . كل هذه الأيام والإعلان ينشر ، ألم يوجد السائق المطلوب بعد ؟ لفت هذا الإعلان انتباه الشرطة . السائقون المحتال عليهم يراجعون الشرطة ، وتعرض عليهم صور المحتالين . وهكذا يعتقل المهندس المنتحل ، في منطقة ما ، أثناء وليمة أقامها على شرفه القائمقام .

بقي حتى أغمض عينيه على الحياة ضيفاً صادقاً دائماً للسجن ، وأحد سمات ممرات العدلية المألوفة ، وصديقاً للشرطة (!) وبالرغم من تجاوزه عمر العمل منذ فترة طويلة ، لم يستطع بأي شكل إحالة نفسه إلى التقاعد . كم مرة قال للصحفيين عندما يقابلهم في الشارع :

ـ تقاعدت!

ولكن لاتمر عدة أشهر حتى يظهر أمامنا بحادثة احتيال جديدة . أظن أنه من المناسب العودة إلى إحدى حوادثه في الفترة الأخيرة . أيصدق هذا ؟ قُبض على باشازادة بتهمة قراءة الأدعية والنفخ من أجل الشفاء . وكالأطباء المختصين ، اختصاص باشازادة في عقر النساء . حسب قوله ، إنه لم يقل لأحد في أي يوم أنه شيخ ينفخ ويشفي الآخرين . جرت الحادثة على النحو

التالي . هو مستأجر في أحد البيوت . المرأة التي في البيت راودت باشازادة عن نفسها قائلة إنها عاقر . ليس عند المرأة ولد بالرغم من مضي عشر سنوات على زواجها . ولكن أما حملت هذه المرأة التي كان يُظن أنها عاقر بعد علاقتها مع باشازادة ؟ لهذا قرر قطع علاقته مع المرأة . ولكن المرأة دعائية إلى حد أنها صارت تجلب في اليوم امرأتين أوثلاثاً من العاقرات ترسل المرأة التي حملت من باشازادة بقية النساء على أنه شيخ صاحب نَفَسٍ هو غاية في التأثير . الشيخ يقرأ وينفخ ، والنساء تحمل . بالطبع ، كيف ستشرح تلك المرأة حملها لبقية النساء ؟

يأتي إلى باشازادة كل يوم امرأتان أو ثلاث . . ويتوسلن إليه قائلات :

ـ دواء علتي عندك يا سيدي الشيخ .

يقول باشازادة للنساء إنه ليس شيخاً ، محاولاً دفعهن عنه ، ولكن أين يذهبن . . لأن الرجال يجدون أن العقم لا يليق بهم ، فيلقون بالتهمة دائماً على النساء . وماذا ستفعل النساء كي لا ينفصلن عن أزواجهن ، ولا تهدم بيوتهن العائلية السعيدة ؟ يقصدن باشازادة لكي يحملن . أي أنهن جعلن من باشازادة شيخاً ينفخ للنساء العاقرات بالقوة .

إذا كانت المرأة التي تريد أن تحمل قد أتت إلى باشازادة دون حلي أو زينة ، يقول لها :

ـ ياسيدة ، ياسيدة! إذهبي إلى بيتك ، والبسي كل ماعندك من أساور ، وخواتم ، وأقراط ، ومالديك من ذهب ومجوهرات وتعالي . .

ثم يشرح :

ـ سأقرأ وأنفخ ، وأستدعي ملك الجان لأزوجك منه لتحملي . يجب أن يعجب بك ملك الجان ليدخل عليك . هيا اذهبي إلى بيتك . والبسي ما لديك من ذهب ومجوهرات ، وتزيني جيداً ثم تعالي .

لاتعد الخلوة مع ملك الجان جريمة أو حراماً أو خيانة زوجية! لأن ملك الجان لايُرى ولايُلمس باليد ، ولايُعمل له شيء ، لكنه يستطيع جعل تلك

المرأة العاقر حاملة ، وهذه حكمة الله . . ومن أجل أن يدخل ملك الجان على النساء ، ويحملن منه ، ويعجب بهن ، ينصبغن ، ويتزيَّن ، ويتعطرن ، ويلبسن مالديهن من ذهب ومجوهرات ، ويدخلن .

يدخل باشازادة المرأة العاقر إلى غرفته . يرسم بالطباشير على أرض الغرفة الخشبية دائرةً ، ويقول للمرأة :

ـ ارمي في هذه الدائرة كل ما عليك من زينة ذهبية وفضة ومجوهرات!

المرأة لا تسأل عن السبب . كلهن يرتجفن بانفعال الخلوة مع ملك الجان . أمن السهل الخلوة مع ملك ، وأي ملك ؟ ملك الجان! . .

يُجلس المرأة على فراش خارج الدائرة ، ويبدأ القراءة . . ويقرأ ما يقرؤه . . بعد أن يقرأ كثيراً ، يحين موعد النفخ . .

ـ ارفعي ثوبك يا امرأة!

يقول هذا بقسوة لتتأثر المرأة وتخاف .

إذا ظهر أحياناً من يسأل عن السبب ، فيرد عليها قائلاً :

ـ يا امرأة ، إذا لم ننفخ كيف سيمسسك الدواء ؟ لوكان المرض في رأسك ، أنفخ عليه ، لو كان المرض في بطنك أنفخ على بطنك . . ولكن مرضك العقر ، فارفعي ثوبك بسرعة لأنفخ .

ينفخ . . يقرأ وينفخ . . ينفخ ويقرأ . . ثم يقول للمرأة :

ـ اغمضي عينيك يا امرأة! ملك الجان قادم!

تغمض المرأة عينيها لكي لاتخاف عندما يأتي ملك الجان . . نعم إنه ملك عظيم .

عندما ينتهي من عمله ، يقول :

ـ هيا بالعافية يا امرأة!

إذا حاولت المرأة أن تسأل عن المجوهرات التي وسط الدائرة ، يقول :

ـ لايمكن شفاء عقرك بنفخة واحدة ، عندما تأتين في المرة القادمة تأخذينها . .

ويصرف المرأة . .

الزوجات المحتال عليهن لا يستطعن إخبار أزواجهن لخوفهن . عندئذ سيعرف الأزواج أن زوجاتهم اختلين بملك الجان ، وأن الشيخ قرأ ونفخ عليهن ليحملن . . ملك الجان غير مهم ، ولكن قراءة الشيخ ونفخه أمر سيء . . عندما يسأل الأزواج عن المجوهرات ، ماذا تقول النسوة ؟ سرقت أوضاعت أو ما شابه ذلك .

هذا ما حكاه باشازادة للصحفيين . كتبت الصحف عن هذه الحادثة عدة أيام . . آه لو أنكم سمعتم هذه القصة من لسان باشازادة . . سال الدمع من عيون الحاضرين هناك لشدة ضحكهم . والشرطة أيضاً يضحكون بشدة . من الممكن ألا يحكي باشازادة عن هذه الأمور ، ولكن شرطيتين قبضتا عليه بالجرم المشهود .

عندما يسأل الأزواج زوجاتهم عن مجوهراتهن يقلن إنها سرقت ، وهم يشتكون للشرطة بأن اللصوص قد دخلوا بيتهم وسرقوا المجوهرات . ليست حادثةً واحدة أو أثنتين أو ثلاثاً أو خمساً ، أو عشر حوادث . . كثيراً ما تسرق المجوهرات من البيوت . ولا تجد الشرطة أي دليل ، لهذا شككت بالأمر . عندما ضغطوا على إحدى النسوة اللواتي فقدن حلّيهن ، باحت بالسر . إثر هذا كُلِّفت شرطيتان بالذهاب إلى بيت باشازادة من أجل القبض عليه متلبساً . إحداهما شابة ، والثانية متوسطة العمر . إدعت متوسطة العمر أنها حماة الشابة . المرأتان محملتان بالحلي من الرأس إلى القدم . عندما رأى باشازادة الحلي زاغت عيناه . قالت الحماة :

ـ أرجوك يا سيدنا الشيخ . إذا كان هنالك ماهو مقدر لنا فعلى يديك سيحدث . هذه عروسة ابني مثل الملاك ، ولكن ولدي سيطلقها لأنها لم تنجب له ولداً ، وسيَخربُ بيتاً .

لأن باشازادة وضع عينه على حلي الحماة أيضاً فقال :

ـ وأنت ؟ أنت شابة ماشاء الله ، ألا تريدين إنجاب ولدٍ ؟

عندما قالت المرأة :

ـ فاتني هذا الأمر .

بدأ حديثه قائلاً :

ـ لاااا . . ما الذي فوّته . . بإذن الله...

لكن الشرطية المنتحلة شخصية الحماة قالت :

ـ أولاً لنقضي حاجة عروس ابني هذه التي تشبه الوردة . .

ودفعت الشرطية الشابة إلى غرفة باشازادة . بقيت الأخرى في الخارج . سبب مجيء الشرطيتين معاً ، هو ضبط باشازادة بالجرم المشهود .

دخلت (الكنة) مع باشازادة إلى الغرفة . وبالقسوة التمثيلية نفسها قال باشازادة :

ـ يا امرأة! اخلعي ما عليك من حلي ذهبية وفضية مثل الأساور والأقراط والخواتم ، وارميها وسط الدائرة .

فعلت ما طلب منها .

ـ الآن تمددي هنا . . ارخي نفسك . . بعد قليل سيأتي ملك الجان . .

ويبدأ بأداء دور انه يقرأ . . يقرأ ، ويقرأ . .

ـ ارفعي ثوبك يا امرأة . . أكثر قليلاً ، سنقرأ وننفخ عليه .

الحماة تنتظر خلف الباب وفي يدها المسدس . يجب أن تدخل عليه في لحظة تضبطه بالجرم المشهود . لهذا فهي تنتظر اللحظة المناسبة خلف الباب .

عندما قال باشازادة :

ـ هيا يا امرأة . . ملك الجان قادم ، لاتجعليه ينتظر . . إنه لايستطيع الانتظار . .

طاااق . . فُتح الباب ، ودخلت المرأة الثانية حاملة المسدس . عند الباب الخارجي هنالك بعض رجال الشرطة ، قبضوا على باشازادة ، واقتادوه إلى مديرية الأمن . . اتصلوا من مديرية الأمن بالصحفيين . ونحن مراسلي أخبار الحوادث هرعنا إلى مديرية الأمن .

هذه بعض الصفحات من حياة باشازادة صاحب حياة خمسة وأربعين عاما وهو من أصحاب السوابق ، والتي فاق عددها الثمانمائة ، وجعل السجن مسكناً له على مدى عشرين عاماً...

* * *

علمت بموت باشازادة من المقالة الصحفية هذه . بعد أن قرأت المقالة ، تصفحت الجرائد المتراكمة عندي منذ عدة أيام ، فوجدت الجريدة التي نشرت خبر موت باشازادة . وُجِدَتْ جثته في منطقة (صماطيا) إلى جانب سور اسطنبول على ساحل البحر . رجلاه في الماء ، وجذعه على الحجارة . وُجِدَت هويته في جيبه . حملوه إلى المشرحة . وجدوا أن موته طبيعي . غير هذا تعرف إليه شخص في المشرحة ، وشهد أن هذه جثة المحتال صاحب السوابق باشازادة .

تغيرت أحاسيسي نحوه باستمرار منذ تعرفي به . بدا لي أحياناً شخصاً كريهاً ، و أحياناً صاحب سوابق وقح ، وأحياناً شخصاً متفسخاً ، وفي أحيان أخرى رأيته مسكيناً جرّه المجتمع ، وطرده خارجه ، وحسب تعبيره ، دفعه النظام الخَرِبُ خارج المجتمع ، غير هذا ، احترمته في بعض الأحيان لحديثه المتميز . .

لم أكن أعرف أنني سأحزن لموته إلى هذا الحد . حزنت كثيراً . علني حزنت بسبب موته دون تحقيقه حياة مستقرة بالرغم من كل ما بذل .

مرت الأيام ونسيت باشازادة . بعد مرور قرابة سنتين على هذا الأمر ، فوجئت بهذه القضية المدهشة جداً والتي لولاها لما تذكرت باشازادة نهائياً ، ولما بحثت عن الملف الذي وضعت فيه الأوراق التي كتبت فيها ما حكاه لي ، ولن أجده . ولكنني بعد أن عشت هذه الحادثة ، عدتُ إلى البيت ، وكان أول عمل لي بعد عودتي البحث عن الملف ، وتقليب صفحاته ، وقراءة ما كتبته في السجن حول باشازادة .

أرسلتني الجريدة التي أعمل فيها بمهمة إلى بعض النواحي الحدودية ،

سأتجول هناك ، وأعمل تحقيقاً حول المنافذ الحدودية ، وأكتب مشاهداتي . ولأن هذه الزيارة ستستمر طويلاً ، أخذت معي الكتب التي لم أجد فرصة لقراءتها منذ زمن طويل ، لكي أقرأها ليلاً . مقدمة أحد هذه الكتب ذكرتني فجأة بباشازادة ، بالرغم من مضي قرابة سنتين على قراءتي خبر موته في الجريدة .

كنت في غرفة فندق سيء جداً ، لأنه لايوجد أفضل منه في تلك البلدة . الكتاب الذي كنت أقرؤه بعد منتصف الليل هو كتاب مذكرات أمير ، رئيس حكومة إحدى دول شرق آسيا ، فهم الحقيقة عندما أُجبر على ترك بلاده . كتب مقدمة الترجمة الفرنسية أحد السياسيين الأوربيين المشاهير . هذه المقدمة هي التي ذكرتني بباشازادة بعد منتصف الليل في الفندق . كتب السياسي الشهير في مقدمته :

« ... ولكن كل هذا يتعلق بالماضي ، ماذا عن المستقبل ؟

في النهاية أعطى الامبرياليون أنفسهم ذلك الدرس المؤلم . إذا وضع الإمبرياليون في عقلهم فكرة السيطرة على دولة ، يتركون أمام ذلك الشعب طريقاً واحداً للتحرر . هذا الطريق هو طريق الكفاح المسلح . هذه نتيجة أساسية وصلت إليها كل ضحايا الامبريالية . الأمير المضطر لترك بلده ، وشعبه ، ونحن أيضاً وصلنا إلى نتيجة واحدة وهي : الطريق الوحيد هو الكفاح المسلح . . لقد دفعنا الإمبرياليون إلى هذا الطريق . .

على الشعوب التي تخوض حرباً صعبة وطويلة ، وباهظة الثمن من أجل حصولها على حق تقرير مصيرها ، وتحقيق الديمقراطية ، والسيادة الوطنية أن توحد جهودها عالمياً في مواجهة العدوان الامبريالي . لأن المعتدي يوحّد جهوده عالمياً أيضاً » .

تعبير « الطريق الوحيد » في هذه المقدمة ذكرني بحجة باشازادة « الطريق الوحيد » بعد أن مضى على نسياني له وقت طويل ، في فندق تلك الناحية الحدودية . في تلك المقدمة يتكلم الكاتب عن « الطريق الوحيد » الذي

تدفع الإمبريالية شعب الدولة التي تريد السيطرة عليها نحوه . الامبرياليون أنفسهم يدفعون ذلك الشعب ، وبالقوة إلى الكفاح المسلح ، الطريق الوحيد المتبقي أمامه . لأنهم أغلقوا كافة الطرق ولم يتركوا ،ا سوى ذلك الطريق مفتوحاً .

القضية معقدة جداً .

استيقظت متأخراً صباح اليوم التالي .

سألتُ كثيراً من الأشخاص : هل حدث أن التقيتم بشخص خطر ببالكم فجأة دون أية علاقة ؟ نعم ، حدث هذا عند الآخرين . في مكان ما ، وزمان ما ، فجأة نتذكر شخصاً لم يكن يخطر ببالنا نهائياً ، وبعد قليل نقابله . وهنالك من يفسر هذه الحادثة بالتخاطر . أنا لا أعرف سببها ولكن كثيراً ما تحدث .

في الصباح التالي لتذكري باشازادة من خلال علاقة « الطريق الوحيد » التعبير الذي قرأته في مقدمة ذلك الكتاب رأيته . نعم شيء لايصدق ، ولكنني رأيته . . كان أمامي . . في غرفة تساقط طلاء جدرانها الإسمنتي ، وتصدر أخشاب أرضها صريراً عندما يدوس عليها ، وتتساقط الأتربة من خلال أخشاب سقفها . هذه الغرفة في دائرة حكومية تابعة لتلك المحافظة . باشازادة منكبّ على طاولة خشبية مخلّعة يقرأ بعض الأوراق أمامه . سطح الطاولة المرفوع على أربع قوائم خشبية غير مشطوفة ، مليء بالملفات ورزم الأوراق . باب الغرفة مفتوح . بينما كنت أصعد الدرج قاصداً غرفة المدير رأيته من خلال نظرة عابرة من باب الغرفة الموارب . لقد مضى على موت باشازادة أكثر من سنتين . وبالتأكيد لايمكن أن يكون الشخص المدفون بالملفات ، والأوراق ، خلف الطاولة في غرفة دائرة حكومية هو باشازادة . ولكنه يشبهه إلى حدّ لم أستطع فيه منع نفسي من الدخول إلى الغرفة عبر الباب المفتوح . وقفت على مبعدة خطوتين منه ، وأمعنت النظر فيه ، لا أدري إن كان بسبب انهماكه في عمله ، أو لا مبالاته ، لم يرفع رأسه وينظر إليّ . ولكنه هو .

لايمكن أن يكون التشابه إلى هذا الحد . ناديته باسمه . رفع رأسه عن الأوراق ونظر إليّ . عندما رآني أمامه شعرت لحظة بخوفه . في عينيه شعور غير واضح بالدهشة ، لكنه استجمع نفسه بسرعة ، وقال ببرود :

ـ من تريدون ؟

أليس هو ؟ ولكن كل هذا التشابه... مستحيل!... من جهة أخرى ، فإن باشازادة قد مات ومضى على موته أكثر من سنتين . هذه هي ذقنه العريضة ، وفكه الذي لو قضم بواسطته الحديد لشعرت أنه سيقطعه . . وهاتان هما الدائرتان حول عينيه بلون العفن . . وبؤبؤ عينيه بحجم رأس الأبرة دائما الحركة . . وكتفاه بعظامهما العريضة . .

سألته عما إذا كان باشازادة

سأل بقسوة :

ـ باشازادة من ؟

عبارته هذه تحمل الرفض أكثر مما تحمل السؤال . أي أنه يرفض باشازاديته .

هنالك أكثر من التشابه في المظهر ، وهو الصوت . الصوت صوت باشازادة ، ونبرته . إنه باشازادة الذي يضغط على الحروف ويلفظها من مخارجها بصوت متناغم . . هو الذي قال لي في السجن إن صوته هذا يساعده على الاحتيال . لأن صوته وطريقة كلامه تمنح الثقة لمن يقابله . في الحقيقة إن صوته وطريقة كلامه تغطي القلق الذي تحدثه نظراته .

كيف يستطيع إنسان ميت أن يتكلم معي . تذكرت قوله في السجن إنه أكبر أخوته السبعة . إذاً لابد أن هذا أحد أخوة باشازادة .

هذه المرة سألته عما إذا كان أحد أخوة باشازادة ، ولكن دون استخدام اللقب ، وباستخدام الاسم الحقيقي .

قال :

ـ ما العلاقة ؟

فخرجت الحروف من بين أسنانه وكأنه يبصقها .

وإزاء سؤالي تراجع إلى الخلف ، وكأن قذراً سيسقط فوقه . .

بخوفه هذا عَبَّرَ عن شخصيته الحقيقية . لو لم يكن باشازادة لأجابني بلامبالاة : « لا » أو ممكن أن يقول : « إنكم تشبهونني بأحدهم » . ولكنه صرح قائلاً : « ما العلاقة ؟ » . هذا يعني أنه يعرف باشازادة فلايريد أن يظن به هو أو أحد أخوته .

ولكي يريني أنه لم يعط معنى لتوقفي بعد كل هذا أمامه ، فخلع نظارته ، ووضعها على الطاولة ، وصوّب نظره إلى وجهي ، وكأنه يريد أن يقول لي : « ماذا تريد بعد ذلك ؟ » ولكن لحظتئذ توضح إليّ كل شيء . الدليل هو النظارة . هذه النظارة التي على الطاولة هي تلك التي كان ينادي فكرت الملخبط من أجل بيعها أخوته الحرمية المنحوسين : « من يضع هذه النظارة لا يختلف عن مدير في دائرة حكومية . إنها تُرينا الميكروبات التي لاتُرى بالعين المجردة مثل الجِمال . . هذه النظارة ترينا الدنيا التي مثل الخراء جنة » . عرفت النظارة . . سمعت باشازادة يقول مرة إنه لا يستطيع عمل شيء دون هذه النظارة التي اعتاد على وضعها كثيراً . لهذا السبب فقد دفع عشرين ضعفاً ثمن بيعها لكي يستردها . هذا يعني أنه مازال يستعمل نظارته التي اعتادها .

مسكت النظارة الملقاة على الطاولة بإصبعيّ ، ونقرت بها عدة مرات على الطاولة ، ثم مددتها نحو وجهه ، وقلت :

ـ عرفتكم . انتم باشازادة .

قال بقسوة مرة أخرى :

ـ لا .

ولكنه سلَّم نفسه تماماً هذه المرة .

ـ كدت أظن أنكم أحد أخوتكم . .

خرجت من الغرفة . صعدت درجتين أو ثلاثاً . هرع من خلفي ، ومسك ذراعي ، وقال :

ـ لنتكلم . .

ـ حسنٌ . .

ـ متى ؟

واضح أنه مستعجل ، يريد التحدث فوراً . قلت له لدي موعد مع المدير ، فقال :

ـ لن تخبره ، أليس كذلك ؟

ـ أنا لا أعرفكم .

ـ أشكركم .

سألته :

ـ ما اسمكم ؟

ـ جمال آلطن طاش .

كان عقلي معه أثناء حديثي مع المدير . بالتأكيد لن أبوح بهوية باشازادة الذي يعمل باسم جمال آلطن طاش المزور إذا لم أضطر لذلك . هذا يعني أنه لم يمت . حتى موته كان مزوراً . مع أنني كم حزنت عندما قرأت تلك المقالة حول موته .

وفي مكان مناسب من الحديث ، أبديت اللامبالاة ، وسألت المدير عن الموظف الذي يعمل في الغرفة الصغيرة بجانب الدرج .

جعد المدير وجهه ، وكأنه وضع في فمه شيئاً حامضاً جداً ، ولايستطيع بلعه ، أو بصاقه ، وسأل :

ـ هل تصرف معكم بقلّة أدب ؟

ـ لا ، لا على العكس .

ـ معرفتكم أو قريبكم ؟

تكلم بقرف إلى حد أنه لو كان قريبي لما قلت هذا .

ـ لا . دفعني الفضول لمعرفته . . كثير الارتباط بعمله .

كأن المدير يبحث عن مدخل للحديث ووجده . تكلم مطولاً . قال إن

هذا الموظف يدعى جمال آلطن طاش يعمل هنا منذ سنتين تقريباً ، ليس مثبتاً في الوظيفة ، يعمل بالتعاقد ، وهو رجل كريه لا أحد يحبه . وعندما سألته عن السبب ، قال إنه يشك به . سألته عما يشك به ، فلم يقل شيئاً معيناً . قال إنه سيء جداً ، ولكن لم يذكر شيئاً من مساوئه .

مددت عملي بشكل خاص في تلك البلدة ، وأخّرتُ سفري . كل صباح أذهب إلى تلك الدائرة ، وأمد رأسي محيياً :

ـ مرحباً ياسيد جمال .

إذا كان باب الغرفة مغلقاً ، أفتحه وأسلم عليه ، وأذهب . أظن أن تصرفي المخرِّب للأعصاب هذا قد وجد تأثيره . صباح أحد الأيام ، بعد أن حييته ، وأثناء التفاتي للذهاب قال :

ـ ألا تتفضلون ، لنشرب القهوة ؟

شكرته ، ودخلت غرفته . جلست على الكرسي . أخرج من خزانة جانبية قديمة غلايةً وفناجين قهوة ، وسكراً ، وبناً ، وموقداً كحولياً بأسلوب يشبه أسلوب المساجين . حضّر القهوة على الموقد الكحولي .

همس قائلاً :

ـ شخصيتي ليست من تلك الشخصيات التي يمكن أن تنسى بسرعة . عرفتموني فوراً .

ـ كيف لا أعرفكم ؟ قضينا أشهراً معاً ، ليلاً ونهاراً .

ـ أتيت إلى هذه الأمكنة لكي لايتعرف أحد إلي . . إلى الحدود . . لم أتوقع أنني سألتقي بكم .

ـ وأنا أيضاً .

ـ سألتم المدير عني ، أليس كذلك ؟

ـ نعم ، ولكن لم أتكلم عنكم أبداً ، وحتى إنه لايعرف أنني أعرفكم .

ـ أشكركم ، أنا وثقت بكم مذ كنا في السجن .

تواعدنا على اللقاء في المطعم الذي يقدم المشروبات في البلدة مساء

يوم السبت .

مساء اليوم التالي ، عندما ذهبت إلى المطعم ، وجدت باشازادة جالساً إلى الطاولة ينتظرني وقد طلب المقبلات قبل مجيئي . رفعنا قدحينا ، قال :

ـ من كان يظن أننا سنرفع القدح سوية في أحد الأيام ، في هذه البلدة الحدودية ؟ . .

قلت :

ـ نعم .

كانت تُبَثُ من الإذاعة أغنية : « هناك احتمال واحد ، ماقولك إنه الموت ؟ » لولا أن باشازادة نادى النادل ، وطلب منه تغيير المحطة لما انتبهت إلى الأغنية . غيّر محطة الإذاعة .

قال :

ـ تتوتر أعصابي عندما أسمع هذه الأغنية .

قلت :

ـ وهل لها ذكرى سيئة عندكم ؟

ـ أية ذكرى ؟ حياة كاملة . . ما قلب حياتي كلها هو هذا « الاحتمال الواحد »

قلت إنني لم أفهم مقصده

ـ الاحتمالات كثيرة . . كثيرة جداً . . كثيرة إلى مالا نهاية . لايوجد في أي وقت « احتمال واحد » ، بل يوجد احتمالات عديدة لا تحصى . . فكروا بالصوت الذي يصوته الإنسان أثناء تحدثه عبر الهاتف : « إم » كم هي الاحتمالات التي يحمّلها معنى هذا الصوت . . فهو دليل سؤال . . وإشارة إلى الموافقة . . وتعبير عن الدهشة . . وللتعبير عن مخاوف ما . . وبمعنى فهمت ، وبمعنى التحذير . .

كان يلفظ « إم » في كل مرة مثل الحكواتي الذي يقلد شخصيات حكايته ، وهو يمثل التحدث بالهاتف ، ليعطيها هذه المعاني . . لعله لفظها

على مسمعي بأكثر من ثلاثين معنى .

ـ فكّروا إذا كان الصوت « إم » يعطينا كل هذه المعاني المختلفة في هذه الدنيا ، احسبوا أنتم احتمالات ،ومعاني جملة تتألف من تسع أو عشر كلمات حسب طريقة لفظها...

هاهو باشازادة يتكلم بطريقته الخاصة التي تجذبني .

ـ في كل احتمال أيضاً هنالك مئات وآلاف الاحتمالات . ويقال هنالك احتمال واحد هو الموت! شيء تافه! أنا عدو الأشياء الوحيدة ، وغير القابلة للاختيار ، وكل شيء لا أملك الحق باختياره ، مهما كان هذا الوحيد عظيماً... دائماً هنالك خداع واحتيال في الأشياء المفردة غير القابلة للاختيار .

كأن الذي يتكلم ليس ذلك المحتال صاحب السوابق .

ـ ماهي عملية تطبيق السعر الواحد باسم التنزيلات في المخازن التجارية ؟ من أجل إقناع الناس بترخيص الأسعار ، وتحقيق عملية طرح كمية أكبر من البضائع ، أليس كذلك ؟!

كان باشازادة دائماً يحكي لي في السجن عن إغلاق المجتمع لكل الطرق في وجهه ، وتركه طريقاً واحداً مفتوحاً أمامه ، واضطراره للذهاب من هذا الطريق الذي لا يريد الذهاب منه . الطريق الوحيد حجته في توجهه نحو الجريمة . لعل هذا الذي جعله يكره كل ماهو وحيد .

سيطر باشازادة على الحديث . كان ماحكاه كلاماً فارغاً . أنا أريد معرفة قضية الموت ، وكيف أظهر نفسه ميتاً . أنا أتوق لمعرفة الطريقة التي جعل فيها الصحافة تنشر تلك المقالات إثر موته ، لكنه يوجه الحديث حسب رغبته .

أفرطنا في الشرب . لم يبد عليه علائم السكر أثناء الحديث . واضح أنه متحمل للمشروب .

قطعتُ الحديث وسألته عن الطريقة التي غيّر أسمه فيها إلى جمال آلطن طاش .

ـ مصادفة . كم حكيت لكم عن المصادفات التي توجه حياتنا . . وعن تأخرنا دقيقتين إثر تعثرنا بحجر ؟

دائماً كان يتحدث عن احتمالات تتسع لحياتنا كلها في دقيقتين . .

ـ وماذا عن الاحتمالات التي تتسع لحياتنا كلها في دقيقتين ؟ خطر ببالي مرة أخرى رجائي المتذبذب . قال رجائي المتذبذب إن أكثر التزويرات نجاحاً ، تقليد الأدوية المسكنة للآلام الأكثر رواجاً في السوق . كانت بدايته هي تقليد هذه الأدوية وطرحها في الأسواق . يبحث عن البضاعة التي يُعمل لها دعاية أكثر ، ويقلدها ويطرحها في السوق . إذا كان هنالك إعلانات لشفرات حلاقة ، بسرعة قصوى ، يعمل تقليداً لها مستفيداً من الدعاية ، ويطرحها في السوق . إذا كان هنالك دعاية لسائل مبيض للغسيل ، يقلد زجاجة ولصاقة هذا المبيض . يقول رجائي إن أسلم التزوير هذا النوع منه ، لأن مؤسساتنا ليست متينة ، وكلها تعمل حسب مبدأ تحقيق ضربة سريعة ، وأصحابها مزورون كبار لما يوجد في أمريكا وأوربا . وهي فاسدة لعدم متانتها ، ولاتستطيع الدفاع عن نفسها .

في الحقيقة صحيح ماقاله رجائي . أنا لم أقدم على تزوير من هذا النوع . ولكن عقوبة صنع بضاعة تنتجها مؤسسة ما خفيفة جداً ويمكن القول إنه لايوجد عقاب على هذا الأمر . في تلك الأيام طرح في الأسواق تقليد لدواء مسكن للآلام حظي بشهرة واسعة في الأسواق . كان يذهب أحياناً إلى أنقرة لجمع النقود من بائعي الجملة . ذهبنا معاً إلى المطار لأودعه وأعود . أغلقت الأبواب المؤدية إلى ساحة المطار قبل عشر دقائق من موعد إقلاع الطائرة . لم يدعوا رجائي يصعد إلى الطائرة . غضب كثيراً ، وقلب المطار رأساً على عقب ، وعمل فوراً على تنظيم ضبط بأنه وصل قبل موعد إقلاع الطائرة بعشر دقائق ، ووقع على الضبط الشهود . قال إنه سيرفع دعوى على شركة الطيران ويطالبها بتعويض . وممكن أن يعمل هذا . أقلعت الطائرة وذهبت . ادعى المسؤولون في المطار أن رجائي لم يأت قبل موعد إقلاع الطائرة بعشر

دقائق ، بل بدقيقتين فقط . . دقيقتان أو عشر دقائق ، المهم لم يصعد رجائي إلى الطائرة . عدنا بالسيارة . اصطحبني إلى مكتب محام يعرفه . كان ينفث لهباً لغضبه . حكى للمحامي ماجرى معه . قال المحامي : من الممكن رفع دعوى للحصول على تعويض . بدأ الإجراءات فوراً . كتب استدعاء الدعوى . استخرج وكالة من عند الكاتب بالعدل . ارتاح رجائي المتذبذب . اصطحبني مع المحامي إلى أحد المطاعم . كانت تبث أخبار الظهيرة من الإذاعة . إثر أحد الأخبار التي نقلها المذيع سقطت الشوكة في صحن رجائي . أعاد المحامي إلى الطاولة كأس النبيذ الذي كان يرفعه الى شفتيه . أنا تجمدت . لم نتكلم فترة ، لعلها دقيقتان أو ثلاث ، لقد قرأ المذيع خبر سقوط الطائرة التي تأخر عنها رجائي دقيقتين ، أو حسب ادعائه أنها أقلعت قبل دقيقتين . طلب رجائي استدعاء الدعوى من المحامي . أخرجه المحامي من حقيبته وقدمه له . مزَّق رجائي الاستدعاء . نعم دقيقتان . . تأخير أوتقديم . . أنقذت حياة رجائي . سلم رجائي من حادثة الطائرة تلك ، ولكنه قتل نفسه فيما بعد . وهكذا يمكن للمصادفة أن تنقذ حياة ، أو تزيل أخرى . .

موتي أيضاً مصادفة . . هذه المصادفة أفادتني في تحقيق مخطط رسمته في مخيلتي منذ زمن طويل ولم يتحقق . قبل كل شيء لأشرح لكم مخططي . ماهو عملي ؟

أجاب عن سؤاله هو :

ـ الاحتيال . . يالحسن لقائنا في هذه البلدة الحدودية . لولم تتعرفوا إلي وتقولوا : « أنتم باشازادة » كنت سآتي من خلفكم ، وأقول لكم : « أما عرفتم باشازادة ؟ » مهما كنت ، ومهما كانت الشخصية التي انتحلها ومهما غيرت بنفسي ، فهمت أنني سأبقى باشازادة . . حتى لو متّ فلن أتخلص من باشازاديتي . مللت من العيش على مدى سنتين هنا باسم جمال آلطن طاش . أكاد أجن لعدم استطاعتي التحدث مع أحد باعتباري باشازادة . إنكم لاتستطيعون تقدير سعادتي لأنني أتحدث معكم الآن . . هاااا . كنت قد

سألتكم عن عملي . . عملي الاحتيال . أتعرفون أن قانون العقوبات التركي يحدد أخفض العقوبات للاحتيال ؟ لوسرقتم عشرة آلاف ليرة من شخص ، أو سلبتموه هذا المبلغ فإن العقوبة أكبر بكثير من أن تحتالوا عليه وتأخذونها منه . لأن الاحتيال يتم بالتبادل بين طرفين . كل من المحتال والمحتال عليه يريد الاحتيال على الآخر . في الحقيقة إن المحتال عليه مذنب بقدر المحتال . لأشرح لك هذا . محتال يحاول بيع قطعة أرض بمائة ألف ليرة بالرغم من أن قيمتها مليون ليرة . المحتال عليه يريد شراء قطعة الأرض التي يعرف أن قيمتها مليون ليرة بمائة ألف . أليس كذلك ؟ إن ملك المحتالين يستطيع تمرير تمثال رصاصي مغطس بماء الذهب على أنه من الذهب الخالص . إن الذي يشتري هذا التمثال بسعر رخيص جداً ، يشتريه على أنه من الذهب الخالص ، أي أنه يخدع البائع ، ويحتال عليه . إن كافة الاحتيالات تتم هكذا بالتبادل . لايوجد أي احتيال بدون طرفين يرتكبان ذنباً في آن واحد . المحتال الحقيقي هو الذي يتصرف وكأنه المخدوع ليحتال على الطرف الاخر . والمحتال عليه وقع في الاحتيال لأنه يريد الاحتيال على الآخر . في الحقيقة إن المحتال عليه هو شريك المحتال في الجرم . لهذا السبب فإن عقوبة المحتال خفيفة جداً . هذه القضية التي أعرضها عليكم باختصار شغلت تفكيري في الفترة الأخيرة . وفهمت أن أخطر أنواع الاحتيالات هو احتيال الشخص على نفسه . أنا أحتال على نفسي أكثر مما أحتال على الآخرين . كما قلت ، من أجل أن يتمّ الاحتيال هنالك ضرورة لوجود طرفين . وأنا أصبح طرفين في شخص واحد . أحدهما المحتال ، والثاني المحتال عليه . ولكي يحتال كل منا على الآخر لابد من وجود أداة الاحتيال . بفرض أن هذه الأداة هي العلاج المسكن للألم المزور ، أو شفرة الحلاقة المقلدة ، أو قطعة الرصاص المغطسة بماء الذهب... شهادة مزورة ، أو هوية مزورة . . أو بطاقة مسروقة لأحد المسؤولين .

أنا كيف أحتال على نفسي ؟ بخديعة الطريق الوحيد التي قضيت شهوراً

أحدثكم عنها في السجن . . لا ، لا لم أرد خداعكم . كنت مؤمناً بكذبة الطريق الوحيد هذه . الكذبة التي أوجدتها هي كذبتي... الناس يحتالون على أنفسهم بكذبة الطريق الوحيد هذه . تجد العاهرة حجة لاتجاهها هذا ، فتقول : « ماذا أفعل . ليس لدي حل آخر . سقطت في الطريق السيء » ولكن هل الحقيقة عدم وجود أي حل آخر ، أم أنها تقول ليس لدي حل آخر لتحتال على نفسها ؟ من الممكن أن تجدوا امرأة أخرى في وضع مماثل أو أكثر سوءاً لكنها لاتقول : « ليس لدي حل آخر » وتجد حلاً ، ولا تغدو عاهرة . . « ليس أمامي طريق آخر ، اضطررت إلى السرقة . . » ، « ماذا يمكنني أن أفعل ؟ . . ابني جائع ، وزوجتي مريضة . . » .

إذا قال الإنسان لايوجد أمامي طريق آخر ، أي إذا ربط كل الحلول بهذا الطريق الوحيد ، هذا يعني أنه بدأ بالاحتيال على نفسه . لهذا السبب يغدو الإنسان مهرباً ، أو قاتلاً ، أو لصاً . عندما نقول : « كانت كافة الطرق أمامي مغلقة ، ليس أمامي إلا طريق مفتوح واحد » بهذا نختار الطريق الأسهل . أو الذي نظنه الأسهل . ومن أجل الدخول في الطريق الأسهل نتجاهل كل الطرق الأخرى ، ونعتبرها غير موجوده . . وهذا هو سبب سقوطي في هذا الطريق . . فهمت متأخراً كثيراً أنني أحتال على نفسي طوال حياتي ، فوق هذا أظن أنني أحتال على الآخرين .

لم أشعر بمنطقية هذا الشرح الذي قدمه لي باشازادة . رؤيته هذه لاتناسب رؤاي نهائياً . فقلت :

ـ أي أنكم ترون أن المجتمع أو النظام الاجتماعي لايؤثر على سقوط الناس في الطرق السيئة ؟

ـ أممكن ألا يؤثر ؟ يؤثر بالتأكيد . . حتى إن تأثيره كبير جداً . لكننا نحن لسنا حجراً أو آلة . نحن بشر . عندما تتعطل الآلة تغير القطعة المعطلة ، وتركب مكانها واحدة جديدة فتعمل الآلة ، وإلا فالآلة لاتعمل . أي أنه هنالك أمام الآلة أحد احتمالين : إما تغيير القطعة المعطلة وإصلاحها فتعمل ، أو لا

تعمل . ولكن قضايا الإنسان لايمكن تخفيضها إلى سوية الآلة في وجود خيارين . الإنسان يواجه عدداً لا متناهيا من الخيارات . لهذا السبب فان قول : «لا حلاً آخر لدي» ، ولايوجد سوى ذلك الطريق مفتوحاً ، يعني تجاهل بقية الطرق الصعبة ، واختيار الطريق الأسهل . أي خداع الذات والاحتيال على النفس .

يقول باشازادة إنه ليس الأفراد فقط يخدعون أنفسهم بالطريق الوحيد ، بل المجتمعات والمؤسسات والحكومات أيضاً . وضرب مثالاً على هذا دخول الحكومة التركية الحرب العالمية الأولى .

ـ تفجير الحرب العالمية الثانية أيضاً نتيجة خداع غالبية الشعب الألماني نفسه ، لأنهم اعتقدوا أن الطريق الوحيد أمامهم هو الحرب .

عندما أدرك باشازادة أنه يحتال على نفسه ، كان الوقت قد فاته حسب قوله . عندما وصل إلى هذه النتيجة ، سيطرت عليه فكرة تغيير نفسه بشخص آخر . أراد أن يكون شخصاً آخر . ولن يحتال على نفسه بالطريق الوحيد ، لأنه أمام الإنسان عدد لا متناه من الطرق .

إن الظروف دائمة التغيير برأي باشازادة ، ولكل ظرف متغير طريق وحيد يناسبه . والإنسان حرٌ في اختياره الطريق الوحيد من بين الخيارات المطروحة أمامه . وباشازادة لفق الطريق الوحيد حجةً لتبرير لا مبالاته ، وخدع نفسه باستمرار حتى هذا العمر .

وجود خيار واحد أمام الناس في أي ظرف ، وفي أي موضوع يعني أن هؤلاء الناس ليسو أحراراً . وخيار الطريق الوحيد يعني خيار العبودية . ولا يرجح الخيارَ الوحيدَ إلا الناسُ الخوافون .

سألته :

ـ ممن ؟

ـ هنالك كثير جداً مما يُخاف منه . . نخاف من الحياة ، نخاف من أنفسنا ، نخاف من الصعب . نخاف من الآخرين . نخاف من تجريب الطرق

الأخرى . .

يقول باشازادة : إن الطريق الوحيد ، أي حجة الناس اللامبالين فخ ينصبه الناس لأنفسهم . عندما لايرى الإنسان أمامه إلا الطريق الوحيد ، يغدو الصيادَ والصيدَ ، المحتالَ ، والمحتالَ عليه ، هل الحقيقة عدم وجود خيار آخر أمام القائلين : «أمامنا طريق وحيد . لا أمل لي . .» ؟

ليس من أجل تعميق حديثه ، بل لأنني في الحقيقة لم أؤمن بأفكاره ، قلت :

ـ لكن الإنسان لايستطيع السير في طريقين بآن واحد . كل إنسان أمامه طريق وحيد يستطيع الذهاب منه .

يقول باشازادة : نعم ، ولكن المهم اختيار هذا الطريق الوحيد . الحرية هي اتخاذ القرار . اتخاذ القرار هو اختيار الطريق المناسب بين عدد لا متناه من الطرق . على الإنسان تحديد طريقه من بين عقدة الطرق ذات العدد اللامتناهي . فهم باشازادة أنه طوال حياته لم يستطع اختيار هذا الطريق . عندما وصل إلى هذا المفهوم سيطر عليه شعور إرادة تغيير نفسه بشخص آخر ، والعيش بهوية أخرى . وبهذا سيكون مثل المولود الجديد . لأنه عندما يعيش بهوية أخرى ، سيختار طريقه الوحيد من بين عقدة الطرق اللامتناهية العدد تلك ، ولن يحتال على نفسه . هذا خيال . . لكنه أسلم نفسه لهذا الخيال .

« كل الحقائق هي مجرد خيالات قبل أن تغدو حقائقَ » .

هو الذي قال هذا بكلمات أخرى ، ولكنه يقصد المعنى نفسه .

من هو المزور الحقيقي؟

لا أحد يرتكب جريمة دون سبب إن لم يكن مجنوناً أو مريضاً نفسياً . لم أر أحداً سرق أو احتال دون سبب . لهذا فأنا أرى أن رجائي المتذبذب مريض نفسي ، لأنه لو أراد لما ارتكب جريمة ، ولكنه لايستطيع العيش دون إجرام وهذا لاعتقاده أنه ذكي جداً ، يؤمن بإمكانيته على التملص مهما ارتكب من جرائم ، وبهذا يريد أن يثبت لنفسه تفوقاً عقلياً . ولاعتقاده هذا ، انتحر عندما قبض عليه لأول مرة ، لإدراكه أنه عاش أمام ذاته صغيراً ، وبشكل خاطئ .

وأنا أدركت أنني عشت بشكل خاطى ، ولكنني أدركت هذا متأخراً . . لهذا السبب أردت قتل نفسي . لكنه موت أريد به الماضي الذي عشته وأدركت خطأه ، في هذه المرة أردت العيش بشكل صحيح . هل استطعت أن أعبر لك ؟ أريد قتل باشازادة ، وبعد ذلك أعيش بشخصية أخرى غير باشازادة .

أعتقد أنكم لاتشاطرونني الرأي بأنه لا أحد يرتكب جريمة دون سبب ، لأنكم لم تقدموا على أي عمل مما تعده المجتمعات في أية مرحلة من مراحلها جريمة . . هنالك أمثلة كثيرة على هذا ، ولكن سأضرب لكم اثنين فقط أتذكرهما الآن : هنالك الكثير من المرتشين في مهجع السادة ، بينهم اثنان طيبان وشريفان إلى حد أنني دهشت لأنهما قبلا الرشوة . الاثنان فقيران

أيضاً . بصعوبة كبيرة يؤمِّنان حياتهما في السجن . هل يمكن أن يكون المرتشون فقراء ؟ مستحيل . ولكن هذين فقيران جداً . يجب ألا يقال هذا ، ولكنني كنت أساعدهما سراً . أحدهما مفتش مالية ، والثاني مدير جمارك . مفتش المالية من اسطنبول ، ومدير الجمارك من الشرق . .

مفتش المالية لايقول إنه مفترى عليه كأغلب المحكومين بالرشوة ، إنه يعترف بقبض الرشوة . لايحكي لأحد عما جرى له ، لكنه حكى لي : لأنه معروف في أوساط العمل بعدم أخذ الرشوة ، أو أصغر هدية . فكانوا يرسلونه من أجل التفتيش على السرقات المالية الكبرى ، والتهرب من دفع الضرائب . . أثناء فترة الحرب العالمية الثانية . . هنالك فقر ، وضيق . . خاصة الموظفين ، كانوا من أشد الناس معاناة .

تلقوا إخباراً عن تهرّب أحد التجار الكبار من الضرائب . تاجر مستورد ، ومعروف . . كلّفوا هذا المفتش بتدقيق دفاتره . أدخل التاجرُ الموظفَ إلى غرفة المكتب داخل محل عمله ، ووضع أمامه على الطاولة الكبيرة دفاتر المحاسبة ، وقال :

ـ تفضلوا ، راجعوها . .

أثناء مراجعته الدفاتر ، أي تدقيقه لها ، دار التاجر من حوله ، ودقق في المفتش . نظر إلى حذائه وجده مهترئاً ، ، وبدلته قديمة... سأله :

ـ هل تشربون الشاي ؟

ـ لا أشرب .

ـ قهوة ؟

ـ لا أشرب .

ـ مرطبات أو عصير فواكه ؟

ـ لا أشرب .

كلما كان يقول المفتش : « لا أشرب » يضحك التاجر بخبث .

جلس على مقعده .

على هذا الطرف من الطاولة الكبيرة يجلس المفتش ويدقق الدفاتر ، وفي الطرف الثاني ، مقابله يجلس التاجر . خلف التاجر خزنة كبيرة . . فتح التاجر الخزنة ، كانت ممتلئة حتى النهاية بالنقود . من الواضح أن التاجر قد جهز الخزنة قبل هذا ، وكأنه يعد فصلاً مسرحياً . أخرج رزم النقود ووضعها على المنضدة وبدأ يعد . . يعد قطع الخمسمائة ليرة ، ويلفها في رزمة ، وعندما تصبح الرزمة عشرة آلاف ليرة يضعها جانباً . كلما جهز رزمة يسأل المفتش :

- هل بيتكم ملك ؟

- لا ، مستأجر .

- آه ، آه . .

يبدأ عد النقود من جديد : ثمانية وأربعون ألفاً ، تسعة وأربعون ألفاً ، خمسون ألفاً . . وهذه أيضاً خمسون ألفاً . .

- هل عندكم أولاد ؟

- نعم .

- كم عددهم ؟

- أربعة .

- هل يدرسون ؟

- أحدهم في الجندية ، والثاني لا يدرس ، والبقية يدرسون .

- هاااا . . أنا لدي ولدان يدرس أحدهما في انكلترة ، والثاني في سويسرة .

يعد النقود : مائتان وثمانية وأربعون ألفاً ، مائتان وتسعة وأربعون ألفاً ، مائتان وخمسون ألفاً . . وهذه أيضاً ثلاثمائة ألف .

- كم تقبضون شهرياً ؟

- ثماني وسبعون ليرة وكسور .

- واخ ، واخ . . لابد أنكم تعانون كثيراً . أنا لا أدفع إلى صبيّي هنا أقل من مائتي ليرة في الشهر . للأسف إنهم لايعرفون قدركم .

يخرج مزيداً من الأوراق النقدية ، ويبدأ العد :

ـ ثلاثمائة وثمانية وأربعون ألفاً ، ثلاثمائة وتسعة وأربعون ألفاً ، ثلاثمائة وخمسون ألفاً . . أربعمائة ألف...

غضب المفتش :

ـ أرجوكم ، عدّوا النقود في مكان آخر . .

ـ لا تهتموا بي يا سيدي ، اعملوا عملكم براحة . . لاتنزعجوا ، أنا أعدها بهدوء .

بعد أن يعد النقود ، ويجعلها رزماً ، يضع الرزم أمام المفتش .

عندما كان يحكي لي المفتش هذه القصة ، قال :

ـ حاولت عدم الاهتمام بالرجل ، ولكن هل هذا بيدي ؟ أثناء تدقيقي للأرقام المدونة في الدفاتر ، انشغل ذهني . فجأة شعرت بحرقة في عيني ، وبأنهما طفحتا بالدموع ، وبارتجاف يدي الممسكة بالقلم . بدأت الأرقام في الدفتر ترتجف . الرجل لا يتوقف عن وضع النقود أمامي . أحد الأرقام التي دونتها بقلم الحبر انتشر على الورقة ، وصار الخط عريضاً لأن دمعة سقطت من عيني .

التاجر المستورد يعد النقود : أربعمائة وخمسة وخمسون ألفاً ، . . وستة وخمسون ألفاً ، . . وسبعة وخمسون ألفاً... والدموع تنهمر من عيني المفتش .

عندما حكى لي المفتش المسكين هذه الحادثة ، بكى مرة أخرى .

ـ الرجل يعرف أنني سأُهزم لأن نقوده أكثر بكثير من مقاومتي .

وهُزِمَ المفتش في النهاية .

ـ عندما كان يعدّ النقود في يدي ، كان يضحك بقذارة . شعرت أنه يهينني بهذه الإبتسامة أكثر من اهانتي لأخذي الرشوة .

بعد أخذه الرشوة الأولى ، استمرت الرشاوى . في النهاية قبض عليه . قل لي هل أخذ الرجل الرشوة بإرادته دون سبب ؟ من المذنب ؟ هل التاجر الذي

يدّعي الشرف ، أم قابض الرشوة الذي دخل إلى السجن ؟

أما مدير الجمارك القادم من إحدى محافظات الشرق ، فهو رجل شريف يندر وجود مثيل له . انتشرت الرشاوى في أحد المنافذ الجمركية ، وازدادت الشكاوى حول هذا الوضع ، وهذا ما أقلق الوزارة ، وجعلها تريد إيقافها . حسنٌ ، ولكن هل من السهل إيجاد مدير يستطيع منع الرشوة ؟ المهم ، بعد بحث ، واستفسار وجدوا هذا المدير . نقلوه إلى هذا المنفذ الجمركي ، ولم يترك لأحد من العناصر متنفساً ، ولم يدعهم يقبضون حتى القروش . كان لا يستطيع النوم حتى في الليل خشية أن يقبض الموظفون الرشوة عندئذ . لم يكن ينام أكثر من ساعتين أو ثلاث لأنه فور إغماض عينيه يبدأ الموظفون بقبض الرشوة . . وضعٌ في غاية السوء .

بدأ موظفو الجمارك يتوسلون لهذا المدير . . قالوا له «احترقنا» لأن الموظفين في هذا المنفذ الجمركي دفعوا ثمن نقلهم إليه ، واستأجروا المكان لستة أشهر أو سنة . أي أنهم استدانوا ، وتدبّروا أنفسهم ليدفعوا النقود ، وينتقلوا إلى هذا المكان طيلة المدة المتفق عليها . بعد هذا ينتقلون إلى مكان آخر . وفي هذه الفترة يضربون ضربتهم . . أقل موظف جمارك هناك يبني بناء ضخماً خلال عام . . لذلك ليس من السهل انتقال أو تعيين شخص هناك . . أصبح الموظفون هناك أعداء للمدير لأنهم لن يستطيعوا استرداد النقود التي دفعوها لكي ينتقلوا إلى هناك . أتعرفون ماذا فعلوا ؟ وضعوا في طعام وشراب مدير الجمارك مواداً مسهلة للمعدة . المدير المسكين دائماً في المرحاض . وهكذا يقبض الموظفون الرشاوى من المسافرين عندما يدخل مديرهم الى المرحاض . وهم كالمسافرين جاهزون لقبض ودفع الرشوة . لأن المسافرين أيضاً يحملون بضائع مهربة... في النهاية وجد هذا المدير أن جهوده لن تثمر ، ولن يستطيع التغلب على الفساد هناك ، فتركهم وشأنهم ، ولم يعد يهتم بالأمر . . عندما ترك الموظفين وشأنهم ، بدأوا يخصصون حصة لمديرهم . . انظروا كم هم أناس شرفاء ، لم يأكلوا حق مديرهم . في النهاية قبض عليهم .

والآن هل تستطيعون القول إن هذا المدير ارتكب الجريمة بإرادته دون سبب ؟ هل المدير مجرم بأخذ الرشوة ؟ وهل المسافرون الذين دفعوا ، أو أغمضوا أعينهم عن الدفع غير مجرمين ؟ بالنسبة إلي فإن جرم المفتش ومدير الجمارك ليس الرشوة ، بل جرمهم بقولهم : « ماذا سنفعل ؟ لاحل آخر أمامنا . . » .

أنا عندما اشتغلت مفتشاً للمالية . . نعم عملت مفتشاً للمالية ، ولمدة طويلة . . بالتأكيد انتحلت شخصية مفتش مالية . كنت أدخل إلى أمكنة دون تفريق بين صغير وكبير ، بدءاً من البقال والخياط وانتهاء بمكاتب الاستيراد والتصدير الكبرى ، وأطلب منهم دفاتر حساباتهم لأدققها . . ولأنه لا أحد منهم . . نعم لا أحد منهم يثق بدفتره ، أي أنه يعرف بوجود خلل في حساباته ، فلم يشك بي أحد . . كانوا يعطونني الرشوة دون أن أطلبها منهم . هنالك من لم يحاول دفع الرشوة ، عندئذ أطلب منهم ، أي ممن أدقق دفاترهم ، نقوداً باسم « قيمة الطابع » وهذه المبالغ دائماً ذات كسور لكي تصبح مقنعة . لم أطلب في أي وقت مبلغاً برقم عشرات أو خمسات . مثلاً ، سبعمائة وأربع وأربعون ليرة ، وخمسة وثلاثون قرشاً . هل أنا مذنب ، أم هم دفعو الرشوة تلقائياً بسبب التلاعب في دفاترهم ؟ لكنهم لم يدخلوا السجن ، أنا الذي سجنت . لولا تلك الحادثة غير المتوقعة لما عرفوا أنني مفتش مالية منتحل نهائياً .

بعد أن دققت دفاتر أحدهم ، وأخذت منه قيمة طابع مبلغ ستمائة وثمان وثلاثين ليرة وخمسة وعشرين قرشاً بفترة قصيرة على ما يبدو ، جاء إليه مفتش المالية الحقيقي . قال صاحب المحل إنه فتش وحتى إنه دفع قيمة الطابع . طلب المفتش الإيصال ، لايوجد إيصال . . .

حدث في عدة أمكنة ما يشبه هذا .

أحد أصحاب المخازن اصطحبني إلى أحد الكازينوهات لكي أتساهل معه . التقط مصور الكازينو صورة لنا ، حسب قوله من أجل الذكرى . . بعد أن جاء المفتش الحقيقي إلى صاحب المخزن للتفتيش ، وقال له صاحب

المخزن إنه دفع مبلغ كذا ، وكذا قرشاً قيمة طابع ، عَمّقوا التحقيق . قدم صاحب المخزن الصورة التي التقطت لنا في الكازينو ، وهكذا فهم أنني قمت بالعديد من الاحتيالات منتحلاً شخصية مفتش مالية . عندئذ نشروا إعلانا في الصحف ، وبجانبه صورتي الملتقطة في الكازينو :

«وزارة المالية

مفتش مزور

إن...... المسجل في دائرة نفوس...... المنشورة صورته جانباً عرّف بنفسه مفتشاً للمالية باسم فخر الدين تكين المستعار ، وثَبَتَ أنه احتال على العديد من الناس ، ونُقِلَ ملف القضية إلى مديرية أمن أنقرة . يرجى من المواطنين الانتباه لهذا الشخص ، وإخبار أقرب مركز أمني في حالة رؤيته ، أو التعرف إليه ليتم القبض عليه ، علماً أن صفاته : متوسط القامة ، عريض الجذع ، أسمر البشرة ، كث وأسود الحاجبين ، غليظ الذقن . شعره قوي وأسود » .

التعرف إليه... من يعرفني ؟ الشرطة . فوق هذا صورتي أيضاً منشورة .

مرة أخرى سقطت على ألسنة الجرائد : «تم القبض على باشازادة وهو يعمل مفتش مالية . احتال باشا زادة حتى على الخياطين والحلاقين »

سألت الشرطة في مديرية الأمن :

« حسنٌ ، أنا مزور ومحتال ، ولكن أليس رجال الأعمال الذين يعطونني الرشوة مزورين أيضاً ؟ »

أنا في الحقيقة لم أرد أن أقوم بالتزوير والاحتيال ، ولم أقم بهما بإرادتي ودون سبب . ولكن... عندما قلتُ لايوجد أمامي سوى طريق واحد . . ولاحل آخر ، فقد احتلت على نفسي قبل كل شيء .

قلت إن هذا مصادفة . . صحيح . . في يوم بارد مطير . نزلت من حافلة منطقة (صماطيا) أردت العبور إلى الطرف الآخر ، فجأة وجدت نفسي على الرصيف . ضربتني سيارة من خلفي وذهبت . في البداية خشيت من انكسار أحد أطرافي . نهضت ببطء . تفقدت نفسي ، فلم أجد شيئاً . . لكنني خفت

كثيراً . استندت إلى جدار مؤسسة السكك الحديدية لكي ارتاح ، وأنا هناك ، وإذا أحدهم ينادي :

ـ باشازادة...

نظرت ، وإذ بجمال الملقب (أونطة) يلبس حذاءً ممزقاً في ذلك الجو البارد . . وثيابه مهلهلة . اختلط شعره بلحيته . يرتجف من البرد .

مظهر جمال الأونطة هذا غير ملفت للانتباه . هو دائماً بهذه الهيئة . هو مدمن هيروئين من قديم ، ويعمل قوّاداً لكسب ثمن الهيروئين . أعرفه من السجن . صاحب سوابق منذ ثلاثين عاماً . قضى تسعة عشر عاماً منها في السجن . لم يمت طوال هذه الفترة بالرغم من تعاطيه الهيروئين . . لكنه أسوأ من الميت .

أنا لا أحب القوّادين عامة ، وخاصة متعاطي الهيروئين ، لكن جمال هذا مختلف ، أحبّه . حكى لي عن ماضيه ، لذلك أحببته . كان حذّاءً بارعاً ، ومعلماً في مهنته . عنده ورشة . مكسبه جيد . تزوج من امرأة جميلة . . أنجبا طفلين ، لكنه أدمن على الهيروئين . . الإنسان المدمن على الهيروئين ينتهي أمره . . ضاعت الورشة من يده . لم يعد يستطيع العمل في مهنته . بدأ بالسرقة . سرقات صغيرة . الأسوأ من هذا علّم زوجته الهيروئين . لأنه كان يحب زوجته ، وبسبب الهيروئين فقد ذكورته ، وخشي عليها من الذهاب إلى رجال آخرين . أدمنت المرأة على الهيروئين . عندما يدمن الإنسان على الهيروئين لايبقى لديه أي شعور بالقداسة لشيء . جاءه زمن باع فيه زوجته من أجل الحصول على لفتين من الهيروئين . بكى عندما حكى لي هذا في السجن . كانت زوجته تزوره في السجن ، وتنفق عليه .

عندما رأيت جمال الأونطة سألته بشكل عابر :

ـ كيف حالك ؟

صار يبكي دون أن ينبس . ألححت عليه ، قال إن زوجته ماتت ، ويعتبر نفسه مذنباً...

ـ أصبحت وحيداً ، وليس لي مكان أذهب إليه . . .

يريد ارتكاب جريمة ما لكي يدخل السجن ، ويقضي الشتاء هناك . أصبح السجن مأواه . فوق هذا يلقى بعض الاحترام من المحكومين الشباب لأنه من أصحاب السوابق القدماء . لكن السبب الحقيقي هو أن أمثاله يجدون الهيروئين في السجن بسهولة أكثر من إيجاده في الخارج .

ولأنني كنت أيامئذ أفكر باستمرار بتغيير نفسي ، والعيش بهوية أخرى ، نصحت جمال الأونطة باللغة التي يفهمها . سألني عما يمكن أن يفعله ، قلت :

ـ أستطيع جعلك تقلع عن الهيروئين . أدخلك المشفى .

يمكن له إذا بقي ستة أشهر في مشفى الأمراض النفسية أن يقلع عن الهيروئين . أمر صعب جداً ، ولكنه ليس مستحيلاً . . فجأة قال :

ـ حسنٌ...

عندما قال بشكل مفاجئ : « حسنٌ » فهمت أنه يكذب . لأنه يجب أن يقاوم هذا الأمر ولو قليلاً لكي يقبل ، ثم أضاف :

ـ غدا خذني إلى المشفى . ولكن دعني أملأ رأسي اليوم وأتعاطى الهيروئين للمرة الأخيرة . .

أدركت لعبته فوراً . إنه بدون هيروئين ، ويريد ثمنه مني ، ويريد أن يخدعني بقوله : « خذني إلى المشفى » ولكن تظاهرت بتصديقه ، لعله يصدق . سألته :

ـ أين سأجدك غداً ؟

مكان قريب . ذهبنا سوية . عبرنا سور المدينة ، ونزلنا إلى الساحل . أراني مغارة محفورة في السور ، فتحة المغارة مغطاة بستارة من الخيش . كأن هدير الموج ، وصفير الريح كله في جوف المغارة . من غير الممكن للإنسان أن يعيش هناك ، ولكن جمال الأونطة يعيش . عندما يشرب الهيروئين لايدرك نفسه . . أعطيته مبلغاً من المال ، قال :

ـ سأستنشق الهيروئين جيداً وأملأ رأسي . ستكون المرة الأخيرة . غداً خذني إلى المشفى . .

أنا أعرف أنه يكذب . وبالرغم من هذا ، ذهبت في اليوم التالي . احتمال . . احتمال ضعيف جداً . .

رفعت ستارة الخيش فلم أجد أحداً . . ناديته ، لاجواب . تلفتُ فيما حولي هناك فلم أجد أحداً . عندما التفت عائداً ، رأيت جمال الأونطة أسفل صخرة كبيرة بين المغارة والبحر ، مستنداً إلى الصخرة وينظر إلى البحر . ناديته . دفعته بقدمي بهدوء . . عندئذ انهار ساقطاً . جسست نبضه ، فوجدته متوقفاً . . مات . . . لابد أنه استنشق مزيداً من الهيروئين ، ومات بالتسمم الهيروئيني . . نعم احتمال . . ممكن أنه عزم على الدخول إلى المشفى . من يعلم هذا ؟

فجأة خطر ببالي أنني أريد تغيير نفسي والتحول إلى شخص آخر وأن الفرصة سنحت لي . فتشت جيوبه . وجدت هويته في الجيب الداخلي لسترته الممزقة : جمال آلطن طاش... أخذت هويته ووضعت مكانها هويتي .

كانت هذه تجربة . لن أفقد شيئاً إذا لم أنجح بها . من الممكن أن يدركوا أن هذه الجثة ليست لي . . لكنهم لم يدركوا . في اليوم التالي نشرت الجرائد أن جسد باشازادة صاحب السوابق منذ سنوات طويلة وُجِدَ في صماطيا مغموراً إلى وسطه بالماء . نقلوا الجثة إلى المشرحة . ذهبت إلى هناك أولاً ، ثم إلى الادعاء العام . ليعرفوني إن عرفوني . . لكنهم لم يعرفوني . لوكان هناك شرطة ، خاصة القدماء منهم لعرفوني بالتأكيد . . عرضوا عليّ جثة جمال الأونطة التي أخرجوها من بين العديد من الجثث . وشهدت قائلاً : «نعم ، هذه جثة المحتال صاحب السوابق المدعو باشازادة» . وقعت إفادتي في النيابة العامة . بأي اسم وقعت ؟ باسم جمال آلطن طاش . في ذلك اليوم نشرت المقالة التي ذكرتموها ، الموقعة باسم (غوس أوظان صوي) من أجل المرحوم باشازادة . . أتعرفون ماذا كتب طبيب

البلدية في تقريره عن سبب الوفاة ؟ كتب : سفالة فيزيولوجية...

وددت الخروج في جنازتي . أردت رؤية باشازادة وهو يدفن في التراب . في اليوم التالي عندما ذهبت إلى المشرحة ، قالوا إن جنازة باشازادة قد شيعت . لا أعرف كيف شيعت جنازتي وإلى أين ؟

وهكذا سيرفع ملف باشازادة المحتال ذي السوابق ، المزور الشهير . لم يعد في هذه الدنيا باشازادة صاحب السوابق .

لم أعد أستطيع البقاء في اسطنبول بعد هذه الحادثة . لأنه من الممكن أن يراني أحد رجال الشرطة القدماء ، فيعرفني .

فكروا ، لولا أن السيارة صدمتني أثناء عبوري الطريق ، واستندت إلى الجدار لكي أصحو ، لن أرى جمال الأونطة . المصادفة جعلت مني أنساناً آخر : جمال آلطن طاش . .

أريد أن أعيش في مكان بعيد . . بعيد جداً ، لاأُعرف فيه . لهذا السبب جئت إلى هذه المدينة الحدودية . مات باشازادة ، وهنا لايوجد من يعرف جمال آلطن طاش . أصبحت أستطيع العيش دون الاحتيال على نفسي . ولا أقول غُلِّقت كافة الطرق أمامي ولم يبق إلا طريقٌ واحدٌ مفتوحٌ أمامي . ولن أقول ماذا سأفعل ؟ نفد أملي .

وجدت عملاً صغيراً حيث رأيتموني . أنتم تعرفون أن من السهل جداً عليّ إيجاد عمل كهذا ، خاصة في أمكنة كهذه...

عندما مضى أسبوعان على مباشرتي العمل ، أي في نهاية اليوم الخامس عشر ، أتى موظف شاب إلى الغرفة التي أعمل فيها ، ووضع نقوداً . قلت :

ـ ماهذه ؟

أجابني ، وكأن الأمر طبيعي جداً :

ـ حصتكم . .

سألته :

ـ حصتي في ماذا ؟

ضحك الشاب . دفعت النقود نحوه وأضفت :

ـ لا أريد . .

مبلغ حصتي أكثر من راتبي الشهري .

أخذ الشاب النقود وخرج من الغرفة . بعد يومين أو ثلاثة طلبني المدير الذي سألتموه عني ، إلى غرفته . أجلسني . طلب لي الشاي . ظن أنني رددت النقود لأنني وجدتها قليلة . شرح لي أن الحصص لاتكون بالقدر نفسه دائماً . أحياناً تكون كثيرة ، وأحياناً تكون قليلة . هذه المرة ، هذا هو مقدارها . ولكن لا يغبن أحد هنا أبداً . القسمة عادلة تماماً ، وعليّ تصديق هذا . . .

كان المدير يحمي حقوق أمثالي ممن يعمل خلف الطاولة وليس لديه علاقات مع الناس ، وأمناء المستودعات . مقدار النقود المجموع يقسم حسب مقياس معين . ولولا الحصص لما استطاع أمناء المستودعات دفع إيجارات بيوتهم . وكل فترة يسألني :

ـ أليس كذلك ؟

ويأخذ موافقتي .

لم أتكلم بما يعاكس رؤى المدير . لم أقل ، لا أو نعم .

ومنذ سنتين تقريباً ، وأنا أعمل هنا ، وكل خمسة عشر يوماً يجلبون حصتي ، ويضعونها على الطاولة ، وأنا في كل مرة أدفعها عني ، ولا آخذها . . إنهم يشكون بي دائماً . . آه لو عرفوا شخصيتي القديمة... لا أستطيع أن أقول لهم إنني أعيش بهوية أخرى . .

حكوا لي بشكل مباشر : لايوجد هنا خطورة الوقوع في هذه العملية لأنهم يستعملون وسيطاً . شهدت عدة مرات كيفية أخذ النقود من المواطن . . رأيت العديد جداً من طرق أخذ النقود من المواطنين رشوة ، ولكنني لم أر مثل هذه الطريقة...

كنت في غرفة أمهرهم بهذه الطرق . في هذه الأثناء دخل مواطن إلى الغرفة . يريد الحصول على رخصة أو شهادة قيادة سيارة . . لهذا السبب يريد

توقيع الورقة التي بيده . سأله الموظف الذي سيوقع :

ـ على بعد كم متر تستطيع الرؤية ؟

دهش المواطن . ماذا سيفعل إذا سُئل فجأة ، وبغير مناسبة سؤالاً لا علاقة له بالأمر : « على بعد كم متر تستطيع الرؤية ؟ » ؟

قال المواطن :

ـ لم أفهم!

رفع الموظف صوته بقسوة :

ـ على بعد كم متر تستطيع الرؤية ؟

ـ مثل ماذا ؟

ـ أيوجد ماذا ، وغيره ؟ على بعد كم متر ترى عيناك ؟

قال المواطن :

ـ حسب الجو . عندما يكون ضبابياً أو ماطراً لاأرى عن بعد . .

سأله الموظف :

ـ وإذا كان الجو صحواً .

ـ لايعرف هذا . .

هذه المرة سأل الموظف الغضبان من جهل المواطن :

ـ كم طابقاً في البناء الذي تسكنه ؟ وفي أي طابق أنت ؟

غضب الموظف كثيراً صار يصدر صوت : « جق . . جق . . » عندما قال المواطن :

ـ لاأسكن في بناء طابقي . .

المواطن في الحقيقة قليل الفهم ، لم يستطع فهم طلب الموظف . .

ـ كم ولداً لديك ؟

ـ عندي وحيد . .

ـ كم عمره ؟

ـ لم يبلغ السنة .

كأن المواطن يعرف قصد الموظف ، وللعناد لايذكر أي رقم . مع أن المسكين لم يفهم شيئاً .

هذه المرة نقر الموظف على طاولته بيده ، وكأنه شعر بالملل ، عشر مرات ، ثم سأله :

ـ كيف ؟

ظن المواطن أنه يسأله عن ولده ، فقال :

ـ جيد ولله الشكر . .

كاد الموظف ينفجر من الضيق الذي أحس به أمام هذا الجهل . صار ينفخ . كأنه شعر بالحر كثيراً ، ففتح أصابعه الخمسة ، ومررها أمام وجهه أربع مرات ، وسأله :

ـ ماقولك بهذا ؟

ولأن المواطن المسكين لم يفهم طلب الرشوة ، فلم يدخل في المساومة ، وقال :

ـ ماذا أقول ؟ أنا لا أعرف .

قال الموظف :

ـ ياهذا أممكن ألا تعرف ؟ قل أنت أيضاً شيئاً .

قال الرجل ببلاهة :

ـ ماذا أقول يا سيدي ؟

ـ الله ، الله . . سيطققني ياناس . . كم دقيقة تستغرق في المسير من بيتك إلى السوق ؟

قال الرجل :

ـ حسب سرعة المشي . .إذا أسرعت أصل بسرعة ، وإذا أبطأت فأستغرق كثيراً .

إستشاط الموظف غضباً ، فصرخ :

ـ اذهب ، اذهب من هنا . . اغرب عن وجهي . .

سأل الرجل :

ـ والتوقيع ؟

عاد الأمل إلى الموظف ، فسأله قائلاً :

ـ في أية ساعة تستطيع المجيء غداً ؟

ـ ليس عندي ساعة ، سآتي في الوقت الذي تريد . . إذا قلت صباحاً ، سأتي في الصباح ، وإذا قلت مساءً سآتي في المساء .

أطلق الموظف صرخة لم يُفهم منها ما قاله ، لكن الرجل خرج من الباب . هرع الموظفون على صراخه من الغرف الأخرى . سقط الموظف على مقعده . في الحقيقة خربت أعصابه من شدة الغضب . أسبل يديه ، واصفرّ وجهه ، وكادت تزهق روحه .

قال لأصدقائه الذين شمّموه كلونيا الليمون ، وفركوا له يديه وصدغيه ، مشتكياً :

ـ أنا موظف منذ فترة طويلة ، ولكن لم أر في حياتي أقل منه فهماً ياناس . .

ثم صرخ وكأن الرجل أمامه :

ـ ولاه ، دب . . ألا يخرج على لسانك أي رقم ؟

هذا هو المكان الذي نعيش فيه ، وباختصار . . لوكنت باشازادة القديم يا لمايمكنني فعله . ولكنني هنا موظف متعاقد براتب شهري باسم جمال آلطن طاش . . أنا أعرف أنهم سيوقعونني في البلاء . لأنني هنا أخرب التناغم السائد . عندما جلب لي موظف آخر حصتي ولم آخذها ، نظر إلي وجهي بكره ، وقال :

ـ ماذا تريد أن تفعل أنت ؟

لم أنبس .

هز بأصبعه كأنه يهدد طفلاً ، وقال :

ـ ولكن هذا ليس حسناً لك .

يصرون على زجي في الجريمة لكي يؤمنوا أنفسهم .

لأقل بصراحة ، أنا أجدهم على حق . أنا أعرف أنهم يريدون توريطي في الجريمة . الأفضل أن أذهب إلى مكان آخر... وأنا أفكر بهذا .

أنا أخاف كثيراً من السقوط بيد الشرطة باسم جمال آلطن طاش ، لأنهم سيفهمون أن موتي أيضاً تزوير... ولعلهم سيكتبون في الجرائد : «بُعث باشازادة المزور» .

* * *

عدت إلى الفندق متأخراً جداً ، فوق هذا شربت كثيراً . لهذا السبب لم أكتب ما حكاه لي باشازادة في المطعم تلك الليلة . لم أصح تماماً في اليوم التالي أيضاً . ولكن في اليوم الذي بعده كتبت ما قاله حسب ما علق بذاكرتي . مما لاشك فيه أن ما كتبته لا يطابق تماماً ما قاله باشازادة . وبالتأكيد لم أكتب ما قاله بالكلمة ، ولكنني عملت على كتابة ما يقصد بكلامه دون تغيير أو تحريف .

لكي أكمل تحقيقي ، من المفروض أن أذهب إلى البلدات الحدودية الأخرى ، وأبحث هناك . انطلقت في طريقي دون أن أودع باشازادة ـ لم يعد الآن باشازادة بل جمال آلطن طاش ـ لكنني سأمر من هذه البلدة في طريق عودتي . وبعد أن أرى باشازادة سأذهب إلى اسطنبول .

استمرت رحلتي خمسة عشر يوماً آخر . أنجزت عملي . التقطت الصور اللازمة ، وجمعت الوثائق ، وكتبت ملاحظاتي . عدت مرة أخرى إلى تلك المدينة . كان الوقت مبكراً . موعد انطلاق الحافلة بعد الظهر . كنت قد قطعت التذكرة .

ذهبت إلى الدائرة التي يعمل فيها باشازادة . لم يكن باب غرفته موارباً . فتحت الباب دون أن أطرقه ودخلت كما المرة السابقة . قلت :

ـ مرحباً .

لم يخطر ببالي أبداً أن باشازادة ليس هناك . كان خلف الطاولة رجل آخر .

دهشت . سألته :

ـ أين السيد جمال ؟

تردد قليلاً ، ثم قال :

ـ ذهب...

لم أسأله إلى أين ذهب . لأنه ظهر على الرجل أنه قلق لسؤالي عنه .

ذهبت إلى المدير . قلت له إنني أتيت لكي أودعه . أثناء الحديث سألته عن السيد جمال الذي كان في الغرفة السفلية . قطّب المدير وجهه كما فعل عندما سألته للمرة الأولى ، وقال :

ـ فهمنا أنه سيرتكب حماقة .

في البداية ظننت أن باشازاديته ظهرت . لكن المدير قال : قبض عليه متلبساً بالرشوة . لا أدري لماذا صرخت فجأة :

ـ مستحيل .

هذا يعني أنني صدقت ما قاله عندما تقابلنا في الليلة الأخيرة .

قال المدير لقد تم تحديد أرقام الأوراق النقدية التي أخذها رشوة ، وقبض عليه متلبساً أمام الشهود . سيق إلى النيابة ، ثم اعتقل واقتيد إلى السجن .

تذكرت كلمته : «أخاف من الذهاب مرة أخرى الى السجن» .

هل أخذ رشوة في الحقيقة ؟ أي هل دفعه المجتمع مرة أخرى إلى ارتكاب جريمة ؟ هل أقنع نفسه بأنه لم يعد لديه أمل ؟

أم ماذا ؟ أم أنه قاوم لعدم الدخول في ذلك الطريق ، وسقط في فخ الذين يخافون منه ؟

لم يكن لدي الوقت الكافي لزيارته في السجن .

بعد مرور كل هذا الوقت أستطيع الآن قول الحقيقة صراحة . لم أرغب من

كل قلبي بزيارة باشازادة في السجن ، لأنه كان بإمكاني تخصيص الوقت لذلك .

عدت إلى بيتي . عندما كنت أضع الملاحظات التي دونتها عما حكاه لي في مطعم تلك البلدة الحدودية مع بقية الملاحظات ، أي مادونته عنه في السجن ، استعرضت للمرة الأخيرة ما كتبته عنه ، لا أدري لماذا قطع باشازادة حديثه من منتصفه ، او أنا قطعته . . حديثه الذي لم يكمله هو :

« قال باشازادة رداً على سؤالي : لا أستطيع نشر مذكراتي الحقيقية . إذا نشرتها ؟... إذا نشرت مذكراتي فإن كثيراً من الأشخاص الذين يظهرون أنهم شرفاء... » .

هنا توقفت عن الكتابة .

كأنني لم أكمل الجملة عن قصد ، كما لم تكتمل حياة باشازادة .

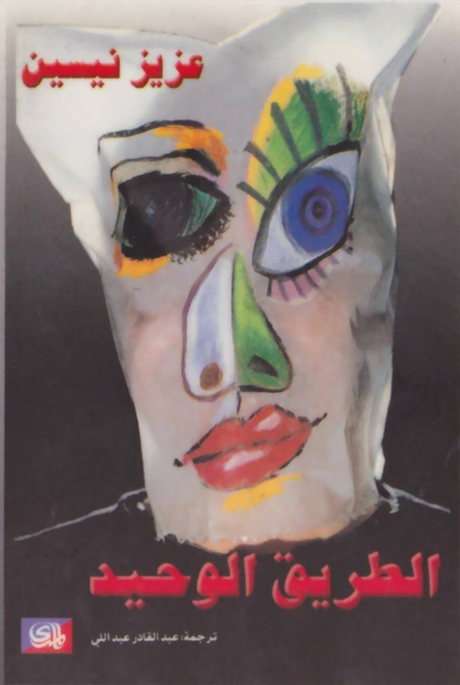
في الحقيقة إن كل حياة تنتهي بعمل لم يكتمل ، وقول لم يُقل . لأن الموت ليس نقطة في نهاية كلام ، بل هو قطع في وسطه . لم يقل باشازادة عبارته الأخيرة .

لا أعرف نهاية باشازادة . لكن ما أعرفه أنه سيترك خلفه كلاماً لم تنقط نقطة نهايته ، أو قطع من وسطه .

وفي نهاية كتابتي عنه لي كلام لم تنقط نهايته :

« ... كثير من الأشخاص الذين يظهرون أنهم شرفاء »

كل إنسان يترك وراءه كلاماً لم ينته .



تعرفت ببطل هذه الرواية عام ١٩٥١ في سجن (باشا قبصي). كان محتالاً ذا سوابق؛ عمره ينوف على خمسين سنة. لن أقول إنني حكيت عن هذا الرجل بالضبط. حتى إن الرجل الذي حكيت عنه هو ليس ذاك أبداً. ولكن باشازادة المحتال صاحب السوابق الذي تعرفت إليه في السجن شكّل لي المصدر الحي لاستلهام شخصية باشازادة الذي أحكي عنه في الرواية.

وكأكثر المحتالين كان باشازادة حكاء ماهراً. وكأكثر المحتالين أيضاً يحكي وقائع ملفقة كأنها وقعت له في الحقيقة. وما يلقى الإعجاب الشديد مما يحكيه، يعمل عليه بالتكرار والتفنن بالروي. وبالإضافة والتغيير كما يعمل الكاتب على مسودة عمله ليخرج في النهاية بعد عمل طويل بشكله النهائي. ولكثرة مايكرر أكثر حكاياته تأثيراً، يُصدِّق ما لفقه هو من كذب. ولأنه يصدق هو أولاً ما يحكيه من تلفيقات كاذبة فتصبح هذه الحكايات مقنعة ومؤثرة، ويجعل السامع أيضاً مصدقاً لها. كما يعتبر الشرط الأساسي للكاتب الجيد أن يقنع القارئ بأن ما رواه حقيقة...

... لم يكن باشازادة عندما يحكي عما وقع له من بلاوي مثل الآخرين يبرر لنفسه قائلاً: «ما الذي يطلع بيدي... المكتوب على الجبين لازم تراه العين...». إنه ابتدع مبرراً أنجح من أجل إسكات ضميره عند ارتكابه ذنباً ما:

- بقي طريق واحد: الاحتيال.
- لم يبق لدي أمل. كنت مضطراً للاحتيال..
- كانت كافة الطرق مغلقة في وجهي، بقي أمامي طريق واحد.

لهذا السبب سميت هذه الرواية «الطريق الوحيد»، وأردت كتابة رواية «الذين لا حيلة لهم» أو «من يظنون أن لا حيلة لهم».

ISBN => 2-84305-037-5
EAN => 9782843050374